الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩هـ/١٢٥٠-١٢٧٠ م)

رسالة أُعدَّت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد
الطالب خالد حسين الدكيفي
إشراف
الأستاذة الدكتورة وفاء تامرجوني

دمشق ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " .

صدق الله العظيم

(سورة النمل :الآية ١٩)

الإهداء

إلى

والديَّ الكريمين..................................

إخوتي وأخواتي الأعزاء ....

عمي أبو أحمد تغمده الله بواسع رحمته وعائلته الكريمة .

زوجتي وابنيَّ (علي وحسين)..........................

أصدقائي الأحباء......................................

أبناء العروبة والإسلام أمل هذه الأمة..................

خالد

بطاقة شكر وتقدير

عميق الشكر والامتنان والتقدير والعرفان إلى الأستاذة الدكتورة وفاء جوني التي علمتني معنى الطموح ، وكانت صلة الوصل بيني وبين النجاح ، ولم تبخل عليَّ بوقتها الثمين ، وتوجيهاتها السديدة وآرائها الحكيمة ، فخطت لي السبيل المستقيم في ميادين العلم والمعرفة .

خالد

الاختصارات (رموز الأطروحة)

ج = جزء

د . م = دون مكان طباعة

د . ت = دون تاريخ

هـ = هجري

ط = طبعة

م = ميلادي

مج = مجلد

ص = صفحة

ق = قسم

تح = تحقيق

تر = ترجمة

" " = علامتي تنصيص

فهرس المحتويات

المقدمة.

إن الحروب الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على المشرق العربي الإسلامي ، لم تكن سوى حروب استعمارية ، تسربلت برداء الدين زوراً وبهتاناً ، فما إن هُزمت الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة في معركة مناذ كرد (ملاذ كرد) سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م حتى أطلقت صرخات الاستغاثة ، فسارع البابا أوربان الثاني في إرسال الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، وقد استطاعت تأسيس الكيان الصليبي على الساحل الشامي بحد السيف ،فهب أبناء العروبة والإسلام لمواجهة التحديات ، وأنزل بهم عماد الدين زنكي ضربةً قاصمة عندما استعاد منهم إمارة الرها ، فهز ذلك الحدث كيان أوربا ، وهذا ماجعلها تسارع في إرسال الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٧م،ولكنها أخفقت أمام أسوار دمشق ، وتطلبت المسألة مزيداً من الحزم ، فبدأ نور الدين زنكي بتوحيد بلاد الشام ومصر تمهيداً لخوض المعركة الحاسمة ، لكن لم يمهله القدر ،وهنا حمل صلاح الدين راية الجهاد، وأنزل بالصليبيين هزيمةً نكراء في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، واستعاد بيت المقدس من أيديهم .

حشيت أوربا من سقوط الكيان الصليبي،فأرسلت الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م التي أخفقت أمام وحدة المسلمين ، ثم قدمت الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م ، ودمرت الإمبراطورية البيزنطية ، وتلاها الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م ، التي قصدت مصر مركز الثقل الإسلامي ، لكن القوات المصرية ـــ الشامية أغرقتها في نهر النيل ، ثم قاد الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ، وحقق نصراً مؤزراً عندما استولى على بيت المقدس دون ضربة سيفٍ واحدة ، وذلك بسبب تواطؤ السلطان الأيوبي الكامل محمد معه ، ثم مالبث الصليبيون أن دخلوا دوامة الحروب الأهلية التي عُرفت بالحروب الإبلينية ، مما أدى لتدمير قوتهم في الوقت الذي تعاون فيه السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب مع الخوارزمية ، بينما تحالف ملك دمشق الصالح إسماعيل مع الصليبيين ، والتقى الطرفان في معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤م ، ففرَّ الصالح إسماعيل وجيشه، بينما هُزم الجيش الصليبي هزيمةً نكراء ، فتعالت الأصوات الصليبية مطالبةً بالنجدات الأوربية في الوقت الذي كانت فيه الصراعات على أشدها بين البابا أنوسنت الرابع والإمبراطور الألماني فردريك الثاني الطامع بأملاك البابوية

في إيطاليا ، فكان الشغل الشاغل للبابا وضع حدٍ لتمادي فردريك الثاني، ولم تكن أوربة مستعدة لارسال حملة صليبية آنذاك باستثناء فرنسا التي سادها الهدوء والاستقرار في عهد ملكها لويس التاسع، فجردت فرنسا حملةً صليبيةً ، وقذفت بإعصارٍ جديد تمثل بالحملة الصليبيـــية السابعة التي تزعمها لويس التاسع ، وقد أقلعت الحملة من فرنسا سنة ٦٤٦هـــ/ ١٢٤٨م ، على متن أسطولٍ ضخمٍ تشق عباب البحر ، ووصلت إلى قبرص ، فهرع الصليبيـــيون للانضمام إليها ،ثم أجمعوا على مهاجمة مصر مركز الثقل الإسلامي ، ومفتاح بيت المقدس ،وقد واتاهم الحظ في البداية ، فاستولوا على دمياط ، وغدت مقراً جديداً للكيان الصليبـــي، وفي تلك اللحظات الحرجة فارق السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الحياة ، فاستغل الصليبـــيون حالة الهلع التي أصابت مصر ، وظنوا أن حكومةً تقودها امرأة من السهل الاستيلاء عليها ، فاندفعوا نحو القاهرة ، فانبرى المسلمون لقتالهم ، ووجهوا لهم ضربات موجعة في المنصورة وفارسكور ، فاختتمت الحملة صفحة عدوالها بنهايةٍ مفجعةٍ ، وتحطم ذلك الجيش الضخم حيث ابتلعته مصر ونيلها ، وتبعثر جنودها ما بين أسيرٍ وقتيلٍ وجريحٍ ، وقد افتدوا أنفسهم بالأموال ،وأُطلق سراح لويس التاسع وكبار رجال حملته ، ثم قصدوا مملكة عكا يجرون ذيول الهزيمة ، وبذلك نقل لويس التاسع مسرح الأحداث من مصر إلى بلاد الشام ، أو بالأحرى من دمياط ومشارفها إلى عكا وما يجاورها حيث استخدم لويس التاسع الدبلوماسية حيناً والمكر أحياناً ،ولم يدخر جهداً لتفتيت وحدة المسلمين أملاً بإطالة عمر الكيان الصليبـــي رغماً عن المسلمين .

ونظراً لأهمية هذه الحقبة تم اختيار هذا البحث (لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبـــي من معركة المنصورة حتى وفاته سنة (٦٤٨ -٦٦٩هـــ/١٢٥٠-١٢٧٠م) موضوعاً لأطروحة الدكتوراه حيث تميزت هذه الحقبة الزمنية من تاريخ بلاد الشام ومصر بتطوراتٍ سريعةٍ ، وأحداثٍ مثيرة ، وعلى الرغم من أن تلك الحقبة كانت صغيرةً بمقياسها الزمني لكنها كانت كبيرةً بإنجازاقما ، فقد تصدى المسلمون للحملة الصليبيـــية ، ودمروها ، مما ولّد ردة فعل لدى لويس التاسع الذي لم يستسلم للهزائم التي حلت بحملته الصليبيـــة بل قرر تحويل الهزيمة إلى نصر ، من خلال وضعه إستراتيجية جديدة للنهوض بالكيان الصليبـــي ، فأنهى الخلافات الصليبيـــة ، وأقام العلاقات الدبلوماسية ، وأنجز تحصينات قوية تميزت بقدرات دفاعية هائلة ، وتجاوز كل المشاكل البشرية والمالية التي اعترضت سبيله ، وأراد أن يجعل من الكيان الصليبـــي قلعةً صامدةً بوجه المسلمين ، كما حاك المؤامرات للنيل من المسلمين ، فحقق خلال مدة زمنية وجيزة ما لم يستطع أسلافه تحقيقه خلال عشرات السنين .

وقد جاءت معظم الدراسات حول هذه الحقبة الزمنية قاصرةً في أبحاثها ، ومحدودةً في تحليلاتها ، لأن معظم المؤرخين ركزوا على الانتصارات التي حققها المسلمون على الحملة الصليبية السابعة في مصر ، بينما مروا مروراً عابراً على الأحداث التي أعقبتها في بلاد الشام علماً أن المؤامرات التي حاكها لويس التاسع في مملكة عكا إثر تحطيم حملته كانت أشد خطورةً على المسلمين من الهجوم العسكري الذي شنه على مصر ، أما حملته الثانية على تونس سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م ، فيمكن تسميتها بالحملة المنسية لأن المؤرخين لم يعطوها أية أهمية ، واكتفوا بالإشارة إليها إشارةً غامضةً ، وهذه المرحلة المهمة من تاريخ الحروب الصليبية بحاجةٍ ماسةٍ لتناولها بالبحث والاستقصاء ، ومما يشجع على البحث فيها توفر الكثير من المصادر التي تغطي أحداث تلك الحقبة الزمنية .

تكمن أهمية البحث في ذكاء لويس التاسع الذي لم يستسلم بعد إبادة معظم رجال حملته ، وأسر البقية منهم ، فسعى جاهداً بدهائه لتحويل الهزيمة إلى نصر، حيث نهض بالمملكة اللاتينية التي أوشكت على الانهيار، واستطاع بحنكته لمَّ شمل الصليبيين، وتوحيد كلمتهم كما بحث عن عملاء لمساندته ، فحالف كل ما هو عدو للمسلمين، ولم يكتف بذلك بل أشاع التفرقة بين صفوف المسلمين ، وما أشبه اليوم بالأمس ، فقد كان لويس التاسع بالأمس قد تآمر مع المغول والأرمن للسيطرة على مصر وبلاد الشام ، أما اليوم فهناك مؤامرات و تحديات أوربية - أمريكية - صهيونية تستهدفت الاستيلاء على الوطن العربي من محيطه إلى خليجه ، فالمؤامرات لا ولم تنته ، فهم لم يدعوا وسيلةً ، ولم يتركوا سبيلاً من أجل تفتيت وحدة الأمة العربية وزعزعة قوتها ، وما برحوا يجاهدون أية عملية وحدوية بعد أن أدركوا استحالة القضاء عليها عسكرياً ، فاستغلوا الخلافات الناشبة وعملوا على تقويتها لإضعاف القوى العربية والاستيلاء عليها ، وهنا يتوجب على أبناء العروبة والإسلام العودة إلى التاريخ لينهلوا من دروسه وعبره بل لابد من اللقاء والتضامن ، ونبذ الخلافات جانباً للحفاظ على حقوق الأمة العربية والإسلامية ،ويأخذ الوطن العربي دوره الريادي الذي أخذه في الماضي ، ويبقى عزيزاً شامخاً ، وحراً أبياً.

ومما يشجع على البحث في هذا الموضوع الرغبة في إماطة اللثام عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هزيمة الصليبيين في معركة المنصورة على الرغم من العدد الهائل لجنود الحملة الصليبية السابعة ، والمثير للانتباه بقاء لويس التاسع في مملكة عكا ، وعدم عودته إلى فرنسة إثر إطلاق سراحه على الرغم من تدمير حملته الصليبية في مصر ، ولكن في الحقيقة كانت هناك دوافع كثيرة أدت لبقائه حيث أنشأ علاقات دبلوماسية مع دول الجوار ، وقام بدورٍ متميزٍ جداً من أجل النهوض بالمملكة اللاتينية ، فحقق لها إنجازات عظيمة ، وقام بإصلاحات واسعة فجعل منها قوة لا يستهان بها ، ولم يكتف بذلك بل قام

بنشاط كبير في المنطقة ، وأوجد شرخاً كبيراً بين المماليك والأيوبيين ، وتدخلت الخلافة العباسية آنذاك وأنهت النـــزاع الأيوبي – المملوكي ، وهنا تلاشت أحلام لويس التاسع ، وعلى الرغم من ذلك لم ييأس ، فبقي النشاط الصليبـــي يراود خياله ، فحوّل اتجاه الحروب الصليبـــية نحو تونس ، ولأول مرة في تاريخ الحروب الصليبـــية.

هذا وتناول البحث دراسة أعمال لويس التاسع من معركة المنصورة حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩هـ /١٢٥٠-١٢٧٠ م) حيث تم تسليط الضوء على نشاط لويس التاسع في مملكة عكا وعلاقته مع الأيوبيين والمماليك ، ثم حملته على تونس سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م ، وقد تم الاعتماد على منهج الطريقة التحليلية من خلال الشرح والتعليل والتفسير والتوضيح ، وكذلك الطريقة الوصفية حيث تم استخدام لغة فصحى سهلة ، وواضحة على أن لا يكون ذلك على حساب الحقائق التاريخية .

أما عن الصعوبات التي اعترضت سبيل البحث ، فبعون الله تعالى لم تكن هناك صعوبات تستحق الذكر ، ومن المؤكد أن الرغبة الجامحة في البحث ، واستقصاء أحداث تلك المرحلة الزمنية أدت لتخطي الصعاب بالاستعانة بالله عز وجل عليها ، والصبر والعمل الدءوب ؛ لأن هذا هو الحل الوحيد لتخطي الصعاب.

هذا وخطة العمل بدأت بمقدمة تضمنت أسباب اختيار البحث وأهميته ، وتحديده زمنياً ومكانياً ، ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث ، ومدى الإفادة منها ، تلا ذلك تمهيد تضمن الأوضاع العامة للمشرق العربي الإسلامي ، وكذلك الأوضاع التي سادت أوربا آنذاك ، ثم أسباب قيام الحملة الصليبـــية السابعة وإبحارها نحو المشرق ، وقد تم تقسيم البحث إلى ستة فصول وهي على الشكل التالي :

- الفصل الأول : هزيمة الصليبـــيين في المنصورة ودور لويس التاسع في تقوية الوجود الصليبـــي .

تضمن هذا الفصل وصف أحداث معركة المنصورة والهزائم التي حلت بالصليبـــيين ووقوعهم بالأسر ، والمفاوضات التي جرت بينهم وبين المسلمين ، وبالتالي إطلاق سراح لـــويس التاســـع وكبـــار رجال حملته ، ومن ثم غدره بالمسلمين ، وذهابه إلى مملكة عكا بدلاً من عودته إلى فرنسة لعله يثأر من المسلمين ، ثم تم الانتقال للإشارة لعلاقة لويس التاسع مع مسيحيي الشرق مثل بُوهِمِنْدُ الســـادس أمـــير

أنطاكية وكونت طرابلس حيث كان مرتبطاً بشكل اسمي بمملكة عكا ، فاستطاع لويس التاسع إنهــاء النــزاع القديم بين أنطاكية وأرمينية الصغرى ،كما حاول إنهاء النــزاع المذهبي في قبرص بين الكاثوليك والأرثوذكس فضلاً عن محاولته التوفيق بين اللاتين والبيزنطيين في الإمبراطورية اللاتينية ، ثم تناول البحث علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل ، ومراسلات لويس التاسع مع المغول ، ومســاعيه لإيجــاد تحــالف صليبــي ــ مغولي من أجل الإطباق على المسلمين من جهتي الشرق والغرب ، والقضاء عليهم .

- أماالفصل الثاني فحمل العنوان : أعمال لويس التاسع الإدارية وإصلاحاته الداخلية في مملكة عكا.

تناول هذا الفصل علاقة لويس التاسع مع المنظمات العسكرية الصليبيــة (الاسبتارية – الداوية – التيوتون – اللعازر) ، التي امتازت بالطاعة العمياء للويس التاسع عندما رأت رغبته الصادقة في الإصلاح ، وامتاز لويس التاسع بذكاء خارق لعدم اصطدامه مع الجمهوريات الإيطالية في مملكة عكا على الرغم من أطماعها الكبيرة في جمع الأموال ، لعلمه أنه من الصعب الاستغناء عن خدماتها ، ثم تم استعراض الإصلاحات التي قام بها لويس التاسع في مجالي التسليح والتحصين حيث أنتج نماذج من الاستحكامات العسكرية تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، وأعقب ذلك دراسة عن مشاكل لويس التاسع البشرية ، وكيفية تأمين الجنود ، وكذلك تأمين الأموال لأن الإصلاحات التي قام بها تطلبت مبالغ مالية كبيرة حصل عليها من خلال تطوير الاقتصاد الصليبــي من زراعة وصناعة وتجارة فضلاً عن حصوله على مساعدات خارجية أدت إلى تجاوز مشاكله المالية ، وبذلك حقق لويس التاسع خلال أربع سنوات إصلاحات كبيرة للصليبيين لم يحققها غيره من الملوك الصليبــيين الذين سبقوه خلال عشرات السنين .

- وأما الفصل الثالث فحمل عنوان : علاقة لويس التاسع مع المماليك .

أُفرد هذا الفصل لدراسة علاقة لويس التاسع مع المماليك ، وهنا لابد من الإشارة إلى نهاية الحكم الأيوبي في مصر ، والتركيز على الأسباب التي كانت وراء مقتل توران شاه ، ونشوء السلطنة المملوكية ، فكانت شجر الدر أول سلطانة مملوكية بل وأول امرأة استلمت حكم مصر في العصر الإسلامي ، ثم تمت مناقشة بنود الاتفاقية التي عُقدت بين لويس التاسع والمماليك سنة ٦٤٨هــ /١٢٥٠م ، ومدى التزام الطرفين ببنود الاتفاقية ، وجرى الانتقال للحديث عن السفارات المتبادلة بين لويس التاسع والمماليك ، وتهديد لويس التاسع للمماليك بمحالفة الأيوبيين إن لم يستجيبوا لمطالبه ، كما أن لويس

التاسع قام بدور خَفِي أدى لتأجيج نار العداء بين الأيوبيين والمماليك ، مما أدى لجر الأيوبيين والمماليك لمعركة العباسة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م ، فكانت معركة مصيرية أدت لتثبيت أقدام السلطنة المملوكية ، وتلا ذلك توقيع اتفاق سنة ٦٥٠هـ /١٢٥٢م بين المعز أيبك و لويس التاسع حيث تقرر من خلال هذا الاتفاق إعداد هجوم مشترك بين الحليفين المعز أيبك و لويس التاسع ضد الأيوبيين في بلاد الشام واقتسام بلاد الشام بينهما، ولكن انشغال أيبك بأوضاع مصر الداخلية ، وتدخل الخلافة العباسية جعله غير قادر على الوفاء بوعده للويس التاسع ، مما أغضب لويس التاسع الذي أراد مهاجمة المواقع المملوكية في بلاد الشام ، ولكن المنظمات العسكرية الصليبية حذرته من مغبة الأمر والوقوع بين ناريّ الأيوبيين والمماليك .

- الفصل الرابع : علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين .

خُصص هذا الفصل للعلاقة الأيوبية مع لويس التاسع من خلال البحث في موقف الأيوبيين من مقتل سلطانهم توران شاه ، وإعلانهم العداء الصريح للمماليك ، وبالتالي التقاء مصالح الناصر يوسف الثاني مع لويس التاسع ، ومحاولته إيهام الناصر يوسف الثاني بمحالفته ضد المماليك ، واستغلال لويس التاسع النزاع بين المسلمين ، من أجل زيادة حدة التوتر بين الأيوبيين والمماليك لتحقيق مآربه ، ثم جرى الانتقال لدراسة موقف أوربا من إنقاذ لويس التاسع مع التركيز على موقف فرنسا حيث انتظر لويس التاسع عبثاً قدوم حملة صليبية جديدة لإنقاذه ، فاعتمد على إمكانات الكيان الصليبي، فضلاً عن محاولته إذكاء نار العداء بين المسلمين ، فما كان من الخلافة العباسية إلا أن سعت لإنهاء النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، وبالتالي انعكاس ذلك الصلح سلباً على لويس التاسع حيث أعقبه هجمات أيوبية على المعاقل الصليبية ، وهذا ما أدى لإعلان لويس التاسع الحرب على الأيوبيين ، وإرساله قوة عسكرية هاجمت بانياس وقلعة الصبيبة ، ثم تم استنتاج الأسباب التي أدت إلى هزيمة الصليبيين في الصبيبة ، ثم جرى تناول عودة لويس التاسع وتركه مملكة عكا إثر وفاة والدته بلانشيه ، وبقاء فرنسا دون قيادة واعية قادرة على إدارتها ،وتلا ذلك استخلاص نتائج حملة لويس التاسع التي استمرت ما يقارب ست سنوات ، وأخيراً رحل لويس التاسع إلى فرنسا وحزن الصليبيون على فراقه بينما ساد فرنسا البهجة والسرور بعودة ملكها لويس التاسع .

- الفصل الخامس : أوضاع بلاد الشام ومصر إثر رحيل لويس التاسع سنة ٦٥٢هـ /١٢٥٤م .

أما هذا الفصل فقد خُصص للأوضاع التي سادت بلاد الشام ومصر بما في ذلك أوضاع المسلمين والصليبيين ودخول الصليبيين دوامة حرب القديس سابا إثر مغادرة لويس التاسع إلى فرنسا ، وعدم ظهور شخصية قوية كشخصية لويس التاسع تستطيع سد ذلك الفراغ الذي.تركه رحيل لويس التاسع ، وانقسامهم إلى حلفين ، واندلاع الحرب الأهلية في المملكة اللاتينية ، حيث قادتهم أطماعهم إلى حروب طاحنة أدت لتخريب معظم ما بناه لويس التاسع ، ثم تم تناول التنافس بين الأيوبيين والمماليك بعد زوال الخطر الذي كان قد شكله لويس التاسع ، واستعداد المماليك والأيوبيين للمواجهة ، وهنا الخلافة العباسية كعادتها فقد أنهت النـزاع بينهما ، ثم تلا ذلك الانتقال لمعرفة أوضاع لويس التاسع في فرنسا واهتمامه بإصلاح أوضاع فرنسا الداخلية ، وتحسين علاقة فرنسا مع دول الجوار ، وامتداد النفوذ الفرنسي إلى الصقليتين بعد استلام شارل كونت آنجو لعرش الصقليتين ، ثم تطلع لويس التاسع إلى شمال افريقية .

- الفصل السادس: حملة لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ/١٢٧٠ م .

تطرق هذا الفصل للحملة الصليبية على تونس بدأً من إعداد الحملة الصليبية الثامنة التي أرادت إنقاذ الكيان الصليبي من هجمات المسلمين ، ومحاولة لويس التاسع استنهاض الهمم ، فكانت غالبية أفراد الحملة من الفرنسيين باستثناء ثلة قليلة من الانكليز لحقت بالحملة ، ثم جرى تناول أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية ، وتلاه استعراض مسير الحملة الصليبية ، وموقف المسلمين من قدومها بشكلٍ عام وتونس بشكلٍ خاص ،وتم التركيز على سقوط قرطاجة والأسباب التي أدت إلى سيطرة الصليبيين عليها ، ومداهمة الوباء للمعسكر الصليبي ، وإصابة لويس التاسع بالمرض ، وبالتالي وفاة ابنه يُوحَنا الحزين والكثير من كبار رجال حملته بالوباء ، ومفارقة لويس التاسع الحياة ، ثم تم الانتقال للحديث عن النجدات الجديدة التي تزعمها شارل آنجو و ادوَارْ بن هِنريْ الثالث ، وميل المسلمين والصليبيين للصلح ، وتمت مناقشة الأسباب التي أدت للصلح ، وتلا ذلك رحيل الحملة الصليبية عن تونس ، وعودتها إلى أوربة ، ورفض ادوَارْ العودة إلى بلاده ، وسيره على رأس قوةٍ

صغيرة إلى مملكة عكا ، وعدم تحقيقه نتائج تستحق الذكر ، وتم اختتام الفصل بتعداد نتائج الحملة الصليبيـــية الثامنة .

هذا وقد تم إنهاء البحث بخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث ، وفلسفة الرسالة والدلائل والأبعاد التي رمت إليها ، ثم أُلحق بالرسالة خرائط وصور متصلة اتصالاً مباشراً بصلب الموضوع من أجل زيادة توضيحه ، ثم تلاها قائمة المصادر والمراجع ، أعقبها ملخص للرسالة باللغة الفرنسية على أمل أن يقدم هذا العمل المتواضع الفائدة العلمية للدارسين في تاريخ العرب والإسلام .

وختاماً أقدم شكري وامتناني إلى كل من مدَّ لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل ، وأخص بالذكر من زودتني بنصائحها القيمة وتوجيهاتها الحكيمة تلك الرمز الشامخ ، والعلم الساطع أستاذتي الفاضلة الدكتورة وفاء جوني متمنياً من الله عز وجل أن يبقيها ذخراً لهذه الأمة ، وكل الحب والتقدير إلى شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي كان سخياً في رفدي بأهم مصادر البحث ، كما يطيب لي أيضاً أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذة قسم التاريخ لجهودهم في تعريف العالم بتاريخ أمتنا العريق لأن من لا ماض له لا حاضر له ولا وجود .

وها هي ذي رسالتي بين أيديكم أعضاء اللجنة الموقرين............. لإبداء ملاحظاتكم المهمة ، شاكراً جهودكم مع فائق احترامي وتقديري .

والله ولي التوفيق .

مدخل

تعريف بأهم مصادر البحث :

تم الاعتماد في البحث على مجموعة من المصادر ، بينما تم الاستئناس بعدد قليل من المراجع المهمة ، واختلفت المصادر في أهميتها ، فمنها ما كان غنياً بمادته العلمية ، وبعضها الآخر جاءت معلوماته مُوجزة ، وقد كُتبت تلك المصادر بلغات عديدة أشهرها اللغة العربية ، ثم اللاتينية والفرنسية القديمة والأرمينية والسريانية ، وهذا الاختلاف في لغة المصادر أدى لتكامل معلوماتها ، حيث أولت المصادر العربية اهتماماً كبيراً فيما يخص العرب والمسلمين بينما اعتنت المصادر الغربية بأوضاع الصليبيين ، وقد تم تقسيم المصادر إلى مصادر عربية ، ومصادر أجنبية ، حيث رُتبت ترتيباً أبجدياً ، وجرى البدء بعرض المصادر العربية ، وهي على الشكل الآتي :

- المصادر العربية :

١- ابن واصل ، محمد بن سالم جمال الدين ٦٠٤-٦٩٧هـ/ ١٢٠٧-١٢٩٨م:

وُلد في حماة ، برع في العلوم الشرعية ، سطع نجمه في العلوم العقلية ، فعمل مفتياً ، ومدرساً وطبيباً ، استلم القضاء (١) ، وتأتي أهمية هذا المؤرخ كونه استلم مناصب أهلته للاطلاع على أوضاع السلطنة الأيوبية ، والأهم من ذلك فهو شاهد عيان على الأحداث التي كتب عنها في الغالب ، وإن لم يكن كذلك فقد أخذها عن كبار المؤرخين كابن الأثير وابن شداد وغيرهم ، ومن آثاره كتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " ، وقد تحدث فيه عن الأيوبيين وبداية نشوء السلطنة المملوكية بالتفصيل الدقيق ، فأورد معلومات دقيقة عن الأحداث التي مرت بها الحملة الصليبية السابعة ، ونوه إلى الضائقة المالية التي حلت بلويس التاسع، وبيَّن مدى تطبيق الصليبيين والمسلمين لاتفاقية سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، كما أشار إلى مقتل المعز أيبك .

---

(١) الصفدي ،خليل : أعيان العصر و أعوان النصر ، تح : عدد من المؤرخين ، دار الفكر، ط١ ، دمشق ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ج١ ، ص ٢٨١-٢٨٢.

٢- اليونيني ، قطب الدين موسى ٦٤٠- ٧٢٦هـ/١٢٤٢ - م ١٣٢٦ :

ولد بدمشق، واهتم بالحديث الشريف والتاريخ ، نهل العلوم من كبار رجال العلم في عصره (١) ، وقد ترك مؤلفاً هاماً في التاريخ سماه "ذيل مرآة الزمان " ، أفاد الفصل السادس من البحث ، وانفرد عن المصادر بذكر تزوير جنوه نقود على غرار النقود التونسية ، فعاقبهم المستنصر الحفصي على ذلك ، كما أشار للهجوم الذي شنه لويس التاسع على قرطاجة ، وانفرد بذكر المذبحة التي قام بها لويس التاسع وجنوده في قرطاجة ، وركّز عل موقف المستنصر من الصليبيين ، وأكد على أن الصليبيين قد راسلوا المستنصر لإنهاء حالة الحرب وعقد صلح بين الطرفين .

٣ - ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل سنة ٧٠١-٧٧٤هـ / ١٣٠١-١٣٧٢ م:

ولد ابن كثير في أعمال بصرى ، تنقل بين بلاد الشام والعراق بحثاً عن كبار رجال العلم ، فتلمذ على يد كبار علماء عصره ، برع في التفسير والفقه والتاريخ (٢) ، بعد أن ترك الكثير من المؤلفات ، منها كتاب " البداية والنهاية " الذي أخذ فيه عن أبي شامة وغيره من المؤرخين ، وأمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة في الفصول الخمسة الأولى ، بينما كانت الفائدة أقل في الفصل السادس فقد فصَّل في مقتل فخر الدين بن حمويه والسلطان المملوكي توران شاه ، وبيَّن دور المغول في زعزعة أمن واستقرار المشرق العربي الإسلامي ، كما أشار إلى دور الخلافة العباسية في إنهاء الصراعات الأيوبية – المملوكية ، بينما ذكر شذرات عن أحداث الحملة الصليبية على تونس .

٤ - المنصوري ، بيبرس الدوادار :

هو من مماليك السلطان المملوكي المنصور قلاوون ، وقد عينه والياً على الكرك ، ثم سلمه

---

(١) كحالة ، عمر : معجم مصنفي الكتب العربية في التاريخ والتراجم الجغرافية والرحلات ، دار الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٦٣٩ .

(٢) المقريزي ، أحمد : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تح: عدنان درويش و محمد المصري ، دمشق ، ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥م ، ج٢ ، ص٤٨٨ - ٤٨٩ .

الأشرف خليل دواداراً، وقد نظر في الأحباس (الأوقاف) ، سُجن لأسباب غامضة ، فتشفع فيه بعض الوجهاء ، أُطلق سراحه ، أُجيز له الإفتاء والتدريس ، واهتم بكتابة التاريخ حيث ساعده رجل نصراني في كتابته عرف بابن كِبر ، وتوفي المنصوري سنة ٧٢٥هـ/١٣٤٥م (١)، بعد أن ترك مؤلفات تاريخية مهمة وهي : " مختار الأخبار " ، وتكلم فيه عن الدولتين الأيوبية والمملوكية .

أما كتاب " التحفة الملوكية في الدولة التركية " ، فاقتصر فيه على أخبار السلطنة المملوكية ، وكذلك فإن كتاب " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " تضمن تاريخ المماليك ، وقد أمدت هذه الكتب البحث بمعلومات أفادت البحث بشكل كامل ، وبخاصة فيما يتعلق بنشوء السلطنة المملوكية وصراعها مع الأيوبيين ، كما صورت الأوضاع الداخلية في ظل السلطنة المملوكية ، و تطرقت تلك الكتب إلى الحملة الصليبـــية الثامنة وبينت نهاية تلك الحملة .

٥ – المقريزي ، أحمد بن علي بن عبد القادر بن عبد الصمد ٧٦٦-٨٤٥هـ/ ١٣٦٤-١٤٤١م:

ولد المقريزي في القاهرة ، ثم انتقل إلى بعلبك ، عُرف بالمقريزي نسبة إلى حارة المقارزة، وهي إحدى حارات بعلبك ، زار بلدان عديدة ، فاكتسب ثقافة واسعة ، ألمّ بعلوم جمة في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ ، فصنف كتباً كثيرة (٢)، ومن أهم كتبه في التاريخ " السلوك لمعرفة دول الملوك" ، وقد أمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة عن أوضاع بلاد الشام ومصر في ظل الأيوبيين علماً أن المقريزي لم يعاصر السلطنة الأيوبية لكنه كتب عنها أكثر من المؤرخين الذين عاصروها ، وأفاد البحث في فصوله كافة حيث أوضح الصراع الأيوبي- المملوكي ، كما رصَّد

---

(١) العسقلاني ، أحمد : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح : محمد جاد الحق ، دار الكتب ، ط٢، عابدين ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، ج٢ ، ص٤٣؛ الصفدي ، خليل : أعيان العصر وأعوان النصر ، تح: عدد من المؤرخين ، دار الفكر ، ط١،دمشق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨ م ، ج٢ ، ص٧٩-٨٠ .

(٢) السخاوي ، محمد : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار الحياة ، بيروت ، د.ت، ج١٠، ص ٢١-٢٥ ؛ العسقلاني ، أحمد : إنباء الغمر بأنباء العمر ، دار الكتب ، ط٢، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٨ ، ص ١٧٠-١٧٢ .

الأوضاع الداخلية وحركات التمرد في مصر ضد السلطنة المملوكية ، وذكر مدى تقاعس المستنصر الحفصي في مواجهة الحملة الصليبـــية الثامنة .

أما كتاب " المواعظ والاعتبار " فقد تضمن معلومات جغرافية وتاريخية أدت لإفادة بعض جوانب البحث .

بينما أمد البحث كتاب " درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة " في تسليط الضوء على حياة الكثير من الأعلام .

هذا وقد أفاد البحث من كتابه " شذور العقود في ذكر النقود " فيما يخص السكة المتداولة في بلاد الشام ومصر .

٦ - النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري ٦٧٧-٧٣٣هـ / ١٢٧٨-١٣٣٢م :

وُلد في القاهرة، واتصف بأخلاقٍ عاليةٍ وسمعةٍ حسنة وقد عمل وراقاً، فكان ينسخ صحيح البخاري ويبيعه ، حيث كان يكتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس ، عينه السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ناظراً للجيش في طرابلس ، ثم استلم ناظراً للديوان في منطقة الدقهلية في مصر ، (١) بعد أن ترك موسوعة علمية أدبية سماها " نهاية الأرب في فنون الأدب " تكلم فيها عن الجوانب الأدبية والعلمية والفلكية والحضارية بشكل عام ، وأمدني الجزآن التاسع والعشرون والثلاثون من تلك الموسوعة بمعلومات ثمينة تعلقت بالحملة الصليبـــية الثامنة ، وتصدي المسلمين لها ، كما أشار النويري إلى حالة التفرقة بين المسلمين إثر استقرار لويس التاسع في مملكة عكا ، وبيَّن موقف الخلافة العباسية من أطماع الناصر يوسف الثاني في مصر.

---

(١) السيوطي ، جلال الدين : بغية الوعاة، تح : علي عمر ، دار الخانجي ، ط١، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ، ج١ ، ص٩٩ .

٧- سبط ابن الجوزي ،شمس الدين يوسف بن قزاوغلي ٥٨٣ -٦٥٤ هـ /١١٨٧- ١٢٥٦م:

ولد في بغداد ، ثم انتقل إلى دمشق بعد أن أصبح عمره واحداً وعشرين سنة ، وكان على علاقة حسنة مع أولاد الملك العادل الأيوبي ، اتصف بالتقى والورع والسمعة الحسنة (١) ، أعد مصنفاً كبيراً في التاريخ سماه " مرآة الزمان " ، أفاد البحث في الفصول الأربعة الأولى ، حيث رصدَ أحداث الزحف الصليبـــي من دمياط جنوباً إثر سماع الصليبـــيين بوفاة الصالح نجم الدين أيوب، ثم نوه إلى سبب مقتل توران شاه ، ودور شجر الدر في التخلص منه ، وهذا ما أدى لاحتدام الصراع الأيوبي – المملوكي ، فكانت معركة العباسة حدثاً تاريخياً مهماً أجبرت الأيوبيين على الاعتراف بشرعية السلطنة المملوكية .

٨ - العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن حسين ٧٦٢ – ٨٥٥هـ/ ١٣٦٠- ١٤٥١م :

ولد في حلب، وانتقل مع أسرته إلى عين تاب حيث تولى والده القضاء فيها ، انكب العيني على دراسة القرآن الكريم ، كما درس النحو والتاريخ ، ولازم كبار علماء عصره ، وناب عن والده في استلام القضاء في عين تاب ، وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م عاد إلى حلب ، وشرح صحيح البخاري ، دَرَّس الفقه ، نظر في الأحباس ، ولازم السلاطين والملوك وقصَّ عليهم القصص التاريخية (٢) ، وقد ألَّف في التاريخ كتاباً سماه " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " حيث بدأ فيه بذكر حكام المسلمين في كل سنة ، ثم ذكر الروايات التاريخية لابن كثير وبيبرس المنصوري وسبط ابن الجوزي وغيرهم ، وأعقب تلك الروايات الإشارة إلى وفيات الأعيان في كل سنة ، وقد أفاد البحث في الفصول الخمسة الأولى ولاسيما فيما يتعلق بمفاوضة لويس التاسع لتوران شاه حول تسليمه

---

(١) الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، تح : ماهر جرار ، دار الكتاب العربي ، ط١،بيروت ، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م ، ج٢٩ ، ص٢٧٦-٢٧٧؛ ابن خلكان ، أحمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، مج٣، ص١٤٢.

(٢) السخاوي : ج١٠،ص١٣١-١٣٤ .

بيت المقدس ، وأشار إلى أثر الصراع الأيوبي – المملوكي على الصليبيين .

٩- ابن العميد ، جرجس أبو المكارم ٦٠٢هـ/١٢٠٥م :

وُلد ابن العميد في تكريت العراقية ، وهو سليل أسرة سريانية ، أصبح موظفاً في ديوان الجيش بمصر ثم في دمشق ، أُلصقت به بعض الاتهامات التي أدت إلى سجنه لمدة خمسة عشر عاماً ، وإثر إطلاق سراحه استقر في دمشق ، انشغل في كتابة التاريخ ، فكان من أهم المؤرخين (١) ، وقد أنجز كتاباً في التاريخ سماه " تاريخ الأيوبيين " ، اتبع فيه طريقة الحوليات ، أمد البحث بمعلومات قيمة عن الأيوبيين ، وهذا ما أفاد البحث في الفصول الأربعة الأولى حيث رَكز على استلام توران شاه للسيادة إثر وفاة والده الصالح نجم الدين أيوب، ودوره في التصدي للحملة الصليبية ، كما فصَّل في مقتله ، وانتهاء الحكم الأيوبي في مصر ، ونوه إلى مقتل الملوك الأيوبيين الذين وقعوا في قبضة المعز أيبك إثر انتصاره في معركة العباسة ، وهذا ما أرهب الناصر يوسف الثاني وغيره من ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام .

١٠ – أبو الفداء ، إسماعيل بن علي الملك المؤيد عماد الدين الأيوبي ٦٨٢ – ٧٣٢هـ/١٢٨٣– ١٣٣١م:

وُلد في دمشق، تقرب من السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون ، فعينه ملكاً على حماة ، لقبه بالملك الصالح ثم لقبه بالملك المؤيد ، اهتم أبو الفداء بأهل العلم والفضيلة (٢) ، ومن آثاره التاريخية كتاب " المختصر في أخبار البشر " ، وقد اعتمد فيه على الاختصار الشديد للأحداث التاريخية ، كما التزم الحياد والموضوعية ، وقد أفاد البحث من الجزء الثاني من هذا الكتاب حيث غطى معظم فصول البحث ، وأورد معلومات مهمة حول معركة المنصورة ، كما رصد الأوضاع

---

(١) الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، تح : دوريتا كرافولسكي ، دار الأندلس ، بيروت ، ج١٧، ص٦٦٦-٦٦٧.

(٢) الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، دار فرانز شتاينر ، ط٢، فيسبادن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ج٩، ص١٧٣-١٧٦ .

الداخلية للمماليك ، وانفرد بذكر قَتلةِ أقطاي ، وأكد على دور الخلافة العباسية في إنهاء حالة التوتر بين الأيوبيين والمماليك ، وعقدها للصلح بين الطرفين المتخاصمين ، وأبرز الخطر الذي شكله المغول على المسلمين .

أما كتابه " تقويم البلدان " فقد أغنى دراستي بما قدمه من معلومات جغرافية حول الكثير من المواقع الجغرافية ، فحدد موقعها الجغرافي ، ثم تكلم عن جغرافيتها الاقتصادية والبشرية .

١١ - ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى ٧٠٠-٧٤٩هـ /١٣٠٠- ١٣٤٨م:

وُلد في دمشق، امتاز بذكائه وفطنته ، تنقل بين دمشق والقاهرة والإسكندرية والحجاز بحثاً عن العلم والمعرفة ، عمل في دار الإنشاء ، ثم تولى القضاء ، وقد ترك مصر ورحل إلى بيت المقدس ، أصيب هناك بالصرع إثر وفاة زوجته ومات (١) ، ومن أهم ما تركه الموسوعة التاريخية التي سماها "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " وقد أمد الجزء السابع والعشرون من هذه الموسوعة البحث بمعلومات تفصيلية حول الهزيمة التي حلت بحملة لويس التاسع على مصر ، كما تطرق للصراع الأيوبي – المملوكي ، وفصَّل في استيلاء الناصر يوسف الثاني على دمشق ، وبيَّن دور المماليك البحرية في تحريض الناصر يوسف الثاني على غزو مصر ، فكانوا سبباً في الفتنة وإثارة الاضطرابات .

١٢- أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان ٥٩٩ -٦٦٥ هـ/١٢٠٢ - ١٢٦٦م:

ولد أبو شامة في دمشق ، تعلم القرآن الكريم على يد السخاوي ، وأصبح فقيهاً ، وعمل مفتياً ، برع في اللغة العربية وقواعدها ، وكذلك في التاريخ ، عمل مدرِّساً للحديث الشريف (٢) ، أنجز كتباً كثيرة في التاريخ ، منها كتاب سماه " الذيل على الروضتين " ، وكان أحد أجزاء الموسوعة

---

(١) الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، تح :أحمد سيد ، دار فرانز شتاينر ، ط١ ، فيسبادن ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ج١٨، ص١١٣ – ١١٦ ؛ ابن شاكر ، محمد : فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت،ج٢، ص٢٦٩-٢٧١ .

(٢) المقريزي: درر العقود ، ج٢ ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ الصفدي : أعيان العصر، ج١ ، ص٤١٧ – ٤٢٠ .

الشامية لسهيل زكار ، وقد أرخ أبو شامة وفقاً لطريقة الحوليات ، وركّز بشكل كبير على الوفيات ، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة غطت الفصول الخمسة الأولى من البحث ، حيث أوضح الأوضاع السيئة للحملة الصليبيــة السابعة إثر انطلاقها نحو القاهرة ، وكذلك حالة التدهور التي وصل إليها الصليبيــون ، وأبرز دور المماليك العزيزية في هزيمة الأيوبيين أثناء معركة العباسة ،حيث خذلت سيدها الناصر يوسف الثاني في أحلك الظروف .

١٣- ابن تغري بردي ، جمال الدين يوسف أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي ٨١٣ - ٨٧٤هـ /١٤١١- ١٤٧٠ م :

وُلد في دمشق، وتوفي والده وهو صغير ، فعاش في حجر أخته ، وتتلمذ على يد كبار علماء عصره كالمقريزي والعيني ، درس الفقه والعروض والصرف والأدبيات ، أما أوقات فراغه فقد أمضاها في لعب الكرة والرمح ، اتصف بأخلاق عالية ، فكان حسن السيرة (١) ، ومن أهم مؤلفاته " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة "، وهذا لا يعني أنه اقتصر في كتابته على ملوك مصر إنما تطرق لتاريخ مصر وبلاد الشام بما في ذلك الصليبيــين والمغول ، ونظم كتابه على طريقة الحوليات ، وأدرج ضمنه الوفيات حيث أعطى نبذة عن حياة المتوفى ، وقد أفدت من الجزأين السادس والسابع لهذا المصنف فيما يتعلق بأحداث معركة المنصورة ، ودور توران شاه في التصدي للحملة الصليبيــة السابعة ، والخلاف المملوكي حول إطلاق سراح لويس التاسع أو قتله ، كما أشار إلى دور المماليك العزيزية في تعزيز الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيبك .

و أفاد البحث من كتاب آخر لابن تغري بردي بعنوان " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي "، وقد رتب هذا المصنف حسب تسلسل السلاطين ، وأشار في هذا الكتاب إلى الحزم الذي اتصفت به شجر الدر إثر وفاة زوجها ، وحنكتها في إدارة شؤون الدولة ، كما تطرق إلى أحداث

(١) السخاوي : الضوء اللامع ،ج١٠ ، ص٣٠٥- ٣٠٨ .

معركة العباسة ، والصلح المملوكي الأيوبي الذي أعقب تلك المعركة ، بينما أمدنا كتابه"مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة " بمعلومات مهمة تعلقت بتوران شاه و شجر الدر .

١٤- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي المالكي ٧٣٣ - ٨٠٨هـ /١٣٣٢ - ١٤٠٥ م :

وُلد ابن خلدون في تونس ، وتعلم قواعد اللغة العربية عن أبيه ، كما تعلم القرآن الكريم والفقه على يد شيوخ عصره آنذاك ، فبرع في العلوم والآداب ، وتولى كتابة السر لدى ملك المغرب فارس بن يعقوب المريني ، انتقل إلى الأندلس ، ثم عاد إلى المغرب العربي واستلم ولاية بجاية ، وإثر عزله عنها سار شرقاً نحو المماليك ، فعينوه قاضياً للمالكية في مصر (١)،وقد ترك كتاباً شهيراً سماه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ، وبدأ مؤلفه في الحديث عن فلسفة التاريخ ، ثم تحدث عن التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عصره ، وقد شمل ذلك تاريخ المشرق والمغرب ، فقدم معلومات مهمة غطت معظم فصول الرسالة ، فأمد البحث الجزء الخامس من كتابه بمعلومات تفصيلية عن استعدادات الصالح نجم الدين أيوب لمواجهة الحملة الصليبية السابعة ، وعلاقة توران شاه مع المماليك ، وأشار إلى العلاقة المملوكية مع الأيوبيين ، أما الجزء السادس من كتابه ، فقد أورد معلومات تفصيلية ودقيقة فيما يخص الحملة الصليبية الثامنة على تونس ، فأبرز دور المسلمين في التصدي للحملة الصليبية والمؤازرة التي قدمها المشرق والمغرب الإسلامي لدعم تونس ، وقد انفرد ابن خلدون عن المصادر العربية بإيراد تلك المعلومات التي أوضحت أحداث الحملة الصليبية الثامنة بدقةٍ بالغةٍ .

---

(١) حاجي خليفة ، مصطفى : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، الدار الفيصلية ، مكة المكرمة ، د.ت ،ج١ ، ص٢٧٨؛ العسقلاني ، أحمد : ذيل الدرر الكامنة ، تح : عدنان درويش ، القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص١٧٢- ١٧٣.

- المصادر الأجنبية :

١- الأرمني ، سمباط :

أمير أرمني تاريخ ولادته مجهول ، كما أن تاريخ وفاته غير معروف ، ومن المحتمل أنه توفي سنة ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦م ، ويُرجح أن سمباط أخو الملك الأرمني هَيْثُومْ الأول بل وقائد جيشه ، فضلاً عن كونه سفيراً ورجل سياسة ، وقد ترك سمباط كتاباً عُرف بـ " التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني " ، وهو أحد أجزاء الموسوعة الشامية ،واعتمد سمباط في كتابه على متى الرهاوي ، وعلى غريغوري الراهب ، وعلى وثائق أنطاكية وأرمينية الرسميتين ، فضلاً عن أنه امتاز بثقافة واسعة (١) ، وتأتي أهمية هذا المصدر من أن سمباط أعطى وجهة نظر أرمينية الصغرى ودورها في إدخال المغول في دائرة الحروب الصليبية ، وقد أمد البحث بمعلومات قيمة في الفصل الأول عن سفر ملك أرمينية هَيْثُومْ الأول إلى المغول من أجل إيجاد تحالف مغولي ـ أرمني ـ صليبي ضد المسلمين ، كما أشار سمباط إلى الزواج السياسي بين عرشَّي أنطاكية وأرمينية حيث وضع ذلك الزواج حداً للصراع الأرمني ـ الأنطاكي ، فحل الوئام بينهما ، بينما اقتصرت الفائدة في الفصل السادس على إعطاء معلومات قيمة عن حملة ادوَارْ بن هِنرِيْ الثالث ، ومحاولة الاغتيال التي تعرض لها في بلاد الشام والتي كانت سبباً في عودته إلى إنكلترا .

٢- باريس ، مَتى :

هو أحد رهبان دير القديس ألبَانْ ، اشتهر بلقب الباريسي ، وعُرف بهذا اللقب إما لأن باريس كانت مسقط رأسه أو لأنه تعلم فيها ، امتاز مَتى بثقافة عالية ، وبخاصة في مجالي التاريخ والدين (٢) ، وقد ترك مُصنفاً في التاريخ سماه " التاريخ الكبير" ، وقد شكلت

---

(١) زكار ، سهيل : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩ م ، ج٣٥، ص٨.

(٢)زكار : الموسوعة ، ج٤٦، ص٥-٦.

الأجزاء من السادس والأربعون حتى الجزء الخمسون من الموسوعة الشامية لسهيل زكار ، عاصر متى باريس جوانفيل علماً أن تاريخ ولادته مجهول وكذلك تاريخ وفاته ، ولكن من المؤكد أنه كان حياً قبل سنة ٦٥٧هـ /١٢٥٩م إذ توقف في هذا العام عن كتابة مؤلفه ، وقد أكمل هذا العمل راهب من دير القديس ألبان من المؤكد أن اسمه (وليم ريشنغر) ، ولكنه لم يكن كسابقه متى باريس في الجانب الثقافي ، وقد ترك كتاباً سماه " ذيل تاريخ متى باريس " تكلم وليم فيه عن الأحداث الممتدة من سنة ٦٥٧هـ /١٢٥٩م حتى سنة ٦٧٢هـ /١٢٧٣م وأمد متى باريس ووليم ريشنغر البحث بمعلومات ثمينة جداً عن الحروب الصليبيــــية وأوضاع أوربا ، وموقفها من تلك الحروب ، وقد أغنى متى باريس ووليم البحث بمادة هامة شملت فصول الرسالة بشكل كامل ، وقد أفاد مما كتب متى في معرفة أسباب الحملة الصليبيــــية السابعة وكيفية إعدادها ، والنتائج التي أسفرت عنها ، وانفرد متى باريس بذكر روايته حول المسلمين الذين تنكروا وتظاهروا أنهم فرنسيين ، واستهدفوا الاستيلاء على دمياط من أيدي الصليبيـــين ، لكن سرعان ما كشفهم الصليبيـــون في دمياط ، كما وضّح الدور الذي شغله لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، وأبرز سياسة لويس التاسع مع الأيوبيين والمماليك ، وفصّل في حملة الرعاة الفرنسيين بينما بيّن وليم ريشنغر المباحثات بين لويس التاسع وإنكلترا لإنهاء النـــزاع على المناطق المتنازع عليها ، كما أورد معلومات مهمة تتعلق بحملة لويس التاسع على تونس ، وتطرق لحملة ادوَارْ بن هنري الثالث ملك إنكلترا التي استهدفت مساندة لويس التاسع لكنها لم تحقق مبتغاها .

٣- جوانفيل ، جين ٦٢٣-٧١٧هـ/ ١٢٢٤-١٤١٧م :

ولد في مدينة جوانفيل الفرنسية (١)، وهو سليل أسرة فرنسية إقطاعية عريقة ، أصبح جين

---

(١) أبو بكر ، نضال : أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية وعلاقتها مع الصليبيـــين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤٢٩هـــ / ٢٠٠٨م ، ص٢٢ .

سيداً لإقطاع منطقة جوانفيل فعرف بجين جوانفيل ، دخل جوانفيل في خدمة الملك الفرنسي لويس التاسع (١) ، و كان معجباً جداً بشخصية سيده لويس التاسع و عدَّه قدوةً له ، و على الرغم من حبه للويس التاسع فقد كان معتدلاً نوعاً ما في عرض الأحداث التاريخية ، و مال أحياناً إلى المبالغة ، ويعد كتابه " حياة القديس لويس " أفضل مصدر عن لويس التاسع ، وقد تُرجم وحُقق هذا الكتاب من قبل سهيل زكار ، و تأتي أهمية هذا المصدر من أن جوانفيل قد لازم لويس التاسع في حربه وسلمه بل كان مستشاراً له ، ومعظم الأحداث التي كتب عنها جوانفيل قد شارك بها ، وهو شاهد عيان عليها ، فعرضها عرضاً تفصيلياً دقيقاً ، وتكلم عن لويس التاسع منذ ولادته حتى مسيره إلى تونس ، و لم يكتب عن حملة لويس التاسع على تونس سوى ومضات سريعة لأنه لم يشارك فيها ، و لم يرغب بذكر أحداث في كتابه غير متأكد منها ، وقد غطى هذا المصدر معظم فصول البحث فأمدَّه بمعلوماتٍ قيمةٍ عن حياة لويس التاسع ، وإعداد الحملة الصليبيـــية السابعة و أحداث معركة المنصورة، كما فصَّل في دور لويس التاسع في النهوض بالكيان الصليبـــي ،وانفرد عن المصادر الأخرى بالإشارة إلى منظمة اللعازر ، وعلاقتها مع لويس التاسع ، و أظهر دور لويس التاسع الإصلاحي والإداري في المملكة اللاتينية ، و بيَّن علاقة لويس التاسع مع المسلمين ، ومحاولته ضرب المماليك بالأيوبيين في بلاد الشام أملاً باقتسام بلادهم مع المماليك ، و انفرد بالحديث عن الهجوم الصليبـــي على مدينة بانياس وقلعة الصبيبة ، وبذلك كانت الفائدة كبيرةً جداً في الفصول الأربعة الأولى بينما اقتصرت الفائدة في الفصل الخامس على توضيح أوضاع لويس التاسع في أوربا ، أما في الفصل السادس فقد كانت الإفادة منه بشذرات حول الحملة الصليبـــية الثامنة .

٤- مؤلف مجهول : تاريخ هرقل :

يعد "تاريخ هرقل" أحد الذيول المهمة لتاريخ وليم الصوري ، وقد ترك وليم مصنفاً في

---

(١) زكار : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧-١٠ .

التاريخ سماه " تاريخ القدس " ، وتُرجم إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان "تاريخ الإمبراطور هرقل والاستيلاء على بلاد ما وراء البحر " ، تكلم وليم فيه عن الحروب الصليبية منذ انطلاقتها الأولى حتى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، بينما غطى " تاريخ هرقل " الحقبة الزمنية الممتدة من سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م حتى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م (١) ، وقد تم تصنيف هذا الذيل في الشرق حيث قام سهيل زكار بترجمته و تحقيقه ، فكان أحد أجزاء الموسوعة الشامية ، و امتاز هذا المصدر بمعلوماتٍ غزيرةٍ حيث تجنب مؤلفه الإطالة و الاستطراد ، و قد أغنى البحث بما قدمه من مادةٍ علميةٍ أفادت معظم فصول الرسالة عدا الفصل الأخير ، فهو قد أورد معلومات ثمينة تعلقت بملك بيت المقدس كونراد هوهنشتاوفن الألماني الذي لم يأت إلى الشرق ، فاستلم لويس التاسع الحكم في مملكة عكا بدلاً عنه ، كما أشار إشارةً سريعةً لأعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع في المملكة اللاتينية ، إضافة لتوضيح علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين حيث ركّز على الهجمات الأيوبية على المعاقل الصليبية ، وتدمير صيدا و مقتل الكثير من أبنائها ، كما رصّد الانقسامات الصليبية ، والأطماع التي قادتهم لدوامة حرب القديس سابا التي عادت على الكيان الصليبي بنتائج مدمرة ، فأصبح ذلك الكيان ضعيفاً هزيلاً أمام المسلمين .

٥- **مؤلف مجهول : ذيل روثلين .**

يعد كتاب روثلين من الوثائق المهمة التي ذيلت لتاريخ وليم الصوري ، فقد كتب وليم عن الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، فأتت ذيول كثيرة على تاريخ وليم منها " ذيل روثلين " الذي أكمل الأحداث التاريخية التي امتدت من سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م حتى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، و قد اتخذ ذيل روثلين تسميته نسبةً إلى دير روثلين في بريطانيا (٢) ، حيث قام سهيل زكار بترجمة و تحقيق هذا الذيل ، و كان أحد أجزاء الموسوعة الشامية ، وقد قدّم صاحب ذيل روثلين مادةً علميةً غنيةً ، أفادت معظم فصول البحث باستثناء الفصل الأخير

---

(١) زكار : الموسوعة ، ج ٥٨ ، ص ١٧٧٩-١٧٨٠ .

(٢) زكار : الموسوعة ، ج ٥٨،ص ١٧٧٩-١٧٨٠ .

حيث أمد البحث بمعلومات مهمة تعلقت بالحملة الصليبيـــية السابعة منذ انطلاقتها من أوربا مروراً بالأحداث والمعارك التي خاضتها في مصر ، وركّز على أوضاع الأسرى الصليبيـــين في السجون المصرية ، وأشار للسفارات المتبادلة بين لويس التاسع والمماليك من أجل إطلاق سراح الأسرى ، وتطرق لأوضاع إمارة أنطاكية وهجمات التركمان عليها ، و انفرد صاحب ذيل روثلين بذكر موقف لويس التاسع من اتفاقيته مع المماليك سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وقد فَصَّل في المعاهدة التي عقدها جون فالنسين مع المماليك سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، ورصد أحداث حرب القديس سابا ، وأوضاع الصليبيـــين إثر عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

٦- ابن العبري ، غريغوروس بن هارون الملطي ٦٢٣-٦٨٥هـ /١٢٢٦-١٢٨٦م:

ولد في ملطية من أعمال ديار بكر، ثم رحل مع والده إلى أنطاكية ودرس اللاهوت والطب والرياضيات والفلسفة ، فعُين أسقفاً على جوباس من أعمال ملطية ، وترقى وأصبح جاثليق أي : رئيساً للكهنة السريان في المشرق ، توفي في الموصل (١) ، ومن آثاره كتابان عُرف الأول باسم " تاريخ الزمان " أورد فيه معلومات هامة حول أعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع في مملكة عكا ، وبيَّن أن الصراع الأيوبي ـــ المملوكي كان سبباً أساسياً في إطلاق المماليك لأسرى الحملة الصليبيـــية السابعة ، كما أمد البحث بمادة غنية تعلقت بالمغول .

أما كتابه "مختصر الدول " فأشار فيه للحملة الصليبيـــية السابعة منذ بدايتها حتى نهايتها ، كما نوه إلى انطلاق لويس التاسع إلى مملكة عكا ، والأعمال التي قام بها فيها ، وذكر دور هَيْثومْ الأول ملك أرمينية في محاولة كسب المغول ضد المسلمين ، فقد زار هيثوم العاصمة المغولية قراقورم ، وشَجّع المغول على غزو بلاد العرب المسلمين ، وفي الحقيقة كان هيثوم ولويس التاسع وراء تدمير المغول لبلاد المسلمين .

---

(١) كحالة ، عمر : معجم المؤلفين ، دار الترقي ، دمشق ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ، ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٧- فابري ، فيلكس :

أحد الرهبان الألمان الدومينيكان ، اتسم بتعصبه الشديد لدينه وقوميته ، ويعد ما تركه هذا الرحالة أفضل ما كتبه الرحالة الأوربيون ، فقد قام برحلتين إلى فلسطين ، الأولى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ، وكانت رحلة قصيرة ، بينما كانت رحلته الثانية سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م طويلة الأمد ، وخلال رحلتيه ألف كتاباً سماه " جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته " ، واعتمد فيه على ما رآه كما استمع إلى الروايات الشفوية (١) ، وكان هذا المصنف أحد أجزاء الموسوعة الشامية ، وقد أغنى البحث بما تضمنه ، ولا سيما إبراز موقف البابا أنوسنت الرابع من استعادة المسلمين لبيت المقدس بالتعاون مع الخوارزمية وهنا سارع البابا لعقد اجتماع في مدينة ليون لإنقاذ الكيان الصليبي، ثم تطرق لمسير الحملة الصليبية السابعة إلى الشرق ، و ما حل بها من محن على أيدي المسلمين ، وعلى الرغم من ذلك بقي النشاط الصليبي يراود خيال لويس التاسع ، فرصد فيلكس أحداث الحملة الصليبية الثامنة ، و أشار إلى إصابة الجيش الصليبي بالطاعون ، وموت لويس التاسع،وأضطرار شارل آنجو للصلح مع المسلمين .

وإضافة للمصادر أفاد البحث من العديد من المراجع العربية والمعربة والأجنبية .

يأتي على رأس المراجع العربية ما كتبه **(سهيل زكار)** و بشكلٍ خاص " الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ". وقد تضمنت هذه الموسوعة مصادر قيمة جداً حقق المصادر العربية منها ، وترجم وحقق المصادر الأجنبية الأخرى التي احتوتها الموسوعة ، ولا يوجد مبالغة بأن هذه الموسوعة هي بحق أفضل موسوعة كُتبت عن تاريخ الحروب الصليبية ، كما أفاد البحث من كتاب آخر ، وهو من تأليف (**سهيل زكار ألفه بالاشتراك مع وفاء جوني واكتمال إسماعيل**) بعنوان "حروب الفرنجة " ، وتم الحصول على معلومات قيمة وبخاصة في ما يتعلق بالجانب الصليبي

---

(١) زكار : الموسوعة ، ج ٤٠ ، ص ٤ .

لدى (**سعيد عاشور**) في كتابه " الحركة الصليبــية " ، وقد أفاد البحث مما كتبه(**جوزيف يوسف**) حيث امتازت كتاباته بالتحليلات المنطقية، ومن أهم مؤلفاته " العدوان الصليبــي على بلاد الشام – العدوان الصليبــي على مصر – العصور الوسطى – العلاقات بين الشرق و الغرب " ، وأفاد البحث من كتاب "فن الحرب في الشرق اللاتيني " **لمارشال كريستوفر** ، كما أغنى البحث ما كتبته **سامية عامر** بعنوان "الصليبيون في شمال أفريقيا " ، و يعد كتاب " تاريخ الحروب الصليبــية" من أهم المؤلفات المعربة و هو من تأليف (**ستيفن رنسيمان**) المُدرس في كلية مودلين بجامعة أكسفورد ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب من قبل السيد الباز العريني ، وأمد البحث هذا الكتاب بمعلوماتٍ قيمة عن أوضاع الصليبــيين في الشرق وموقف أوربا إزاء الكيان الصليبــي .

ومن أهم المراجع الأجنبية التي أفادت البحث ما تركه المؤرخ (**Rene Grousset**) في كتابه "Histoir des croisades" وهوبأربعة أجزاء ، وقد أفاد البحث من الجزء الثالث منه بشكل كبير جداً ، ولا يقل كتاب المركيز (**M.villeneuve**) أهمية عن سابقه ، وهو بعنوان : " Sant Louis en orient" حيث مال فيه إلى مدح لويس التاسع والافتخار به ، و قد عدَّ ما حققه لويس التاسع في الشرق من إنجازات كافياً لتغطية هزائمه في مصر ، وأوعز ما حل به إلى القضاء والقدر .

وقد تم الحصول على معلومات جيدة مما كتبه المؤرخ (**M.michaud**) أودعها في كتابه " Biblioteque des croisades" حيث قدَّم الجزء الرابع من هذا الكتاب معلومات قيمة ، وأمد البحث (**W.B.Stevenson**) بمعلومات مختصرة وموجزة في كتابه "The crusaders".

وهنا يطيب لي في هذا المقام التوجه بالشكر الجزيل إلى كل الذين أسهموا في كتابة وتحقيق وترجمة هذه المصادر والمراجع ، لأنها توضِّح الصفحات المشرقة من تاريخ أمتنا العريق .

تمهيد

إن الحروب الفرنجية (١) الصليـــبية التي شنها الغرب الأوربي على المشرق العربي الإسلامي ، بمثابة حرب عدوانية استيطانية استهدفت ضرب المسلمين وتسربلت برداء الدين زوراً وبهتاناً(٢) ، وقد بدت تلك الحروب مشروعاً فرنسياً جسداً وروحاً ، ولعل فرنسا كانت أقدر من سواها على دعم الكيان الصليـــبي بالمستلزمات المادية والمعنوية حيث شكل الفرنسيون معظم المشاركين في الحملات الصليـــبية وكذلك المستوطنين ، وغالبية أفراد المنظمات العسكرية (٣) ، وأصبحت فرنسا مهد الحملات الصليـــبية بل و تصدر ملوكها قائمة المشاركين فيها، ومن أهم ملوكها الذين أسهموا في تلك الحملات لويس التاسع (٤) .

وُلد لويس التاسع سنة ٦١١هـــ/١٢١٤م في مدينة بواسيه (poisser) الفرنسية ، و هو سليل أسرة كابيه الملكية الشهيرة التي أسسها هُيو كابيه سنة ٣٧٧هـــ/٩٨٧م ، وقد تم تعميد لويس التاسع في كنيسة بواسيه (٥) .

---

(١) الفرنجة : عرفت الحروب الصليـــبية بالحروب الفرنجية نسبة إلى الفرنج ، والمقصود بهم الفرنسيين الذين أسهموا بشكل فعال في تلك الحروب فعرفت باسمهم ، حتى أن كلمة فرنسا مستمدة من كلمة فرنجة . القلقشندي ، أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح : نبيل الخطيب، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م، ج٥، ص٣٨٩ .

(٢) كومنين ، آنا كومينا : الالكسياد ، الموسوعة الشامية ، تحقيق وترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م، ج٦، ص١١ ؛ تشارتز ، فولتشراوف : تاريخ الحملة إلى القدس ، الموسوعة الشامية ، تحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م، ج٦، ص٣١٠ – ٣٦٦ .

(٣) مجهول : يوميات صاحب أعمال الفرنجة ، الموسوعة الشامية ، تحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م، ج٦ ، ص٨٧-٥٤١ ؛ مجهول : ذيل تاريخ وليم الصوري ، الموسوعة الشامية ، تحقيق وترجمة : سهيل زكار، دار الفكر ، دمشق، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م، ج٨ ، ص٣٧٥-٤٠٢ .

(٤) الغزي ، كامل: نهر الذهب في تاريخ حلب ، تح: شوقي شعث ومحمود فاخوري ، دار القلم ، حلب ، ١٤١٣/١٩٩٣م ، ج٣، ص٥٨٢-٥٨٣ .

(٥) رفعت ، محمد وحسونة ، محمد : معالم تاريخ العصور الوسطى ، مطبعة المساهمة المصرية ، ١٣٤٧هـــ/١٩٢٨ م، ص ١١٢-١١٥؛
Rice , D.S: le baptistere de sant Louise ,Paris,1951 , p 9 .

وعُرف بالفرنسيس وهذه التسمية مستمدة من المملكة الفرنسية التي حكمها لويس التاسع وأدار شؤونها (١).

نشأ لويس التاسع وترعرع في كنف والده الملك الفرنسي لويس الثامن (٢) ، ووالدته بلانشيه القَشتالِية (Castille) ، وعاش مع إخوته وأخواته الذين بلغ عددهم اثنا عشر نفراً ، وقد اهتمت بلانشيه بأبنائها ، وخصوصاً لويس التاسع لأنه كان مُرشحاً لاستلام الحكم بعد والده كونه أكبر أبنائه سناً(٣).

أما عن صفات لويس التاسع الجسدية ، فقد اتصف بقامةٍ طويلة،وجسم ممتلئ ، وشعر أشقر ، وبشرةٍ بيضاء اللون(٤).

وعندما فارق الملك الفرنسي لويس الثامن الحياة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ، استلم ابنه لويس التاسع ملكاً على فرنسا تحت وصاية والدته بلانشيه ، فاهتمت بتربيته وتهذيبه وتوجيهه(٥)، وأرست في قلبه احتراماً كبيراً نحو الأشياء المقدسة منذ نعومة أظفاره وحباً شديداً للعفاف ، وأمضى ساعات طويلة من نهاره في الاستماع إلى القداسات وتلاوة الإنجيل المقدس ، وتعلّم التاريخ والجغرافية والأدب عن خيرة المدرسين (٦) ، وأما أوقات فراغه فأمضاها في الصيد(٧)، فأصبح ذا عقلٍ ناضج ،

---

(١) الدواداري ،عبد الله : كنسز الدرر و جامع الغرر(الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) ، تح: سعيد عاشور، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م ، ج٧، ص٣٦٥ .

(٢) لويس الثامن: استلم حكم فرنسا سنة ٦٢٣-٦٢٤هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م ، وهذه المدة الزمنية القصيرة لم تمكنه سوى من محاربة الهراطقة الفرنسيين . الغزي : ج٣، ص٥٨٣ .

(٣) http://www.nndb.com/peopel/231/00009292

(٤) رنسيمان،ستيفن:تاريخ الحروب الصليـــبية ، تر : السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، ط٢، بيروت ،١٤٠١ﻫ/١٩٨٠م، ج٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) الغزي : ج٣ ،ص٥٨٣؛

Encyclopedia alphabetque:Italie,volume15,p2103.

(٦)مونرود ،مكسيموس : الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب (تاريخ الحروب الصليـــبية)،تح:مكسيموس مظلوم ، طباعة دير الرهبان الفرنسيسكان ،أورشليم ،١٢٨٢ﻫ/١٨٦٥م،ص٢٩٦.

(٧)ديورانت ، ول : قصة الحضارة ،تر:محمد بدران ،بيروت وتونس ،ج١٥ ،ص٢٢٨ ؛

The new encyclopaedia Britannica : London and Tokyo , volume 7 , 1768 , p496 .

اتصف بحب الفضيلة ، والميل إلى التقشف الشديد ، وأحس بضرورة القيام بواجبه تجاه مملكته،واشتهر بعدله(١) ، وكان يردد دائماً مقولته الشهيرة" إنه عمل شرير أن تأخذ أملاك الآخرين" (٢).

ولكن هل حقاً طبق لويس التاسع هذا المبدأ قولاً وفعلاً ؟..................

تعلق قلب لويس التاسع برجال الدين ولازمهم في حلهم وترحالهم للاستفادة من أفكارهم الدينية الكاثوليكية ، حتى غدا متعصباً لدينه فلم يتساهل مع الهراطقة و لم يرحمهم أبداً(٣).

وعندما ظهر في مدينة(ألبى) (Alba) الفرنسية جماعة من الغلاة الدينيين المتطرفين الذين عُرفوا بالألبيين تعامل معهم بمنتهى الشدة ، وتمكن بذكاء والدته من قمع تمردهم ، والقضاء على حركاتهم .(٤)

أما البارونات الفرنسيين فقد استغلوا صغر سن ملكهم إثر استلامه للحكم ،وظنوا أن بإمكانهم تحقيق أطماعهم في ظل حكومة ترأستها امرأة وطفل صغير، فتمردوا عليه وعدوا عمه فيليب كونت بولونيا سيداً لهم بدلاً من لويس التاسع ،وقدموا له الولاء والطاعة وأخذوا يأتمرون بأمره متجاهلين الملك الشرعي لويس التاسع والملكة بلانشيه الوصية عليه؛كما طالبوا والدته بلانشيه بمنحهم ممتلكات كبيرة ،ولكنها جردت الجيوش وأرسلتها لقتالهم ،وأجبرتهم على الخضوع والانصياع لأوامرها (٥)،"وخمدت الزوبعة التي قامت وأرعبت حكومة الطفل" (٦).

وعندما صار لويس التاسع في ريعان الشباب تزوج سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م من مارغريتْ ابنة رِيموند برِنغير الرابع كونت بروفَانسْ (profence) والتي لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها (٧).

---

(١)جوانفيل،جين: حياة لويس الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تح وتر: سهيل زكار ،دار الفكر ، دمشق،١٤٢٩هـ/١٩٩٩م،ج٣٥ ،ص١٧_٢٠ ؛ رنسيمان: ج٣ ، ص٤٣٩.

(٢)جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٢١.

(٣)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٣٠ ؛ بردج ، انتوني : تاريخ الحروب الصليبية ،تر : أحمد سبانو ونبيل الجيرودي ،دار قتيبة ،دمشق ،١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ،ص٢٦٢_٢٦٣ .

(٤) http : // www . newadvent . org / cathem /. 9368a . htm

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٨_٤٣ ؛

Maier, Christoph : preaching the crusades , cambridg , press , 1994 ,p69-70 .

(٦) المهندس ،محمود : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، المطبعة الأميرية ، ط١ ، بولاق، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، ج٣ ، ص٢٥١ .

(٧) المهندس: ج٣ ، ص٢٥١ ؛ ديورانت : ج١٥ ، ص٢٢٩ .

لكن مالبث أن تمرد البارون الفرنسي هيُو العاشر كونت لامَارشْ (la march) على لويس التاسع بعد أن اتفق مع هِنريْ الثالث ملك إنكلترا (٦١٢-١٢٧٠هـ/١٢١٦-١٢٧٢م) ، وقد أعلن كونت لامارش العصيان على لويس التاسع لعله يمنحه مزيداً من الاقطاعات ، بينما استهدف هِنريْ الثالث من مساعدة البارون إثارة الاضطرابات للملك الفرنسي أملاً في الاستيلاء على نورمنديا الفرنسية التي كانت محط خلاف قديم بين إنكلترا وفرنسا ، فشن لويس التاسع هجوماً والتقى معهُما سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م بالقرب من نهر الشَارانطْ (Charente) وانتصر عليهما ، وفر هِنريْ الثالث بجيشه عائداً إلى إنكلترا ، بينما فرض لويس التاسع على البارون ضرائب مالية عقاباً له ، وعندما أدرك البارون أن لا جدوى من التمرد أعلن الطاعة لسيده لويس التاسع (١) ، وعاشت فرنسا في استقرار واطمئنان ، وشهدت في عهد لويس التاسع أماناً ورخاءً لم تنعم به منذ العصر الروماني (٢) .

وفي أواخر سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م أصيب لويس التاسع بحمى الملاريا ،مما ألزمه الفراش وأعجزه عن الحركة حتى يئس المحيطون به من شفائه ، وأفاق من غيبوبته ،فنذر إذا ما شفي من مرضه لَيخرُجنّ على رأس حملة صليـــبية دفاعاً عن صليـــبيي مملكة عكا بعد أن وصلتهم أنباءً محزنة عن أوضاعهم هناك(٣). وهنا كيف كانت أوضاع الصليبيين في الشرق آنذاك ؟

إستقطب الصالح نجم الدين أيوب الخوارزمية(٤)، لاستخدامهم في ضرب الصليـــبيين وحليفهم الصالح إسماعيل صاحب دمشق ،فأعد الخوارزمية جيشاً جراراً بلغ ما يقارب عشرة آلاف مقاتل ،وعبر ذلك الجيش نهر الفرات سنة٦٤٢هـ/١٢٤٤م ،ووصل إلى دمشق ، فوجدها مُحصنة صعبة المنال ، وقد تحصن الصالح إسماعيل بداخلها ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٤٧_٤٨ ؛ الخوري ، سليم : تاريخ فرنسا ، مطبعة العرفان، صيدا ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ، ص١٤ ؛ Collier encyclopedia : new York , 1985 , volume 10 , p280 .

(٢) ديورانت : ج١٥ ، ص٢٣٠ ؛ Miquel , Pierre: I , histoire de France , Geneve , 1995 , p51 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٥٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٥٨ ، ص١٨٧٦_١٨٧٧ ؛ رنسيمان : ج٣، ص٤٣٩_٤٤٠ ؛ Brentano, Funck : les croisades , france , 1934 , p106-108 .

(٤) الخوارزمية : أسس هذه الأسرة محمد بن أنوشتكين سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م في خوارزم ، وكانت نهايتها على يد المغول سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ،فتحول جنودها إلى مرتزقة ، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب. النسوي ، محمد: سيرة جلال الدين منكبرتي ، تح: حافظ حمدي، دار الفكر، مصر ، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م ، صفحات متفرقة .

وهنا تابع الخوارزمية المسير إلى طبرية واستولوا عليها من أيدي الصليـــبيين (١) .

ثم هاجم الخوارزمية بيت المقدس واستماتت الحاميات العسكرية الصليـــبية بالدفاع عن نفسها ،وطلبت النجدة من الناصر داود صاحب الكرك مستغلة سوء علاقته مع الصالح نجم الدين أيوب ،فاقترح الناصر داود على الخوارزمية إعطاء الصليـــبيين الأمان مقابل تسليم بيت المقدس ،وبعد أن أعطوهم الأمان خرج نحو ستة آلاف صليـــبي ، وساروا نحو يافا ، و لم يبتعدوا كثيراً ،ولسوء حظهم أن جماعة منهم تطلعت نحو الوراء ، وإذا بأعلام صليـــبية ترفرف على أسوار القدس ،فظنوا بأن نجدات صليـــبية قد وصلت ،ودحرت الخوارزمية،لكنهم وقعوا في الكمين الذي نصبته لهم الخوارزمية (٢)،فقتلوا معظمهم، وبذلك أعاد الخوارزمية بيت المقدس إلى أحضان المسلمين (٣)،ثم تابعوا مسيرهم إلى غزة وانضموا إلى الجيش الذي أرسله الصالح نجم الدين أيوب بقيادة ركن الدين الهيجاوي ،بينما شكل الصليـــبيون جيشاً بالاتفاق مع حليفهم الصالح إسماعيل ، وقد تميز ذلك الجيش بضخامته حيث لم يجتمع لهم مثل ذلك الجيش منذ معركة حطين ،والتقى الطرفان في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، والتحم الطرفان ، وما هي إلا ساعات قليلة حتى فرَّ الجيش الشامي ، وبقي الجيش الصليـــبي وحيداً في المعركة ،فتم تدمير الجيش الصليـــبي وإبادته إبادة شبه تامة (٤) ، ثم هاجموا المعاقل الصليـــبية،فساءت أوضاعهم وانحسرت حدود مملكتهم (٥)، وتعالت الأصوات الصليـــبية مطالبةً بالنجدات الأوربية ،وقد أعد رُوبرتْ بطريرك بيت المقدس سفارة تألفت من جاليران أسقف بيروت ،وألبرت بطريرك أنطاكية ،وأرسلها إلى البابا أنوسنت الرابع .

---

(١) ابن سباط ،حمزة :صدق الأخبار ،تح:عمر تدمري ،دار جروس بروس ، ط١،طرابلس، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م،ج١، ص٣٢٣_٣٣٢ ؛ عاشور سعيد:الحركة الصليـــبية ،مكتبة الأنجلو المصرية ،١٣٨٣هـ/١٩٦٣م،ج٢،ص١٠٤٤_١٠٤٥.

(٢)باريس ،متى: التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكاز ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ج٤٧، ص٦٥٨_٦٦١ ؛ رنسيمان : ج٣، ص٣٩١_٣٩٣ .

(٣)المقريزي ، أحمد :السلوك لمعرفة دول الملوك ،تح:محمد زيادة ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢، القاهرة ،ج١،ص٣١٦؛ باريس : الموسوعة ،ج٤٧،ص٦١٨_٦٢٠ .

(٤)ابن سباط : ج١،ص٣٣٠_٣٣١ ؛ أبو الفداء ، إسماعيل : المختصر في أخبار البشر ،تح:محمود ديوب ، دار الكتب العلمية ، ط١ ،بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م،ج٢،ص٢٧٦_٢٧٧ ؛ النويري ، أحمد :نهاية الأرب في فنون الأدب ،تح:محمد الريس ،دار الهيئة المصرية للكتاب ،١٤١٢هـ/١٩٩٢م،ج٢٩،ص٣٠٥_٣٠٧ .

(٥) سبط ابن الجوزي ، يوسف:مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ،دائرة المعارف العثمانية ، ط١،حيدر أباد الدكن – الهند، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م،ق٢ج٨،ص٧٦٦ ؛ اليافعي ،عبدالله :مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،تح:خليل المنصور ،دار الكتب العلمية، ط١،بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م،ج٤،ص٨٧ .

وصلت السفارة الصليـــبية إلى البابا أنوسنت الرابع ، وبينت له خطورة الموقف الذي آلت إليه أوضاعهم وطالبته في الحصول على المساعدات الأولية (١) ، أملاً في استمرار بقاء الكيان الصليـــبي في الوقت الذي كان فيه البابا منشغلاً بالصراع مع الإمبراطور الألماني فِردِريكْ الثاني (٦٠٨-٦٤٨هـ/١٢١٢-١٢٥٠م) بعد أن برزت أطماعه في أملاك البابا الذي فر هارباً من إيطاليا إلى مدينة ليون الفرنسية ،وبعد أن التقت السفارة معه وشرحت له الحالة المأساوية التي مرَّ بها الصليبيون ،عقد اجتماع في مدينة ليون سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م للتداول في اتخاذ التدابير اللازمة ، إزاء الكوارث التي حلت بساحتهم ،وأقر البابا في نهاية الاجتماع بضرورة الإسراع في إرسال حملة صليـــبية جديدة لإنقاذ الصليـــبيين قبل فوات الأوان (٢)،وإذا ما تم النظر إلى أوضاع أوروبة يلاحظ بأنها كانت غير مستقرة حيث مزق الصراع إيطاليا وألمانيا نتيجة لأطماع فِردِريكْ الثاني في مد نفوذه ، والتوسع في إيطاليا على حساب البابا (٣)،بينما انشغل ملك إنكلترا هِنرِيْ الثالث بالصراع مع باروناته ،أما النروج فقد أصدرت وعوداً واهية بدعم الصليـــبيين لكنها لم تف بشيئ من وعودها،وعلى هذا فالغرب الأوربي لم يكن مستعداً لتقديم المساعدات لمملكة عكا اللاتينية التي كانت تنادي بطلب النجدات (٤)،ويمكن استثناء فرنسا التي حكمها لويس التاسع ، وضبط أوضاعها ،وقضى على التمرد فيها ، وسادها الأمن والاستقرار،والأهم من ذلك كله تعصبه الديني ، وحقده الشديد على كل ما هو غير مسيحي (٥) ،

---

(١) باريس: الموسوعة ،ج٤٧،ص٦٦٧، ٨٢٠_٨٢١ ؛ طقوش ،محمد سهيل :تاريخ الأيوبيين ،دار النفائس ، ط١، بيروت، ،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م،ص٣٧٧_٣٧٨ ؛

Thorau, Peter: the lion of Egypt sultan baybars,londn and new york ,1978,p33.

(٢)فابري،فيلكس :جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ، الموسوعة الشامية ،تح وتر:سهيل زكار ، دمشق،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م،ج٤٣،ص١١٧٠_١١٧١ ؛ الدويهي،اسطفانوس :تاريخ الأزمنة ١٠٩٥_١٦٩٩م،تح: فردينان اليسوعي،المطبعة الكاثوليكية ،بيروت ،١٣٧١هـ/١٩٥١م،ج٢،ص١١٩.

(٣)دي نوفارا ، فيليب :حروب فِردِريكْ الثاني ضد الإيبلينيين في سورية وقبرص ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دمشق ،١٤١٩هـ/١٩٩٨م،ج٣٤،ص٦١_٦٥؛ باريس ، متى :التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ،دار الفكر،دمشق ،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م،ج٤٦،ص٤٠_٢٩٢ ؛ ج٤٧،ص٨٢٨_٨٢٩ .

(٤) باريس ، متى : التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ج٤٨، ص٩٨٥ ؛ زابوروف ، ميخائيل : الصليبيون في الشرق ، تر : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٣١٠-٣١١ ؛

(٥)المقريزي :السلوك ،ج١،ص٣٣٤.

وكانت فرنسا هي المرشحة لقيادة الحملة الصليـــبية ،وقد أشار أبو الفداء بأنها " أمة عظيمة"(١)،أما الدواداري فوصفها بأنها من أكثر ممالك أوروبا "قلاعاً وجموعاً"(٢)،ويلاحظ من ذلك أن فرنسا كانت دولة آمنة مستقرة ، ولها وزنها الاستراتيجي في أوربة ، وقد أسهمت بشكل كبير في المشروع الصليـــبي ،وكانت مستعدة دائماً لدعم الكيان الصليـــبي،بل ومتحمسة لإعداد حملة صليـــبية ، وإنقاذ مملكة عكا اللاتينية (٣) ، وذلك لأسباب عديدة ومن أهمها ما يلي :

أ_السبب الشخصي:أصبح الملك الفرنسي لويس التاسع شاباً يافعاً ، لكن والدته كانت هي الحاكم الفعلي للمملكة الفرنسية ، ولا يمكنه القيام بأي عمل دون استشارتها ،ولم تتدخل في شؤون الحكم فحسب بل حتى في حياته الشخصية (٤) حيث عاملت زوجته بقسوة ، ولربما وجد لويس التاسع في حملته الصليـــبية مهرباً له من سطوة والدته (٥) .

ب_السبب الديني :إن أنباء الهزائم التي مُني بها الصليـــبيون على أيدي الأيوبيين والخوارزمية ، وخسارة الصليـــبيين لبيت المقدس قد وصلت إلى أوربا، فألهبت مشاعر الفرنسيين الذين عُرفوا بتعصبهم الديني ، وأثارت الروح الصليـــبية في قلوبهم، فعقدوا العزم على استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين(٦) .

جـ _السبب الاقتصادي :ما إن استقرت أوضاع المملكة الفرنسية حتى أخذت بتنمية اقتصادها ، وقد بدا أنها بحاجة إلى مد نفوذها في بلاد غنية كبلاد الشام ومصر، والسيطرة على موارذها الاقتصادية وتقوية المستعمرة الفرنسية في الشرق (٧) .

---

(١)أبو الفداء :المختصر ، ج٢ ، ص٢٧٤.

(٢)الدواداري : ج٧،ص٣٦٥ .

(٣)المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣١٦_٣٣٣ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٧ ، ص٦١٨_٦٢٢ .

(٤) يمكن إيراد أحد الأدلة على تدخل بلانشيه في حياة لويس التاسع الشخصية حيث لم تسمح له أن يلتقي مع زوجته إلا أثناء النوم ليلاً ، وقد كانت تقطن في الطابق السفلي ، أما لويس وزوجته في الطابق العلوي ، ولكل من الزوجين غرفته الخاصة ، وإذا ما أراد أحدهما أن يذهب لغرفة الآخر كان يحسب حساب لبلانشيه ، فكانا قد كلفا الحُجاب بتنبيههم فيما إذا صعدت بلانشيه إلى الطابق العلوي .جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢١٨_٢١٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٢١٨_٢١٩ ؛ بردج : ص٢٦٣_٢٦٤ .

(٦) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٠_١١٧١ .

(٧) ابن واصل ، محمد: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت ، ج٦، ص٧٢ ؛ الدواداري : ج٧ ، ص٣٦٥_٣٦٦ .

وعندما سمع البابا بالحماس الفرنسي للقيام بحملة صليبية بارك خطواتهم ،وما إنْ شفي لويس التاسع من مرضه حتى أرسل البابا الدعاة والمبشرين لجمع الهبات والتبرعات من أنحاء أوربة كافة(١) ، بينما عمد لويس التاسع إلى حث الصليبيين ، واستنهاض الهمم ، وإثارة المشاعر الدينية ،وقد حذا حذوه إخوته الثلاثة والكثير من رجال الدين والبارونات والمتطوعين (٢) .

وراح البابا أنوسنت الرابع يسعى لكسب قوة جديدة ضد المسلمين بعد أن تأثر مثله مثل الكثير من الأوربيين بالشائعات التي انتشرت حول شخصية برستر جون (يُوحَنّا) ، وفحواها بأنه سيظهر إمبراطور مسيحي في الشرق ،وسيكون لذلك الإمبراطور دور كبير في إعلاء شأن المسيحيين واستعادة بيت المقدس لهم من أيدي المسلمين (٣) ، وظنوا أن برستر جون لعله أحد قادة المغول (٤) ،بعد انتشار المسيحية بين صفوف بعض أفراد المغول (٥) ، فأرسل البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) سفارات عدة إلى المغول ،ووصلت إحدى السفارات إلى العاصمة المغولية قراقورم ، والتقت بالخان المغولي الأكبر كيوك سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ، وعرضت عليه اعتناق المسيحية لكنه لم يتقبل الفكرة (٦) ، ومن المحتمل أن كيوك فكر أنه إذا دخل المسيحية قد لا يلقى القبول من قبل شعبه ،ولربما يجد معارضة،لأنه في ذلك تغيير لدين آبائه وأجداده ، وقد يكلفه هذا التغيير خسارة منصبه كخان أعظم للمغول ،فلم يرغب بتغيير دينه و لم يبدِ رغبة في عقد حلف مع البابا ، فعادت السفارة إلى أوربا خائبة .

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص٨٥٤_٨٥٥ ، ٨٥٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٥٠_٥١ .

(٣) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٣٧_٤٣٨ ؛ بردج : ص٢٦١ .

(٤) أصل المغول : أحد الشعوب التركية التي استقرت في منغوليا ، وقد عُرفوا بحب السلب والنهب ، وأفخر ملبوساتهم جلود الكلاب والنموس ، ولمع المغول إثر ظهور جنكيز خان سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م من قبيلة قيات ، حيث وحَّد المغول ، ووضع لهم القوانين ، وقد فارق الحياة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وإثر وحدتهم امتدت حدود دولتهم من الصين إلى شرق أوربا. الذهبي : الأمصار ذوات الآثار ، تح: قاسم سعد ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢٩-٣٧ ؛ القرماني ، أحمد : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح : أحمد حطيط وفهمي سعيد ، دار عالم الكتب ، ط١،بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، مج٢ ، ص٤٨٧-٤٩٤ .

(٥)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص١٧٥_١٨١ .

(٦)الجويني ،عطا :تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، تر:محمد التو نجي ، ط١، دار الملاح ،١٤٠٥ه/١٩٨٥م، مج١، ص٢٣٠_٢٣٧؛ مصلح ، حفظ الله :العلاقات بين المغول والصليبيين وأثرها على الأمة العربية الإسلامية ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة دمشق ،١٤٢٧ه/٢٠٠٦م،ص٣٦_٣٧ ؛

Brellier, Louis :L, eglise et L orient au moyen age(les croisade),paris,1921,p222.

وعندما أدرك البابا أنه لا جدوى من استجداء المغول ،قرر الاعتماد على موارد أوربا لتجهيز الحملة الصليـــبية السابعة ،وقد استغرق إعدادها ثلاث سنوات (١).

وما أن حان موعد الرحيل حتى أخذ لويس التاسع بتسوية علاقاته مع جيرانه للحفاظ على مملكته خلال غيابه عنها حيث توصل لعقد اتفاقية مع ملك إنكلترا هنريْ الثالث تضمنت إقامة سلام بين الطرفين ،والتزام الهدوء ، وعدم إثارة المشاكل لفرنسا طيلة مدة غياب لويس التاسع عنها ،وبعد أن أمّن جانب إنكلترا (٢)،أراد ضمان موافقة ألمانيا ، فما هو موقف الإمبراطور الألماني فردِريكْ الثاني من الحملة الصليـــبية السابعة ؟

بداية لا بد من التنويه إلى أن كونراد ابن فردِريكْ الثاني كان هو الملك الشرعي لمملكة عكا آنذاك (٣)،وبما أن الحملة الصليـــبية السابعة استهدفت الدفاع عن الصليبيين في مملكة عكا،لذلك وجد فردِريكْ أن موقفه حرجاً فيما إذا عارض مسير الحملة ،لأن لويس التاسع قد حظي باحترامه وتقديره كونه سعى جاهدا للإصلاح والتوفيق بينه وبين البابا أنوسنت الرابع (٤) ، ولكن مسير الحملة الفرنسية سوف يُشكل خطراً كبيراً على مملكة ابنه كونراد ،كونها اتخذت طابعاً فرنسياً ،فقائد الحملة فرنسي ، وغالبية المشاركين فيها هم من الفرنسيين ، مما أخاف فردِريكْ الثاني الذي خشي من ازدياد النفوذ الفرنسي على حساب النفوذ الألماني (٥) ، وبشكل خاص بعد أن تلاشت القوة العسكرية التي كانت بقيادة مندوب فردِريكْ الثاني لوثير فيلا نجييري ،حيث هُزم لوثير وسقطت صور آخر معقل له منذ سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، ولم تبق سوى بعض الحاميات العسكرية الألمانية الصغيرة التي غدت ضعيفة بعد أن أصبح آل إبلين هم الحكام الفعليين لمملكة عكا (٦) ، وبشكل عام يلاحظ بأن فردِريكْ الثاني لم يطمئن للحملة الصليبية السابعة ، وأصبح موقفه حرجاً أمام لويس التاسع ،

---

(١)رنسيمان : ج٣،ص٤٦٦_٤٧٤ ؛ كريستوفر ، مارشال، :فن الحرب في الشرق اللاتيني، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،ج٨٣،ص١٠٣_١٠٥.

(٢) باريس: الموسوعة ،ج٤٧،ص٨١٥ ؛ رنسيمان :ج٣ ، ص٤٢١_٤٢٢.

(٣)دي نوفارا : الموسوعة ،ج٣٤،ص٦٢ .

(٤) باريس: الموسوعة ،ج٤٧،ص٨١٤_٨١٥ ؛ باركر ، ارنست :الحروب الصليـــبية ،تر : السيد الباز العريني ،دار النهضة العربية ، ط٢، بيروت ،د.ت،ص ١٢١ .

(٥)الدواداري : ج٧،ص٣٦٥_٣٦٦.

(٦)دي نوفارا : الموسوعة ،ج٣٤،ص٦٣_٦٥ ؛ باركر : ص١١٧.

فأخذ يعمل من وراء الكواليس ،حيث أعد سفارة ارتدت زيّ التجار ، وأرسلها إلى الصالح نجم الدين أيوب ليستعد للمواجهة ، ويتصدى للحملة السابعة ،وبذلك يُمكن لفردريكْ الثاني تحقيق مكاسب عديدة هي على الشكل الآتي :

١ـ كسب مودة لويس التاسع والظهور أمامه بل وأمام الشعب الأوربي بمظهر الإنسان الغيور على مصلحة الصليــبيين .

٢ـ تقوية علاقته مع الصالح نجم الدين أيوب .

٣ـ رغبة فردريكْ الثاني في أن ينال رضا البابا أنوسنت الرابع ، أو على الأقل عدم مهاجمة البابا له.

أما لويس التاسع فشعر أنه لم يضمن تأييد فردريكْ الثاني لكنه لم يلقَ معارضته (١) ، وهنا جمع لويس التاسع البارونات الفرنسيين ، "وجعلهم يقسمون له إذا ما حدث له حادث أن يبقوا مخلصين وأوفياء لأبنائه"(٢)من بعده ،وسلّم المملكة الفرنسية إلى والدته بلانشيه القَشتالية ،وشرع بالرحيل سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وبرفقته زوجته مارغريتْ ،واثنان من إخوته وهما رُوبرتْ كونت أرتوا،وشارل كونت آنجو، والكثير من الأمراء الفرنسيين والجنود ،ثم لحق به مؤرخ الحملة جون جوانفيل(٣) .

أبحرت الحملة من ميناء إيجْ مُوريتْزْ (Iage Mortes)بقيادة لويس التاسع ،بينما أبحر جزء آخر من ميناء مَرسِيليا (Marsilia) ، وعلى رأسهم أبناء عم لويس التاسع ، وهما هيُو دوق برجَنديا وبيير (بطرس) الطيب كونت بريتانيْ (Brittany) (٤)، وسارت الحملة بمحاذاة سواحل المغرب العربي (٥) ،ووصلت إلى ميناء ليمَاسولْ (LIMASSOL) القبرصي ،وقد استقبلهم في الميناء ملك قبرص هنريْ الأول لوزجنان (٦٤٤-٦٥١هـ/١٢٤٦-١٢٥٣م) بكل حفاوة وتكريم ،وأعد لهم أفخر أنواع الأطعمة والخمور ، وقد أمده لويس التاسع بالأموال فكدَّس لهم تلال من القمح والشعير ، وإثر تعرضها للأمطار بدت وكأنها روابي خضراء (٦) ،

---

(١)الدواداري : ج٧،ص٣٦٦ ؛ رنسيمان : ج٣،ص٤٤٢.

(٢)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٥٢.

(٣) باريس: الموسوعة ،ج٤٨ ص٩٦٢.

(٤) مونرود : مج ٢ ، ص٢٠٤ ؛ Brellier:op.cit,p.222.

(٥) يُنظر المصور رقم (٢) ، ص٣٠١ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٥٥ـ٥٨ .

وبعد وصول الحملة لحق بها عدد من النبلاء الانكليز بقيادة وليَمْ لونغيسبيْ (١) (Wiliam Longuespee) على رأس مائتي فارس (٢)،ثم وصل أمراء صليـــبيي مملكة عكا ، ومقدمو المنظمات العسكرية إلى قبرص للترحيب بالحملة ،والاتفاق مع قائدها على وضع خطة تستأصل المسلمين من جذورهم (٣)،وقد قرر الجميع مهاجمة مصرأولاً ،لكن لماذا اتفقوا على مهاجمة مصر دون غيرها ؟

بدت مصر لهم بأنها مركز الثقل الإسلامي بل وزعيمته ،بعد أن تَركزت فيها القوة العسكرية والاقتصادية، كما أن مصر مقر السلطنة الأيوبية التي كان بيدها مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين آنذاك منذ استعادتها من أيدي الفرنج (٤) ، وأشار ابن واصل إلى أن لويس التاسع عندما "حدثته نفسه أن يستولي على البيت المقدس للفرنج ، عَلم أن ذلك لا يتم إلا بتملك الديار المصرية " (٥) ، وربما توقع أنهم إذا سيطروا على بيت المقدس فإن جيوشاً جرارة ستأتي من مصر وتهدم كل ما بنوه ، فوجدوا أنهم إذا ما استولوا على مصر فقد ملكوا بلاد الشام (٦) .

بدأ لويس التاسع متحمساً لمهاجمة مصر ، وكان الوقت آنذاك مع بداية فصل الشتاء ، ولكن قادة

---

(١) وليم لو نغيسبي(سالبوري) : هو حفيد هنريْ الثاني ملك إنكلترا ، وقد قاد وليم الكثير من النبلاء الإنكليز ، وانضموا إلى حملة لويس التاسع ، وإثر عبور أشموم طناح نصح وليم رُوبِرتْ كونت أرتوا الذي قاد طليعة الجيش الصليـــبي بالتريث وعدم اقتحام المنصورة ، لكن رُوبِرتْ لم يصغ إليه ، ثم توغلوا في شوارع المنصورة ، حيث أخذ أهالي المنصورة رميهم بالحجارة من أعالي منازلهم ، وقد تلقى وليم الكثير من الضربات الحجرية ، مما أدى لإصابته بنـــزيف كان سبباً في لفظ أنفاسه الأخيرة في المنصورة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م باريس: الموسوعة، ج٤٨ ، ص٩٦٢-٩٦٣، ١١٣٦-١١٣٩؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٣٤ ، ٤٥٩-٤٦٠.

(٢) باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ،ص٩٦٢_٩٦٣.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٦٠_٦٢ ؛ Iorga , Nicolas : France de chypre ,Paris ,1931 ,p40- 41 .

(٤) فابري : الموسوعة ،ج٣٨ ،ص١١٧٠_١١٧٢.

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٢ ؛ سانوتو ، مارينو : كتاب الأسرار ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ج٣٦، ص٢٣٨ .

(٦) دوبوا، بيير : استرداد الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م ج٣٦ ، ص١١٧ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٤٤_٤٤٥ ؛ Stambouli, Raymond : les clefs de jeresalem (deux croisades des francaises en Egypt , Paris , 1991 , p253-252 .

الصليـــبيين لفتوا انتباهه إلى أن هبوب العواصف الشتوية ربما يؤدي لمشاكل لا تُحمد عقباها ، وإن من الأفضل الانتظار حتى مطلع الربيع ريثما تهدأ العواصف الشتوية ، فاضطر للانتظار في قبرص (١) ،وأثناء وجوده في قبرص نصحه قادة الصليبيين باستغلال النــزاعات الأيوبية ، وذلك إثر مهاجمة الناصر يوسف الثاني ملك حلب لابن عمه الملك الأشرف موسى صاحب حمص ، واستيلائه على حمص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، فاستجار الأشرف بالسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي جرد جيشاً وحاصر حمص ، مما أدى لتدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله لتسوية الخلاف بينهما (٢) ، في الوقت الذي وصلت فيه سفارة من قبل فردريكْ الثاني ، وأخبرت الصالح نجم الدين أيوب بأن لويس التاسع قد قاد حملة صليـــبية ، وينوي مهاجمة الأيوبيين ، فتم تسوية الخلاف على وجه السرعة ، وفكّ الجيش المصري الحصار عن حمص عائداً إلى مصر (٣) ؛ وقد أخذت منظمة الداوية (٤) تسعى لمساعدة الصالح نجم الدين أيوب ضد الناصر يوسف الثاني مقابل بعض التنازلات ، ولكن عندما سمع لويس التاسع بذلك أمرهم بعدم إجراء أية مفاوضات مع المسلمين لأنه لم يأت لاستخدام الدبلوماسية والوسائل السلمية ، ولن يرضى عن السيف بديلاً(٥) .

---

(١) العمري ،أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : حمزة عباس ، دار المجمع الثقافي ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢٩ ، ص٣٣٦ ؛ Kedar , Benjamin: crusade and mission , united states of America , new jersey , 1984 p160-161 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٣ ؛ ابن كثير ، إسماعيل : البداية والنهاية ، تح: عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، ط٢، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج١٧ ، ص٢٩٧_٣٠٤؛
Thorau : op . cit , p19-20.

(٣) الدواداري : ج٧ ، ص٣٦٥_٣٦٦ .

(٤) الداوية : قامت على الحماس الديني والفروسية في آن واحد ، وتشبه الاسبتارية من حيث النشأة حيث اقترح الفارس الشامباني هوك دي بايان (Hugues de Payens) على ملك بيت المقدس بلدوين الثاني (٥١٢-٥٢٤ هـ/١١١٨-١١٣٠م) إنشاء منظمة عسكرية للدفاع عن الحجاج الصليـــبيين سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ، فسمح لهم بالإقامة جانب مسجد قبة الصخرة،فعرفوا بفرسان المعبد ، وانخرط في تلك المنظمة أبناء العظماء والعوام ، ثم انهالت عليها المنح من الشرق اللاتيني وأوربا ، مما زاد في ثراءهم فتخلوا عن حياة الفقر والتقشف . ماب ، وولتر: ما جاء عند وولتر ماب عن الحروب الصليـــبية ، الموسوعة الشامية ، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٣٥ ، ص٣٨٤-٣٨٦ ؛ السوري ، ميخائيل: روايات ميخائيل السوري الكبير ، الموسوعة الشامية ، دار الفكر ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج٥ ، ص١٠٥-١٠٦ ؛ زكار ، سهيل وجوني ،وفاء وإسماعيل ، اكتمال : حروب الفرنجة (الصليـــبية) ، منشورات جامعة دمشق ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص٢٢٠-٢٢٣ .

(٥) ريلي سميث ، جوناثان : الاسبتارية فرسان القديس يُوحَنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠_١٣١٠م ، تر : صبحي الجابي ، دار طلاس ، ط١،دمشق ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ،ص١٨٣ .

أمضى الصليـــبيون في قبرص نهاية فصل الخريف والشتاء حتى أشرقت شمس الربيع سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وأدى ذلك الانتظار الطويل إلى استهلاك تلال القمح وبراميل الخمر التي أُعدت للحملة (١) ، من جهة أخرى استفاد لويس التاسع من قدوم الكثير من صليـــبيي مملكة عكا الذين انضموا إلى الحملة ، وكذلك وصل وليم هاردوين (٢) ، صاحب إمارة أخايا اللاتينية في بلاد اليونان على رأس أربع وعشرين سفينة حربية ، استقلتها مجموعات من المتطوعين الذين قدموا معه (٣) ، فضاقت جزيرة قبرص بنـــزلائها ، ونوه جوانفيل عن ذلك بقوله : " البحر كله بدا بقدر امتداد البصر مُغطى بقلوع السفن المبحرة ، ولقد بلغ تعداد السفن المبحرة مابين صغيرة وكبيرة ألفاً وثمانمائة سفينة" (٤) ، حتى أن ذلك العدد الكبير من السفن لم يكن كافياً لنقل ذلك العدد من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومستلزماتهم ،وقد قدر أبو الفداء وابن سباط عددهم بـــ " خمسين ألف مقاتل " (٥) .

اغتر لويس التاسع بتلك القوة الكبرى ، فأرسل من قبرص إلى الصالح نجم الدين أيوب يتهدده ويتوعده قائلاً : " إنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على الرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ماردني عن الوصول إليك وقتالك ، وقد حذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا " (٦) ، يلاحظ أن لويس التاسع اتبع حرب الأعصاب فهدد الصالح نجم الدين ، وتوعده بالويل من جيوشه الجرارة ، ولكن هل حقق ما كان يرنو إليه وساق المسلمين أمامه أذلاء صاغرين كما تمنى ؟ وما هو رد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين على رسالته ؟

---

(١) باريس: الموسوعة ،ج٤٨،ص١٠٥٧_١٠٥٨ .

(٢) وليم هاردوين: أمير أخايا والمورة منذ سنة٦٤٤هـ/١٢٤٦م وقد شارك في الحملة الصليـــبية السابعة ، ثم عاد إلى إمارته ، ودخل في صراع مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولغ حول منطقة البيلوبونيز،ثم وقع أسيراً بيد ميخائيل سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، فأجبره على التنازل عن بعض الحصون الشرقية من المورة ، ثم أطلق سراحه وبقي أميراً لأخايا والمورة حتى فارق الحياة سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م . رنسيمان: ج٣ ،ص٤٩٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٦٤_٦٥ .

(٤) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٦٤.

(٥) أبو الفداء: المختصر ،ج٢،ص٢٨٤ ؛ ابن سباط : ج١،ص٣٤٣ .

(٦) المقريزي :السلوك ،ص٣٣٤ .

اغرورقت عينا الصالح نجم الدين أيوب وانهمرتا بالدموع ، ولكن أخوفاً من لويس التاسع أخذ بالبكاء ؟(١)

فيما لو أنه كان خائفاً لفعل كما صنع والده الكامل محمد ، حيث خشي ذلك المتقاعس على سلامته وعلى مملكته عندما قدم الإمبراطور الألماني فردريك الثاني على رأس الحملة الصليـــبية السادسة ذات الإمكانيات المتواضعة سنة٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، فسلمه بيت المقدس دون ضربة سيف واحدة (٢) ، لكن الصالح نجم الدين أيوب مع اشتداد مرض السل عليه ، وبلوغه من الكبر عتيا ، إلا أنه لم ينحنِ للصعاب ، ولم يستسلم ، وأرسل إلى لويس التاسع مستهيناً بجيوشه الجرارة قائلاً له :

" ها أنا قد أتيتك بالخيل والرجال والقيود والأغلال فإن كانت لك فأنت الساعي ، وإن كانت عليك فأنت الجادع أنفك بظلفك " (٣) ، "ولابد أن تزل بك القدم فإن قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (٤) ، وكن على آخر سورة ص (ولتعلمن نبأه بعد حين) (٥) " (٦) .

أمر الصالح نجم الدين أيوب بتحصين دمياط ،وشحنها بآلات القتال ، وكلف أمراء بني كنانة وهم من البدو الذين اشتهروا بشجاعتهم للدفاع عنها ، بينما عسكر هو إلى الجنوب منها في أشموم طناح، وأرسل قائد الجيش فخر الدين بن حمويه للمرابطة في البر الغربي لدمياط ،ويلاحظ أنه أبدى اهتماماً كبيراً بدمياط ، فلماذا توقع بأن دمياط هي المستهدفة من قبل الحملة الصليـــبية السابعة ؟(٧)

هناك احتمالات عديدة ، وهي على الشكل التالي :

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١، ص٣٣٤ .

(٢) ابن أبي الدم ، إبراهيم : التاريخ المظفري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢١ ، ص٩٧٥ ؛ أبو شامة ، عبد الرحمن : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ج٢٠ ، ص٢٩٩ .

(٣) الدواداري : ج٧ ، ص٣٦٨ .

(٤) سورة النحل : الآية رقم ١ .

(٥) سورة ص : الآية رقم ٨٨ .

(٦) المقريزي : السلوك ، ص٣٣٤_٣٣٥ .

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص١٨٤ ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مراجعة : سهيل زكار، ضبط الحواشي : خليل شحادة ، دار الفكر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ج٥ ، ص٤١٥_٤١٦ .

١- تُعد دمياط أهم موانئ مصر فضلاً عن موقعها الاستراتيجي ، وإذا ما استولوا عليها صار بإمكانهم إيصال الإمدادات إلى الحملة الصليبية عن طريق نهر النيل أثناء توغلها في مصر (١) .

٢- استهداف الصليبيين لدمياط سابقاً ، حيث هُوجمت من قبل الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وهناك الكثير من الجنود الذين شاركوا فيها ، وهم أيضاً في صفوف الحملة السابعة، وقد عَرفوا جغرافية المنطقة ، وكيفية المسير فيها (٢) .

٣- ربما المدة الزمنية الطويلة التي أمضاها لويس التاسع في قبرص أدت لتسرب الأنباء إلى الصالح نجم الدين أيوب بأن الحملة ستسير نحو دمياط ، وهذا هو الاحتمال الأقرب ، مما دفع بالصالح نجم الدين أيوب للاهتمام بدمياط (٣) .

أقلعت الحملة الصليبية من ميناء ليمَاسولْ القبرصي متجهةً نحو دمياط ، وما إن اقتربت السفينة الملكية من الشاطئ حتى سمع الصليبيون هدير الأبواق، وأصوات قرع الطبول مدويةً بشكلٍ مُخيف ، وعندما أراد لويس التاسع اقتحام دمياط (٤) ، فوجئ بتحصيناتها القوية ، فضلاً عن المقاتلين الذين استعدوا للدفاع عنها (٥) ، فسار لويس التاسع بأسطوله إلى الغرب منها قليلاً كي لا يصطدم مع المدافعين عنها ، وما إن بدأت عملية الهبوط إلى البر حتى هاجمهم المسلمون ، ودارت معركة على رمال الشاطئ تفوق فيها الصليبيون بكثرة عددهم ، وتكبد الطرفان بعض الخسائر (٦) ، ومع حلول المساء أصدر فخر الدينِ بن حمويه أوامره للجيش بالتراجع إلى دمياط ، ولم يتوقف فيها ، إنما تابع المسير عائداً إلى أشموم طناح حيث رابط الصالح نجم الدين أيوب (٧) ، وقد أحدث انسحاب فخر الدين على رأس

---

(١) ابن فضل الله العمري ، أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : أحمد الشاذلي ، دار المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٣ ، ص٤٩٧ .

(٢) دوبوا :الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٣٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤ ؛ ابن العبري ، غريغوروس : مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، ط١،القاهرة ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، ص٢٨٥ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٤_٦٥ ؛ مونرود: مج٢، ص٣٠٥_٣٠٦ ؛ Archibald , Lewis : nomands and crusaders , Indiana , Bloomington , 1991 , p143 .

(٥) يُنظر الشكل رقم (٢) ، ص٣١١.

(٦) ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٣٤ ؛ أبو بكر : ص١٧٠ .

(٧) سبط ابن الجوزي: ق٢ ج٨ ، ص٧٧٣_٧٧٤ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤ .

قوته العسكرية هلعاً في صفوف الكنانيين فلحقوا به (١) ،استبد الخوف بأهالي دمياط ، وهيمن عليهم القلق ، وربما أدركوا إثر انسحاب القوة العسكرية بأنهم غير قادرين على المواجهة (٢)، وبالفعل خرجوا من دمياط هائمين على وجوههم حيارى بمن معهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن حملوا ما استطاعوا حمله من أمتعة خفيفة ، ثم أشعلوا النيران في مدينتهم ، وخربوا بيوتهم بأيديهم وأحرقوا أسواقهم (٣) ، "ولم يبق في المدينة أحد البَتة وصارت دمياط فارغة من الناس" (٤) ، وانطلقوا نحو القاهرة ، وقد نسوا جسر المراكب الواصل بين البرين الشرقي والغربي لدمياط حيث وقف الصليبيون ، لأن ذلك يسهل على الصليبيين الوصول إلى البر الشرقي لدمياط ،وبالفعل زحف الصليبيون نحو دمياط ، وقد عبروا ذلك الجسر ، ووصلوا إلى دمياط ، فدُهشوا عندما لم يجدوا أية مقاومة، وقد تريثوا قليلاً لأنهم ظنوا بأن هناك كمين قد نُصب لهم ، لكنهم ما إن دخلوا أبواب المدينة حتى أدركوا أنها خالية من سكانها (٥) ، وخُيِلَ للصليبيين أن الاستيلاء على مصر مسألة سهلة ، فانشغلوا بتقسيم الغنائم في دمياط (٦) ، وأرسل لويس التاسع إلى زوجته مارِغريتْ للقدوم من عكا إلى دمياط ، كما سعى لتغيير معالم دمياط الإسلامية وحوَّلها إلى مدينة صليبية حيث حول مساجدها إلى كنائس ، ورفع الصلبان على أسوارها، وفرح الصليبيون بما غنموا دون أن تراق قطرة دم واحدة (٧).

وبالمقابل ارتاع المسلمون لخسارة دمياط ، ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها وأغاروا على الفرنج في صيدا (٨) ،حيث استهدفوا توجيه ضربة للصليبيين في بلاد الشام

---

(١) ابن دقماق، محمد : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تح : سعيد عاشور ، دار اقرأ ، السعودية ، د.ت ؛ ص٢٤٤_٢٤٥ ؛ Brentano : op . cit ,p108 .

(٢) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤_٢٨٥ ؛ اليافعي : ج٤ ، ص٩٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٣٦ ؛ أبو بكر : ص١٧٠_ ١٧١ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ص٣٣٥ .

(٥) ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤_٢٨٥ ؛ ابن العبري ، غريغوروس : تاريخ الزمان ، تر: إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢٩٣_٢٩٤ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧١-٧٢ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩١٣_١٩١٤ ؛ رنسيمان: ج٣، ص٤٥٣_٤٥٤ .

(٨) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٣٧ .

من أجل تخفيف الضغط عن مصر ، لكن لويس التاسع لم يأبه لذلك لأنه كان على ثقة بأن المعاقل الصليـــبية قادرة على الصمود ريثما يصل إليها (١) ، بينما صب الصالح نجم الدين أيوب جام غضبه على أمراء بني كنانة ، وقائد جيشه فخر الدين ، وحملهم مسؤولية خسارة دمياط (٢) ، والآن ما هو موقف الأمراء الكنانيين وقائد الجيش فخر الدين أمام سيدهم الصالح نجم الدين أيوب ؟ وماهي الحجج والأعذار التي تقدموا بها؟

إن الهزيمة كلمة مرة ولعل العلقم ألذ طعماً منها ، وقد دافع الكنانية عن أنفسهم ، وأظهروا لسيدهم بأنهم كانوا على أتم استعداد، ولكن عندما تراجع فخر الدين على رأس جيشه وجدوا أن بقائهم لا فائدة منه، أما فخر الدين فلا حجة لديه على الإطلاق حيث صمتت المصادر عن الذريعة التي قدمها لأن موقفه كان ضعيفاً (٣) ، فهو لم يقم حتى بأبسط الأعمال الوقائية لتدمير الجسر الواصل بين القسم الغربي لدمياط والقسم الشرقي ، وفيما لو أنه قام بذلك لأعاق وصول الصليـــبيين واستيلائهم على دمياط (٤) ، وحمَّل الصالح نجم الدين أيوب الكنانية وفخر الدين مسؤولية خسارة دمياط ، وفي الحقيقة إن فخر الدين قاد الجيش النظامي الذي يُشكل الخط الدفاعي الأول ، بينما الكنانية هم من المتطوعين الذين هبوا للدفاع عن بلادهم ، وهم ليسوا في السلك العسكري، ولكن كان بإمكانهم التحَصُّن داخل أسوار دمياط والدفاع عنها فلديهم فيها ما يكفيهم من المؤن لسنوات عديدة (٥) ، أما فخر الدين كان بإمكانه الصمود في وجه الصليـــبيين ، ولكن راودته أطماعه بالسلطة حيث ترك الصالح نجم الدين على فراش الموت ، عندما راسله و لم يأته الرد توقع أن الصالح فارق الحياة ، فترك ساحة القتال عائداً

---

(١) المقريزي : السلوك، ص٣٣٧_٣٣٨ ؛ ابن الجزري ، محمد : المختار من تاريخ ابن الجزري ، تح : خضير المنشداوي ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢١٥_٢١٧ ؛
Gabrieli , Francesco : chroniques du craisades , Paris , 1977 , p315 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ ، ص٧٧٣_٧٧٤ ؛ اليافعي: ج٤ ، ص٩٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ ؛ النويري: ج٢٩ ، ص٣٣٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ ، ص٧٧٣_٧٧٤ ؛ الذهبي ، محمد : العبر في خبر من غبر ، تح : محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٣ ،د.ت ، ص٢٥٦ ؛ الحريري ، أحمد : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين عن ديار المسلمين ، تح : سهيل زكار ، دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م ، ص٩٦ .

(٤) ابن سباط: ج١ ،ص٣٤٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ص٣٣٥ .

(٥) أبو الفداء :المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤ ؛ النويري: ج٢٩ ، ص٣٣٤ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ .

إلى أشموم طناح لعله يكون سيداً على مصر (١) ، وقد أخطأ الصالح نجم الدين أيوب خطأً فادحاً عندما أمر بشنق أمراء الكنانية ، بينما غضَّ النظر عن فخر الدين ، ومن المحتمل أنه أراد تأجيل عقاب فخر الدين لأنه كان ساعده الأيمن في تلك الظروف الحرجة ، وإذا ما تخلص منه فقد يتمرد المماليك ضده أو بالأحرى دون أن يتخلص الصالح نجم الدين من فخر الدين أراد زعماء المماليك قتله لأنه أعدم الكنانية، لكن فخر الدين هدأ من روعهم (٢) ، ونصحهم أن يصبروا عليه قائلاً : "اصبروا عليه فهو على شفا جرف " (٣)، فكيف لو أنه قتل فخر الدين ؟ -------

كان الأولى أن يغض الصالح نجم الدين الطرف عن الكنانية أسوة بفخر الدين لكنه لم يتساهل معهم حتى أن أحدهم طلب أن يُشنق قبل ابنه ، فرفض وأمرهم أن يشنقوا الولد قبل أبيه،وبذلك أعدم أمراء الكنانية الضعفاء ، بينما القوة المملوكية التي ساندت فخر الدين أخافت الصالح نجم الدين (٤) ، و لم يتجرأ حتى على تقريع فخر الدين مُكتفياً بقوله : " أما قدرتم تقفوا ساعة بين يدي الفرنج" (٥) .

هنا أخذ نجم الدين أيوب بمفاوضة لويس التاسع على إعادة دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس ، لكن ذلك العرض لم يلق القبول ، لأن المخطط الصليـــبي لا ينتهي مع الاستيلاء على بيت المقدس فقط، ولو أن لويس التاسع أراد بيت المقدس لحصل عليه مقابل تسليم دمياط (٦) ، فقد كان يرنو إلى أبعد من ذلك حيث جلب معه إلى الشرق " مساحي (٧) ومذاري وعربات ومحاريث وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة " (٨) ، ومما يؤكد أن طموحاته كانت بلا حدود فهو لم يكن عابر سبيل استهدف من مجيئه

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٤_٧٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ ، ص٧٧٤_٧٧٥ ؛ اليافعي : ج٦ ، ص٩٠ .

(٣) الحريري : الإعلام والتبيين ، ص٩٦ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٣٩ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ق٢ ج٨ ، ص٧٧٤ .

(٦) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٣٢ .

(٧) مسحاة : آلة لجرف التربة مصنوعة من الحديد ، وقد استخدمها العرب منذ القدم في تكسير الكتل الترابية إلى قطع صغيرة بعد حراثة الأرض ، وأول مسحاة استخدمها البدائيون غصن شجرة له أطراف كثيرة وصغيرة تُجر فوق التربة ؛ ولكن مع مرور الزمن تطورت إلى مسحاة حديدية ذات مقبض خشبي . عدد من المؤلفين : الموسوعة العربية العالمية ، تر : عشرات المختصين ، مؤسسة أعمال المؤسسة ، الرياض ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ج٢٣ ، ص٢١٣ .

(٨) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٩٣ .

تدمير القوة العسكرية المصرية ، ثم متابعة المسير للسيطرة على بيت المقدس فحسب ، وإنما أراد مد نفوذ المملكة اللاتينية إلى مصر وربما إلى غيرها من المناطق المجاورة لتحويلها إلى مستعمرة فرنسية زراعية ، وذلك لضمان بقاء الكيان الصليـــبي الذي لم يعد سوى مشروع فرنسي بشكله ومضمونه .

أمضى الصليـــبيون صيف سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م في دمياط حيث انتظروا قدوم الإمدادات من فرنسا (١) ، وأثناء وجودهم في دمياط شجع الصالح نجم الدين المصريين على إتباع حرب العصابات ضد الصليـــبيين كمرحلة تمهيدية للمعركة المقبلة التي ينوي القيام بها حيث " أعطى كل من جاء برأس فرنجي ديناراً ذهبياً " (٢) ، وما إن سمع البدو بالدينار الذهبي حتى طاروا فرحاً وشنوا الهجمات على الصليـــبيين في دمياط ، وتخطفوهم أسراً وقتلاً ، وتحتم على لويس التاسع اتخاذ الإجراءات الوقائية ، وإقامة الحواجز والخنادق حول المعسكر لتأمين حمايتهم (٣) ، وعندما وصل ألفونسو كونت بواتيه (poiters) أخو لويس التاسع بالإمدادات (٤) ، عقد لويس التاسع اجتماعاً صليـــبياً لتحديد الخطوة التالية للحملة بعد استيلائها على دمياط ، وأثناء الاجتماع أظهر بيير الطيب كونت بريتاني رغبة جامحة في مهاجمة الإسكندرية ، وقد أيده معظم البارونات ، لأنهم أدركوا أهمية ميناء الإسكندرية ، وذلك لاتساعه وهدوئه ، حيث يمكنهم اتخاذه مكاناً لرسو السفن بعيداً عن أخطار نهر النيل وفيضانه ، وفيما إذا امتلكوا الإسكندرية استولوا على الشواطئ المصرية ، وأصبحت مصر معزولة عن العالم الخارجي ؛ بينما ارتأى رُوبرتْ كونت أرتوا مهاجمة القاهرة ، وحجته في ذلك أن القاهرة بمثابة القلب من الجسد بالنسبة لمصر، وإذا ما سيطروا عليها أصبحت مصر والشام في قبضتهم ، وقد مال لويس التاسع لرأي رُوبرتْ ، وقرر المسير إلى القاهرة(٥) فترك حامية عسكرية قوية في دمياط إلى جانب زوجته مارِغريتْ (٦) ، وشرع الجيش الصليـــبي بالزحف "بفارسهم وراجلهم ، وشوانيهم

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٥_٧٦ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٥٣_٤٥٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٥ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٠٢_١١٠٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٣٧_٣٤٧ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٥٤_٤٥٨ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٥_٧٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩١٦ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ،ص٧٦_٧٧ ؛ باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٢ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ،ص١١١٦ ؛ رنسيمان: ج٣ ، ص٤٥٥_٤٥٦ ؛
Pernoud , Regine : la femme au temps des croisades , Paris , 1990 , p228-229 .

في البحر تحاذيهم " (١)، وهذا يعني أن الصليبيين انطلقوا على تيارين الأول بري والثاني نهري.

وفي تلك اللحظات الحرجة لفظ الصالح نجم الدين أنفاسه الأخيرة (٢) ، في مدينة المنصورة (٣)، فأعلنت زوجته شجر الدر التي اتصفت بالذكاء والحزم بأن السلطان مريض ولا يجوز أن يزوره سوى أطباؤه ، وأدارت دفة الحكم ، وأصدرت المراسيم المُوقعة باسم السلطان المتوفى ، وأمرت أمراء الجيش أن يحلفوا لتوران شاه بن الصالح نجم الدين ولياً للعهد من بعد والده ، ولفخر الدين بن حموية بقيادة الجيش ، وقد تم ذلك ، ثم أرسلت لاستحضار توران شاه حيث كان والده قد سلمه إدارة حصن كيفا (٤) ، وطلبت من فخر الدين الانطلاق لمواجهة الصليـــبيين حيث عسكَر الجيش المصري في جديلة إحدى ضواحي المنصورة ، فأرسل فخر الدين فرقة من الخيالة قاربت الخمس مائة فارس لعرقلة مسير الصليـــبيين (٥) ،كما أرسل فخر الدين رسالة على جناح الحمام الزاجل إلى القاهرة لحض الناس على الجهاد ، وقد قرؤوا تلك الرسالة ، بعد صلاة الجمعة في الجامع الأزهر حيث تضمنت من بعد بسم الله الرحمن الرحيم " انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون " (٦) واستهدف فخر الدين من أهالي القاهرة أن يكونوا على أهبة الاستعداد للمواجهة ، لأن الحملة الصليـــبية كانت تسير في طريقها إليهم (٧) ، وبالرغم من كل الاحتياطات التي أخذتها شجر الدر تسرب نبأ وفاة الصالح نجم الدين ليس للأيوبيين فحسب بل حتى للصليـــبيين ، وربما عن طريق الأسرى الذين وقعوا في قبضة الصليـــبيين وهم في طريقهم إلى القاهرة ، فأرادوا الإسراع في المسير

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٠٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٤٧٤_٤٧٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٥ ؛ السيوطي، جلال الدين : تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،ص٣٦٥ .

(٣) المنصورة : مدينة بناها السلطان الكامل محمد بن العادل بعد انتصاره على الحملة الصليـــبية الخامسة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م تحسباً لأي هجوم صليـــبي ، وتقع المنصورة بالقرب من بلدة جومر أي في موقع استراتيجي على نقطة تفرع أشموم طناح عن دمياط . أبو الفداء، إسماعيل: تقويم البلدان، تصحيح ، رينود وماك ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، ص١٠٦_١٠٧ .

(٤) ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٥_٣٤٦ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٤٦_٢٤٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٨ .

(٦) سورة التوبة : آية ٤١ .

(٧) ابن واصل : ج٦ ، ص١٠٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١٤٦ ؛ الدواداري: ج٧ ، ص٣٧٥ .

مستغلين انشغال المصريين بوفاة سلطانهم (١) ، ووصلوا إلى شار مساح (بحر مساح) ، ثم تابعوا المسير إلى أشموم طناح (٢) ، يُلاحظ لم يرغب فخر الدين بن حمويه بإقحام جيشه ، وتبديد قوته في تلك المتاهات من العثرات الطينية والجداول المائية ، واكتفى بإرسال مجموعات صغيرة أعاقت تقدمالصليبيين وأثارت الاضطرابات في صفوفهم (٣) .

وعلى هذا استولى الصليـــبيون على دمياط ، وغدت معقلاً جديداً من معاقل الكيان الصليبـــي أما أهالي دمياط ، فتبعثروا في أصقاع البلاد (٤) ، وفُجعت الكنانية بمقتل أمرائها ، وقبع الجيش الأيوبي المنهزم في الجنوب من أشموم طناح ، وفقد الأيوبيون سلطانهم وخيَّم على مصر جو من الحزن والأسى (٥) ، بينما ازداد الصليـــبيون قوة بعد أن وصلتهم الإمدادات ، فجدّوا في المسير لضرب مركز القوة العسكرية في القاهرة ، واستطاعوا إحباط الهجمات التي تعرضوا لها ، واجتازوا كل القنوات والترع التي اعترضت سبيلهم ، و لم يبق سوى أشموم طناح أمامهم ، وبدت نهاية الأيوبيين قد اقتربت (٦) .

---

(١) المقريزي : السلوك ،ج١، ص٣٤٣_٣٤٦ ؛ الدواداري : ج٧ ، ص٣٧٥ .

(٢) أشموم طناح : يعرف باسم أشموم الرمان ، أو الدقهلية ، وهو فرع نهري يتفرع من دمياط عند مدينة المنصورة ، ويتجه باتجاه الشمال الشرقي ليصل إلى البحر المتوسط . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص١١٨_١١٩ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص١٨٦ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٤ .

(٤) الدواداري : ج٧، ص٣٦٥_٣٧٠ ؛ ابن الوردي ، عمر : تتمة المختصر (تاريخ ابن الوردي) ، تح: أحمد البدراوي، دار المعرفة الجامعية، ط١، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠ م ، ج٢، ص٢٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٠٨_١٩١٦ ؛ Nadeije Dagen : les grandes batailles , Paris , 1997 , p72 .

(٥) ابن الجزري : ص٢١٦_٢١٧ .

(٦) ابن واصل : ج٦ ، ص١٠٧_١١١ ؛ المقريزي : السلوك ،ج١ ، ص٣٤٦_٣٤٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٧٦_٨١ .

هزيمة الصليـــبيين في المنصورة ودور لويس التاسع في تقوية الوجود الصليـــبي

١- معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م :

٢- وقوع لويس التاسع والجيش الصليـــبي في الأسر .

٣- استلام لويس التاسع حكم مملكة عكا .

٤- الاهتمام في شؤون إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس .

٥ - إصلاح العلاقات بين أنطاكية وأرمينية الصغرى .

٦- دور لويس التاسع في قبرص .

٧-استنجاد الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بالملك لويس التاسع .

٨- علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل .

٩- مراسلة لويس التاسع للمغول .

١- معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

سيطر لويس التاسع على دمياط ، و قد أضاع فيها حوالي خمسة أشهر ، وقد أتته فرصة ذهبية بعد أن لفظ الصالح نجم الدين أيوب أنفاسه الأخيرة ، فانتهز وفاته ، وقرر إنزال ضربة قاصمة بالمسلمين قبل وصول توران شاه ،وإكماله للاستعدادات الحربية ، وظن بأن حكومة تقودها امرأة من السهل الاستيلاء عليها ، فزحفت جحافل الصليـــبيين دون أن تلقى مقاومة جدية ، ولكن مالبثت الصعاب أن واجهتهم عندما وجدوا أنفسهم محصورين بين فرعي دمياط وأشموم طناح (١) ،وتوجب عليهم اجتياز أحد الفرعين للالتحام مع المسلمين في معركة حاسمة علماً أن الجيش المصري والشعب قد تجاوز محنته ، ووقف لهم بالمرصاد (٢) ،كما رابطت إلى جانبهم القوات التي أرسلها صاحب الكرك الناصر داوود (٣) .

قرر لويس التاسع اجتياز بحر أشموم طناح ، وبدا عبوره أمراً صعباً حيث أرسل قائد الجيش المصري فخر الدين بن حَمْوية بمجموعات صغيرة من جنوده لإيقاع الرعب والهلع في قلوب الصليـــبيين ، مما أجبرهم على حفر ترعة من الماء خلفهم من جهة الشمال لتأمين حمايتهم فأصبحوا مُحاطين بالماء من الجوانب كافة (٤) ، وأدرك لويس التاسع ضرورة إنشاء جسر على أشموم طناح ، لكن ما إن شرعوا بربط الأخشاب مع بعضها البعض حتى انهالت عليهم المجانيق بالقذائف النارية (٥) والضربات الحجرية من قِبل المعسكر المصري الذي رابط جنوب أشموم طناح (٦) .

---

(١) يُنظر المصور رقم (٣) ، ص٣٠٢.

(٢) سبط ابن الجوزي : ج٨ ، ص٧٧٣-٧٧٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٣٦-٣٤٧ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٤ ؛ الذهبي: العبر، ج٣ ، ص٢٥٦-٢٥٧ ؛

Gabrieli , Francesco : Arab historians of the crusades , London , 1969 , P276-277 .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١، ص٣٤٧ .

(٤) الدواداري: ج٧ ، ص٣٧٥ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص٧٨-٨٣ .

(٥) المنجنيق : كلمة فارسية تعني (ما أجودني) ، ولها معنى آخر (الارتفاع إلى فوق) ، وهو آلة حربية ثقيلة اُستخدمت لقذف الحجارة والنيران . ابن أرنبغا الزردكاش : الأنيق في المناجيق ، تح : إحسان هندي ، منشورات جامعة حلب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٦-٤٥ .

(٦) مجهول : ذيل روتلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٢٠-١٩٢٣ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٢-٨٦ . باريس : الموسوعة ج٤٨ ، ص١١٥٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٥٨ ؛

Gabrieli , Francesco : le moyen age la croisade d , Egypt , Paris , p290-292 .

جزع لويس التاسع لتلك الضربات النارية التي مرت مدوية وكأنها صوت الرعد ، فزرعت الخوف في قلوب الصليبيين ، ولاسيما لويس التاسع الذي خاف على جنوده ، فكان "كلما سمع المسلمين يقذفون النفوط نحوهم يرفع يديه بالدعاء وهو يبكي "(١) ، وقد أكلت النيران ما لديهم من أخشاب ، و لم يعد لديهم الخشب اللازم لإنشاء جسر ، كما أخذ عمال الهندسة المصريون بتوسيع مجرى أشموم طناح من خلال إنشاء حفر غمروها بالماء لمنع الصليبيين من إنشاء جسر ،فاضطر لويس التاسع لعقد اجتماع مع كبار رجاله عسى أن يجدوا حلاً لذلك المأزق، ولكن بدون فائدة، فهم لن يستطيعوا عبور أشموم طناح إلا بإنشاء جسر ، ومسألة إنشائه بدت أمراً مستحيلاً ، (٢)، فتملكهم اليأس والإحباط ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت لكن جوانفيل ذكر أن بدوياً قد أتى وأخبرهم عن مخاضة (مكان ضحل) تُدعى مخاضة سلمون يمكنهم من خلالها اجتياز أشموم طناح لقاء مبلغ خمسمائة دينار (٣) ، أما المقريزي فقال: بأن الذين دلوه على المخاضة هم من "منافقي أهل الإسلام " (٤)، وقد أيده في ذلك ابن واصل قائلاً: " فدل بعض المفسدين الفرنج على مخاضة " (٥) ،وهنا يمكن ترجيح رأي جوانفيل لأنه التقى مع ذلك الرجل شخصياً ،وهو شخص واحد، وليست مجموعة كما ذكر ابن واصل والمقريزي ، والمهم أن ذلك البدوي باع ضميره ، وخان وطنه لقاء متاع الدنيا .

استلم البدوي دنانيره ، ثم اصطحب الصليـــبيين بعد مضي زهاء الشهرين أمام أشموم طناح، وانطلقوا إلى المخاضة بعد أن ترك لويس التاسع حامية عسكرية قوية لحماية المعسكر ، ثم شرعوا بعبورها، وقد تولى رُوبرتْ كونت أرتوا قيادة مقدمة الجيش ،بينما أشرف أخوه لويس التاسع على تنظيم عملية العبور (٦) ، ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى اجتازت طلائع الجيش الصليـــبي المخاضة

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ج٣٦، ٨٢-٨٨ ؛ زيادة ، محمد : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة المنصورة، مطبوعات المجلس الأعلى للرعاية والآداب، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، ص١٣٦-١٤٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٨ ؛

Stevenson , W . B : the crusaders in the east , Beirut , 1958, p326-327 .

(٤) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٤٩ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص١١١ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٢٨-١١٣٣ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٨-٨٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٢٣ .

بصعوبة ، ولكن رُوبرتْ كونت أرتوا خالف أوامر لويس التاسع ، وهاجم المعسكر الإسلامي الذي غط في سبات عميق بعد أن اعتقد بأن بحر أشموم طناح كفيل بتأمين الحماية لهم من الصليـــبيين إذا ما هاجموهم من جهة الشمال ، فقرر رُوبرتْ مباغتتهم قبل طلوع الفجر (١) ، و لم "يشعر المسلمون بهم إلا وهم قد خالطوا معسكرهم " (٢) ، وما إن سمع قائد الجيش فخر الدين بن حموية الضجيج ، وأصوات العويل حتى ارتدى ثيابه ، دون أن يلبس دروعه ، وأسرع لمواجهة الموقف ، لكنه وقع في كمين نصبته له الداوية فلقي مصرعه ، وتفرق جيشه متبعثراً في مدينة المنصورة والحقول المجاورة (٣)، وأراد رُوبرتْ متابعة فلول الجيش الإسلامي داخل المنصورة ، لكن الداوية وبعض العقلاء من رجاله طلبوا منه التريث، ريثما يصل لويس التاسع مع ما تبقى من الجيش ، ولكنه لم يأخذ برأيهم (٤) ، ثم "جاء عشرة فرسان مسرعين نحو كونت أرتوا وأخبروه باسم الملك بأن لايتحرك ، وأن عليه الانتظار حتى وصول الملك لويس التاسع " (٥) ، وبالرغم من كل التوسلات اندفع متهوراً مع مقدمة الجيش، و لم يسأل نفسه لماذا لم يغلق المسلمون باب المدينة ،وتركوه مفتوحاً ؟

وأين ذهب الجيش المصري المُبعثر ، فهل تحصن بداخل المنصورة أم فرَّ هارباً ؟

لم يكن لمقتل القائد فخر الدين تأثيراً كبيراً على جيش المسلمين لأنهم مالبثوا أن عينوا أكثرهم قدرة ، وكفاءة حيث سلموا بيبرس البندقداري قيادة الجيش (٦) .

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١١١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٢٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، تح وتر:سهيل زكار ، دمشق ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٥٨ ، ص١٩٩١؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٣ ؛ Dagen : op . cit , p72 .

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص ١١١ .

(٣) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٣٩-٣٤٠ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٤٩-٣٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٦ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٣٨-٣٣٩ ؛ Irwin , Robert: the middle east in the middle ages (the early momluk sultanate 1250-1382,London , 1986 , p20 ; Villeneuve , M : sant Louis en orient , Paris , 1909 , p 120-123 ; Michaud , M :biblioteque des croisades , Paris , 1829 , volume 4,P458-459 .

(٤) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٩ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٣٣-١١٣٦ .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٢٦ .

(٦) الدواداري : ج٧ ، ص٣٧٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ص٣٤٩-٣٥٠ .

أوعز بيبرس لجنوده بترك باب المنصورة مفتوحاً ، ووزع جنوده على أطراف الشوارع ومداخلها ، أما أهالي المدينة فجعلهم في أعالي المنازل ، ورمى جذوع الأشجار الضخمة في الشوارع لإعاقة حركتهم ، وبعد قليل أتى رُوبرتْ يقود طليعة جيشه ، وتراءى له أن بإمكانه القضاء على الجيش الإسلامي الذي فرَّ إثر مقتل فخر الدين ، فتوغلت طليعة الجيش الصليـــبي داخل المدينة حتى وصلت أسوار قلعتها ؛ كما انتشر جنوده في أزقة المدينة ، وعندما حان الوقت المناسب أطبق عليهم المسلمون من كل حدب وصوب ،ووقعوا في حالة من الفوضى والاضطراب ، وطاردوا فلولهم وتعقبوهم في شوارع المنصورة ، وعندما أرادوا الاحتماء داخل البيوت انهال السكان عليهم ضرباً بالحجارة ورشقات السهام (١) ، وقام المسلمون " وحملوا على الفرنج حملة واحدة عظيمة فزعزعوا بها أركانهم وهدوا بنيانهم ونكسوا صلبانهم وأخذهم سيوف الترك ودبابيسهم ، فأثخنوا فيهم قتلاً وجرحاً وطرحوهم في أزقة المنصورة " (٢) ، بينما تحصن رُوبرتْ داخل أحد بيوت المنصورة ، وأرسل إلى لويس التاسع طالباً النجدة ، لكن مالبث أن تم اقتحام البيت وقُتل مع أفراد حاميته (٣) ، كما قتلت مجموعة من الانكليز ترأسها (٤) وليم لونغوسبي ، أما بطرس كونت بريتاني فقد أصيب بجراح خطيرة لكنه تمكن من الفرار ليخبر لويس التاسع بالكارثة التي حلت بهم ، و لم يكن الجيش الصليـــبي قد عبر المخاضة (٥) وما إن انتهى الجيش الصليـــبي من عبور المخاضة حتى وصلت الأنباء إلى لويس التاسع بطلب النجدة من قبل أخيه رُوبرتْ ، ففوجىء بعمق الكارثة التي حلت بجيشه (٦) ، وأمر بإنشاء خط دفاعي في المقدمة لحماية الجيش ، كما طالب بإنشاء جسر على أشموم طناح إذا ما أُجبروا على التراجع ، ثم أخذوا بالتقدم

---

(١) ابن واصل: ج٦ ، ص١١١-١١٢ ؛ أبو شامة : الموسوعة، ج٢٠ ، ص٣٦٢-٣٦٤ ؛ ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٥٩ ؛ ابن العميد ، جرجس : ، دار الثقافة الدينية ، بور سعيد ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص٣٧ ؛ ابن إياس ، محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تح: محمد زيادة ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ق١ج١ ، ص٢٨٠ ؛ باريس : الموسوعة الشامية، ج٤٨ ، ص١١٣٧-١١٤٠؛ يوسف ، جوزيف : العدوان الصليـــبي على مصر ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص١٦٨؛ Villeneuve : op .cit , p 140-142 .

(٢) ابن واصل : ج٦ ؛ ص١١٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٩٤ .

(٤) باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٣٩-١١٤٠ .

(٥) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٦٠ ؛ زيادة : ص١٥٧-١٥٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٩٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٤٠-١١٤١ .

نحو المنصورة ،فهاجمهم المسلمون وساقوهم نحو الوراء، وأصبحوا محصورين مابين أشموم طناح شمالاً ، والجيش الإسلامي جنوباً (١) ، وقرر الجيش الإسلامي شن هجوم شامل على الصليبيين في يوم الجمعة الموافق ٧ ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/١١شباط١٢٥٠م ، وبدأت المعركة من ظهيرة يوم الجمعة حتى غروب شمسه (٢) ، وقد بين جوانفيل طريقة الهجوم بقوله : " قامت القوات الإسلامية جميعها من رجالة وخيالة بالحملة علينا ، حملة رجل واحد " (٣) ، فشتتوا شمل الصليبيين ، ثم انشغل الصليبيون برمي جثث المسلمين والصليبيين في نهر النيل ، مما أدى لانتشار الأمراض بينهم مثل تورم اللثة والغرغرينا والبقع الجلدية السوداء والرعاف ، مما اضطرهم لانتشال الجثث فدفنوا جثثهم، أما جثث المسلمين فقد رموها بعيداً عنهم (٤) ، ثم انشغل المسلمون بوصول توران شاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م من حصن كيفا إلى دمشق ، و قد أُعلن فيها سلطاناً ، ثم تابع المسير إلى مصر حيث سلمته شجر الدر مقاليد الحكم (٥) ، فبدأ بمناوشة الجيش الصليبي ، ثم أنشا مراكب صغيرة تمركزت في فروع النيل هاجمت السفن التي كانت تحمل الإمدادات للصليبيين (٦) ، ونجحت في المهمة التي أوكلت إليها ، " وكانت عدة المراكب المأخوذة من الفرنج اثنين وخمسين مركباً ، وقُتل وأُسر ممن فيها نحو ألف رجل وأخذ ما فيها من الميرة " (٧) ، وتسارعت الصعاب أمام الصليبيين لكن لويس التاسع لم يستكن وأراد رفع الروح المعنوية لدى جيشه ، فأرسل إلى توران شاه لفتح باب المفاوضات والتخلي عن دمياط مقابل إعطائه بيت المقدس ، وذلك بعد أن شعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط ، كما أنه أراد أن يضمن انسحاباً آمناً لجيشه لكنه لم يلق استجابه لأن عرضه أتى بعد فوات الأوان إذ كان توران شاه يتتبع

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٩٤-٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٢٩-١٩٣٠ ؛
Michelet , M : l, histoire de france , paris , 1988 , p204-205 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٣٠-١٩٣١ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٠٤-١٠٥ ؛ قحة ،محمد: معركة المنصورة ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص٤١-٤٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٠٥ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٢-١١٣ ؛ يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص١٨١-١٨٧ .

(٥) أبو شامة : الموسوعة، ج٢٠ ، ص٣٦٢ ؛ ابن العميد : ص٣٧-٣٨ ؛ ابن تغري بردي ،يوسف : مورد اللطافة فيمن ولي السلطة والخلافة ،د.م ، د.ت ، ص١٤٥.

(٦) ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٠ ؛ الدواداري: ج٧، ص٣٧٧-٣٧٨ ؛ Irwin : op . cit , p21 .

(٧) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢١ .

أخبارهم ، وما آلت إليه حالة الجيش الصليبي من ضعفٍ معنوي وعسكري (١) ، وهنا مع تدهور أوضاع الصليبيين قرر لويس التاسع العودة إلى دمياط ، وأكد على ضرورة الانطلاق عبر الجسر الذي نصبوه على أشموم طناح ، ثم متابعة الطريق البري الواصل إلى دمياط ،أما المرضى والجرحى فأراد إرسالهم على متن السفن عبر الفرع النهري الواصل مابين المنصورة ودمياط (٢) ،وفي صبيحة اليوم التالي بدأ الصليبيون بتقويض معسكرهم وأقلعت سفنهم ، بينما حمل البقية أمتعتهم وعبروا جسر أشموم طناح ، وساروا في ظلمة حالكة ، ولم يكن يُسمع سوى صهيل الخيول وقعقعة الأسلحة ، وتولى لويس التاسع مراقبة مسير الجيش ، وعمل على رفع معنوياتهم وشد أزرهم ، وتمت عملية الهروب بنجاح بعد أن دمروا كل ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون ، وربما أنساهم الخوف تدمير جسر أشموم طناح بعد عبورهم إياه ، وعندما سمع المسلمون بهزيمتهم قرروا شن هجومٍ عام عليهم فتعقبوهم ، وعبروا الجسر الذي تركوه خلفهم ، وساروا إلى قرية فارسكور ، مما أدى لإرهاق الجيش الصليبي، لأن المسافة مابين أشموم طناح وفارسكور قاربت الخمسين كيلو متراً ، كما أن المسير لم يكن أمراً سهلاً لكثرة القنوات والترع التي اعترضت سبيلهم ، فضلاً عن مطاردتهم من قبل المسلمين الذين أدركوهم في فارسكور حيث لم يستطيعوا الهرب أكثر من ذلك ، وفي فارسكور سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (٣) ، حدثت الملحمة الكبرى " وأخذتهم سيوف المسلمين واستولوا عليهم قتلاً وأسراً " (٤) وقدَّر سبط ابن الجوزي بأن عدد القتلى بلغ مائة ألف (٥) ، ولكن هذا الرقم مبالغ فيه لأن تعداد الحملة خمسين ألف (٦) ، بينما قدر ابن واصل وأبو الفداء عددهم بثلاثين ألفاً ، وهذا هو الرأي الأرجح (٧) ،

---

(١) العيني ، بدر الدين : عقد الجمان ، الموسوعة ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٦٠، ص٥٨٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٧٢ .

(٢) باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٤١ ؛ الجزري : ص٢٢٠-٢٢١ ؛ جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٨-١٢١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٣٥-١٩٣٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧، ص٣٤١ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص٢٥٨-٢٥٩ ؛ جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٨-١١٩ ؛ ابن تغري بردي ، يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ط١، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، ج٦، ص٣٦٤-٣٦٥ ؛ زيادة : ص١٨٥-١٩١ .

(٤) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٤ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٨ .

(٦) ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ .

(٧) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٧ .

بينما " استشهد من المسلمين نحو مائة رجل " (١) ،وعلى هذا تلقى الجيش الصليـــبي ضربات موجعة، وخاصة في المنصورة وفارسكور ، وذلك لأسباب عديدة أهمها :

١- تمرد وعصيان رُوبِرتْ كونت أرتوا الذي لم يتقيد بأوامر أخيه لويس التاسع ،مما أدى لإبادة معظم الفرسان الصليبيين في معركة المنصورة ، وهم العنصر الأهم في المعركة (٢) .

٢- اهتمام توران شاه بالأسطول ، وأسر السفن الصليـــبية المحملة بالميرة ،مما أدى لقطع الإمدادات وانتشار المجاعة في صفوفهم (٣) .

٣- انتشار الأمراض والأوبئة بين الصليـــبيين بعد أن رموا جثث الموتى في نهر النيل قريباً من معسكرهم ثم عادوا وانتشلوها ودفنوها، وكان الأولى أن يدفنوها منذ البداية مما كلفهم وقتاً وجهدا كبيراً (٤) .

٤- تلقي مصر الدعم والمؤازرة من بلاد الشام ،فكانت الوحدة بين بلاد الشام ومصرهي السبيل لتدمير القوات الصليـــبية (٥) .

وضاقت على الصليـــبيين الأرض بما رحبت فقلّ زادهم ، وانقطع مددهم واشتدت الضربات عليهم ، وكانت خسارتهم عظيمة تربو أضعاف ما خسره المسلمون ، وهنا أدرك لويس التأسع أنه لابد من بذل كل جهوده لإنقاذ جيشه وسحبه بسلام ، فأيقن أنه أخطأ الطريق في الوصول إلى القاهرة حيث اعترضت سبيله الفروع النهرية والسبخات ، مما أعاق حركة الجيش الصليبـــي ، وأدى به إلى التهلكة (٦) .

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٥٦ .

(٢) باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٣٤-١١٣٩؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٩ .

(٣) اليماني ، يحيى : غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تح : محمد العمر ، دار الخير ، دمشق ط١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٥٢٤ ؛ الدواداري : ج٧ ، ص٣٧٧-٣٧٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ،ج٢ ، ص٢٨٦-٢٨٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٢-١١٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣١٦-٣١٧ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٣٧-٣٤٧ .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١، ص٣٥٤-٣٥٦ ؛ اليافعي : ج٤ ، ص٩١ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على مصر ، ص١٩٨-٢٠٢؛ Stevenson : op . cit , p327-328.

٢- وقوع لويس التاسع والجيش الصليـــبي في الأسر .

إزاء المحن التي حلت بالجيش الصليـــبي أصبح من المستحيل متابعة الهرب ،كما غدا من الصعب متابعة القتال ، فضلاً عن المجاعات ونقص السلاح وسوء الأوضاع النفسية ، إلا أن لويس التاسع نجى من الموت، و لم يعد يتحمل الصدمات ، فمرض وأُغمي عليه مرات عدة (١) ، واصطحبه قائد حرسه الملكي جيفري دي سارجين إلى شار مساح حيث وضعه في قرية منية أبي عبد الله (٢) ، ثم أرسل لويس التاسع فيليب مُونتيفورتْ (٣) صاحب صور للمفاوضة على تسليم دمياط مقابل الانسحاب بسلام (٤)، ربما التقى فيليب مُونتيفورتْ مع قاضيْ القضاة بدر الدين السنجاري (٥)،وبينما كانت المحادثات جارية قدِم سيرجندي (٦) صليـــبي يُدعى مارسيل أخذ ينادي على قادة الجيش الصليـــبي " استسلموا أيها الفرسان ، لأن الملك قد أمر بذلك ولا تكونوا سبباً في قتله " (٧) ، فاستجابوا لطلبه ،وهنا لماذا طالب مارسيل قادة الصليـــبيين بالاستسلام وعدم انتظار نتيجة المفاوضات ؟

إن من الغبن أن ينتظر مارسِيلْ أو غيره من الصليبيين نتيجة المفاوضات ، وإذا ما تم الإفتراض جدلاً بأن المفاوضات أسفرت عن شيء فلن يكون سوى الاستسلام ، لأن الجيش الصليـــبي قد تم تدميره وبعثرته وأصبح عديم الفائدة بسبب الظروف الصعبة التي مر بها ، وهنا وجد مارسيل بأن الاستسلام لا بد منه، ولكي يجبرهم عليه أكد لهم بأن حياة لويس التاسع في خطر إن لم يستسلموا ،ولكن في الحقيقة من يقرر

---

(١) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٤ ؛ جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٤-١١٩ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٦-١١٥٧ .

(٢) قرية منية أبي عبد الله : إحدى قرى فارسكور ، حيث تقع على الشاطئ الشمالي الشرقي لفرع دمياط ، وتعرف اليوم باسم ميت الخوالي عبد الله . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، حاشية ص٣٦٥ .

(٣) فيليب مُونتيفورتْ (إبلين) :يعد من أشهر بارونات آل إبلين ، وقد كان حاكماً لإقطاع تبنين ، وشارك في الحروب الإبلينية ضد فردريك الثاني ، ثم انضم لحملة لويس التاسع الأولى ، وقد أصبح خصماً عنيداً لبيبرس ، ولكن الثاني دبَّر له عملية اغتيال سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م. رنسيمان: ج٣، ص٣٦٠-٥٧٠.

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٩-١٢٠ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٢ .

(٦) سيرجندي (sergans): أحد خيالة فرقة السيرجندية، وهم من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة ، وغالباً ما كانوا من المرتزقة. نوفارا : الموسوعة ،ج٣٤، ص٢٥٤ ؛ سميل ، ر . سي : فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ، تر: محمد الجلاد، دار طلاس ، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٧٥-١٧٦ .

(٧)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٢٠ .

الحرب أو الاستسلام الملك لويس التاسع وليس الجنود ، وهذه ليست مهمة مارسيل ، وفيما إذا راودنا الشك بأن مارسيل قد تلقى الأموال من المسلمين لقاء ما قام به ، ليس ذلك ببعيد ، فمارسيل جندي سيرجندي وغالباً ما كانت السيرجندية من المرتزقة التي هدفها الأساسي الحصول على الأموال ، ومن المحتمل أنه إثر انقطاع الإمدادات عن الصليـــبيين أصبح لويس التاسع غير قادر على دفع رواتب المرتزقة وتأمين متطلباقم ، وهم غير مستعدين للقتال دون مقابل ، فأسرع مارسيل ينادي بالاستسلام .

ألقى الصليـــبيون أسلحتهم وأعلنوا الاستسلام ، فقام المسلمون بتطويقهم وأسرهم ، ولم ينه فيليب مُونتيفورتْ مباحثاته مع المسلمين حول هدنة محتملة (١)، كذلك أُسرت السفن التي أقلت المرضى والجرحى قبل وصولها لدمياط (٢) ، كما استقصى المسلمون تحركات لويس التاسع ، وعرفوا بأنه كان مختفياً مع حاميته العسكرية في قرية منية أبي عبد الله ، فحاصروه ، ودافعت عنه الحامية العسكرية بكل شجاعة حتى قُتل معظم أفرادها، ولم يجد المحاصَرون بداً من الاستسلام ، وقد طلب لويس التاسع الأمان لنفسه وما تبقى من حاميته ، فأعطوهم الأمان وقبض المسلمون عليهم في الثاني من محرم سنة ٦٤٨هـ/السادس من شباط سنة ١٢٥٠م (٣) ، وسيق الأسرى جميعاً إلى مدينة المنصورة ، وقد نوه سبط ابن الجوزي إلى كثرتهم قائلاً : " أما عن الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج " (٤) ، أما جوانفيل فقال : " جرى حشد البارونات مع ما يزيد على عشرة آلاف رجل " (٥) ، وإثر ذلك النصر المبين أرسل توران شاه إلى نائبه في دمشق قائلاً: " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (وما النصر إلا من عند الله) (٦) نبشر المسلمين كافة بما منَّ الله على المسلمين من الظفر " (٧)، فابتهل المسلمون فرحاً بذلك النصر.

---

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٢٠؛ رنسيمان: ج٣ ، ص٤٦٥-٤٦٦ .

(٢) الذهبي ، محمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مج ٢٠ ، ص٤٩-٥٠؛ Dagen :op . cit , p72 .

(٣) الحنبلي ، أحمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥١هـ/١٩٢٣م ، ج٥، ص٢٣٩ . ابن الجزري: ص٢٢١ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٨-٣٤٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٤-٣٦٥؛ Brentano : op .cit , p292-296 .

(٤) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٢٧ .

(٦) سورة الأنفال : آية رقم ١٠ .

(٧) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٥٥-٤٥٦ .

ووُضع الأسرى في سجن كبير ، ودخل لويس التاسع مدينة المنصورة بعد جهودٍ مضنية ، ولكن ليس كما كان يحلم حيث دخلها مهزوماً مدحوراً (١) ، وسُجن في دار كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، حيث كلف توران شاه الطواشي صبيح المعظمي (٢) بخدمته (٣) وعندما بدأت المفاوضات طالب توران شاه لويس التاسع بتسليم دمياط والممتلكات الصليبية في بلاد الشام ، فأشار لويس التاسع بأنه يمكن التنازل عن دمياط ، أما الممتلكات الصليبية فهي ليست من أملاكه ، إنما تخص كونراد بن فردريكْ الثاني (٤) فهدده المسلمون ،وأصر على موقفه فأغفلوا ذلك الطلب ، وتم الاتفاق على تسليم دمياط افتداءً له ، ودفع مبلغ أربع مائة ألف ليرة ذهبية (٥) وبعد أن تم الاتفاق على شروط الصلح نُقل لويس التاسع وكبار البارونات من المنصورة إلى فارسكور حيث مقر إقامة توران شاه ، وقرروا الانطلاق إلى دمياط لتسليمها، وإطلاق سراح كبار الأسرى الصليبيين ، وقبل تطبيق الاتفاق استاءت شجر الدر من توران شاه ، فتآمرت مع المماليك وتخلصوا منه (٦) ،واستلمت شجر الدر الحكم من بعده (٧) .

كانت مارغريتْ زوجة لويس التاسع آنذاك في دمياط ،وقد أنجبت طفلاً سمته جين وعرف بجين الحزين (يُوحَنا الحزين)،لمولده في ظروف بائسة (٨)،وسمعت مارغريتْ بأن ممثلي بيزا(٩) وجنوه (١٠)

---

(١) يُنظر الشكل رقم (٣) ، ص٣١٢ .

(٢) صبيح المعظمي : أحد خدم السلطان توران شاه الذين قدموا معه من حصن كيفا، وقد كان له مكانة عالية لدى توران شاه ، فعينه خادماً للويس التاسع . ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٤ .

(٣)ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤١ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٦-٣٦٨ ؛ ابن سباط: ج١، ص٣٤٩ .

(٤) ابن الوردي: ج٢ ، ص٦٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٢٧-١٢٨ .

(٥) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٦٠ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٠-١٣١ .

(٦) سيتم الحديث بالتفصيل عن مقتل توران شاه في الفصل الثالث بعونه تعالى .

(٧) ابن فضل الله العمري: ج٢٧ ، ص٣٤١-٣٤٢ ؛ يوسف: العدوان الصليبي على مصر ، ص٢١٥-٢٢٨ .

(٨) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٩ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٤.

(٩) بيزا : ميناء يقع على الركن الشمالي الغربي من إيطاليا قريباً من الأندلس ، واشتهرت بصناعة الحديد البيزاني ، كما أسهمت بدور فعال في الحروب الصليبية . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٨٨ .

(١٠) جنوه : تقع شمال إيطاليا إلى الغرب من بيزا ، وهي منطقة خصبة فضلاً عن كونها ميناءً هاماً ، وبدت بيوت أهلها أشبه بالقلاع، وقد أسهمت بدعم المشروع الصليبي لتأمين مصالحها التجارية في الشرق . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٨٣ . مونرود : مج٢ ، ص٣٣١ .

في دمياط أرادوا الانسحاب منها بحجة نقص المؤن بعد أن سمعوا بأسر لويس التاسع وجنوده ، فاشترت الأطعمة الموجودة في دمياط ، وأنفقت على جميع الصليـــبيين في دمياط، ثم أرسلت رُوبرتْ بطريرك بيت المقدس لمفاوضة توران شاه ، و لم تكن تعلم بأن المماليك قتلوه، ثم غادرت إلى عكا (١) ، وفي تلك الآونة ارتدت مجموعة من المسلمين لباساً أشبه باللباس الفرنسي و حملوا الرايات الصليـــبية ، ثم موهوا أنفسهم وانطلقوا إلى دمياط أملاً في خداعهم ، وأخذها منهم ، وما إن نظر حراس المدينة ورأوا الأعلام الصليـــبية مرفرفة فوقهم حتى فرحوا فرحاً شديداً، لكن مع اقترابهم من المدينة ظهروا بأنهم لا يشبهون الفرنسيين حيث ساروا بسرعة ، وتأكد الحراس بأنهم ليسوا فرنسيين عندما شاهدوا وجوههم السمراء ولحاهم الطويلة ، فأغلقوا باب المدينة بوجههم وعادوا أدراجهم (٢) ، وقد وصل آنذاك رُوبرتْ بطريرك بيت المقدس لمفاوضة توران شاه ، لكنه فوجئ بمقتله ، و لم تعترف الحكومة المملوكية الجديدة بالاتفاق الذي عقده توران شاه مع لويس التاسع (٣) ، وذهب عدد من المماليك ، وقد استلوا سيوفهم ، وهددوا لويس التاسع والبارونات ، وطالبوه بالمزيد من الأموال مكافأةً على قتلهم غريمه توران شاه (٤)، لكنهم مالبثوا أن استأنفوا المفاوضات مع الصليـــبيين ، وعقدوا اجتماعاً ناب فيه عن المسلمين الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني (٥) في حين انتدب عن الصليـــبيين وليم كونت فلاندر وجين كونت سواسون والأخوان بلدوين الثاني إبلين وجاي إبلين (٦) ،وتم افتتاح الاجتماع وبدأ حسام الدين الهذباني بتوجيه سؤال إلى لويس التاسع عن سبب قدومه إلى بلادهم ، فرد لويس التاسع مبتسماً و لم يعط جواباً ، ثم نصحه بألا يركب البحر مرة ثانية ، ويقصد بلاد المسلمين ، وعليه أن يتعلم من خطئه ، وإن فعل ذلك مرة ثانية فهذا دليل على ضعفٍ في عقله ، فرد لويس التاسع ضاحكاً ، و لم يكن أمام لويس التاسع في ذلك الموقف الحرج سوى إظهار الابتسامات ، لأنه كان قد أظهر عكس ما أضمر حيث ساير

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٩-١٥٠ .

Dagen : op . cit , p72. ; Grousset , Rene : histoire des croisades et du royaume franc du jeressalem , Paris , 1936 , volume 3 , p491 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٤٨- ١١٤٩؛ Villeneuve : op .cit , p179-180 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٨-١٥٠ ؛ Irwin : op .cit , p21 .

(٤) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٢-٧٨٣ .

(٥) ابن واصل: ج٦ ، ص١٣٣ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠١ .

(٦) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٦ .

حسام الدين الهذباني في كل ما قاله ريثما يخرج من ذلك المأزق ، وتأتي الفرصة المناسبة للثأر من المسلمين حيث رد لويس التاسع (١) قائلاً : " لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به " (٢) ، وأسفرت المحادثات التي جرت بين الطرفين عن عقد اتفاقية تضمنت البنود التالية:

١- إطلاق سراح لويس التاسع ،وكبار قادته مقابل تسليم دمياط للمسلمين (٣) .

٢- تعهد لويس التاسع بدفع " مائتي ألف ليرة ذهبية (٤) إليهم قبل مغادرته النهر، ومبلغ مماثل " إثر إطلاق سراحه (٥) مقابل إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وكذلك إخلاء مالديهم من أسرى المسلمين (٦) .

٣- احتفاظ المسلمين بالأسلحة الصليبية واللحوم المملحة ، والأسرى الموجودين لديهم حتى يتم دفع المبلغ المتبقي على لويس التاسع (٧) .

٤- يتعهد لويس التاسع ألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية (٨) .

٥- مدة الهدنة بين المسلمين والصليبيين عشر سنوات (٩) .

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٣-١٣٤ ؛ الدواداري : ج٧ ، ص٣٨٤ .

(٢) ابن واصل : ج٦، ص١٣٤ ؛ المقريزي ،أحمد : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، ط١،بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١ ، ص٤٦٠ ؛

Dagen : op .cit , p72 .

(٣) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٣٢-١٣٣ ؛ الدواداري : ج٧، ص٣٨٤ . باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٧ ؛ قاسم ، قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، مجلة عالم المعرفة، العدد١٤٩ ، مطابع الصفاه ، الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٥٨؛

Miquel : op . cit , p52.

(٤) هناك بعض المصادر التي ذكرت بأنه تم الاتفاق على دفع أربع مائة ألف بيزنتة ، وهنا أشار جوانفيل إلى مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية في الحقيقة المبلغ نفسه لأن كل ليرة ذهبية تعادل اثنين بيزنتة جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣١-١٣٦ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٦ .

(٦) فابري: الموسوعة، ج٣٨ ، ص١١٧؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، مج ٢٠ ، ص٥٣ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p292-293 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٦-١٣٧ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٥١ .

(٨) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٣-١٣٤ ؛ ابن إياس : ق١ ج١،ص٢٨٢ .

(٩) باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٠ ؛ المهندس : ج٣ ، ص٢٥٣ .

وتوجب على الطرفين أداء القسم على الالتزام بالاتفاقية (١) ،و يذكر جوانفيل بأن المماليك أعجبوا بتمسك لويس التاسع بدينه فاقترحوا تسليمه ملكاً عليهم (٢)، و يمكن الإشارة إلى أن جوانفيل انفرد من بين كل المصادر العربية والأجنبية بهذا الاقتراح ، في الحقيقة من المستحيل أن يقوم أمراء المماليك بتسليم القيادة إلى لويس التاسع ،وهنا يجب ألا ننسى بأنهم أطاحوا بسيدهم توران شاه من أجل الحكم ، ومن جهة ثانية هذا العمل يُقلل من مكانتهم وهيبتهم في قلوب المسلمين إذا ما سلموا سيادتهم إلى عدوهم ، فربما لم يكن ذلك إلا على سبيل المداعبة والمزاح .

وبعد إبرام المعاهدة بين الجانبين أرسل لويس التاسع أحد رجاله ويدعى جيفري دي سارجين إلى دمياط لتسليمها للمسلمين (٣) حيث دخل أهالي دمياط مدينتهم بعد " أن ملكها الفرنسيون أحد عشر شهراً وسبعة أيام" (٤) ، وأصبحت دمياط الآن بأيدي المسلمين ،واختلفوا حول تطبيق الاتفاقية مع الصليبيين حيث انقسم المسلمون إلى قسمين :

- مثّل الطرف الأول شجر الدر والمماليك الصالحية (مماليك الصالح أيوب) حيث رأوا أن لا فائدة من احتجاز الأسرى ومن الأفضل أخذ الفدية منهم وإطلاق سراحهم .

- أما الطرف الثاني الذي مثّله الأمير حسام الدين الهذباني وبعض الأمراء المماليك ، فقد فضلوا قتل لويس التاسع وكبار القادة الذين معه ، وذلك خوفاً من أن يشكلوا خطراً على المسلمين في المستقبل ،وعندما سمع الصليـــبيون بذلك قال جوانفيل: " فذرفنا الكثير من الدموع " (٥) ،

---

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٦-١٣٩ ؛ زيادة : ص٢٣٤-٢٣٥ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على مصر ، ص٢٢٣-٢٣٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٩ .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٤ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٢؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٠-١١٥١ .

(٤)الزبيدي ،مرتضى : ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب ، تح : صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٣١٩هـ/١٩٧١م ، ص٨٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤١ .

وبعد جدال طويل تغلب رأي الطرف الأول لأن شهامتهم ورجولتهم لم تسمح لهم أن يغدروا بالصليــبيين (١) ،واستطاع لويس التاسع جمع المبلغ المتفق عليه ودفع به إلى المسلمين ، وأفرج عن لويس التاسع وأخويه وكبار فرسانه وباروناته ، أما بقية الأسرى فظلوا في الأسر ريثما يتم دفع كامل المبلغ المتفق عليه (٢)، ثم سار لويس التاسع ورجاله الذين أخلى المسلمون سبيلهم إلى دمياط ، وهم حوالي أربعمائة أسير(٣) ، ووصلوا إلى شاطئ دمياط حيث كانت سفينة جنوية راسية صعد إليها لويس التاسع ، ثم تبعه رجاله (٤) وغدا يوم رحيل الصليــبيين في يوم الجمعة الموافق في الرابع من صفر سنة ٦٤٨هـ/ الثامن من آذار ١٢٥٠م يوم عيد ليس لأهالي دمياط فحسب بل للمسلمين جميعاً ، وأقيمت الأفراح ، وتبارى الشعراء بتمجيد الانتصارات ، ووزعت شجر الدر الهدايا على الأمراء ، وأنفقت الأموال على العامة ، واختتمت الحملة الصليــبية السابعة صفحة أعمالها بنهاية مفجعة ، وأخفقت كحرب استعمارية في السيطرة على مصر وبلاد الشام ،وتحطم ذلك الجيش الضخم حيث ابتلعته أرض مصر ونيلها ، وتبعثر مقاتلوها مابين أسير وقتيل وجريح (٥) .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مج٢٠ ، ص٥٢-٥٣ ؛ الذهبي: العبر ، ج٣ ، ص٢٥٩ ؛ اليافعي: ج٤ ، ص٩٢ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٢-١٤٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ ؛ طقوش ،محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص٣٩ .

(٣) مونرود: مج٢، ص٣٣١ .

(٤) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٦-١٥١ ؛ يوسف : العدوان الصليــبي على مصر ، ص٢٣٨-٢٤٠ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٤-١٣٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٠-٤٦٢ .

٣- استلام لويس التاسع حكم مملكة عكا .

أبحر لويس التاسع من دمياط قاصداً عكا على رأس ثلة قليلة من البارونات الناجين بأنفسهم تاركاً الكثير من جنود حملته الصليـــبية في الأسر ، ناقلاً مسرح الأحداث الصليـــبية من مصر إلى بلاد الشام ، أو بالأحرى من دمياط ومشارفها إلى عكا وما يجاورها (١) .

و لم يجد لويس التاسع في السفينة التي استقلها أبسط المستلزمات الأساسية (٢) ، ولحسن حظه أنه احتفظ بالفراش الذي نام عليه في سجنه ، وارتدى الملابس التي أهداها إليه توران شاه ،وقد وصف جوانفيل تلك الملابس بأنها صُنعت من الحرير ،وكانت مبطنة بفرو سنجاب ، (٣) ، فكم هناك فارق كبير بين نوايا لويس التاسع الذي كان ناقماً على المسلمين مُهدداً بقتل الرجال وترميل النساء وإبادة الجميع ، وبين المسلمين الذين عاملوه بكل شجاعة وإنسانية ، وألبسوه رداءً ذو أزرار ذهبية ، فهل رأى التاريخ أرحم من العرب والمسلمين (٤) ؟.....

تابع لويس التاسع مسيره إلى عكا ، وعلى ظهر السفينة استعاد مع رجاله ذكرياتهم الحزينة في مصر ، وأظهر لويس التاسع حزناً عميقاً على فقدان أخيه رُوبرتْ ، وغالباً ما اشتكى إلى جوانفيل من أخويه شارل وألفونسو اللذين انشغلا بلعبة النرد ، ولم يتحمل كل ذلك الاستهتار ، وأبدى غضباً شديداً ذات مرة ، فحمل طاولة النرد ورمى بها في البحر (٥)، وأمضى لويس التاسع ورجاله مسيرةً شاقة في البحر ، وكأن كل ما حدث لهم في مصر لم يكن كافياً حيث ضربتهم عواصف بحرية كادت تؤدي لإغراقهم ، وبعد ستة أيام وصلوا إلى مشارف عكا في التاسع من صفر سنة ٦٤٨هـــ/ في الثالث عشر من أيار ١٢٥٠م (٦) .

استقبل أهالي عكا الوفد القادم برئاسة لويس التاسع استقبال الأبطال الفاتحين ،وقد خرجوا بشكل

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠١ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٦٣-١١٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٨ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥١-٣٥٢ ؛ زيادة : ص٢٣٦-٢٣٧ ؛ Miquel : op .cit , p52 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥١ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٢-٣٦٦ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥١-١٥٢ .

(٦) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٢ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على مصر، ص٢٤٠-٢٦٨ .

مهيب تقدمهم رجال الدين حاملين الصلبان ، وسار خلفهم الرجال والنساء والأطفال ، وارتدوا أجمل ألبستهم وقرعت نواقيس الكنائس فرحاً بقدوم لويس التاسع نظراً لما كان يتمتع به من مكانة لديهم ، فكانوا يأملون ببقائه ومساعدتهم على النهوض من كبوتهم بعد ما زعزعت الكوارث كيانهم ، وأفقدتهم هيبتهم وحرمتهم من خيرة فرسانهم ، وقد سار الجميع إلى الكنيسة وأدوا الصلوات ، ثم طافوا في شوارع عكا ، وبعد ذلك أوصلوا لويس التاسع ورجاله إلى أماكن إقامتهم، وعينوا لهم الخدم وقدموا لهم الهدايا الثمينة ، وهنا شعر الصليـبيون بالطمأنينة إثر وصول لويس التاسع (١) بعد أن انحسر وجودهم على الساحل الشامي " مابين جبل لبنان وبحر الروم وهيفا (٢) وأرسوف وقيسارية وعكا وصور وغذنون (٣) وتبنين والشقيف وصيدا وبيروت وجبيل وأنفة (٤) والبترون وطرابلس (٥) وأنطرسوس وجزيرة أرواد والمرقب وجبيل واللاذقية " (٦) ، ولم يرغب الصليـبيون في الحفاظ على هذه المناطق فحسب بل بنوا الآمال بقدوم لويس التاسع بمد حدود كيانهم الصليـبي ، لكن ما إن وصل لويس التاسع إلى عكا حتى أتته رسالة من السيدة بلانشيه تحثه فيها على الإسراع في العودة إلى المملكة الفرنسية لمواجهة تهديدات ملك إنكلترا هنري الثالث الذي كان طامعاً بالسيطرة على الأراضي الفرنسية (٧) ، فما كان من لويس التاسع إلا أن عقد اجتماعاً في يوم الأحد ١٧ ربيع الأول سنة٦٤٨ هـ/١٩ حزيران ١٩٥٠م حضره أخواه شارل وألفونسو وكبار رجال الصليـبيين في مملكة عكا ، وافتتح لويس التاسع الاجتماع ورحب بالسادة الحضور وبين لهم بأنه أمام أمرين ، إما العودة إلى فرنسا لمواجهة خطر إنكلترا ، أو البقاء في مملكة عكا من أجل التصدي للمسلمين ، وقد أعطاهم مهلة لمدة أسبوع

---

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٤ ؛ الافرنسي ، لومند : تاريخ الكنيسة ، تر : يوسف البستاني ، مطبعة أبناء اليسوعيين ، بيروت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ، ص١١٢ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p293-294 .

(٢) هيفا : المقصود بها حيفا ، الباحث .

(٣) غذنون : المراد بها أرنون ، الباحث .

(٤) أنفة : مدينة حصينة تقع على الساحل الشامي في جنوب القلمون وشمال البترون . ابن حوقل : صورة الأرض ، دار الحياة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص١٥٣-١٥٤ .

(٥) طرابلس : المقصود بها إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس ، وقد شكلت إمارة واحدة بقيادة بُوهيمندْ الرابع ، الباحث .

(٦) الحريري : الإعلام والتبيين ، ص٩٧ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٦ ؛ مونرود : ج٢ ، ص٣٣٢ ؛ يوسف : العدوان الصليـبي على مصر ، ص٢٦٨ .

لإبداء آرائهم (١) ، وفي يوم الأحد التالي عقد لويس التاسع اجتماعاً ثاني للبت في مسألة عودته أو بقائه في عكا ، وحضر الاجتماع بارونات فرنسا ومملكة عكا ، وبدأ لويس التاسع حديثه بتوجيه السؤال إلى أخويه والبارونات الفرنسيين حيث طلب منهم إبداء مشورتهم حول القضية التي شغلتهم ، وكانوا قد عهدوا إلى البارون غي مُوفُوزينْ (Guy de mauvoisin) التحدث باسمهم ، وقد أشار هذا البارون إلى لويس التاسع أن بقاءه في مملكة عكا أمر صعب لأن فرنسا في خطر، وإذا ما أراد البقاء فلا يستطيع مهاجمة المسلمين بذلك العدد الضئيل من فرسانه (٢) الذين بلغوا حوالي مائة فارس ، وقد نصح لويس التاسع بالعودة إلى فرنسا لتسوية الخلافات مع إنكلترا ، وبعد ذلك يمكنه إعداد حملة صليبية جديدة لإنقاذ مملكة عكا ، لقد اكتشف لويس التاسع نوايا باروناته ، صحيح أن هذا رأي غي موفوزين ، لكن دون شك اتفق معهم مسبقاً على تلك المؤامرة من أجل إفساد خطة لويس التاسع بالبقاء في الشرق بحجة أنه لم يبق معه سوى قوة ضئيلة غير قادرة على صنع أي شيء ، مما يؤكد أن هؤلاء البارونات لم يدفعهم للاشتراك بالحملة الصليـبية إلا الرغبة في زيادة أملاكهم وثرواتهم ، ولكن أحلامهم تلاشت إثر الهزائم التي لحقت بهم ، وأظهروا أنهم ليسوا مستعدين للبقاء مع لويس التاسع في الشرق ، ومن الأفضل العودة إلى فرنسا للدفاع عن أملاكهم وذويهم ، ثم أراد لويس التاسع معرفة رأي بارونات مملكة عكا الذين مثلهم يوحنا دي إبلين كونت يافا ، وقد أعطى رأياً جديداً عندما طلب من لويس التاسع تمديد إقامته في عكا لمدة عام واحد ، ريثما يتم إصلاح الأوضاع الداخلية ، واتخاذ الإجراءات الضرورية لتأمين الحماية لمملكة عكا ، وهنا احتج أودو النائب البابوي في فرنسا ، وأكد بأن بقاء لويس التاسع على رأس عدد ضئيل من الفرسان لا يمكن أن يحقق أية فائدة ، فرد جوانفيل ونوه بأن لويس التاسع لديه الكثير من الأموال ، وبإمكانه تجنيد عدد كبير من الفرسان الأوربيين المرتزقة إذا ما دفع لهم رواتب مغرية،واحتدم النقاش ما بين مُؤيد ومُعارض لرحيل لويس التاسع ،وتوترت الأجواء وهدأ لويس التاسع من روعهم ، و لم يعط رأيه وطلب منهم إعطائه مدة أسبوع لإعطاء قراره النهائي ، ثم انصرف الجميع (٣)،وانتظروا قدوم يوم الأحد بفارغ الصبر لمعرفة رأي ملكهم حول البقاء أو العودة

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٧؛ زيادة : ص٢٣٨-٢٣٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٧؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٨ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٢-٤٧ ؛ Villeneuve : op .cit , 182-190 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٦-١٥٩ ؛ يوسف ، جوزيف : لويس التاسع في الشرق الأوسط، دار المطبوعات الحديثة ،ط٢، د.م ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ص٨٠-٨١ .

إلى فرنسا،وعندما انعقد الاجتماع في يوم الأحد رسم لويس التاسع علامة الصليب على فمه (١) ، ثم توجه بالشكر الجزيل إلى الذين نصحوه بالبقاء في عكا ، وإلى الذين أشاروا عليه بالعودة إلى فرنسا ، وقد أعطاهم حرية الاختيار في البقاء أو العودة ، أما هو فأبى ترك مملكة عكا والعودة إلى فرنسا (٢) ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، لماذا لم يعُد لويس التاسع إلى فرنسا على الرغم من حاجة فرنسا الماسة إليه ؟

وما هو هدفه من الاستقرار في مملكة عكا ؟

قرر لويس التاسع البقاء في مملكة عكا لأسباب عديدة وهي على الشكل الآتي :

أ- لقد استاء لويس التاسع من والدته بلانشيه التي كانت مستبدة ، و لم تراع مشاعره ، ففضل البقاء بعيداً عنها ، و لم يَخَف على فرنسا لأن والدته قادرة على إدارة فرنسا بمن معها من الرجال الأشداء بل والدفاع عنها ضد الأخطار التي هددتها ، وبخاصة تهديدات هِنريّ الثالث ملك إنكلترا (٣)، بينما وصلت مملكة عكا مرحلة لاتحسد عليها من الضعف والانحلال ، ومن المحتمل أنه إذا عاد إلى فرنسا لربما يلحق به الكثير من الصليـــبيين ، ويتم القضاء على الكيان الصليـــبي إلى الأبد ، وهذا لا يتناسب مع لويس التاسع الذي لم يكن راغباً في الحفاظ على الكيان الصليـــبي فحسب بل كان يحلم أن يجعل منه قوة عظمى تبتلع كل ما حولها (٤) .

ب - وجد لويس التاسع بأن الصليبيين " كانوا ضعفاء وبائسين وغير سعداء " (٥) ، وقد شتت الخلافات شملهم ، فأراد تلافي تلك النـــزاعات و لم شملهم (٦)، كما أراد تقوية علاقاته الدبلوماسية مع دول الجوار المعادية للمسلمين لعله يكسبهم إلى جانبه ،وبخاصة المغول لتشكيل حلف

---

(١) المقصود برسم علامة الصليب على الفم كما أوضحها جوانفيل أن والدته علمته رسم تلك الإشارة من أجل استشارة السيد المسيح عليه السلام فيما ينوي الشخص التحدث به ،كي لا ينطق إلا بالحق والصواب. جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦١ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p494-495.

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٧-١٩٤٨ .

(٣) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص ١١٨-١٦١ ؛ Gebhart : op . cit ,p201-205 .

(٤) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٤٢-٣٦٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ص٣١٦-٣٥٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٧٧-٢٨٨ ؛ Brentano : op ,cit , p285-299 ; Stevenson : op , cit, p229-230 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٧ .

(٦) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٤ .

من أجل مجابهة المسلمين ، والحفاظ على الكيان الصليـــبي بقوة السلاح (١)، متناسياً اليمين الذي أقسم عليه لويس التاسع للمماليك (٢) .

جـــ – إن المؤامرة التي حاكها المماليك ضد سيدهم توران شاه ، وتخلصهم منه قد زرعت الأمل في نفس لويس التاسع بأن هذا يعني انفصال بلاد الشام تحت قيادة الأيوبيين عن مصر ، ونشوء دولة مملوكية جديدة فيها ، وبذلك يتفرق الصف الإسلامي ، فأخذ يأمل بأن يستغيث أحدهما به ضد الآخر ، كما أنه ربما توقع حدوث ثورة أيوبية في مصر ضد المماليك الذين تخلصوا من توران شاه، وأخذوا بحكم مصر من خلال شجر الدر ، فكان بقاءه في عكا هو السبيل للانتقام من المسلمين (٣) .

د –لم ينس لويس التاسع الهزائم التي مُني بها ، ومقتل أخيه رُوبِرتْ كونت أرتوا ، كما لم تنس فرنسا فقدالها لخيرة فرسالها بتلك السرعة ، ومن المحتمل أن الزمن قادر على محو تلك الآلام من أذهالهم ، وإن لم يستطع لويس التاسع الانتقام من المسلمين فعلى الأقل يمكن أن يسعى لإطلاق سراح الأسرى من السجون المصرية (٤) ،والدليل على رغبة لويس التاسع بالانتقام إرساله أخويه شارل وألفونسو والكثير من النبلاء الى أوربة لعل أوربا ترسل حملة صليـــبية جديدة أملاً في مساعدة الكيان الصليـــبي للوقوف على قدميه (٥) .

وهكذا أصبح لويس التاسع حاكماً لمملكة عكا ، علماً أنه ليس ملكاً شرعياً لأن الملك الحقيقي

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٧-١٨١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨، ص١٨٨٠-١٩٥٠ ؛
Hamilton , Bernard : monastic reform catharism and the crusades 900-1300 , London , 1979 , p80-81 .

(٢) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٧-١٣٩ .

(٣) الحريري ،أحمد : منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان ، تح : عبده خليفه ، دار عشتار ، ط١،بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٣٤٠-٣٤٢ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤١-٣٤٣ ؛ سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٩-٧٨٣ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٧-٤١٨ .

(٤) ابن واصل : ج٦ ، ص١٠٧-١٣٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٢-١١٤٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٧ ، ص٣٠٥-٣٠٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج٦ ، ص٣٦٤-٣٧٠ ؛ فابري: الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٢ ؛
Delort : op . cit , p258-260 .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٦٣-١١٧٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٨ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p496-497 .

لمملكة عكا هو كونراد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن (١) ، وذلك بسبب عدم قدوم كونراد إلى مملكة عكا مما أفسح المجال أمام لويس التاسع في حكم مملكة عكا ، وذلك على الرغم من مطالبة بارونات عكا بقدوم كونراد لكنه كان متردداً في المجيء لعكا (٢) ، ومن المحتمل أنه لم يكن مقتنعاً بمشروع الحروب الصليـــبية، ولو أنه كان مقتنعاً بذلك المشروع الصليـــبي لم يتوان عن القدوم إلى عكا لأنه انشغل بملذاته الخاصة فكان "سكيراً ، مُبذراً ، ومُضطهداً للكنيسة " (٣) أيضاً ربما أن سوء علاقته مع الكنيسة جعلته عازفاً عن القدوم إلى الشرق أو حتى تقديم الدعم للصليـــبيين ، و لم يكن كونراد رافضاً لفكرة الحروب المقدسة فحسب بل كان معادياً للكنيسة ، ولرجال الدين حيث لم يسمح لأحد بمعارضته أو الاحتجاج على أعماله ، وقد قَتَل الكثير من الرهبان ظُلماً وعدواناً ، مما أدى لحرمانه كنسياً من قبل البابا أنوسنت الرابع ، وبقي محروم كنسياً حتى فارق الحياة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٤) .

وعلى هذا مالت قلوب الصليـــبيين جميعاً بما فيهم البارونات إلى لويس التاسع الذي عُرف بتقواه وورعه، متجاهلين الملك الشرعي كونراد وأصبح لويس التاسع سيداً للصليـــبيين ، و لم يمتلك صفة الشرعية ، كما لم يجد معارضة لحكمه عندما وجدوا رغبته الصادقة في الاصلاح وتوحيد قوتهم ، والعمل يداً واحدةً ضد المسلمين ، لإقامة الكيان الصليـــبي رغماً عن المسلمين (٥) .

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص ١١٦٤ - ١١٩٦ ؛

Setton , Kenth: a history of croisades , London , volume 2 , p559-566 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص ١٨٦٥ ؛ ١٩٤٤ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٥) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٥٩ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨، ص١١٧٢-١١٧٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ص١٣٢ ؛ الافرنسي : ص١١٢-١١٣ ؛

Hamilton : op . cit , P 80 .

٤- الاهتمام في شؤون إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس .

شكلت إمارة أنطاكية حكومة مستقلة عن مملكة بيت المقدس (١) منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وارتبطت مع كونتية طرابلس سنة ٦١٧هـ/١٢١٩م تحت حكم البيت البُوهِمِنْدِي النورماندي الأصل (٢) ، لكنها أصبحت فريسة لهجمات التركمان (٣) ، لذا وجه لويس التاسع عنايته لإنقاذها في ذلك الوقت الحرج (٤) ، لكن إسهاماته لم تفِ بالمطلوب تماماً، وهنا من الضروري العودة إلى الوراء قليلاً لإلقاء الضوء على الدور الذي قام به لويس التاسع من أجل النهوض بإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس خلال مدة إقامته في الشرق ، وتقديم صورة واضحة عن علاقة لويس التاسع مع مسيحيي الشرق حيث أنه عندما سمع بُوهِمِنْدْ الخامس أمير أنطاكية وكونتيه طرابلس (٦٣١-٦٤٩هـ/١٢٣٣-١٢٥١م) بوصول لويس التاسع إلى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م استغاث به لمساعدته في التصدي لغارات التركمان ، وعلى الفور أرسل له لويس التاسع من قبرص ستمائة فارس ، فتصدى بُوهِمِنْدْ الخامس لهجمات التركمان ووضع حداً لتماديهم (٥)، لكن ما إن سمعوا بهزيمة لويس التاسع في مصر حتى أدركوا أن المدد قد انقطع عن بُوهِمِنْدْ الخامس ، فهاجمت جموع التركمان أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، واجتاحوا ضواحيها ونهبوا حقولها، وخطفوا الماشية وقتلوا كل من وقع بأيديهم من السكان ، وعندما أيقن التركمان أن بُوهِمِنْدْ الخامس غير قادر على ردعهم شنوا غارةً

---

(١) إثر معركة حطين اضمحل سلطان ملوك مملكة بيت المقدس الثانية ، فأصبحت أنطاكية في حالة استقلال تام ، ولم تبق هناك سوى تبعية اسمية لمملكة بيت المقدس الثانية حيث أصبح لها مجالسها المنفردة ، وأدارت أمورها الداخلية دون تدخل ملوك مملكة بيت المقدس الثانية في شؤونها . غروسيه : الحروب الصليبية ، ص١٠١ .

(٢) الزين ،سميح : تاريخ طرابلس ، دار الأندلس ، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص١٢٤-١٢٧ ؛ سالم ،عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص١٣٥-١٦٢ .

(٣) التركمان : قدم التركمان من بلاد ما وراء النهر، وانساح التركمان غرباً في شمال بلاد الشام، وسهول الجزيرة الفراتية ، وجبال طوروس ، وقد حملوا خيامهم، وساقوا أمامهم قطعان الإبل والأبقار والماعز، ثم اعتنقوا الإسلام وتطوعوا في الجيش الأيوبي ، وبخاصة في عهد الصالح نجم الدين أيوب الذي استكثر منهم في جيشه . مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٨٩ ؛ ابن خلدون : ج٥، ص٤٢٦-٤٣٠ ؛ الحايك، منذر: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، دار الأوائل ، ط١،دمشق ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م ، ج١ ، ص١٥٢-١٥٣ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٨٩-١٩٩٠ ؛ عطية ،حسين: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ٥٦٧-٦٦٦هـ/١١٧١-١٢٦٨م ، دار المعرفة الجامعية ، ط١، الأزاريطة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص٣٧٦ .

(٥) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٤٩-٤٥٠ ؛ زيادة : ص٩٨ .

جديدة على أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، فشكّل بُوهمِندْ الخامس جيشاً ، وانطلق من طرابلس للتصدي لهم ، ولكنه لم يصمد أمامهم ، وفرَّ هارباً بعد أن مُني بخسائر في الرجال والعتاد ، وهنا أرسل بُوهمِندْ الخامس إلى لويس التاسع لإخباره بالحالة المأساوية التي كانت تعيشها بلاده بسبب هجمات التركمان عليها (١) ، فما هو موقف لويس التاسع من رسالة بُوهمِندْ الخامس ؟

كان لويس التاسع قد أصبح حاكماً لمملكة عكا ،وتوجب عليه تأمين الحماية والأمن للصليـــبين ، ولكنه بسبب ضعفه لا يمكن إفادة بُوهمِندْ الخامس بشيء بعد أن دُمرت حملته في مصر ، وراح جنوده مابين قتيل وأسير ، كما أن المساعدات لم تأته بعد من أوربا إن كانت هناك مساعدات ، و لم يستطع التفريط بما لديه من عدد ضئيل من الجنود إدخرهم لوقت الحاجة(٢) ، وعلى ما يبدو وجد لويس التاسع أن الناصر يوسف الثاني ملك حلب(٣) هو الذي كان وراء دعم التركمان ضد أنطاكية (٤) ، لذا لجأ لويس التاسع لإثارة الفتنة بين الناصر يوسف الثاني والمماليك في مصر ، وبالفعل نجح بإشعال نار الحرب بينهما (٥) ، والأهم من كل ذلك العمل على إشغال الناصر يوسف الثاني عن دعم التركمان ، ولكن هذا لا يعني انعدام غارات التركمان على أنطاكية (٦) ، ويمكن التنويه إلى أن بُوهمِندْ

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ .

(٢) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٥٨-٢٦٠ .

Etenne, Lamy : france du levant ,Paris , 1900 ,p41 ; Hamilton : op .cit , p80 .

(٣) الناصر يوسف الثاني : هو الملك الناصر يوسف الثاني بن الملك العزيز صاحب حلب ، ولد سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ، وملك حلب بعد وفاة والده سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وأشرف على تدبير مملكته جدته ضيفة خاتون بنت العادل ومقدم العسكر شمس الدين لؤلؤ الأرمني ، وقد توفيت جدته سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، وأدار المملكة وعمره ثلاث عشرة سنة ، واستولى على مملكة حمص من يد الأشرف موسى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وعوضه بتل باشر وتدمر والرحبة ، لكن الخلافة العباسية أعادت الأشرف موسى إلى مملكته ، بينما ضم الناصر يوسف الثاني نصيبين ودمشق إلى مملكته ، وعندما هاجم المغول حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م تصدى لهم ، ثم طلب المعاضدة من مصر ، وكان له مستشار كردي اسمه حسين دلّ المغول على مكان وجوده ، فأسروه وأرسلوه إلى هولاكو ، فقتله سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٣٩ ؛ الحنبلي ،أحمد : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح : ناظم رشيد ، دار الحرية بغداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م ، ص٤٠٨-٤٢٠.

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٨ .

(٥) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٣-٧٨٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٨-٢٩٢ ؛ ابن سباط: ج١ ، ص٣٥٢-٣٦٠ ؛ الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٤١-٣٤٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ص١٢٣-١٢٤ ؛

Smil , R. C: the crusaders , new yourk , 1972 , p34 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٣٠٨ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

الخامس لم يكن قادراً على ردع التركمان في الوقت الذي أرسل فيه الموارنة (١) ابن أميرهم سمعان (٢) " ومعه خيل بخمسة وعشرين ألف مقاتل نجدة للملك " ! (٣) الفرنسي لويس التاسع مع العلم أن الموارنة كانوا تحت سيادة بُوهِمِندْ الخامس ، فلماذا لم يساندوا بُوهِمِندْ الخامس ضد التركمان ؟

ولكن مما يلفت الانتباه هذا العدد الكبير من الموارنة الذين قدموا إلى لويس التاسع ، فمن المؤكد أن هذا العدد مُبالغٌ فيه ، لأن خمسة وعشرين ألف مقاتل لا تستطيع إعداده سوى الدول الكبرى !

أما فيما يتعلق بعدم مساندة الموارنة لبوهمند الخامس ، فهناك احتمالان :

الاحتمال الأول : عدم اعتراف الموارنة بسلطة بُوهِمِندْ الخامس حيث استقلوا بشؤونهم الداخلية ، وتمتعوا بالحكم الذاتي ، ولربما بسبب نظرة اللاتين المتعالية تجاه الموارنة سكان كونتية طرابلس الأصليين (٤) .

الاحتمال الثاني : الخلاف الديني ـــ المذهبي بين سكان أنطاكية ، وبخاصة بين العنصر البيزنطي الأرثوذكسي من جهة ، والمستوطنين الصليبيين الكاثوليك من جهة أخرى ، فإذا ما تعاون الموارنة مع بُوهِمِندْ الخامس الذي يدين بالمذهب الكاثوليكي ، فإن ذلك سيؤدي لإثارة الخلافات مع جيرانهم الأرثوذكس من أبناء أنطاكية (٥) .

ويمكن ترجيح الاحتمال الأول مما أدى في النتيجة لعدم وقوف الموارنة إلى جانب بُوهِمِندْ الخامس في أحلك الظروف ،بينما ساندوا لويس التاسع ، وقد أُعجب لويس التاسع بالموارنة ، وأرسل رسالة إلى أميرهم أظهر في مقدمتها الفرح والسرور الذي انتابه بقدوم سمعان ورجاله حاملين الهدايا الفاخرة ،

---

(١) الموارنة : ظهر الموارنة مع نهاية القرن السادس الميلادي ، ويعودوا بنسبهم إلى الراهب مارون بن أغاثون بن عبرون ، ومارون كلمة سريانية تعني السيد ، وكان مارون موافقاً رأي الكنيسة الرومانية التي تقول بأن للسيد المسيح عيسى بن مَريم عليه السلام طبيعة واحدة ، فعينه البابا مطراناً على جبل لبنان والبترون والساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وذلك من أجل حماية تلك المنطقة من البِدَع ،وعندما مات مارون دفنوه في حماة على ضفة نهر العاصي ، وبنوا فوق قبره دير عرف بدير مار مارون . الدويهي،اسطفانوس: تاريخ الطائفة المارونية ، تح : رشيد الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية ،د.م، ١٢٦١ هـ/١٨٩٠م ، ص٨-١٣ ؛ الشدياق ،طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان ، تح : مارون رعد ، دار نظير عبود ، لبنان ،١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ج١ ، ص٣٧-٣٨ .

(٢) الأمير سمعان : أقام في أنطاكية ، وحكم الموارنة من سنة ٦٤٣-٦٧٦هـ/١٢٤٥-١٢٧٧م ، وكان على علاقة وثيقة مع البابوية في روما . يوسف : العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص٣١٤ .

(٣) الشدياق ،طنوس : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، تح : مارون رعد ، دار نظير عبود ، د.ت ، ج٢ ، ص١٢ .

(٤) الدويهي : الطائفة المارونية ، ص١١٠-١١١ ؛ سالم : ص٢٢٥-٢٢٦ .

(٥) عاشور : الحركة الصليـــبية ، ج٢ ، ص١٠٩٦ ؛ الزين : ص١٢٦-١٢٧ ؛

Setton op . cit , volume 2 , p566 .

ثم أكد لويس التاسع للموارنة مكانتهم الغالية في قلبه ،ومن حقهم دخول الوظائف في فرنسا مثلهم مثل الفرنسيين، وأشار الى الروابط الوثيقة التي ربطت فرنسا والموارنة والتي تمثلت بالرابطة الدينية الكاثوليكية ، وأوصاهم بالتمسك بالمذهب الكاثوليكي من أجل خدمة المشروع الصليـــبي (١).

تواترت هجمات التركمان على أنطاكية سنة ٦٤٩هــ/١٢٥١م (٢) ،كما احتدم الصراع بين الفرنجة الكاثوليك والعنصر المحلي الأرثوذكسي ، فآثر بُوهِمِندْ الخامس الاستقرار في طرابلس تاركاً أنطاكية وشأنها إلى أن فارق الحياة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م (٣) ، لم يترك بُوهِمِندْ الخامس سوى ولداً واحداً في الرابعة عشر من عمره ، تم تنصيبه أميراً على إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس باسم بُوهِمِندْ السادس (٤) تحت وصاية أمه لوسي الايطالية الأصل ريثما يصل إلى سن البلوغ (٥) ، وقد مرت أنطاكية آنذاك بظروف قاسية ، و لم تكن أحوالها قد تحسنت عن ذي قبل بل سارت أوضاعها من سيء إلى أسوأ بعد أن واصل التركمان هجماتهم عليها سنة ٦٥٠هــ/١٢٥٢م ، حيث أسروا المزارعين ، وأحرقوا المحاصيل ، ودمروا كل ما وجدوه أمامهم حتى أن أهالي أنطاكية لم يجرؤوا على مزاولة أعمالهم خارج أسوارها (٦)، وأمام تلك الظروف القاسية تركت الأميرة لوسي أنطاكية واستقرت في طرابلس ، وأهملت أنطاكية بدلاً من أن تتولى الدفاع عنها ، وهذا ما أزعج الأمير بُوهِمِندْ السادس الذي لم يكن راضياً عن تصرفات والدته ، فانتهز فرصة ذهابه معها لزيارة لويس التاسع في عكا سنة ٦٥٠هــ/١٢٥٢م ، حيث رحب لويس التاسع بالأمير الضيف وأمه لوسي ، وشكى له ما آلت إليه أوضاع أنطاكية نتيجة لإهمال والدته لوسي لها واستقرارها في طرابلس ، وإذا ما بقي مع أمه في طرابلس فإن أنطاكية مآلها الضياع ، وطلب منه لويس التاسع إقناع والدته الأميرة لوسي

---

(١) الدويهي : الطائفة المارونية ، ص١١٠-١١١ ؛ الشدياق : ج٢ ، ص١٢ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٢٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p512 .

(٣) عاشور : الحركة الصليــبية ، ج٢ ، ص١٠٩٦ ؛ الزين : ص١٢٧ ؛

Setton : op . cit, volume2 p566 .

(٤) مجهول :تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٩ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٧-١٣٠٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٣٠ .

بإلهاء وصايتها عليه قبل بلوغه سن الرشد فعلاً (١) ، ومن الواضح أن لويس التاسع أُعجب بذكائه وشجاعته ؛ فأقنع لوسي بإلهاء وصايتها عليه مقابل تعيين دخلٍ كافٍ لها ، وقد نصَّب لويس التاسع بُوهِمِندْ السادس فارساً وسط احتفال مهيب ، وبذلك أصبح تابعاً لسيده لويس التاسع ، ووافقت الأميرة لوسي على إعطاء بُوهِمِندْ السادس الأموال الكافية للدفاع عن إمارته (٢) ، وبعد عودته إلى إمارته قام بتنظيم أمورها ، وواجه الأخطار التي هددتها ، فتصدى لهجمات التركمان ، كما أضاف شعار فرنسا (٣) إلى شعار أنطاكية (٤) اعترافاً منه بفضل لويس التاسع عليه (٥) .

أرسل لويس التاسع سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م مجموعة من الحجاج وعلى رأسهم جوانفيل للحج إلى كنيسة مريم العذراء في طرطوس التي تعد من أكثر الأماكن المسيحية قداسه في العالم لأن القديس بطرس أكد أن السيدة مريم العذراء تجلت له هناك ، فبُنيت كنيسة في ذلك المكان ، وقد أوصى لويس التاسع جوانفيل أن يشتري له " مائة قطعة قماش من وبر الجمل " (٦) ، لتوزيعها على الرهبان الفرنسيسكان عند عودته إلى فرنسا (٧) وبعد أن أدى الحجاج مناسكهم قادهم جوانفيل لزيارة بُوهِمِندْ السادس من أجل الاطمئنان على أوضاع إمارته ، ويمكن الإشارة إلى أن جوانفيل قد ارتبط

---

(١) في الحقيقة إن سن البلوغ وفقاً لشرائع مملكة عكا هو سن الخامسة عشر ، وفي هذه الحالة يتبقى بضعة أشهر حتى يصل بُوهِمِندْ السادس سن البلوغ ، أما سن البلوغ في فرنسا فهو سن الحادية والعشرين ،فهو بحاجة لست سنوات كي يصل سن البلوغ ، وقد أخطأ جوانفيل عندما حدد بأنه احتاج لأربع سنوات حتى وصوله لسن البلوغ ،وفي كلتا الحالتين سواء حسب القانون الفرنسي أم حسب قانون مملكة عكا ، فهو لم يصل للسن القانوني ،فأراد موافقة لويس التاسع لاعفائه من شرط المدة وكان له ما أراد . جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢؛ يوسف ، جوزيف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٤٢١هـ/١٩٨١م ، ص٣٠٨ .

(٢) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ ؛ عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٦ .

Setton : op .cit , volume2, p566 ; pernoud : op .cit .p234-235 ;
Grousset : op . cit , volume 3 , p512-513 ; Villeneuve : op .cit , p205-206.

(٣) شعار فرنسا : اتخذت فرنسا من اللون الأحمر شعاراً لها، وقد كان أحد طرفي الشعار مَشقوق من أحد جانبيه ، فبدا وهو يرفرف كأنه ألسنة النار الملتهبة ، وهذا الشعار اتخذه الملوك الفرنسيون منذ عهد فيليب أوغسطس ولويس الثامن شعاراً لفرنسا بعد أن كان خاصاً بدير القديس دِنيس في فرنسا . عطية : ص٣٩٠-٣٩١.

(٤) شعار أنطاكية : اتخذت أنطاكية من اللون الأصفر الذهبي علماً لها . جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ ؛ عطية : ص٣٩٠ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٦ .

(٧) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٦ ؛ مونرود : ج٢ ، ص٣٣٧ ؛ pernoud : op .cit , p234-235 .

معه بصلة قرابة ؛ واحتفل بُوهِمِندْ السادس بالحجاج الصليـــبيين أظهر فرحاً عظيماً، ولم ينس اهتمام سيدهم لويس التاسع وعنايته به ، فأعد للحجاج هدايا ثمينة، وسُر لويس التاسع بالأخبار التي وصلته عن بُوهِمِندْ السادس (١) بتصديه للخطر التركماني، وقد تلقى مساندة البابا أنوسنت الرابع سنة ٦٥٢هـــ/١٢٥٤م عندما فرض على الكنائس القبرصية دفع جزء من إيراداتها لمساعدة بُوهِمِندْ السادس في أعمار ما خربه التركمان في إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس (٢) .

وعلى هذا وقفت إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس على شفا جرف بعد أن اجتاحها التركمان ، وكادوا يجعلوها أثراً بعد عين ، ولكنها حظيت بعناية لويس التاسع ودعمه العسكري والمعنوي (٣) ، بل وسياسته الدبلوماسية التي قامت على إذكاء نار الفتنة بين الأيوبيين والمماليك ، فشغل الأيوبيين بالنـــزاع مع المماليك (٤) ، مما أطال في عمر إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس ، ولم يهتم لويس التاسع بتحسين أوضاع أنطاكية وطرابلس فحسب بل أصلح علاقاتها مع جيرانها كي يصنع حلفاً صليـــبياً قادراً على مواجهة المسلمين(٥) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٠ ، ٢١٧

(٢) إديوري ، بيترو: قبرص والحروب الصليـــبية ، دار الملتقى ، ليماسول ، ١٣٩١هـــ/١٩٧١م ، ص٧٣-٧٤ ؛ عطية : ص٣٨٢.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٨٩-١٩٩٥؛

Grousset : op . cit volume 3, p512-513 .

(٤) الدواداري : ج٧ ، ص٣٨٥-٣٨٦ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٠-٤٦٩ .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٥ ؛ رنسيمان : ج٣، ص٤٧٩ ؛

Mayer : the crusades ,new York , 1988 , p266 .

٥ – إصلاح العلاقات بين أنطاكية وأرمينية الصغرى .

أدرك لويس التاسع أهمية توحيد المسيحيين بعد انقسامهم إلى ممالك هزيلة متناحرة ، مما مَكّن المسلمين من تحقيق مكاسب كبيرة على حسابهم ، وقد بدأ لويس التاسع بمساعي الصلح بين مملكة أرمينية الصغرى (١)، وإمارة أنطاكية ، فتحسنت العلاقة بينهما بفضل وساطته وتوطدت روابط الصداقة وتكللت جهوده بعقد زواج سياسي بين الأسرتين الحاكمتين فيهما (٢) .

فمنذ أن وصل لويس التاسع إلى قبرص أرسل هَيْثُومْ الأول (٣) ملك أرمينية الصغرى إليه وفداً مُحملاً بالهدايا ، وقد تحدث لويس التاسع مع ذلك الوفد حول إنهاء الخلاف الذي طال أمده بين أرمينية وأنطاكية (٤) ،وهنا لابد من العودة إلى الوراء قليلا لمعرفة سبب ذلك النـــزاع ؟

إثر وفاة ليو الثاني ملك أرمينية ترك وراءه ابنته إيزابيلا (٥) وريثة عرش أرمينية من بعده ،وهنا اقترح بارونات أرمينية تزويجها من فيليب نجل بُوهِمِندْ الرابع رغبةً منهم في إنشاء مملكة أرمينية – فرنجية ، وتم الزواج سنة ٦١٩هـــ/١٢٢٢م ولكن فيليب خيَب آمالهم بعد أن أساء معاملتهم حيث أحاط نفسه

---

(١) أرمينية الصغرى (كيليكيا) : تقع شمال أنطاكية ، وسميت بأرمينية نسبة إلى أرمين قومس ياشور أحد أشرافها ، وقد فتحها المسلمون في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . الحميري ، محمد : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح : إحسان عباس ، دار السراج ، ط٢، بيروت ، ١٤٠٠هـــ/١٩٨٠م ، ص٢٥-٢٦ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٠٥٨ ؛
Setton : op.cit , volume 2 , p566 .

(٣) هَيْثُومْ الأول : هو ابن قسطنطين زعيم آل هَيْثُومْ أحد أشراف أرمينية ، حيث عُين قسطنطين وصياً على الأميرة إيزابيلا إثر وفاة والدها الملك ليو الثاني ، ثم تزوجت إيزابيلا من فيليب بن بُوهِمِندْ الرابع ، وبعد اغتيال الأرمن لزوجها قام قسطنطين باختيار هَيْثُومْ زوجاً لإيزابيلا سنة ٦٢٣هـــ/١٢٢٦م فأصبح هَيْثُومْ الأول ملكاً لأرمينية ،وقد سعى لإيجاد وحدة وطنية بين الفئات الأرمينية ، واتبع سياسة المهادنة مع دول الجوار ،وله دور كبير جداً في الغزو المغولي لبلاد المسلمين ، مما أدى لاجتياح الظاهر بيبرس لأرمينية واشتبك مع ابني هَيْثُومْ ليون وطوروس ، فأسر الأول وقتل الثاني لكن بيبرس عفى عنه ، وتنازل هَيْثُومْ عن الحكم لابنه ليون ، ثم انطلق ليعيش في أحد الأديرة ، وبعد ذلك بقليل فارق الحياة سنة ٦٦٧هـــ/١٢٦٩م . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٦٣-٢٦٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٣٠٦-٥٧٠ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ ؛ زيادة : ص٩٨.

(٥) إيزابيلا : ابنة ليو الثاني ملك أرمينية تزوجت من فيليب بن بُوهِمِندْ الرابع سنة ٦١٩هـــ/١٢٢٢م ، ثم تزوجت من هَيْثُومْ الأول ولها منه ثلاثة أولاد ، وعُرفت بورعها ، وسخائها وحبها للأعمال الخيرية ، وتوفيت سنة ٦٤٩هـــ/١٢٥١م . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٦٢-٢٦٣ ، ٢٧٩ ؛ الأرمني ، سمباط : التاريخ المعزو لسمباط الأرمني ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩هـــ/١٩٩٩م ، ج٣٥ ، ص٣٢٠-٣٢٤ .

بحاشية فرنجية ، واستخف بالجنود الأرمن وكان يناديهم بالفلاحين ،كما احتجب عنهم حتى إذا ما أرادوا زيارته لم يأذن لهم (١) ، فتآمر عليه الأرمن واختطفوه ،ثم سجنوه فأرسل بُوهِمِنْدْ الرابع مطالباً بإطلاق سراحه ، وبدلاً من إخلاء سبيله سقوه سماً ، وتخلصوا منه ،وزوجوا أرملته إيزابيلا من هَيْثُومْ الأول سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ، فتأججت العداوة بين أرمينية وأنطاكية (٢) .

ولكن ما إن تدخل لويس التاسع بين أرمينية وأنطاكية حتى حل الوئام ،وتعمقت العلاقة بينهما مع مرور الزمن (٣) ، وبشكل خاص بعد أن تعرضتا لهجمات التركمان ففي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م،ودمروا مناطقها وأسروا أحد إخوة الملك الأرمني هَيْثُومْ الأول ، فأرسل هَيْثُومْ الأول إلى لويس التاسع يخبره بالخطر التركماني الذي هدد أرمينية ، ومن المحتمل أن لويس التاسع نصحه باستجداء المغول بعد أن أصبحوا أكبر قوة عظمى في الشرق (٤) ، وبالفعل سار هَيْثُومْ الأول على الطريق الذي مشى عليه لويس التاسع في استجداء المغول لتدمير كل ما هو عدو للمسيحيين ، فقرر التوجه إلى العاصمة المغولية قراقورم (٥) لتقديم ولاءه وخضوعه لهم ، حيث خرج مُتخفياً بعد أن ارتدى ثياباً رثة ، وركب دابة هزيلة، وسار عبر بلاد الروم متجهاً نحو قراقورم ، وإلى جانبه بارسيل أحد فرسانه ، وفي الطريق عَرفه أحد رجال الروم ، فصاح هذا هو الملك هَيْثُومْ الأول ،وعندما سمعه بارسيل لطم هَيْثُومْ الأول،وشتمه قائلاً : " يا جاهل هل أصبحت ملكاً وأصبحوا يشبهونك بالملوك " (٦)، لدفع الشبهة عنه ، (٧)،واجتاز هَيْثُومْ وبارسيل بلاد الروم ، ثم توغلا في بلاد فارس ، ووصلا إلى خراسان ، وعلى ما يبدو انتظر هَيْثُومْ في خراسان ريثما تصل الهدايا التي أعدها والده قسطنطين ، حيث أرسلها له مع مجموعة من رجاله ، وربما أولئك الرجال ارتدوا زيّ التجار خوفاً من اكتشاف أمرهم ،

---

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٦٣ .

(٢) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٠-٣٢٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٦٢-٢٦٣ ؛ المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ ، منشورات مكتبة الحياة ، ط١،بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص٢٣٥ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٥؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٩ ؛
Hamilton : op .cit , p80 ; pernoud : op .cit , p235 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين : الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٦١-٦٢ ؛ الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ ؛ Hanilton : op .cit , p80-81 .

(٦) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٧ .

(٧) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛ مختصر الدول : ص٢٦٢-٢٦٣ .

ووصلوا بأمان والتقوا مع سيدهم هَيْثُومْ الأول في خراسان ، وسلموه الهدايا ، ثم سار هَيْثُومْ الأول ، ووصل إلى قراقورم سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (١) ، وقدَّم الكثير من الهدايا الثمينة إلى مُنكوخان (٢) ، فاستقبله مُنكوخان بحفاوة وابتهاج ، وسُر الخان المغولي بالهدايا التي قدمها له هَيْثُومْ الأول (٣) وقد سار هَيْثُومْ الأول على الطريق الذي رسمه له لويس التاسع حيث سعى لإقناع المغول بإيجاد تحالف مغولي- مسيحي ضد المسلمين (٤) ، موضحاً لُمنكو خان الخلافات الأيوبية- المملوكية في مصر وبلاد الشام فضلاً عن حالة الضعف التي مرت بها الخلافة العباسية آنذاك ؛ حيث قدم للمغول معلومات مهمة عن مناطق مجهولة بالنسبة لهم مثل العراق وبلاد الشام ومصر ، وذلك ما شجع المغول على غزو بلاد المسلمين (٥) ومما يدل على ذلك الاتفاقية التي عقدها هَيْثُومْ الأول مع مُنكو خان التي تضمنت ما يلي :

أ ـ تبعية هَيْثُومْ الأول للخان المغولي مُنكو (٦) .

ب ـ تعيين هَيْثُومْ الأول مستشاراً للخان المغولي ، فيما يتعلق بالمسيحيين الخاضعين لسيادة المغول .

ج ـ مساندة مُنكو خان للمسيحيين لأخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين .

د ـ إرسال حملة مغولية لغزو العراق وبلاد الشام ، وتدمير الخلافة العباسية المركز الروحي والسياسي للمسلمين (٧) .

---

(١) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥؛ ص٣٢٥ .

(٢) مُنكوخان : ٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥١-١٢٦٠م هو الخان الأعظم للمغول مُنكو بن تولوي بن جنكيز خان ، وقد عقد اجتماع القورتلاي الذي ضم أمراء دولته سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م ثم قرر إرسال أخيه هولاكو لغزو بلاد المسلمين، بينما أرسل أخيه قوبيلاي لإدارة بلاد الخطا الواقعة شمال الهند ، وقد سار في حكم المغول على القوانين التي سنها جده جنكيز خان . المنصوري ، بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تح : دونالد ريتشاردز ، ط١، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، دار الشركة المتحدة ، ص٧-١٣ ؛ الهمذاني ، رشيد الدين : جامع التواريخ ، تر : محمد نشأت وفؤاد الصياد ومحمد الهنداوي ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، مج٢ ج١ ، ص٢٣٢-٢٣٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٨ .

(٣) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥، ص٣٢٥ ؛ هلال ، عادل : العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي ، دار عين ، ط١،مصر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ؛ ص٩٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤-١٨١ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛ Archibald : op . cit , p148 .

(٥) ابن الجزري : ص٢١٢-٢٤٥ ؛ ابن الفوطي ، عبد الرزاق : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ؛ ص١٠٩-١٥٦ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٢ .

(٧) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٥ ؛ العريني ، السيد الباز، : المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ، ص١٩٩ ؛ The Cambridge history of islam : op . cit , volume I . p211 .

وبذلك حقق هَيْثُومْ الأول أهدافاً عديدة ، وهي :

أ ـ أصبحت أرمينية تحت حماية المغول ، وفي هذا إبعاد لشبح الخطر الكامن وراء المغول بل وهذا كافٍ لإرهاب كل من يفكر بمهاجمة أرمينية .

ب ـ يكون هَيْثُومْ قد قدَّم خدمة كبيرة إلى الصليـبيين إذا ما استولى المغول على بيت المقدس ، وسلموه لهم .

ج ـ تحقيق خدمة جليلة للويس التاسع ، وذلك بالثأر من المسلمين الذين أبادوا الحملة الصليـبية السابعة ، هذا إذا ما صَدَق المغول معه ، وهاجموا العراق وبلاد الشام .

سار المغول لتحقيق ما كان يرنو إليه هَيْثُومْ الأول وسيده لويس التاسع سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، فأغاروا على خراسان و سمرقند وقلاع الإسماعيلية في إيران (١) ، ثم تابعوا سيرهم إلى ديار بكر وميافارقين ورأس العين وسروج "وقتلوا خلق لايحصي عددهم إلا الله عز وجل " (٢) ، وأخذوا بامتلاك ديار المسلمين (٣) ، وهذا أعظم ماتمناه هَيْثُومْ الأول ولويس التاسع .

نظر لويس التاسع إلى هجمات المغول بعين الارتياح لأن الفضل في الهجوم المغولي على المسلمين يعود إلى جهود هَيْثُومْ الأول ، فأبدى لويس التاسع اهتماماً كبيراً بالحجاج الأرمن احتراماً لسيدهم هَيْثُومْ الأول (٤) ، وبالغ مسيحيو الشرق في اهتمامهم بلويس التاسع ، وتطلع الجميع لرؤيته والتحدث إليه ، ونظروا له بوصفه ملكاً لمسيحيي الشرق على الرغم من أنه ليس الملك الشرعي ،فعندما كان لويس التاسع في عكا سنة٦٥١هـ/١٢٥٣م أتت مجموعة كبيرة من الحجاج الأرمن الذين كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس ، حيث طلبوا من جوانفيل رؤية لويس التاسع ، وكان سرورهم عظيماً بعد أن حَظوا بتلك المقابلة ، ثم تابعوا سيرهم إلى القدس مُحملين بأطيب التمنيات ، وقد أظهر لويس التاسع محبته وتقديره لجميع المسيحيين ، ولم يظهر تكبراً أو اشمئزازاً بل حاول تقويتهم وتوحيدهم لأن وحدتهم كفيلة

---

(١) الجويني ، عطا : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) ، تر : محمد ألتونجي ، دار الملاح، ط١،د.م ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، مج٢ ، ص٢٣٧-٢٤٨ ؛ ابن دقماق ،إبراهيم : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تح : سمير طبارة ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا وبيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ ، ص٢١٣ .

(٢) الدواداري : ج٨ ، ص٢٢ .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٦٧ ؛ الجويني : مج٢، ص٢٣٧-٢٤٨ ؛ ابن كثير : ج١٧ ، ص٣١٦ ؛ الخياط ، علم الدين سنجر: المختصر الكامل في التاريخ وتكملته ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا وبيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ص١٥٤-١٥٥ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢-١٩٣ .

بتأمين حمايتهم (١) ، لذا سعى لربط مملكة أرمينية مع الصليـــبيين لتحويلها إلى مملكة أرمينية – فرنجية من خلال المصاهرات التي عُقدت بين العائلات الحاكمة ، والتي يعود الفضل فيها له حيث تزوج جُوليَان صاحب صيدا من ابنة هَيْثُومْ الأول سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (٢) ، كما تزوج بُوهِمِنْدْ السادس أمير أنطاكية من سيبل (Sibylle) ابنة هَيْثُومْ الأول سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بناءً على اقتراح لويس التاسع ، فاندثرت الخلافات القديمة بل وقويت أواصر المحبة (٣) ، وغالباً ما تدخل هَيْثُومْ الأول للإصلاح ما بين وصهره بُوهِمِنْدْ السادس ، كما أن أرمينية لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه هجمات التركمان على أنطاكية بل ساندها ضد التركمان، (٤) ، وذلك ما أدى لتحَول هجمات التركمان – الذين استقروا شمال بلاد الشام – نحو أرمينية حيث قاد تركمان بيك أحد قادة التركمان هجوماً ضد أرمينية ، استهدف منه السلب والنهب ، وبالفعل ألحق بالأزمن أضراراً بالغة فنهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من محاصيل زراعية وقطعان ماشية ، ثم أضرموا النيران وأشعلوا الحرائق ، ولكن الأرمن شنوا هجوماً معاكساً ، وصدوا التركمان ، وقتلوا تركمان بيك، مما أدى فلاذ رحاله بالفرار (٥) ، وهدأت هجمات التركمان ضد أرمينية ، ربما بسبب اقتراب الخطر المغولي بعد أن أصبح الأرمن تحت حماية المغول (٦) .

وهكذا فاق لويس التاسع معاصريه بما امتاز به من رغبة جامحة في إصلاح ذات بَين الصليـــبيين، وتوحيد كلمتهم حيث أزال الجفاء والخصام بين أرمينية وأنطاكية بعد أن أدرك أن المسلمين هم المستفيد الوحيد من انقسامهم ، فسعى لإزالة الانقسامات التي فرقتهم (٧)، كما استطاع هَيْثُومْ الأول تحقيق ما لم يستطع سيده لويس التاسع أن يحققه ، وكاد أن يضاهي لويس التاسع ببراعته السياسية حيث استطاع تحقيق حلم لويس التاسع في إيجاد تحالف مسيحي – مغولي ، ويعود الفضل في ذلك إلى لويس التاسع المُخطط السياسي لإصلاح أوضاع الصليـــبيين (٨) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٥-٢٠٦ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق، ص٣١٢ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليـــبية ، ج٢ ، ص١٠٩٧ ؛ Setton : op . cit , volume2 , p566 .

(٤) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٩ ؛ عطية : ص٣٩١-٣٩٢ .

(٥) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٦ .

(٦) الدواداري : ج٨ ، ص٢٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٣ .

(٧) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥، ص٣٢٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p515 . setton : op .cit , volume 2 , p566 ;

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٨-٦٢ ؛ العريني : ص١٩٠-١٩١؛ Hamilton : op .cit , p80-81 .

٦- دور لويس التاسع في قبرص .

يتوجب العودة إلى الوراء قليلاً لإيضاح دور لويس التاسع وعلاقته مع قبرص ، فمنذ أن هبطت الحملة الصليـــبية السابعة في جزيرة قبرص سنة ٦٤٦هـــ/١٢٤٨م ، استقبلهم هِنريْ الأول لوزِجنان ملك قبرص في ميناء ليماسول بالترحاب وسط هتاف أهل الجزيرة ، وإثر وصول لويس التاسع اصطحبه ملك قبرص إلى مدينة نيقُوسيا ، وشعر الصليـــبيون وكأنهم في بلادهم (١) ، وقد قدِمت الوفود الصليـــبية من مملكة عكا للانضمام إلى الحملة الصليـــبية ، وبعد أن قرر لويس التاسع مهاجمة مصر نصحه قادة الصليـــبيين ومنهم هِنريْ الأول لوزِجنان بقضاء فصل الشتاء في قبرص تحسباً لفيضان نهر النيل ، ومتابعة المسير إلى مصر مع بداية فصل الربيع ، وبالفعل تم ذلك ، وحصل لويس التاسع على المستلزمات المادية لحملته (٢) ، ولم يُمض لويس التاسع وقته عبثاً في الجزيرة بعد أن وجد أن هناك هيجاناً شعبياً بسبب دخول قبرص في صراع مرير بين العنصر اللاتيني الأجنبي والشعب اليوناني الأصلي ، إثر القرارات التعسفية التي أصدرها اللاتين في عهد هِنريْ الأول لوزِجنان والتي نصت على تقليص عدد الأسقفيات الأرثوذكسية من أربع عشر إلى أربع أسقفيات ، فأصبحت مساوية لعدد الأسقفيات الكاثوليكية (٣) ، مما أثار غضب الأرثوذكس فتدخل لويس التاسع وأصلح بين الطرفين (٤) ، وأكد لهم ضرورة وضع الخلافات جانباً ، لأنه لا يوجد مُتسع للنـــزاع المذهبي ، ولابد من التكاتف ، والإعلان بأن العدو للجميع هم المسلمون .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٨-٦٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٨ ؛ داوود، مها : دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـــ/١٢م حتى أواخر القرن ٨هـــ/١٤م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ، ١٤٣١هـــ/٢٠١٠م ،ص١٠٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ج٣٥ ، ص٥٨-٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ،الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٠ ؛ مونرود: مج٢ ، ص٣٠٥ ؛

Khader, Bichara : l,Europe la Palestine des croisades , Genneve ,2004 , p33 .

(٣) اميليانيدس ،أشيل : تاريخ قبرص ، تر : يعقوب الطليحي ويني كيس ، مطبعة التجارة ، الإسكندرية ، ١٣٩٠هـــ/١٩٧١م ، ص١٠٢ ؛ سبيريذاكيس ، د : موجز تاريخ قبرص ، دار انترسبيس ، قبرص ، د.ت ، ص٨٧-٨٨ ؛

Iorga . op , cit . p41 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨ ؛ الدبس ،يوسف : تاريخ سورية الديني والدنيوي ، تح: مارون رعد ، دار نظير عبود ،د.م،د.ت ص٢٣٦ ؛

Mayer : op , cit . p263-272 .

وما إن انطلق لويس التاسع على رأس حملته إلى مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م حتى انضم إليه الملك القبرصي مع مجموعة من فرسانه ،وما أن استولوا على دمياط قفل هِنريْ الأول لوزجنان راجعاً إلى قبرص و لم يشارك لويس التاسع فيما حدث بعد ذلك (١) .

أدار هِنريْ الأول لوزجنان قبرص وفق قوانين مملكة عكا حيث كانت المحكمة العليا في نيقوسيا هي صاحبة السلطة الفعلية في مملكة قبرص ، وقد تألفت من نبلاء المملكة ، بينما أشرف هِنريْ الأول لوزجنان على توزيع الاقطاعات وسك النقود ، وإدارة الشؤون المالية (٢) ، وبقي على اتصال وثيق مع لويس التاسع حتى في الأمور الشخصية ، فعندما تزوج من بليسانس(Blaisance) ابنة بُوهِمندْ الخامس أمير أنطاكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أرسل هِنريْ الأول لوزجنان لإخبار لويس التاسع بذلك الزواج "وكان الملك لويس التاسع مسروراً جداً تجاه هذا " (٣) ، وهذا يدل على مكانة لويس التاسع لديه ، حيث كان يستشيره في كل قضية سواء أكانت كبيرة أو صغيرة ، وذلك لوجود رابطة قومية تجمع بينهما ، وكذلك الرابطة الدينية الكاثوليكية ، ومن المحتمل أنه أراد كسب لويس التاسع إلى جانبه ضد طبقة الأرثوذكس التي غدت طبقة منبوذة في ظل السيطرة الكاثوليكية (٤) .

اعتمد لويس التاسع بشكل كبير على أبناء قبرص والمورة ورومانيا من أجل إعداد جيش خاص به (٥) ، كما أرسل له هِنريْ الأول لوزجنان مجموعة من الجنود كي يتجاوز محنته إثر هزيمته في مصر(٦) ، وبالفعل أدى ذلك لازدياد قوة لويس التاسع و نشاطه ،

---

(١) عاشور ، سعيد : قبرص والحروب الصليبية ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م ، ص٤٣ ؛ إدبوري : ص٧٠-٧١ ؛ داوود:ص١٠٧-١٠٩ .

(٢) غروسية ، رينه : الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، تر : أحمد أيبش ، دار قتيبة ، ط١، دمشق وبيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ص١١٩ ؛ سبيريذاكيس: ص١٠٠-١٠٢ ؛ اميليانيدس : ص٨٢-٨٥ ؛ Iorga : op . cit , p41-43 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٠ .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص ١٩٩٢ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٨ ؛ مونرود : مج٢،ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣١٠ ؛ إديوري : ص٧٨ .

فأراد محالفة القاهرة ضد دمشق سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (١) ، لكن تلك المساعدات القبرصية للويس التاسع لم تدم طويلاً ، لأن هِنريْ الأول لوزجنان فارق الحياة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وترك وراءه ابنه الصغير هيُو الثاني الذي لم يتجاوز بضعة أشهر من العمر ، والذي أصبح وريثه في مملكة قبرص وعكا تحت وصاية أمه بليسانس الأنطاكية ، وهنا ظهرت مشكلة وراثة العرش (٢) فقد أقرت المحكمة العليا في قبرص بوصاية بليسانس على ابنها الملك هيُو الثاني (٣) ، بينما رفض بارونات عكا الاعتراف بها ملكة على عكا ، لأنهم عدوا يُوحَنا الثالث دي ابلين(٤) سيد أرسوف (٥) هو النائب للملك هيُو الثاني

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٧٤ ؛ المنصوري : زبدة الفكر ، ص٦ . باريس : الموسوعة، ج٤٩ ، ص١٣١٠ ؛ Stambouli : op .cit ,p270-272 ; Brellier : op .cit , p227 .

(٢) وراثة العرش : كان الحكم في مملكة عكا حُكماً وراثياً ، ولمعرفة كيفية وصول هيُو الثاني إلى العرش ، لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً ، فعندما فارق ملك عكا هِنريْ كونت شامبانيا الحياة سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م، ورثت زوجته إيزابيلا إبلين حكم مملكة عكا من بعده ، فاقترح بارونات عكا زواج ملك قبرص عموري الثاني لوزجنان من إيزابيلا سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م ، وبالفعل تم اتحاد تاجي عكا وقبرص ، وأملاً باستمرار وحدة التاجين تم زواج هيُو بن عموري الثاني من أليس ابنة زوجة أبيه من زوجها السابق هِنريْ كونت شامبانيا ، ولكن كانت ماريا الأخت الكبرى لأليس زوجة يُوحَنا بريين أحق بعرش مملكة عكا ، لأنها أكبر منها سناً ، فغدت ماريا سيدة عكا ، وهيُو سيد قبرص ، وأنجبت ماريا ابنة سمتها إيزابيلا ، ورثت العرش من بعدها ، وتزوجت من فِردِريكْ الثاني وولدت كونراد سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ،فأصبح كونراد ملك عكا ، بينما انتقل تاج قبرص من هيُو إلى ابنه هِنريْ الأول لوزِجنان تحت وصاية أمه أليس ، وعندما لم يأت كونراد إلى الشرق رشح بارونات عكا أليس سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م ملكة على قبرص ، ونائبة لكونراد في حكم عكا ، ثم ما لبثت أن توفيت سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، فتربع ابنها هِنريْ الأول على عرشي قبرص وعكا ، وقد بقي في قبرص وعين ابن خاله يُوحَنا الثالث إبلين صاحب أرسوف نائباً له في مملكة عكا،وإثر وفاة هنري الأول لوزجنان استلم ابنه هيو الثاني عرشيّ مملكة عكا وقبرص تحت وصاية أمه بليسانس وزوجها باليان ووالده يوحنا الثالث دي إبلين سيد أرسوف. نوفارا : الموسوعة ، ج٣٤ ، ص٢٩٩ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص ١٧٢ — ٣١٩ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٤-١٩٩٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٦٩٦٠-١٩٦١ ؛ غروسيه : الحروب الصليـبية ، ص١١٣ ؛ اميليانيدس : ص٩٤ ؛ Mayer : op .cit ,p272 .

(٤) يُوحَنا الثالث إبلين : استلم حكم سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ، كما استلم قيادة الحامية اللاتينية في مملكة عكا سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م ، ويُوحَنا هو بن عم يُوحَنا إبلين صاحب يافا ، وإثر وفاة يُوحَنا الثالث صاحب أرسوف سنة ٦٥٦هـ١٢٥٨م استلم أرسوف ابنه باليان . رنسيمان : ج٣ ،ص ٤٠١-٤٩٣ ؛ يوسف : العدوان الصليـبي على بلاد الشام ، ص٢٠٣ .

(٥) أرسوف : بلدة ذات قلعة حصينة تقع على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ، وتتميز بسور قوي أحاط بها . الحموي ، ياقوت : معجم البلدان تح : فريد الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ت، ج١ ، ص١٨٢ ؛ البغدادي ، كمال الدين : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تح: علي البجاوي ، دار المعرفة ، ط١،بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ،ج١، ص٥٦ ؛ البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، ص١٤٨ .

وقد تم تعيينه منذ عهد الملك القبرصي الراحل هِنرِيْ الأول لوزجنان ، ولكن في الحقيقة كان لويس التاسع هو الحاكم الفعلي لمملكة عكا(١).

تولى لويس التاسع حل مشكلة عرشي قبرص وعكا حيث سهَّل عملية ربط المملكتين من خلال زواج الملكة بليسانس من باليان بن يُوحَنا الثالث دي إبلين صاحب أرسوف ، وبذلك أصبح يوحنا الثالث دي إبلين وابنه باليان وبليسانس زوجة باليان أوصياء على القاصر هيُو الثاني ملك قبرص وعكا (٢) ، ولكن في حقيقة الأمر استقرت بليسانس مع زوجها في أرسوف ، وتركت ابنها الصغير تحت وصاية ابن عمها هيُو في قبرص ، وكان لويس التاسع هو الملك الفعلي لمملكة عكا ، وله تأثيره الفعال على قبرص (٣) ، حيث هدأت الخلافات بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حتى سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٤) ، وقد تدخل البابا أنوسنت الرابع وطلب من رئيس أساقفة نيقوسيا أوبيزيُو دي فِيشيْ (Obaizo du faichet) إعطاء جزء من إيرادات أسقفيته وعشر مداخيل كنائس قبرص إلى أنطاكية لمساعدتها في أعمار ما خربه التركمان ، و لم تبد الكنائس القبرصية أية معارضة تجاه ذلك (٥) ، لكن ما لبث أن تجدد الخلاف عندما أراد رئيس أساقفة نيقوسيا إخضاع الكنائس الأرثوذكسية (٦) مستغلاً وفاة البابا أنوسنت الرابع ٦٥٢هـ/١٢٥٤م واستلام البابا الكسندر الرابع وتأييده لذلك (٧) .

وفي هذه السنة قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا ، بعد أن أصلح أوضاع مملكة عكا ، وأثناء عودة لويس التاسع إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م كان الجو ضبابياً ، فاصطدمت إحدى السفن بصخرة مما أدى لتسرب المياه إلى داخلها ، فقرر الملك الالتجاء إلى قبرص لإصلاح السفينة، والأهم

---

(١) رنسيمان : ج٣، ص٤٨٠ ؛ عطية : ص٣٩٤ ؛ Setton : op . cit , volume2, p566 .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٦ ؛ Kohler, CH : mélanges de l,orient latin et des croisades , Paris , 1906 , p347 .

(٣) عاشور : قبرص ، ص٤٣-٤٦ ؛ اميليانيدس : ص٩٤ .

(٤) الدبس : ج٦ ، ص٢٣٦ ؛ اميليانيدس : ص٨٨ .

(٥) عطية : ص٣٨٢ ؛ إديوري : ص٣٣-٧٤ .

(٦) اميليانيدس : ص٨٨ ؛ سبيرذاكيس : ص١٠٤ ؛ عثمان ، أحمد : تاريخ قبرص، القاهرة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص١٥٤-١٥٥ .

(٧) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٤٨٦-١٤٨٩ ؛ اميليانيدس: ص٨٨ ؛ Villeneuve : op .cit , p204-242.

من ذلك للاطمئنان على أوضاع الجزيرة ، وقد حصل على بعض المستلزمات الغذائية، ثم تابع مسيره عائداً إلى فرنسا (١) .

وهكذا استقبلت قبرص لويس التاسع ، وقد ودعته وقدَّمت له الكثير من المساعدات المادية والعسكرية كي ينهض من كبوته (٢) ، بينما سعى هو لإصلاح خلافاتها الداخلية وإنهاء النـــزاع بين العنصرين اليوناني الأرثوذكسي واللاتيني الكاثوليكي ، لكن لا يمكن اندماج المواطن الأصلي مع المحتل لأن اللاتين شكلوا طبقة السادة وأمراء الإقطاعات والتجار ، أما أبناء البلاد فتحولوا إلى مزارعين يعملون لديهم لقاء قوتهم اليومي حيث بقوا على خصام ديني واجتماعي ، حليفين ضد المسلمين على الرغم من هدوء الأوضاع أحياناً مع تدخل لويس التاسع الذي قام بدورٍ فعال في تهدئة التوتر لكنه لم يستطع إنهائه (٣) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢٢-٢٢٨ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٠.

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٥٨ ، ٢٢٨ ؛ الدبس : ج٦ ، ص٢٣٦-٢٤٩ .

(٣) اميليانيدس : ص٨٠-٩٦ ؛ سبيريداكيس : ص١٠١-١٠٤ .

٧-استنجاد الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بالملك لويس التاسع .

لم يترك لويس التاسع أثناء إقامته في الشرق فرصة إلا وأراد استغلالها لتقوية الروح المعنوية للصليبيين ، ولَمّ شمل المسيحيين بالرغم من المآسي التي فرقتهم ، ولكن هيهات أن يتفق الجلاد والضحية (الفرنج والبيزنطيون)، وبشكل خاص إن كانت هناك جروحٌ عميقة من الصعب أن تندمل ، ومع ذلك أراد لويس التاسع تحدي الصعاب ، وإيجاد جبهة مسيحية قادرة على الوقوف في وجه المسلمين (١) ، فعندما كان في قبرص وفدت إليه الإمبراطورة ماري زوجة بلدوين الثاني (٢) الإمبراطور اللاتيني للقسطنطينية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، والتمست منه ومن كبار النبلاء الصليبيين المساعدة لإقرار مركز زوجها الإمبراطور المزعزع أمام تهديد البيزنطيين ، وبخاصة مملكة نيقية (٣) ،وهنا لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لإعطاء لمحة سريعة عن ظهور الإمبراطورية اللاتينية .

يممت الحملة الصليـبية الرابعة وجهها نحو القسطنطينية سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م وألقت عليها الحصار ، واستطاع الفرنج اختراق حصونها ، وتوغلوا فيها، فقتلوا كل من صادفوه في طريقهم ، ولم تسلم منهم حتى الكنائس والأديرة ، وبات البيزنطيون ينوحون على دولتهم الحبيبة ، لكن المسألة تطلبت وضع الأحزن جانباً (٤) ، وأنشؤوا إمبراطورية نيقية في آسيا الصغرى ، وإمارة طرابزون على البحر الأسود وأخرى في شبه جزيرة البلوبونيز ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٠-٦١ .

(٢) بلدوين الثاني : استلم عرش القسطنطينية سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م تحت وصاية يُوحَنا برين ملك عكا ، وتزوج بلدوين من ماريا ابنة يُوحَنا برين ، وعندما علم بوصول لويس التاسع - الذي ارتبط معه بصلة قرابة - إلى الشرق طلب معونته ضد البيزنطيين ، ثم قام بزيارته سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ،وباعه بعض المخلفات المقدسة التي تعود للسيد المسيح عليه السلام ، وبقي بلدوين الثاني سيداً للقسطنطينية حتى تقدم البيزنطيون بقيادة ميخائيل باليولغ سنة ٦٥٩هـ ١٢٦١م ، واستولوا على القسطنطينية ، وطردوا بلدوين الثاني. جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٠- ٢١٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٣١٤-٤٩٤.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٠-٦١ ؛ زيادة : ص٩٨ . عثمان : ص١٥٦ .

(٤) فيلهاردين ، جوفري : الاستيلاء على القسطنطينية ، الموسوعة ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٠ ، ص١٠٧-١١٤ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس : الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١٠ ، ص٤٨٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٨٦ ؛ ابن الأثير ، علي : الكامل في التاريخ ، تح : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج١٠ ، ص١٩٧-١٩٨ .

بينما شكل اللاتين دويلات فرنجية لاتينية(١)، وهي إمبراطورية القسطنطينية ، ومملكة تيسالونيكا وإمارة أخايا في المورة ودوقية أثينة وطيبة ، في الوقت الذي سيطرت فيه البُندُقِية (٢) التي مولت الحملة الصليـــبية على السواحل والمراكز الإستراتيجية (٣) ، وقد تعرض إمبراطور القسطنطينية اللاتيني بلدوين الثاني لهجمات البلغار والبيزنطيين ، مما جعله يُرسل زوجته ماري لطلب معونة لويس التاسع (٤) ، واستقبل مع زوجته مارِغريتْ الإمبراطورة ماري في قبرص ، وقد حمَّلها نبلاء الصليـــبيين عدد من الرسائل إلى بلدوين الثاني تعهدوا فيها بأغلظ الأيمان بتقديم المساعدة ، وأكد لها لويس التاسع أن الحملة مُتجهة نحو مصر ، وإذا ما حققت الحملة أهدافها فهو لن يتخلى عنهم (٥) ، ولكن باءت الحملة الصليـــبية بالإخفاق ، وتحطمت في مصر و لم تحقق ما كانت تصبو إليه، وأصبح لويس التاسع لا حول له ولا قوة ، وغدا غير قادر على مساعدة بلدوين الثاني(٦) .

لم يكن لويس التاسع المرجعية الأساسية للاتين فحسب بل كان البيزنطيون على اتصال معه حيث أرسل إمبراطور نيقية يُوحَنا (جُون) الثالث فاتازِسْ (jone 3 vatazes) سفارة إلى لويس التاسع ، وانفرد صاحب ذيل روثلين بالإشارة لتلك السفارة ، و لم يُبين الهدف منها (٧) ، وإذا ما تم الافتراض بأن يُوحَنا الثالث أراد كسب لويس التاسع ضد بلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية (٨) ، فإن لويس التاسع لا يمكن أن يؤيد البيزنطيين ضد أبناء جلدته اللاتين ، وهنا يبقى احتمالان :

---

(١) يُنظر المصور رقم (٤) ، ٣٠٣.

(٢) البُندُقِية (فينيسيا) : تقع شمال شرق إيطاليا ، حيث شكلت أكبر قوة بحرية في البحر الإدرياتيكي ، وتطلعت للسيطرة على بحر الشام (البحر المتوسط) ، مستغلة قوة أسطولها وسفنها الكثيرة ، وغدت من أكبر الجمهوريات الايطالية شهرة في مجال الملاحة البحرية والتجارة ،وبخاصة بعد أن مولت الحروب الصليـــبية . القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٨٢-٣٨٣ ؛ دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٠٢-١٠٤ .

(٣) مجهول : مجموع هافنسيس : الموسوعة ، ج١٠ ، ص٥٩٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص ٢٢٥-٢٣٠ ؛ غنيم ، اسمت : الحملة الصليـــبية الرابعة ، دار المجمع العلمي ، جدّة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص٨٧-٩٥ ؛ عامر، سامية : الصليـــبيون في شمال أفريقيا (حملة لويس التاسع على تونس) ، دار عين ، ط١، مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ص٧٤ .

(٤) رنسيمان : ج٣، ص٤٥٠ ؛ غروسيه : الحروب الصليـــبية ، ص١٤٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٦٠-٦١ .

(٦) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧١-١١٧٢ ؛ ابن العميد : ص٣٦-٣٩.

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٨٣ .

الاحتمال الأول : أراد يُوحَنا الثالث من لويس التاسع التدخل لإقناع البابا أنوسنت الرابع من أجل الاعتراف بالبطريركية اليونانية في نيقية ، والتي لم يعترف بها البابا (١) .

الاحتمال الثاني : إن ظهور الخطر المغولي قد أرعب العالم ، ومن جملتهم اليونانيين وبشكل خاص مع اقتراب الزحف المغولي منهم آنذاك ، فأراد البيزنطيون توثيق علاقتهم مع لويس التاسع (٢) .

المهم أن لويس التاسع لم يُرجع سفارة يُوحَنا الثالث فاتازس خائبة بل أرسل معها سفراءه أملاً في كسب يُوحَنا الثالث إلى جانبه ، وتهدئة حالة التوتر بين اللاتين واليونان (٣) .

وكان لويس التاسع على علم بتطورات الأحداث في القسطنطينية حيث قدِم إليه عندما كان في قيسارية سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م فيليبْ دي تُوسِي (failib du toucy) أحد فرسان القسطنطينية وهو ابن عم لويس التاسع ، ودخل في خدمته، وأخبره عن أوضاع القسطنطينية بالتفصيل ، وبخاصة فيما يتعلق بهجمات الإمبراطور البيزنطي يُوحَنا الثالث فاتازس عليهما ، مما اضطر الإمبراطور اللاتيني بلدوين الثاني للتحالف مع الكومَانْ (comans) (٤) ، للتصدي لهجمات يُوحَنا الثالث فاتازس (٥) ، علماً أن ذلك التحالف لم يسفر عن نتائج مهمة للاتين في القسطنطينية .

وبقي لويس التاسع بانتظار الفرصة الملائمة لمساعدة اللاتين حتى قدم إليه سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وفد من قبل أمير طرابزون كومنين العظيم مُحملاً بالهدايا حيث طلب ذلك الوفد اليوناني من لويس التاسع

---

(١) رستم ، أسد : الروم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ط١،بيروت، ١٣٧٦/١٩٥٦م ، ج٢ ، ص١٩١ .

(٢) الجويني : مج١ ، ص٢٤٠-٢٥٢ ؛ الديار بكري ، حسين : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، دار شعبان ، بيروت ، ج٢ ، ص٣٧١-٣٧٢ ؛
Archibald : op .cit , p144-147 ; Maier : op . cit , p79-86 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ .

(٤) أمام الخطر الذي شكلته نيقية على القسطنطينية اتحدت الثانية مع الكومان أحد الشعوب التركية ، وقدتم استخراج الدم من كلا الوفدين المتحالفين ، ووُضع في إناء ومزجوه ، ثم شرب منه الطرفان دليلاً على التآخي بينهما ، ثم تركوا كلباً يعدو ، وسددوا عليه بسهامهم ورماحهم فأردوه قتيلاً ، وقرر الطرفان إذا ما أخل أحد منهما بالاتحاد ، فإن مصيره سيكون كمصير ذلك الكلب البائس ، ويتبين من خلال ما ذكره جوانفيل أن الكومان وثنيين حيث كانوا يدفنون الذهب والفضة إلى جانب أسيادهم الأموات ، كما كانوا يدفنوا معه حصان وأحد الجنود الأحياء لخدمته في عالم الآخرة . جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص١٨٣-١٨٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٣ ؛ زكار ، سهيل: تاريخ المورة ، الموسوعة الشامية ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١٠ ، ص٣٢١-٣٢٢ ؛ Mayer : op .cit , p266 .

إرسال فتاة من سيدات بلاطه كي تكون زوجة لأميرهم كومنين العظيم (١) ، " فأجابهم بأنه لم يجلب معه أياً من مثل هؤلاء السيدات من بلاده ، وقام على كل حال بنصيحة الرسل بالذهاب إلى القسطنطينية للطلب من ابن عمه الإمبراطور بإعطائهم زوجة لسيدهم لعل إمبراطور القسطنطينية يدخل في تحالف مع هذا النبيل العظيم ضد فاتازِس " (٢) ، ولكن هل يمكن أن يكون هناك زواج سياسي بين عرشي طرابزون والقسطنطينية ؟

بدايةً لابد من الإشارة إلى أن إمارة طرابزون قد ضمت الشعب اليوناني الذي شتته الحملة الصليـــبية الرابعة ، والذي لم ينس ما حل به على أيدي اللاتين ، ولكن لويس التاسع أراد من ذلك الزواج إيجاد توازن بين القوتين اللاتينية واليونانية ، لكسر شوكة يُوحَنا الثالث فاتازس إمبراطور نيقية الذي أقض مضاجع اللاتين ، لكنه لم يستطع تحقيق وحدة لاتينية – يونانية ، لأنه لا يمكن إزالة مظاهر العداء بين المغتصب والمواطن الحقيقي بعد أن رسخ اللاتين في ذاكرة اليونان تلك الذكريات الأليمة .

رأى البابا أنوسنت الرابع أن قوة يُوحَنا الثالث فاتازس تزداد يوماً بعد يوم فأخذ بمفاوضة يُوحَنا الثالث من أجل تسليمه القسطنطينية مقابل الاعتراف بسلطة البابا على الكنائس البيزنطية ، وقبل أن يتم ذلك مات البابا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، ثم لحق به يُوحَنا الثالث فاتازس ، وظل اتفاقهما مشروع اتفاق غير موجود فعلياً (٣) ، واستمر العداء بين الطرفين ليس لأسباب دينية فحسب بل لأسباب عرقية حيث نظر اليونانيون إلى اللاتين على أنهم بقايا القبائل البربرية التي دمرت الحضارة الرومانية (٤) .

أوشك الوجود اللاتيني في القسطنطينية على السقوط ، وهم بانتظار معونة لويس التاسع ، وعلى ما يبدو لم يكن بإمكانه إرسال أية مساعدات وعندما حان موعد عودته إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ذَكَّره جوانفيل بالتعهدات التي أعطوها لماري زوجة بلدوين الثاني حول تقديم المساندة لزوجها الإمبراطور حيث أشار عليه جوانفيل إذا ما أراد إرسال ثلاثمائة فارس إلى بلدوين الثاني فهو على استعداد

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٤-٢١٥ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص٣١٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٤-٢١٥ .

(٣) رستم : ص٢٠٢-٢٠٣ .

(٤) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٦ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٤٧٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٨٢ ؛ المطوي ، محمد : الحروب الصليـــبية في المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص١٠١ ؛ غنيم : ص٩٥ .

للانضمام إليهم ، ولكن ما هو موقف لويس التاسع من اقتراح جوانفيل ؟
احتج لويس التاسع بأنه ليس لديه الإمكانات المادية لتجهيز مثل هذا العدد (١) ، لقد اقترح جوانفيل تقديم ثلاثمائة فارس لأنه أدرك أن لويس التاسع بإمكانه تجهيز عدد كهذا، وإرساله لدعم بلدوين الثاني ، لكن من المحتمل أن لويس التاسع لم يرغب بأن يكون سبباً في إيقاد حرب بين المسيحيين (البيزنطيين واللاتين) ، ويكون المسلمون هم المستفيد الوحيد في هذه الحالة.

وهكذا انتظرت القسطنطينية وعود لويس التاسع لعله ينقذها من الخطر اليوناني ، ولم يكن بوسعه سوى تتبع أخبارها ، وقد لاحت له بارقة أمل عندما اقترح عقد زواج سياسي بين عرشي القسطنطينية وطرابزون (٢) ، لكن بالرغم من مكانة لويس التاسع لديهم ، فإنهم لم ينسوا ما حل بهم على أيدي اللاتين من بطش وتدمير (٣) ، فكان ما يرنو إليه لويس التاسع من إصلاح اللاتين مع البيزنطيين أمراً في غاية الصعوبة ، لأن البيزنطيين قد أدركوا بأن الذئب مهما بدل جلده لن يتغير ، ولم يكن لدى البارونات والفرسان اللاتين الذين سادوا الدولة البيزنطية بين عشية وضحاها الإمكانات ، ولا التفوق الحضاري اللازم كي يثبتوا أنفسهم ، فانبرى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولغ لقتالهم ، واسترد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، ولم تكن دبلوماسية لويس التاسع مجدية مع البيزنطيين (٤) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٦١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٤-٢١٥ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص٣١٦ .

(٣) فيلهاردين : الموسوعة ، ج١٠ ، ص١٠٧-١١٤ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٤٤١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ؛ ص٣٨٦ ؛ ابن الأثير : ج١٠ ، ص١٩٧-١٩٨ .

(٤) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٦ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٩٥ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٣٠٦ . مختصر الدول ، ص ٢٦٩ .

٨- علاقة لويس التاسع مع شيخ الجبل (١) .

لم يكتف لويس التاسع بوضع نظام دفاعي لتأمين حماية الصليبيين و لم شملهم فحسب ، وإنما وضع أساس سياسة واسعة النطاق ، حيث سعى لالتماس حلفاء جدد لا يمتون إليه بأية صلة دينية أو قومية ، فأنشأ علاقات ودية مع الحشيشية في بلاد الشام وهم من الإسماعيلية (٢) ، وقد كانت الحشيشية في بلاد الشام (٣) على علاقة وثيقة مع الحشيشية في بلاد فارس (٤) .

إثر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وذهابه إلى عكا ، وصل إليه رسل شيخ الجبل تاج الدنيا أبو الفتوح محمد (٥) حيث وصلوا في صبيحة أحد أيام كانون الأول سنة ٦٤٨هـ/ شهر شوال عام ١٢٥٠م (٦) ،

---

(١) شيخ الجبل : هو سيد الحشيشية في بلاد الشام ، وأشار صاحب ذيل روثلين إلى أنه مقدم الحشيشية الذين استقروا في قلاع عظيمة ، وقد ربى مقدم الحشيشية في قصره الأولاد ، ودربهم على عمليات الاغتيال ضد أعدائهم ، فأرعب الناس ، أما وولتر ماب فقد نوه إلى أنه صاحب نفوذ عظيم ، وله مكانة رفيعة بين جماعته ، وتمتع بسلطة دينية وسياسية ، وانتشرت الحشيشية في بلاد فارس ومن أشهر قلاعهم قلعة ألموت ، وهم موجودين اليوم في الهند وسورية وإيران وشرق أفريقيا . مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٢٢-١٨٢٣ ؛ ماب : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص ٣٨٩ ؛ زكار ، سهيل : المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف ، دار الكتاب العربي ، ط١،دمشق، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ،ج١ ، ص٦٩-٧٠.

(٢) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٧-١٦٩ ؛عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢، ص١٠٩٧؛
Grousset :op.cit, volume 3 , p516-517 ; brellier : op , cit . p227 .

(٣) قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام : امتدت مابين حماة وحمص في الغرب من بلاد الشام وهي قلعة الكهف والقدموس والمنيفة والعليقة والخوابي والرصافة ومصياف . جوش ، نصر : مناقب المولى سنان راشد الدين شيخ الجبل الثالث ، تح : مصطفى غالب ، دار اليقظة ، بيروت ، د.ت ، ص١٦٧-٢١٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ج٤ ، ص١٨٦ ؛ الصغير ، أجفان : القلاع في فترة الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ص٧٧ .

(٤) الجويني : مج٢ ، ص٣٤٣ ؛ الحايك : ج١ ، ص٣٥٤ .

(٥) المقصود بشيخ الجبل هو تاج الدنيا أبو الفتوح محمد الذي استقر في قلعة مصياف ، بينما كان إمام الإسماعيلية آنذاك جلال الدين محمد ٦١٨-٦٥٣هـ/١٢٢١-١٢٥٥م ، وفي صبيحة أحد الأيام وجدوا جلال الدين مقتولاً في فراشه سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، وتعددت التهم والظنون وبقي قاتله مجهولاً، واستلم الإمامة من بعده ابنه ركن الدين خورشاه . الجويني : مج٢ ،ص٣٤٢-٣٤٤ ؛ لويس، برنارد : الحشاشون ، تعريب : محمد موسى ، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م ، ص١٣٢-١٣٣ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٩ ؛ جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٨ . يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٣٠-٢٤١ .

وقد وصفهم جوانفيل بأنهم من أسرة حسنة ، وقد استقبلهم لويس التاسع وسمح لهم بالجلوس ، فجلسوا واحداً تلو الآخر حيث جلس كبيرهم في المقدمة ، وكان رجل ضخم مدجج بالأسلحة والدروع ، أما الثاني فقد حمل في يده ثلاثة خناجر مجموعة في قبضة واحدة متحدياً لويس التاسع إن لم يوافق على مطالبهم ، بينما لفَّ الثالث على ذراعه قطعة قماش من الكتان كي تكون كفناً للويس التاسع إذا ما تم قتله ، ولا يخفى على لويس التاسع أن هذا التهديد إنما هو نوع من أنواع حرب الأعصاب من أجل تحقيق غايتهم ، مستغلين الهزائم التي حلت به ، فلم يبد لويس التاسع الغضب أو الانزعاج تجاه ذلك إنما أراد معرفة مطالبهم ، حيث سأل كبيرهم لويس التاسع فيما إذا كان يعرف شيخ الجبل أم لا ، فرد لويس التاسع بأنه لايعرفه وإنما سمع به ، فذُهش كبير الحشيشية ثم استفسر عن سبب تأخره عن دفع الأموال له طالما أنه قد سمع به ، وذلك حسب ما اعتاد قادة المنطقة حفاظاً على أرواحهم ، فلم يبد لويس التاسع أية رغبة في دفع أي شيء ، وقد شعر كبير الحشيشية بذلك ، فأشار عليه إن لم يكن راغباً بدفع الأموال فلا بأس أن يطلب من مقدم الداوية رينوه دي فيشيه ومقدم الاسبتارية(١) وليم دي شاتنوف إعفاءهم من الجزية التي يؤدونها إليهم ، ويمكن من خلال ذلك أن يكسب صداقة شيخ الجبل (٢) ، وإذا ما تم التساؤل عن السبب الذي أجبر الحشيشية على دفع الجزية للداوية والاسبتارية ، فإن جوانفيل أجاب على ذلك بأن مقدمي الداوية و الاسبتارية لم يخافا الحشيشية وفيما إذا تم اغتيالهما " سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها " (٣) .

ويلاحظ أن جوانفيل قد اعتز بقوة الداوية و الاسبتارية لكن في حقيقة الأمر ليس هذا سبباً أساسياً ، إنما معاقل الحشيشية كانت محاطة بالصليبيين ومراكز الطوائف العسكرية الصليبية ، مما

---

(١) الاسبتارية : مجموعة من الفرسان الذين جمعوا بين الفكرتين الدينية والعسكرية ، وترجع تسميتهم إلى بيمارستان (Hospital) أقامه تجار مدينة أمالفي الايطالية في عهد المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) ، وقام أولئك الفرسان بإيواء الحجاج المسيحيين ومعالجة المرضى ، وما لبثوا أن تطوعوا لحماية الحجاج المسيحيين ، مما جعلهم موضع احترام ملوك بيت المقدس ، فمنحهم ملك بيت المقدس جودفري دي بويون (٤٩٢-٤٩٣هـ / ١٠٩٩-١١٠٠م) إحدى ضواحي القدس ، وأغدق عليهم الأموال ، فشكلوا قوة عسكرية اشتركت في الحملات الصليبية . ماب : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٩٠-٣٩١ ؛ المطوي : الحروب الصليبية ، ص٩٦-٩٧ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص ١٦٨ ؛ مونرود : : مج٢، ص٣٣٧ . رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨١-٤٨٢ .
Grousset :op.cit, volume 3 , p516-517 ; Villeneuve : op .cit , p196-198.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٨ .

أعاق حركة الحشيشية ، فوجدوا في دفع الجزية سبيلاً للحفاظ على أرواحهم وأموالهم وحرية تنقلهم ، وربما حتى داخل المناطق التي سيطر الصليـــبيون عليها .

وعندما طالب رسل الحشيشية إعفائهم من دفع الجزية وجد لويس التاسع أن هذه المسألة تتعلق بمقدمي الداوية و الاسبتارية ، فطلب من الرسل الانصراف والحضور بعد ظهر ذلك اليوم كي يجتمعوا بمقدمي الطائفتين ، وفي الموعد المتفق عليه اجتمعوا مع لويس التاسع ، وكرر كبير رسل شيخ الجبل ما قاله في الصباح ، ولم يعطه المقدمان أي وعد حول إعفاء الحشيشية من الجزية لأن هذه المسألة بحاجة للتداول مع لويس التاسع بشكلٍ جدي من أجل استكمال المباحثات للبت فيها ، واتفقا مع رسل الحشيشية على الاجتماع بهم في دير الاسبتارية الموجود في عكا لمتابعة المباحثات (١) ، وفي اليوم التالي التقى مقدما الداوية و الاسبتارية مع رسل الحشيشية ، وقد أبدى المقدمان غضباً شديداً تجاه الرسل بسبب سوء تصرفهم مع لويس التاسع ، وتهديدهم إياه ، وأنه من الضروري أن يقدموا الهدايا له تعبيراً عن اعتذارهم ، ثم عنفوهم وهددوهم برميهم في البحر لولا مكانة لويس التاسع لديهم (٢) ، لكن ليس احتراماً للويس التاسع فحسب بل " كان ملوك الروم والفرنجة خوفاً من هؤلاء الحشيشية صفر الوجوه " (٣) ، وربما لو استطاع المقدمان رمي رسل الحشيشية لم يكتفيا بالتهديد لأن فرائصهم ارتعدت خوفاً من خناجر الحشيشية ، وليس من مصلحة الحشيشية الدخول في نزاع مع الطوائف العسكرية ،حيث حصلت تلك الطوائف على الجزية ، بينما كان الحشيشية مجبرين على مسايرتهم لأنهم تحكموا بطرق مواصلاتهم ، والمسألة تطلبت مزيداً من التروي .

عاد رسل الحشيشية إلى شيخ الجبل وأحاطوه علماً بمطالب لويس التاسع التي تقدم بها مقدما الاسبتارية والداوية بالنيابة عنه ، و أمام ذلك التكتل الصليـــبي لم يكن أمام شيخ الجبل سوى إعداد سفارة حملت الكثير من الهدايا الفاخرة ، وانطلقت إلى لويس التاسع ، وقد حملت صندوقاً كبيراً وعندما وصلت السفارة إلى مقر لويس التاسع في عكا فتحت ذلك الصندوق،وفاحت منه رائحة العنبر فأخرجت منه قميص شيخ الجبل وخاتمه ، وتمثال لفيل وزرافة من البلور وطاولة شطرنج مطعمة بالذهب ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٨ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على مصر، ص٢٥٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p516-517 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٨ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٧ .

(٣) الجويني : مج٢ ، ص٢٧٠ .

والعاج والأبنوس (١) ، ورد لويس التاسع على تلك الهدايا بأن أرسل مع رسل الحشيشية لسيدهم " كمية كبيرة من الجواهر وقطع من الأقمشة القرمزية وكؤوس من الذهب وخيول وقطع من الفضة " (٢) ، ويلاحظ أن لويس التاسع قد أرسل هدايا ثمينة في سبيل كسب حليف جديد من أبناء بلاد الشام ضد الأيوبيين أملاً في تفرقة صفوفهم ، فهو من خلال تلك الهدايا لم يأمَن خناجر الحشيشية فحسب بل ضمن وقوفهم على الحياد .

أرسل لويس التاسع الراهب إيفْ البريتونيْ (yves de Breton) الناطق باللغتين الفرنسية والعربية إلى جانب سفارة الحشيشية ، لتوثيق العلاقة مع شيخ الجبل ، ووصلوا قلاع الحشيشية (٣) ، وقدَّم إيفْ البريتونيْ الهدايا لشيخ الجبل في قلعة مصياف، وحاول معرفة عقيدة الإسماعيلية ، وجرت مناقشات دينية بينه وبين شيخ الجبل حول الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، ثم اطلع على مكتبة شيخ الجبل ، وأُعجب بأحد الكتب الذي ضم المواعظ التي أوردها السيد المسيح عيسى عليه السلام لتلميذه القديس بطرس ، ربما حاول جذب الحشيشية إلى المسيحية حسب رغبة سيده لويس التاسع ، لأن لويس التاسع لم يرسل فارس من فرسانه للحشيشية ، إنما تقصَّد إرسال راهب لعله أقدر على جذبهم للمسيحية، لكن اقتناع شيخ الجبل بمعتقداته جعله غير مُكترث للنقاش،وفي النتيجة لم يصل إيفْ البريتونيْ لمبتغاه (٤)،وتوقفت بعد ذلك المراسلات بين لويس التاسع وشيخ الجبل ، وبقيت العلاقة ودية بينهما .

وهكذا كان لويس التاسع لطيفاً مع الحشيشية وغض النظر عن تهديدهم ووعيدهم ، وما لبث أن جرى تبادل السفارات والهدايا بينهما ، وكسب لويس التاسع صداقة شيخ الجبل ، وأمَّن حماية الصليـــبيين من اغتيالات الحشيشية ، ويُحتمل أراد استخدامهم في عمليات الإغتيال ضد الملوك الأيوبيين ، لكن الحشيشية لم ينقادوا وراء رغباته وإن لم يضمن لويس التاسع دعم الحشيشية ضد الأيوبيين فعلى الأقل ضمن وقوفهم على الحياد (٥) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٨-١٦٩ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٧ . لويس : ص١٧٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٩ .

(٣) يُنظر المصور رقم (٥) ، ٣٠٤.

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٩-١٧١ ؛ الدبس : ج٦، ص٢٨٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٢ ؛ يوسف: العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص٢٣٥-٢٤٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٧-١٧١ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٧ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٢ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p516-518.

٩- مراسلة لويس التاسع للمغول .

أصبح المغول خطراً مدمراً هدد العالم في الوقت الذي تلقى الصليـبيون ضربات قاسية من قبل المسلمين ، فأدرك لويس التاسع أن خير وسيلة لاتقاء شرهم كسبهم إلى جانبه ، ووجد أن تلك القوة المغولية تصلُح لتدمير المسلمين (١) ، ولذا جرت اتصالات بين مختلف قوى أوربا والمغول ، وقد كان البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) من أكبر المحبذين لفكرة محالفة المغول حيث أرسل سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ثلاث سفارات إلى المغول لكنها أخفقت في تحقيق الغاية المرجوة منها لأن الخان المغولي الأكبر كيوك (Guyuk) (٢) قد طالب البابا ، وملوك أوربا بالاعتراف له بالتبعية دون قيد أو شرط (٣) ، وقد مهدت تلك السفارات التي أرسلها البابا السُبل أمام لويس التاسع في مواصلة السياسة التي رسمها البابا أنوسنت الرابع في استجداء المغول ، وبشكل خاص إثر قدوم سفارة أرسلها الخان المغولي في بلاد فارس جَغِطايْ (achatay) إلى لويس التاسع أثناء وجوده في قبرص سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وقد تألفت السفارة من داود ومرقص ، وهما من مسيحيي بلاد فارس ، وقد أقرت السفارة بأن جَغِطايْ قد عقد العزم على مساعدة لويس التاسع في حربه ضد المسلمين ، وبالغ لويس التاسع بإكرام ضيوفه (٤) ، ثم أعد سفارة بقيادة الراهبان الدومينيكانْ (Dominican) (٥)

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٩-١٨٨١ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١٠٧٣-١٠٧٤ ؛ Maier : op . cit , p78-79 .

(٢) كيوك : استلم خاناً أعظم للمغول سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وقد عُرف بشدته وقوة شخصيته ، وغالباً ما كان يأتيه السفراء من بلاد بعيدة ولا يجرؤون على مقابلته ، ولم تتعد غزواته سمرقند حيث وافته المنية فيها سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م الجويني : مج١، ص٢٣٠-٢٣٩ .

(٣)عاشور : الحركة الصليـبية ، ج٢ ، ص١٠٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليـبي على مصر ، ص٨٤-٨٦ ؛

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٩-١٨٨٠ ؛ باريس :الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٧٤ ؛ ج٥٠ ، ص١٨٨٢-١٨٨٣ .

(٥) جماعة الرهبان الدومينيكان : أسسها القديس الإسباني دومنيك (dominic) سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، واستهدفت تلك الجماعة مكافحة الهرطقات ، وهم يشبهون الفرنسيسكان في ضرورة الاختلاط مع الآخرين ، وإرشادهم إلى طريق الحق . يوسف ، جوزيف : تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص١٧٦ . Mayer : op . cit , p267 ; Furon , Raymond : la perse , Paris , p1938 ,p122-123 .

أندرو لونجيجْمو (Andreau longjmeau) وأخيه وليم لونجيجْمو (Wailiam longjmeau) حيث أعد لويس التاسع لتلك السفارة بعض الهدايا منها كنيسة متنقلة صُنعت من القماش القرمزي ، ووضع بداخلها مجموعة تماثيل تتعلق بالعقيدة المسيحية ، وعادت السفارة المغولية وإلى جانبها سفارة لويس التاسع ، وقد قصدوا جَغِطايْ الذي اقترح على السفارة الصليـــبية الذهاب إلى الخان المغولي الأكبر إذا ما أرادوا إنشاء تحالف مغولي صليـــبي فلا بد من أخذ موافقة الخان الأكبر ، وقد وصلت إلى العاصمة المغولية قراقورم (١) ، فوجدت أن الخان المغولي الأكبر كيوك قد فارق الحياة (٢) ، وأصبحت زوجته أغول غايميش وصية على منصب الخان الأعظم ، ريثما يتم اجتماع أعضاء القوريلتاي لتعيين خان أعظم للمغول ، وقد أرادت الاحتفاظ بذلك المنصب لأحد أبنائها ، فلم يوافقها أحد من أمراء المغول ، ثم اتفق أعضاء القوريلتاي على تعين مُنكو بن تولوي ، بينما عارضت أغول غَايميشْ ، وأخذت بإحاكة مؤامرة ضد مُنكو ، وعندما علم بنواياها ، ألقى القبض عليها وأعدمها غرقاً في الماء (٣) ، وبدأ مُنكو حكمه بإطلاق سراح الأسرى والمساجين ، وأعفى الكهنة والرهبان المسيحيين والعلماء المسلمين من الضرائب، ولم يستثن من ذلك الكرم إلا اليهود كما أشار ابن العبري (٤).

وعلى ما يبدو أن السفارة الصليـــبية شهدت انعقاد اجتماع القوريلتاي ، حيث قدَمت الهدايا لُمنكوخان (٥) ، وتوجه مُنكو إلى أمراء المغول في الاجتماع قائلاً : " لقد بعث ملك فرنسا يلتمس عطفنا ووضع نفسه تحت طاعتنا ، ويمكنكم أن تروا هنا الجزية التي أرسلها لنا " (٦) .

---

(١) يُنظر المصور رقم (٦) ، ص٣٠٥.

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ؛ ج٣٥ ، ص١٧٤-١٨١ ؛ مجهول : ذيل رونلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٨٠-١٨٨١ ؛ زابوروف : ص٣١٣-٣١٤ ؛

brellier : op . cit , p222 ; Grousset : op . cit ,volume 3 , p520-522 .

(٣) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٢١ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص٢٩٦ ؛ مختصر الدول ، ص٢٥٨-٢٦٢ .

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨١ ؛ Hamilton : op . cit , p81.

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨١ .

عدَّ مُنكو ماحملته السفارة الصليبية جزية ، وليست هدايا ، كما أن مُنكو لم يعد السفارة الصليـــبية بأية مساعدات ، أو حتى إنشاء حلف معهم ضد المسلمين ، ثم أعد سفارة مغولية حملت رسالة إلى لويس التاسع ، وانطلقت السفارتان إلى لويس التاسع حيث وصلتا سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى قيسارية حيث كان لويس التاسع مشغولاً بتحصينها ، واستلم رسالة مُنكو فوجد فيها التهديد والوعيد والإرشاد (١) وقد قال : " ننصحك بأن تبعث إلينا كمية كافية من أموالك سنوياً ، لتدفع إلينا حتى نبقى أصدقاء لك ، وإذا ما رفضت فعل هذا سوف نُدمرك كما دمرنا الملوك " (٢) الذين تمردوا علينا ولم يخضعوا لنا ، ويلاحظ أن حلم لويس التاسع كان محالفة المغول ، بينما أراد مُنكو أن يكون السيد الوحيد في ذلك العالم آنذاك ، وأن تأتي الملوك من أصقاع الدنيا ليقدموا له فروض الطاعة ، وهم صاغرين ، ومُحملين بالهدايا والجزية ، ومع ذلك هل أقلع لويس التاسع عن فكرة محالفة المغول ؟

لم تثن رسالة مُنكو القاسية من عزيمة لويس التاسع بل أصر على توثيق علاقته مع المغول ، وذلك للأسباب التالية :

أ_ خوف لويس التاسع من قوة المغول الغاشمة بعد أن أشار له مُنكو بأنك " لن تعرف السلم ما لم تكن بسلام معنا " (٣) .

ب_ ظهور بارقة أمل أمام لويس التاسع إثر مسير هَيْثُومْ الأول ملك أرمينية الصغرى على خطى لويس التاسع في كسب المغول لتدمير المسلمين (٤) .

ج_ أيقن لويس التاسع بأنه لن تأتيه النجدات من قبل البابا ، ولا يمكن أن يثأر للهزائم التي حلت به على أيدي المسلمين إلا إذا تلقى مؤازرة المغول (٥) .

د_ طار لويس التاسع فرحاً عندما علم أن الديانة المسيحية أخذت بالانتشار في صفوف المغول ، وبخاصة

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨١ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص٢٦٧-٢٧٠ ؛
Grousset : op . cit ,volume 3 , p522-524 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨١ .

(٤) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٦ ؛ Bernard Hamilton : op . cit , p80-81 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-١٧٤ ؛ هلال : المغول وأوربا ، ص٧١-٧٣.

النساء مثل سُورجقتَاني والدة مُنكو (١) .

أدت هذه الأسباب إلى إرسال لويس التاسع سفارة جديدة إلى المغول سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، ترأسها الراهب الفرنسيسكاني (٢) وِليَم رُوبروكْ (William Rubruk) (٣) ، وغادرت سفارة رُوبروكْ قيسارية وسارت شمالاً حيث وصلت القسطنطينية ، ثم إلى شبه جزيرة القرم التي كانت تحت سيادة اليونانيين ، ووصلت جنوب روسيا ، حيث سكن المغول العربات التي نصبوا عليها الخيام ، و أكرم المغول السفارة ، وقدموا لأعضائها شراب الكوميس ، وهو لبن الفرس المُخمر ،ثم التقت السفارة مع سارتاق بن باطو (sartak de Batu) وقدمت له الهدايا ، وطلبت منه السماح لهم بنشر المسيحية أملاً في إيجاد تحالف صليـبي — مغولي ، فوجد سارتاق أنه لا يمكنه البت في هذه المسألة دون موافقة والده باطو (٤) الذي استقر في مدينة سراي عاصمة المغول في روسيا ، وإثر مقابلة السفارة له وجد روبروك أن باطو" لا يدين بدين ولا عقيدة ، وكذلك لم يكن معادياً ديناً معيناً ولا متعصباً لمعتقد" (٥) ، وقد نصح رُوبروكْ بمقابلة الخان المغولي الأكبر مُنكو لأنه لا يستطيع عقد أي تحالف دون موافقة سيده (٦) ، ما لبثت السفارة أن قصدت قراقورم ، والتقى وِليَم رُوبروكْ قائد السفارة مع مُنكو ،

---

(١) الصدفي ، رزق الله : تاريخ دول الإسلام ، الدار العالمية ، مصر ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م ، ج٢ ، ص٢٧٨-٢٨٠ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٥٠٩-٥١٠ .

(٢) جماعة الفرنسيسكان (Franciscan) : جماعة رهبانية أسسها القديس الإيطالي فرنسيس الأسيزي (Francis Assisi) في مدينة أسيزى (Assisa) حوالي سنة٥٣٣هـ/١١٣٨م ، واستهدف من تلك الجمعية تخليص الرهبان من حالة القوقعة ، والعمل على إرشاد الناس إلى طريق الخير بالعلم والتعلم . يوسف : العصور الوسطى الأوربية ، ص١٧٥-١٧٦ .

(٣) يوسف : العدوان الصليـبي على بلاد الشام ، ص ٢٧٠-٢٧١ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p522-524..

(٤) باطو : لقب بصاين قان ، ومعناه الملك الجيد ، وقد استلم خاناً للمغول في روسيا والقفحاق سنة ٦٢٥-٦٥٠هـ/١٢٢٧-١٢٥٢م وقد ترك من بعده ثلاثة أبناء وهم سارتاق وبركة وبركجار . العيني : الموسوعة ، ج ٦٠ ، ص٦٢٧-٦٢٨ ؛ المنصوري ، بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية ، تح : عبد الحميد حميدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٧ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٣ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p522-525 .

(٥) الجويني : مج١ ، ص٢٤٤ .

(٦) رنسيمان : ج٣ ، ص٥١٠-٥١١ ؛ يوسف : العدوان الصليـبي على بلاد الشام ، ص٢٥٦-٢٧٥ ؛ هلال : ص٧٤-٧٧ ؛
Mayer : op . cit , P269.

فشرح له الأول إذا ما اعتنق منكو المسيحية ، فإن العالم سرعان ما يدين له بالولاء والطاعة ، وسعى رُوبروكْ جاهداً لإدخاله في خضم الصراع الصليبي مع المسلمين (١) ، وتراءى لمنكو أنه إذا ما ساعد الصليبيين ضد المسلمين فقد ضمن الهيمنة على المسيحيين من روما (٢) حتى أرمينية الصغرى (٣)،فضلا عن سيطرته على بلاد المسلمين التي صورتها له السفارات المسيحية التي تواترت إلى المغول بأنها مليئة بالثروات وسهلة المنال (٤).

ترك رُوبروكْ أحد أعضاء سفارته ويدعى برثولماوس دي كريمُونا في قراقورم للتبشير بالمسيحية، وقفل راجعاً سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م (٥) ، ووصل طرابلس وعلم عندها أن لويس التاسع عاد إلى فرنسا ، ولم يسمح له مقدم هيئة الفرنسيسكان بالذهاب إلى فرنسا ، وإنما طلب منه كتابة النتائج التي توصل لها خلال رحلته لإرسالها إلى لويس التاسع ، وقد أكد رُوبروكْ في رسالته إلى لويس التاسع متابعة سعيه الحثيث لكسب المغول ، لأن هناك أمل كبير بهجوم مغولي ضد المسلمين (٦).

وهكذا بذل لويس التاسع كل ما في وسعه لتقوية علاقاته الدبلوماسية مع القوى المسيحية والوثنية بل وحتى الإسلامية أملاً في إيجاد حلف صليبي قادر على تحطيم المسلمين ، والثأر لهزائم الحملة الصليبية السابعة ، وإقامة الكيان الصليبي رغماً عن المسلمين ، وبالفعل فقد حقق نجاحاً باهراً ، وبالوقت نفسه فقد أعطى جزءاً كبيراً من اهتمامه لتحسين الأوضاع الداخلية للصليبيين ، لأن الجبهة الداخلية لا تقل شأناً عن الجبهة الخارجية (٧) .

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٠٠-١١٠١ ؛ يوسف : العصور الوسطى الأوربية ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٧٣-١٠٧٤ .

(٣) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٢٦ ؛

Archibald : op . cit , P148 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٨٠-١٨٨١ .

(٥) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٧٣ ؛ الغامدي ، عبد العزيز : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، دار اقرأ ، مكة المكرمة ، د.ت ، ص١٥٤-١٥٥ .

(٦) هلال : ص٧٦ ؛ العريني : ص١٩٨ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣-١٨١ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٩-٥١٠.

أعمال لويس التاسع الإدارية وإصلاحاته الداخلية في مملكة عكا .

١- لويس التاسع والمنظمات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية - التيوتون - اللعازر) .

٢- علاقة لويس التاسع مع ممثلي الجمهوريات الايطالية في مملكة عكا .

٣- التسليح الصليبي في عهد لويس التاسع .

٤- التحصينات والدفاعات .

٥- مشاكل لويس التاسع البشرية .

٦- مشاكل لويس التاسع المالية .

٧- العملة الصليبية في عهد لويس التاسع .

١- لويس التاسع والمنظمات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية - التيوتون - اللعازر) .

أوشكت مملكة عكا على السقوط بعد أن استبدت بها الكوارث ، وافتقدت إلى القيادة الواحدة (١) ، وما إن وصل لويس التاسع إلى الشرق حتى وضع إستراتيجية جديدة لإصلاح الأوضاع الداخلية المتداعية ، و لم يكن ذلك بالأمر السهل بعد أن بلغت درجة كبيرة من الضعف ، فتطلبت المسألة جهداً كبيراً كي تقف على قدميها ، وتصمد أمام القوى الإسلامية التي كانت تتحين الفرصة المناسبة للإطاحة بها ، وقد أراد لويس التاسع استقطاب القوى العسكرية الصليـــبية حتى ينهض بالصليـــبيين ، في الوقت الذي مثلَتْ فيه الطوائف الدينية آنذاك مركز القوة العسكرية الصليـــبية، وحازت أقوى نفوذ لها في أوساط الفرنج ، وقامت بنشاط بارز في مملكة عكا (٢) ، فماذا عن علاقة لويس التاسع مع المنظمات الدينية ؟

وما هو مدى تجاوب تلك المنظمات مع سياسته ؟

أ- الاسبتارية: ما إن وصل لويس التاسع إلى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حتى أعدت الاسبتارية قوة عسكرية من مملكة عكا ، ثم انطلقت إلى قبرص للترحيب به ، وقد حضر مقدم الاسبتارية آنذاك وليم شاتونيف (٦٤١- ٦٥٦هـ/١٢٤٣-١٢٥٨م) الاجتماع الذي عُقد لتحديد وُجهة الحملة الصليـــبية، وأيد وليم مهاجمة مصر (٣) ، وإثر استيلاء الصليـــبيين على دمياط حصلت الاسبتارية كغيرها من المنظمات العسكرية على حصة الأسد من الغنائم (٤) ، ثم تقدم الصليـــبيون نحو القاهرة ، فحاول قائد الجيش الأيوبي فخر الدين بن حموية عرقلة مسيرهم ،وأرسل مجموعة فرسان لأداء تلك المهمة (٥) ، فتصدت لها الاسبتارية ، وأخذت بمطاردتها ،ولكن تلك المجموعة ما لبثت أن شنت هجوماً معاكساً (٦) ، وقتلت " من الاسبتارية أحد عشر رجلاً " (٧) ، فأصبح فرسان الاسبتارية موضع ثناء

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٤٧-٥٤٩ ؛ ابن العميد : ص٣٢-٣٣ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٨-١٩١٣ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩١٣ ؛ عاشور : الحركة الصليـــبية ، ج٢ ، ص١٠٥٧ ؛ إدبوري : ص٧٠ .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩١٣ ؛ Thorau : op . cit , p 34- 35 .

(٥) النويري : ج٢٩ ، ص٣٣٨ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٢ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٤ ؛ حسين عبد الوهاب ، حسن : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، دار المعرفة الجامعية ، الأزاريطة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص٢٥٩ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٢ .

ذلك اليوم لدى الصليـــبيين على الأعمال البطولية التي قاموا بها ضد المسلمين ، والتضحيات التي قدموها ، وقد زاد ذلك الإطراء من ثقتهم بأنفسهم ، فأسدى وليم مقدم الاسبتارية النصح إلى رُوبِرتْ كونت أرتوا للتريث ، وعدم اقتحام المنصورة ،ريثما يتم عبور الجيش الصليـــبي لأشموم طناح ، ولكنه لم يأخذ برأيه (١) ، وجرت معركة حاسمة في المنصورة ، ولم ينج من الاسبتارية فيها سوى خمسة فرسان ،وكان أحدهم مصاباً بجراح خطيرة ، أدت لوفاته لاحقاً (٢) ، ثم وقع الجيش الصليـــبي في الأسر ومن ضمنهم مقدم الاسبتارية وكثير من رجاله ، وفي سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م بعد استقرار لويس التاسع في عكا توصل لإطلاق سراح دفعة من الأسرى الصليـــبيين كان في مقدمتهم مقدم الاسبتارية وليم مع خمسة وعشرين من فرسانه (٣) وبرز نشاط وليم شاتونيف في دعم الوجود الصليـــبي حيث فرض على الحشيشية جزية سنوية أملاً في كسر شوكتها وتأمين حماية الصليـــبيين من خناجرها ، وقد أيدها لويس التاسع في ذلك لما فيه من إضعاف للحشيشية ، وزيادة ثراء الصليـــبيين (٤) .

استغلت الاسبتارية تأزم الموقف بين القاهرة ودمشق ، فهاجمت حلب سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م ، وأشعلت فيها حريقاً أدى لإتلاف " أموال لا تحصى واحترقت ستمائة دار " (٥) ،وعلى ما يبدو أن ذلك الهجوم أخذ شكل غارة سريعة ، استهدفت السلب والتخريب ، ثم الإسراع للتحصن داخل القلاع ، قبل أن يرد المسلمون عليهم ، وهذا دليل على مدى غيرة الاسبتارية على الكيان الصليـــبي ، فقد سارت على السياسة التي رسمها لها لويس التاسع ، فعملت على تأمين حماية الصليـــبيين ، فما إن لمست ضعفاً في صفوف المسلمين حتى أغارت عليهم لإحداث الضرر والتخريب وأخذِ الغنائم (٦) .

التزمَتْ منظمة الاسبتارية بالنظام والانضباط ولم تكن قوتها ومكانتها تسمح لها بالإساءة إلى الآخرين ، فعندما اشتكى جوانفيل سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م إلى مقدم الاسبتارية وليم على مجموعة

---

(١) باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٦؛ Brellier : op . cit , p224-225 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٦-١٩٢٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٤٥ .

(٣) مجهول :تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٣٨-١٩٥١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٢ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p 500 ; Villeneuve : op . cit ,P197-200 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٧-١٦٨ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٨ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٥ .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٨ ؛ طلاس ،مصطفى والجلاد ،محمد : قلعة الحصن ، دار طلاس ، ط١، دمشق ، ١٤١١هـــ/١٩٩٠م، ج١ ، ص١٣٠؛ Stevenson : op . cit , p330-331 .

من جنود الاسبتارية اعترضت سبيل عدد من فرسان جوانفيل كانوا يلاحقون أحد الغزلان ، فمنعوهم من اصطياده، ووفقاً لقوانين مملكة عكا (١)، فقد فرض وليم على تلك المجموعة من جنوده ألا تتناول الطعام إلا بعد أن تخلع أرديتها ، ثم تجلس عليها وتتناول الطعام ، واستمروا أياماً على هذه الحالة ، وأتى جوانفيل كي يَصفح عنهم ، فرد عليه وليم بأنه "لن يسمح لأعضاء من طائفته بإساءة السلوك نحو الذين قدموا حجاجاً إلى الأراضي المقدسة " (٢) ، فخلع جوانفيل رداءه وجلس عليه يتناول الطعام معهم ، و لم يكن مقدم الاسبتارية ليرضى أن يأكل جوانفيل مستشار لويس التاسع على تلك الحالة ، فأمر الجميع بالقيام ، فنهض جوانفيل معهم ؛ وهذا يعني أنه لم يكن هناك تمييز بين الصليـــبيين في عهد لويس التاسع ، فالكُل يجب أن يخضعوا للقوانين بغض النظر عن انتمائهم أو مكانتهم (٣) .

ازدهرت اقطاعات الاسبتارية ، وانتشرت أملاكها في عكا وأنطاكية وطرابلس ، وقد امتلكت حوالي مائة وسبعين قِرية من أصل ثمانمائة وثمان وخمسون قرية في مملكة عكا (٤) ، فضلاً عن الهبات التي كانت تصلها من أوربة ؛ سخرت الاسبتارية أملاكها في دعم الصليـــبيين قدر المستطاع (٥) ، وعلى هذا يلاحظ أن الفكرة الأساسية للاسبتارية قامت على محاربة المسلمين ،والتعاضد مع لويس التاسع للدفاع عن الصليـــبيين ، والحفاظ على الكيان الصليـــبي بقوة السلاح (٦) .

ب_ **الداوية** : لم تكن منظمة الداوية أقل نفوذاً من منظمة الاسبتارية بل كانت أكثر نشاطاً بعد أن وضعت يدها بيد لويس التاسع ، وآزرته منذ أن وطأت أقدامه جزيرة قبرص ، ثم سارت معه لمهاجمة مصر (٧) ،وإثر المسير من دمياط باتجاه القاهرة أمرهم لويس التاسع بعدم مهاجمة أحد في طريقهم

---

(١) قوانين مملكة عكا : عُرفت القوانين في مملكة عكا بالدواوين الشرعية ، وقد استمدوها من الكتاب المقدس والأعراف المتبعة لديهم ، وظهر بعض المشرعين كالمؤرخ الشهير والمشّرع فيليب دي نوفارا ، وقد أشرف على تطبيق القوانين عدة محاكم هي : المحكمة العليا والبرجوازية والإكليروس (الكنيسة) . غروسيه : الحروب الصليبية ، ص٩٦-٩٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٧ .

(٣) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٧ .

(٤) ريلي سميث : ص٤٢١-٤٢٤ .

(٥) ماب : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٩٢ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٨٣-٨٤ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٦-١٨٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٤٥-١١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩١٣-١٩٥١؛ Kohler : op . cit , p522-523 .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٨-١٩٢٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٤٤-٤٥٣ ؛ Nicolle , David : arms and armour of the crusading , New yourk , 1988, p318 .

إلا من أجل الدفاع عن أنفسهم ، وبالفعل أخذ المسلمون يتسللون لضرب الصليــبيين ،وحدث أن قام أحد المسلمين بضرب فارس داوي فألقاه أرضاً ، فنادى وليم سوناك مقدم الداوية فرسان الداوية " من أجل الرب دعونا ننقض عليهم فأنا لا أستطيع أن أتحمل ما يجري " (١) وتبعه فرسانه ، وأخذوا بملاحقة المسلمين فشتت شملهم ،وأغرق معظمهم في ماء النيل (٢) ، ثم اجتاز الصليــبيون أشموم طناح ،وهاجموا معسكر المسلمين ، واستطاعت الداوية قتل قائد الجيش الأيوبي فخر الدين بن حمويه حيث طعنوه في جنبه ، فسقط من فوق فرسه ، ثم ضربوه في وجهه بالسيف طولاً وعرضاً ومثلوا به (٣) ، وعندما قرر رُوبِرتْ كونت أرتوا مهاجمة المنصورة أسدى له مقدم الداوية النصح بعدم التورط في مهاجمتها ، لأنه أدرى من الأوربيين بطرائق القتال لدى المسلمين ، حيث توقع بأن هناك كمين قد نُصب لهم في المنصورة ، فاتهم رُوبِرتْ الداوية وكذلك الاسبتارية بالخيانة ، ولو أنهما أخلصا للمشروع الصليــبي لتحول المشرق العربي الإسلامي إلى مستعمرة أوربية ، وبالرغم من ذلك الاتهام لم يتركه مقدم الداوية وسار معه نحو المنصورة (٤) ،فكانت خسارة الداوية كبيرة حيث لم يسلم منهم أكثر من أربعة أو خمسة فرسان ، وقد قتل في مقدمتهم مقدم الداوية وليم سوناك بعد أن فقد إحدى عينيه (٥) .

حلت الهزيمة بالجيش الصليــبي ووقع في الأسر ، واحتاج لويس التاسع لمبلغ ثلاثين ألف ليرة ذهبية لدفع الفدية للمسلمين ، فنصحه جوانفيل بأخذ ذلك المبلغ من الداوية ، وبالفعل أرسل جوانفيل إلى سفينة نائب مقدم الداوية الراهب إيتين دي أوتريكُورتْ (Etinne d, otricourt) الذي رفض إعطاءه المال ، وتقاذفا الشتائم ، ولكن كان إيتين على حق لأن الأموال كانت ودائع لديه ، فوقع في ورطة فإما أن ينكث بعهده أو يعيد جوانفيل خائباً ، وثار جوانفيل غضباً ، وحمل فأساً دانمركية وقع بصره عليها في السفينة،وهدد بكسر الصندوق لأخذ ما يلزمه ، وهنا تدخل مارشال الداوية (٦) ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٩ .

(٣) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٩١ ؛ سبط ابن الجوزي : ص٧٧٧ ؛ ابن كثير : ج٧ ، ص٣٠٥ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨٩ ؛ باريس :الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٥-١١٣٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٥-١٩٢٦ ؛ Delort : les croisades , seuil , 1988 , p258-259 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٧ ؛ يوسف : العدوان الصليــبي على مصر ، ص١٦٩-١٧٠ .

(٦) المارشال: رتبة عسكرية يحملها أكبر قائد عسكري في المنظمة بعد مقدم المنظمة ، ويتولى إدارة شؤون الجنود ، وحل مشاكلهم. باركر : ص١٨٦ .

رينالدْ دي فِيشيهْ (Renald du Vichier) وطلب من إيتين إعطاء جوانفيل ما يلزمه من المال ، لأنه لا يجوز رفض مطالب لويس التاسع ،وإن لم يتم دفع الفدية فهم باقين في الأسر لا محالة ، وبالفعل استجاب إيتين ، وأخذ جوانفيل طلبه عائداً إلى لويس التاسع (١)، و لم ينس لويس التاسع ذلك الجميل لرينالدْ دي فِيشيهْ إثر عودته إلى عكا ،فعينه مقدماً للداوية (٦٤٨-٦٥٠هـ/١٢٥٠-١٢٥٢م) ، حيث عينه لويس التاسع دون انعقاد اجتماع لفرسان الداوية ، فقد اعتادت الداوية عقد الاجتماعات لتعيين مقدم للمنظمة ،وكذلك أثناء الأزمات ، ولكن هنا أدرك لويس التاسع غيرة رينالد على المصلحة العامة للصليـــبيين ، فتخطى القوانين العامة للداوية ، وعينه مقدم للداوية و لم يعارضه أحد ، وفي ذلك دلالة على الطاعة العمياء للويس التاسع ،وإلى مكانته لدى الداوية (٢) ، وعندما أُطلق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليـــبيين كان من بينهم خمسة عشر فارساً من فرسان الداوية (٣) .

أسهم رينالدْ دي فِيشيهْ في أعمال التحصين التي قام بها لويس التاسع لزيادة مناعة المواقع الصليـــبية (٤) ، واتصفت الداوية في عهد رينالد الالتزام بالنظام ، وكان أفرادها دائماً على أهبة الاستعداد فيما إذا تعرض أي موقع صليـــبي لهجوم إسلامي مفاجئ (٥) و لم تهتم الداوية بالجانب العسكري فحسب بل كان أفرادها سادة القروض المالية (٦) ،وعلى ما يبدو أن حبها للمال أدى لإحراجها أحياناً ، فعندما اختلف مقدم الداوية رينالد مع الناصر يوسف الثاني ملك دمشق سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، على قطعة أرض كانت محط خلاف بينهما ، و لم تحدد المصادر موقعها ،وهي من المرجح على المناطق الحدودية مع الكيان الصليـــبي ، فتم الاتفاق على اقتسامها ، وبعد توقيع الاتفاق أخبر رينالد لويس التاسع بذلك ، فغضب لويس التاسع لعدم استشارته فيما حدث ، وطلب لويس

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٣-١٤٥ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧١-٤٧٢ ؛ زيادة : ص٢٢٩-٢٣٠ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p493 ; Ebrhard : op . cit , p264-265 ; Villeneuve : op . cit ,P 176-179 .

(٢)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٤ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ ؛ يوسف :العدوان الصليـــبي على مصر ، ص٢٧٥ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٦ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٥٨-١١٥٩ ؛
Labrune , Gerard et Toutain , Philippe : L,histoire de France , Nathan , 1986 , p36-37 .

(٥) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٩١-٩٥ .

(٦) غروسيه :الحروب الصليـــبية ، ص١٠١ ؛ زيادة : ص٢٢٩ .

التاسع اجتماع النبلاء الصليـــبيين ،فما كان من مقدم الداوية إلا أن سار إلى الاجتماع مع فرسانه حفاة الأقدام لعلهم ينالون الرضى ، و لم يكن الأمير الدمشقي الذي أرسله ملك دمشق لتوقيع الاتفاق قد عاد إلى دمشق بعد ، فحضر مع الداوية وأشار لويس التاسع للجميع إلى الخطأ الذي ارتكبه مقدم الداوية من خلال اتفاقه مع المسلمين دون العودة إليه ، فطلب من رينالد التراجع عما قام به " وبناءً عليه تناول مقدم الداوية الوثيقة المكتوبة وناولها إلى الأمير ، وهو يقول أُعيد إليك الاتفاق الذي عقدته معك خطأ وإنني أُعبر عن أسفي لقيامي بذلك " (١) ، وتراجع مقدم الداوية عن اتفاقه وهو حافي القدمين ، ثم أمره لويس التاسع بالركوع عند قدميه ، وقرر نفيه من مملكة عكا ، و لم تشير المصادر إلى المكان الذي نُفي إليه ، ومن المرجح أنه نُفي إلى أوربة (٢) ، ولكن لماذا تعامل لويس التاسع مع مقدم الداوية بتلك القسوة ؟

أراد لويس التاسع أن يجعل من رينالد عبرة للصليـــبيين ، كي يكونوا طوع بنانه ورهن إشارته ، لتأمين الأمن للكيان الصليـــبي ، لأنه إذا ما كان هناك اتفاق بين رينالدْ والناصر يوسف الثاني ،فإن هذا قد يؤدي لغضب المماليك ، بعد أن استغل لويس التاسع صراعهم مع الأيوبيين ، فتوصل لإطلاق سراح قسم من الأسرى الصليـــبيين الموجودين في مصر ، وبقي الكثير منهم في السجون المملوكية ، وربما كان ذلك الاتفاق مع ملك دمشق يحقق مصلحة الداوية ،ولكنه سوف ينعكس سلباً على واقع الأسرى الصليـــبيين ، و لم يرغب لويس التاسع بإعلان عدائه للمماليك إلا بعد إخراج آخر جندي صليـــبي من سجونهم(٣) .

وعلى هذا عززت الداوية الوجود الصليـــبي واستمرت عنصراً مفيداً لأنها نذرت نفسها لخدمة المشروع الصليـــبي ، ومع ذلك تخلل إخلاصها تعارض المصالح أحياناً ، وبشكل عام كانت الساعد الأيمن للويس التاسع (٤) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٨-١٨٩ ؛ عاشور : الحروب الصليـــبية ، ج٢، ص١٠٩٥ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p510.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٥-١٨٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١-١٩٩٢ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٩٣-٦٢٩ ؛
Irwin : op . cit , p20-30 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٥-١٨٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٤٥-١٨٩ ؛
Kohler : op . cit , p522-523 .

جـ ـ التيوتون : أسهمت منظمة التيوتون (١) كإحدى المنظمات العسكرية بدور مهم في الدفاع عن الكيان الصليـبي ، وتثبيت أركانه ، ولم تختلف عن الاسبتارية بما أنها تفرعت عنها ، لكن عضوية التيوتون اقتصرت على الألمان بينما ضمت الاسبتارية أعضاء من مختلف البلدان الأوربية (٢) ، وعندما وصل لويس التاسع إلى الشرق انضمت إلى حملته الصليـبية ، وتصدرت طليعة الجيش الصليـبي ، وفرحت بما حصلت عليه من غنائم في دمياط وتولت أثناء المسير نحو القاهرة تأمين حماية الجيش الصليـبي من هجمات المسلمين ، وقد أبلت بلاءً حسناً في التصدي لغارات المسلمين ، وقُتل من التيوتون أربعة فرسان نتيجة للاصطدامات المتكررة (٣) ، كما تلقت التيوتون ضربة قاصمة في المنصورة حيث قُتل الكثير من فرسانها داخل المنصورة (٤) ،ثم وقع الجيش الصليـبي بالأسر ومنهم فرسان التيوتون (٥) ، وبعد أن توصل لويس التاسع سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م لإطلاق دفعة من الأسرى الصليـبيين كان من بينهم عشرة فرسان من التيوتون (٦) ، ومن المرجح أن مقدم التيوتون هِنريشْ هُوهِنلوهْ قد قتل في معركة المنصورة ، فعين لويس التاسع إثر وصوله إلى عكا بدلاً منه جونتر تزبورج (Jonter Tezbourg) (٦٤٨-٦٥٠هـ/١٢٥٠-١٢٥٢م) (٧) ، وفي عكا استردت منظمة التيوتون قوتها ، ووقفت إلى جانب لويس التاسع ،وشاركته في أعمال التحصين التي قام بها (٨) ،وتميزت التيوتون بغناها المادي حيث امتلكت حوالي مائتي قرية في مملكة عكا (٩) ، فضلاً عن الدعم المادي

---

(١) التيوتون : هم سكان شمال ألمانيا، أما منظمة التيوتون فهي منظمة خيرية ارتبط تأسيسها بتأسيس مشفى القديسة مريم في القدس من قبل الحجاج الألمان سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ومع نهاية القرن ٦هـ/١٢م تحولت من منظمة إنسانية إلى منظمة عسكرية ، واقتصرت عضويتها على الطبقة الارستقراطية الألمانية فقط . زكار وجوني وإسماعيل : ص٢٢٦-٢٢٧ . غروسية : ص٩٩-١٠٠.

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٤٥ ؛ حومد ، أسعد : تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليـبيين،ط١، د.م،١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ج٢ ، ص١٨٩ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩١٣-١٩٢٢ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٤٥ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون ، ص٢٥٩ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١-١٩٩٢؛

Brentano : op . cit , p108-109 .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ ؛ حسين عبد الوهاب :جماعة التيوتون ، ص٢٦٤ .

Grousset : op . cit ,volume 3 , p500 ; Villeneuve : op . cit ,P 202 .

(٧) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٨٢-١٢٠٧ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٨٥٠ .

(٨) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٥٨-١١٥٩ .

(٩) حسين عبد الوهاب :جماعة التيوتون ، ص٢٣٦-٢٣٩ .

الذي تلقته من أوربا فشكلت جيشاً دائماً ساند لويس التاسع في أعماله القتالية (١) .

توفي مقدم التيوتون جونتر تزبورج سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م واستلم بدلاً عنه بُوبو دي أُوستِرنا (Popo de Ositerna) (١) ، الذي شارك لويس التاسع في هجومه على بانياس التي كانت تابعة للناصر يوسف الثاني آنذاك ، وعندما فرَّ المسلمون من بانياس ليتحصنوا في قلعة الصبيبة أسرع التيوتون في مطاردهم دون أن ينتظروا جوانفيل وبقية الجيش الصليبي ، فردهم المسلمون على أعقابهم ، وعادوا إلى صيدا بعد أن حمَّل جوانفيل التيوتون مسؤولية الهزيمة في بانياس (٢) ، وإثر حملة بانياس وقع خلاف بين التيوتون ، وأسقف حبرون بارثولوميُو دي سوفَا (Bartholomew du Sofa) حول بعض المنازل التي استقر فيها التيوتون في عكا حيث طالب أسقف حبرون بإيجار تلك المنازل ، فرفض مقدم التيوتون متذرعاً بأن منظمة التيوتون لا تخضع لقوانين الأسقفيات ، وهي لا تتبع سوى أوامر البابا ، ولكن عندما وجد مقدم التيوتون أن الإيجار السنوي للبيت الواحد لا يساوي سوى سبع بيزنتات ، لم يمتنع عن دفع ذلك المبلغ الزهيد (٣) .

وعلى هذا فإن منظمة التيوتون شاركت لويس التاسع في حربه وسلمه ، وبالرغم من أخطائها فقد اعتمد عليها اعتماداً كبيراً علماً أنها ألمانية الشكل والمضمون بينما لويس التاسع من أصل فرنسي ، وذلك أنه جمعهم هدف واحد ، وهو إقامة الكيان الصليبي ، مما أدى لتكاتفهم في مواجهة المسلمين (٤) .

د_ اللعازر : شاركت منظمة القديس اللعازر (٥) الصليبيين في أعمالهم القتالية بالرغم من إمكاناتها

---

(١) كَريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٨٣-٨٤ .

(١) بُوبو دي أُوستِرنا: انضم إلى منظمة التيوتون سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ، ثم أصبح ممثلاً للمنظمة في بروسيا ، وإثر قدومه إلى عكا أصبح مقدماً لها سنة (٦٥٠-٦٥٤هـ/١٢٥٢-١٢٥٦م) . حسين عبد الوهاب: جماعة التيوتون ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧-٢٠٨ ؛ حسين عبد الوهاب :جماعة التيوتون ، ص٢٦٥-٢٦٦ ؛
Stevenson : op . cit , p331 ; Grousset : op . cit , volume3 , p507-509 .

(٣) حسين عبد الوهاب :جماعة التيوتون ، ص٢٦٦ .

(٤)باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨-١٠٨٣ ؛ مجهول :ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩١٣-١٩٥١ ؛
Stevenson: op. cit, p326-330.

(٥) اللعازر : نشأت هذه المنظمة سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م كمؤسسة صحية لمعالجة مرضى الجذام ، واتخذت من بيت المجذومين عند السور الشمالي لمدينة بيت المقدس مقراً لها ، ولم يكن هناك علاج ناجع للمجذومين آنذاك ، لذا قامت هذه المؤسسة بعزل المجذومين عن بقية الناس تفادياً للعدوى ، وأشرفت على علاجهم ، ووضعتهم جميعاً مع بعضهم دون أن تخشى من انتقال العدوى بما أنهم جميعاً مصابين بالمرض ، واتخذت صورة مريض الجذام شعاراً لها ، وقد حمل بيده مطرقة لتحذير الناس من الاقتراب منهم ،وفي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م تحولت لمنظمة عسكرية ، وأصبح لها أملاك في طبرية وعسقلان وعكا و قيسارية =

المتواضعة مقارنة مع بقية المنظمات العسكرية ، لأن وضعها الصحي قد حدَّ من نشاطها ؛ ولكنها لم تستكن لذلك الأمر ،فانخرطت في بعض الأعمال القتالية ضد المسلمين ، ولا تشير المصادر إلى أن منظمة اللعازر انضمت إلى الحملة الصليبية السابعة التي هاجمت مصر ، وربما كانت مشاركتها ضئيلة الأهمية مقارنة مع المنظمات العسكرية الأخرى ، أو أنها لم تقم بتلك الأعمال البطولية التي تستحق الذكر ، فلم تشير المصادر إليها ، وكُتب لتلك المرحلة من تاريخ اللعازر أن تكون غامضة (١) ،وأهم ما يميز اللعازر الهجوم الذي شنه مقدم منظمة اللعازر على المسلمين عند مدينة الرملة (٢) ، وذلك عندما علِم مقدم اللعازر ،ربما من خلال جواسيسه بوجود قطعان كبيرة من المواشي على أطراف مدينة الرملة ، فأعد فرقة من فرسانه بطريقة سرية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، ولم يخبر أحداً بما قام به حتى أنه لم يستأذن لويس التاسع ، وسار مقدم منظمة اللعازر وفرسانه ؛ فهاجموا الرعاة وقتلوا بعضهم ،وفر الآخرون إلى الرملة لطلب النجدات ،بينما ساق جنود اللعاز أمامهم قطعان الماشية وقد قصدوا مدينة يافا ، وقبل أن يصلوا أدركتهم مجموعة خيالة من المسلمين كانوا قد أتوا من الرملة ، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء " ولم ينج من جميع الرجال الذين كانوا برفقته أكثر من أربعة " (٣) ، وفرَّ مقدم اللعازر إلى المعسكر الصليبي في يافا ، وأخذ ينادي بطلب النجدة (٤) ، وما إن سمعه جوانفيل حتى استأذن لويس التاسع وخرج على رأس مجموعة من فرسان الداوية و الاسبتارية ، واصطحبهم مقدم منظمة اللعازر إلى المكان الذي اشتبك فيه مع المسلمين لعله يثأر منهم ، وقد أدركوهم في باطن أحد الأودية بعد أن انقسموا إلى قسمين حيث ساق فريقٌ منهم المواشي وسار إلى الرملة ، بينما بقي وراءهم مجموعة من الفرسان لحمايتهم ، واشتبكوا مع أولئك الفرسان فقتلوا عدداً منهم ، بينما فر البقية ، ولم يتابع جوانفيل

= وأُسند إليها مهمة حماية برج القديس اللعازر أحد الأبراج الشمالية لمدينة عكا ، وشاركت في معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م فأبيد معظمهم في تلك المعركة . كريستوفر :الموسوعة، ج٨٣ ، ص٩٨-٩٩ ؛ براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، تر : عبد الحافظ البنا ، دار عين ، ط١، مصر ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ص٣٣٤ .

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٨-١٤٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة،ج٥٨ ، ص١٩٩١-١٩٩٣ .

(٢) الرملة : إحدى مدن فلسطين ، وقد بناها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) ، ومن المحتمل بأنها سميت الرملة لأن تربتها رملية ، وهي قريبة من بيت المقدس ولا تبعد عنه سوى مسيرة يوم .أبو الفداء : تقويم البلدان ،ص٢٤١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٩٩ .

وجنوده فلولهم بعد أن أصبحوا على مضارب الرملة ، وعاد مقدم منظمة اللعازر بخُفي حُنين بعد أن فقد قطيع الماشية مع الكثير من فرسانه (١).

إن حادثة طريفة لفتت انتباه جوانفيل أثناء القتال مع فرسان الرملة حيث كان هناك سيرجندي تابع للملك الفرنسي قد قدم مع جوانفيل ،وقد أبصر السيرجندي فارسين يتصارعان أحدهما صليبي والثاني مسلم ،وقد أصيب كلاهما بجراح ،وبدلاً من إنقاذ السيرجندي للفارس الصليبي فقد جر جواديّ الفارسين بعد أن وقعا على الأرض ، وكان ممتطياً حصاناً آخر ، وسار متخفياً بقصد سرقة الحصانين ، ولسوء حظه أنه مر من على خزان مياه قديم تم تغطيته بالأخشاب التي وضعت عليها طبقة من التراب ، وفجأة سقط مع خيوله في قعر الخزان ، ولولا سماع جوانفيل وفرسانه صراخه لذهب ضحية طمعه (٢)، ولا عجب في ذلك لأن هذا السيرجندي لم يأت للشرق باحثاً عن المقدسات أو الدفاع عن الصليبيين ، فهدفه الوحيد زيادة أملاكه سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أو الصليبيين ، فهو لم يترك رفيقه في المعركة يتألم فحسب بل تركه دون حصان لعله يموت ويكسب السيرجندي حصاناً آخر.

نجح جوانفيل بإنقاذ مقدم منظمة القديس اللعازر مع القليل من فرسانه (٣) ، وقد عاد الجميع إلى لويس التاسع ، وإثر ذلك يُذكر بأن مقدم منظمة اللعازر نقل مركز المنظمة من عكا إلى فرنسا ، وبموافقة لويس التاسع تم ذلك سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م (٤) ،ولكن من المحتمل أن لويس التاسع نفى مقدم منظمة اللعازر مع الفرسان الذين شاركوه في مهاجمة رعاة الرملة بسبب عدم استشارته في تلك الغارة التي ذهب ضحيتها الكثير من فرسان منظمة اللعازر حيث اعتاد لويس التاسع طرد كل من يخالف أوامره أو يتصرف دون استشارته ، ولا غرابة في ذلك الأمر ، فقد نفى لويس التاسع مقدم الداوية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ،وهذا ما يؤكد بأن لويس التاسع على الأرجح قد نفى مقدم اللعازر وفرسانه الذين

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٩٩؛ براور :الاستيطان الصليبي ، ص٣٣٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨ ؛ يوسف :العدوان الصليبي على بلاد الشام ،ص١٩٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨ ؛ براور :الاستيطان الصليبي ،ص٣٣٥ .

(٤) يوسف :العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٩٨ .

شاركوه في غاراتهم على المسلمين فقط (١) ، لأن أعضاء من هذه المنظمة بقوا في الشرق حتى جلاء الصليبيين عن بلاد الشام حيث قصد أعضاء اللعازر فرنسا واستقروا فيها (٢) ، ويلاحظ بأن منظمة اللعازر حاولت أن تشغل دوراً في الحفاظ على الكيان الصليبـي على قدر إمكاناتها المتواضعة ، وقد اكتنف تاريخها الغموض وبخاصة في النصف الثاني من القرن ٧هـ/١٣م ، ربما استخفافاً بتلك المنظمة المجذومة لم يولها الكثير من المؤرخين أهمية كبيرة (٣).

وهكذا قامت المنظمات العسكرية بدور بارز تحت قيادة لويس التاسع ، فتميزت بالطاعة العمياء لأوامره ، وأدى ذلك الانضباط إلى قيامها بدور متميز في مملكة عكا ، فكانت بمثابة العمود الفقري ، ربما ودون مبالغة دون المنظمات العسكرية لا يمكن أن تقوم قائمة للصليـبيين إثر هزيمة المنصورة ،ويعود الفضل في ذلك إلى لويس التاسع الذي اتبع مع المنظمات سياسة صارمة للقضاء على مظاهر الفوضى أملاً بإصلاح الكيان الصليبـي (٤) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٨-١٨٩ .

(٢) نهاية منظمة اللعازر : على ما يبدو أن فرسان اللعازر توافدوا إلى فرنسا بعد أن طُرد الصليـبيون من بلاد الشام ،وبقيت قائمة في فرنسا حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م حيث قُضي عليها . يوسف : العدوان الصليبـي على بلاد الشام ، ص١٩٨ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص١٩٧-١٩٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٩٨-٩٩ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٨-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٥-١٢٠٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ،ص١٩٩١-١٩٩٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩١٣-١٩٥١ ؛
Rene Grousset : op . cit , volume3 , p493-512 ; Louis Brellier : op . cit , p222-227 .

٢- علاقة لويس التاسع مع ممثلي الجمهوريات الايطالية في مملكة عكا .

فتحت الحروب الصليــبية أسواقاً رائجة أمام الجمهوريات الايطالية في المشرق العربي الإسلامي ، فحصلت على الامتيازات في مملكة عكا بسبب توفيرها الأساطيل اللازمة التي نقلت الحملات الصليــبية، وأمنت اتصالها ببلدالها ، فشكلت تلك الجمهوريات قومونات مستقلة تتبع لإيطاليا الدولة الأم بشكل اسمي لكنها شكلت قوى استعمارية ، وهيئات غنية ذات نفوذ ، وقد تميزت بأنانيتها وتعطشها للمجد والثروة (١) ، وما إن التمس لويس التاسع السفن اللازمة من الجمهوريات الايطالية حتى بادرت مدينتا جنوه وبيزا بإمداده بالسفن ، بينما أحجمت مدينة البُندُقية ، لارتباطها مع السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب باتفاقية تجارية تعود إلى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، وبالفعل أقلت جنوه وبيزا الحملة الصليــبية السابعة إلى قبرص سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م (٢) ، وبدأ آنذاك قتال عنيف بين أبناء بيزا وجنوه على امتداد الساحل الشامي (٣)، وربما كان ذلك الصراع أحد أسباب تأخر لويس التاسع في المسير من قبرص (٤) ، واستمرت الحرب بينهما" ثمانية وعشرين يوماً وقد رموا على بعضهم وتقاذفوا بواسطة ثمان وعشرين آلة من آلات رمي الحجارة والعرادات والمجانيق " (٥) ، ولم ينته ذلك الصراع إلا بعد أن كلف لويس التاسع حاكم أرسوف يوحنا الثالث دي إبلين للتوسط بينهما من أجل حل النـــزاع، فتوصل لعقد هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات (٦) ،ثم انشغلت كل من جنوه وبيزا بمداواة جراحهما ، مما أدى لمحاولة لويس التاسع طلب المعونة من البُندُقية للمرة الثانية ، ولكن هذه المرة وافقت على بيعه كمية كبيرة من المواد الغذائية ، تضمنت " ست سفن كبيرة محملة بالقمح والخمر

---

(١) باريس: الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٧-١٢٠٣ ؛ غروسيه :الحروب الصليـــبية، ص١٤٥-١٤٦ ؛ كاهن ، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليـــبية ، تر : أحمد الشيخ ، دار سينا ، ط١، القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٢٩٤ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٠٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٤٢ ؛ حومد: ج٢ ، ص٢٨١ .

(٣) الصراع بين بيزا وجنوه : إن المنافسة التجارية بين جنوه وبيزا جعل جنوه تحاول فرض سطوتها على بيزا ، مما أثار غضب الثانية، فهاجمت مراكز جنوه التجارية على الساحل الشامي . زيادة : ص٩٧-٩٨ .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ ؛ عاشور : الحركة الصليـــبية ،ج٢ ، ص١٠٥٧ ؛ Mayer : op . cit , p262 .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ .

(٦) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ،ص١١٧١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٤٨ ، ص١٩٩١ ؛ عطية : ص٣٩٧ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p493-494 .

وأنواع المؤن الأخرى ، وكذلك نجدة من الجنود مع أعداد ممن حملوا الصليب " (١) ، ويلاحظ أن البُندُقية امتنعت بالأمس عن مساعدة لويس التاسع ، وتقديم السفن له لكن ما إن اشتبكت جنوه وبيزا حتى رغبت أن تكون هي الممولة الوحيدة للويس التاسع فيما يتعلق بالمواد التموينية والسلاح ضاربة عرض الحائط باتفاقيتها مع الصالح نجم الدين أيوب (٢) .

عرف لويس التاسع الجمهوريات الايطالية على حقيقتها ، وتأكد بأنها لا تبحث سوى عن مصالحها الخاصة ، فلم يرغب باصطحاب الكثير من مقاتليهم معه إلى دمياط ، وكي لا يحتجوا تظاهر بأنه أبعد مجموعة صغيرة من الفرنسيين أبقاهم في قبرص ، بينما أبعد معظم أبناء الجمهوريات وأشار لذلك متى باريس قائلاً :

" أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة (٣)كان من بينهم بنادقة وبيازنة وجنويين وكذلك بعض الفرنسيين " (٤) ، ثم أسهمت الجمهوريات الثلاث بإيصال الحملة الصليـــبية من قبرص إلى شواطئ دمياط (٥) ، وبعد استيلاء لويس التاسع على دمياط حصلت الجمهوريات الايطالية على نصيبها من الغنائم ، فحازت كل واحدة سوقاً وشارعاً في دمياط مكافأة على الجهود التي بذلتها في مساعدة لويس التاسع ، وبقيت تلك الجمهوريات في دمياط لإدارة مصالحها التجارية ، ولم تشارك لويس التاسع في الهزائم التي نزلت بحملته في المنصورة وفارسكور(٦) ، وعندما علمت أن الجيش الصليـــبي وقع في الأسر أرادت مغادرة دمياط خوفاً على مصالحها التجارية وأملاكها ، فتوسلت الملكة مارغريتْ زوجة لويس التاسع إلى ممثلي الجمهوريات للبقاء لعلها تفاوض المسلمين على إطلاق سراح لويس التاسع والأسرى الصليـــبيين مقابل دمياط ، فقدَّمت المئونة على حسابها الخاص لهم حتى ثبّتوا معها (٧) ، وقد احتاج لويس التاسع لمبلغ من المال من أجل دفع الفدية للمسلمين ،

---

(١) باريس :الموسوعة ، ج٤٨، ص١٠٥٨ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٠٥٧-١٠٥٨ ؛ رنسيمان : ج٣ ،ص٤٤٢-٤٥٣ .

(٣) القوس الزيار :آلة ثقيلة مخصصة لرمي السهام الكبيرة .الطرسوسي ، مرضي : موسوعة الأسلحة ، دار صادر ، ط١،بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ص١٢٣-١٢٦ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٢٠٢ .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص١٠٤ ؛ زيادة : ص٩٤-٩٨ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة،ج٥٨ ، ص٤٥٣ ؛ يوسف ، جوزيف : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دار شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٩٣ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٠ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٢٧ .

فاستقرضه من جنوه وبيزا (١) ، وسلم الصليـــبيون دمياط ، ثم عاد لويس التاسع والأسرى الذين أُطلق سراحهم على متن سفينة جنوية (٢) إلى عكا ، وعادت الجمهوريات الايطالية إلى مواقعها في بلاد الشام ، وقد تناثرت أملاكها على طول الساحل الشامي حيث تواجدوا في أنطاكية واللاذقية وطرابلس وعكا وصور (٣) ، وكان لها أحياء خاصة بها يمكن تسميتها (بالقومونات) لأنها أُديرت من قبل ممثلين أرسلتهم المدن الأم في إيطاليا ، وقد حملوا لقب فِيكونتْ (Viconte) أي نائب الكونت أو بايلْ (Baile) وتعني القنصل ، حيث تولى ذلك القنصل السلطة في تلك القومونات ، وكان أولئك القناصل مستقلين عن ملوك عكا ، ولكنهم كانوا مسؤولين أمام السلطات المحلية عن كل ما يصدر عن أبناء جالياتهم من مخالفات ، و لم يتجاوز عدد سكان القومون لكل جمهورية ايطالية بضع مئات ، و لم تعتمد قوة الجمهوريات على عدد أبنائها إنما اعتمدت على قوتها الاقتصادية (٤) ، وامتهن أبناء الجاليات الايطالية الصناعة والتجارة ، فأسسوا الفنادق ، ووسعوا الأسواق ، وأنشؤوا الطواحين والمخابز (٥) ،واشتهرت الجمهوريات الايطالية بتجارة المنسوجات الحريرية والتوابل وجوز الطيب والزنجبيل (٦) ،والحديد والأسلحة والدروع والرقيق (٧) ،وقد امتدت علاقاتها التجارية من بلاد الشام شرقاً إلى أوربا غرباً (٨) ،كما أقامت علاقات تجارية طيبة مع المسلمين في بغداد ودمشق وحلب ومصر (٩) ،

---

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص٣٣١ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p493 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٨٣ .

(٣) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٠٣ ؛. رنسيمان : ج٣ ، ص٦١٠ ؛ Weill, Raymond: la phenicie et l,asie occidentale , paris , 1939 , p142-143 .

(٤) غروسيه :الحروب الصليـــبية ، ص١٠٥-١٠٦ ؛ زيتون ، عادل : أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البُندُقية ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد٢ ، ١٤٠٠هـــ/١٩٨٠م ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ براور : الاستيطان الصليـــبي ، ص١١٥-١١٧.

(٥) زيتون : جمهورية البُندُقية ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ توفيق ، عمر : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، دار شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٦م ، ص٨٥ .

(٦) رنسيمان : ج٣ ، ص٦١١ ؛ غروسيه : ص١٠٥-١٠٦ .

(٧) زيتون : جمهورية البُندُقية ، ص١٤٥ .

(٨) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٠٣ ؛ كوكتون ، ج: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تر : جوزيف يوسف ، دار المعارف ، ط١، الإسكندرية، ١٣٨٤هـــ/١٩٦٤م ، ص١٦٦ ؛ Weill : op . cit , p142-145 .

(٩) زكار ، سهيل :مدخل إلى تاريخ الحروب الصليـــبية ، الموسوعة الشامية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـــ/١٩٩٥م ، ج٣ ، ص٤٠٩ .

ويلاحظ أن المشروع الصليبي لم يكن هدفها الأساسي، إنما كان هدفها جمع الثروات والكسب المادي إذ كانوا أكثر حرصاً على المال والربح المادي ، وتمتين علاقاتهم التجارية مع المسلمين ومع الصليبيين (١) ، ولم يكن البابا أنوسنت الرابع راضياً عن علاقتها التجارية مع المسلمين لكنها لم تكن آبهة بتلك المعارضة بل اتصفت بالعناد والتشدد في موقفها لأن معظم علاقاتها التجارية كانت مع المسلمين ، وإذا ما قاطعت المسلمين ، فإن مصالحها التجارية مآلها إلى الارتباك والاضمحلال (٢) ، كما أن لويس التاسع لم يرض عن علاقاتها الودية مع المسلمين بل رفض تعاملها معهم بشكل قطعي إلا إذا أدى ذلك التعامل إلى خدمة الكيان الصليبي (٣) ، ولكنه لم يحاول الاصطدام مع تلك الجمهوريات الإيطالية لسببين وهما :

أ ـ أمنّت الجمهوريات المواصلات البحرية للكيان الصليبي مع الغرب الأوربي (٤) ، كما وفرت له معظم المستلزمات الاقتصادية التي احتاج إليها (٥) .

ب ـ أراد لويس التاسع التخفيف من نقمة الجمهوريات عليه بعد أن استثنى الآلاف من أبنائها من المشاركة في حملته الصليبية وأبقاهم في قبرص ، فتحولوا إلى قراصنة في البحر المتوسط ضد السفن الفرنسية بشكل خاص ، لكن ذلك الغضب ما لبث أن تلاشى عندما لم يساند لويس التاسع البابا في اتخاذ موقف صارم للحد من النشاط التجاري للجمهوريات مع المسلمين (٦) .

وهذا ما أجبر لويس التاسع على غض طرفه عن علاقة الجمهوريات مع المسلمين ، ولاسيما بعد التزامها الهدوء طيلة مدة وجوده في مملكة عكا ، وقد أدرك أن الجمهوريات عدّت السيطرة التجارية على أسواق العالم بالنسبة لها هي مسألة حياة أو موت ، وإذا اصطدم معها

---

(١) رنسيمان : ج٣، ص٥٩٩-٦١١ ؛ غروسيه : ص١٠٥-١٠٦. زيتون :جمهورية البُندُقية ، ص١٣٥-١٤٤ ؛
Setton : op . cit , volume2 , p565-569 .

(٢) رنسيمان : ج٣ ،ص٦٠٣-٦٠٩ ؛ زيتون :جمهورية البُندُقية ، ص١٤٥ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٨ .

(٤) دوبوا : الموسوعة، ج٣٦ ، ص١٠٢-١٠٣ ؛ مونرود : ج٢ ، ص٣٣١ .

(٥) غروسيه : ص١٠٥-١٠٦ ؛ يوسف عبد القادر :العلاقات بين الشرق والغرب ،ص ٧٩-٨٦ ؛ توفيق : ص٨٥-٨٧ ؛
Weill : op . cit , p144-147 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٢٠٢-١٢٠٣ .

عمت الفوضى في المملكة اللاتينية ، وضعفت القوة الصليبية أمام المسلمين (١) .

وعلى هذا أصبحت الجمهوريات الايطالية قوى غنية تعارضت مصالحها أحياناً مع طموحات لويس التاسع والبابا ، ولكن لويس التاسع لم ينظر إلى سلبياتها فقط بل نظر أيضاً إلى ايجابياتها ، فوجد أنه بدونها قد تحدث أزمة اقتصادية ومجاعة في مملكة عكا ، فأخذ بمسايرتها ، وخشي من الاصطدام معها، ولو أنه في قرارة نفسه لم يكن مطمئناً لها وراضياً عنها ، ولكن رأى بأن التجارة مقدّسة لديها ، فتظاهر أنه راض عنها تفادياً للخلافات معها ، ويكفي أنها أمدت الكيان الصليبي بالمستلزمات الغذائية والأسلحة (٢) .

(١) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧١ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٥٧-١٢٠٢ ؛ رنسيمان : ج٣ ،ص٦٠٣-٦١١ .

٣_ التسلح الصليـــبي في عهد لويس التاسع .

اقتضت ضرورات الأمن والدفاع أن يهتم لويس التاسع بالتسلح الصليـــبي ، فالسلاح عاملٌ أساسيٌ في المعركة بل إن إحراز النصر يتوقف أحياناً على تنوع الأسلحة وجودتها ، وقد كانت الحروب المستمرة بين المسلمين والصليـــبيين من أهم الأسباب التي أدت لتطور الأسلحة (١) ، حيث تنوعت مصادر التسلح الصليـــبي في عهد لويس التاسع ، ومن أهم مواردها ما يلي :

_ **الغنائم** : استفاد الصليـــبيون من الأسلحة التي غنموها من المسلمين ، فعندما استولوا على دمياط سنة ٦٤٧هـــ/١٢٤٩م عثروا فيها على الكثير من الأسلحة والذخائر ، لأن الصالح نجم الدين أيوب كان قد شحنها بأفضل أنواع الأسلحة (٢) ، كما استولوا على أسلحة الجيش الأيوبي أثناء مهاجمته جنوب أشموم طناح ، ولم تكن الأسلحة التي غنموها من المسلمين أقل جودة من أسلحتهم (٣)،ومن أهم أنواع الأسلحة التي حصلوا عليها المجانيق والأبراج والكباش والسيوف والتروس والدروع(٤).

_ **الأسلحة الأوربية**: أتت الحملة الصليـــبية السابعة وهي مدججة بأحدث أنواع الأسلحة الأوربية (٥)، ولم يكن البابا أنوسنت الرابع لِيُرسل تلك الحملة إلى الشرق دون إمدادها بالأسلحة ، فإثر وصول لويس التاسع إلى عكا سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م أرسل أخويه إلى البابا لإمداده بالأسلحة (٦) ،وقد تولت المنظمات العسكرية الصليـــبية مهمة نقل الأسلحة والعتاد من ملوك أوربا والبابا إلى مملكة عكا ، وغالباً ما أتتهم على شكل هبات (٧) ، وأحياناً تم شراؤها من الجمهوريات الايطالية ، وقد كان تجار الجمهوريات من أكبر صناع وتجار الأسلحة ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٥ ؛ كريستوفر : : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٧٤-٧٥.

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٥ ؛ المقريزي :السلوك، ج١ ، ص٣٣٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٣٦ ؛
Brellier : op . cit , p224-225 ; Michaud : op . cit , volume 4 , p451-453 .

(٣) ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٥ .

(٤) ابن واصل : ج٦، ص٧٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٣١ ؛
Encyclopaedic history of wourld civilization , New delhi , 1992 , volume16 , p102-104 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٣-٥٨ ؛
smith , Jonathan : les croisades , paris , 1990 , p183-185 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٦٣ .

(٧) براور : الاستيطان الصليـــبي ، ص٣٣٦ .

حيث كسبت جنوه شهرة عالمية بصناعة الدروع الجنوية في ذلك الحين (١) .

_ **صناعة الأسلحة** : لم يعتمد لويس التاسع على ما وصله من أسلحة أوربية فحسب ، إنما فضَّل تصنيع الأسلحة في مملكة عكا ، فحول عكا إلى مركز لصناعة الأسلحة الثقيلة والخفيفة ، كما أوجد في صفد مركزاً آخر لصناعة القسي والسهام وآلات الحصار (٢) ، واهتمت أنطاكية وطرابلس بصناعة الأسلحة الخفيفة أيضاً ، وذكر جوانفيل بأن لويس التاسع قد أرسل أحد الجنود الذين دخلوا في خدمته ويدعى جون الأرمني إلى دمشق ، لشراء مادة الغراء لاستخدامها في صناعة الأسلحة (٣) ،كما حصلوا على الأخشاب من غابات جبال لبنان لأن الخشب المادة الأساسية في صناعة الأسلحة (٤) ،وبذلك استطاع لويس التاسع تأمين الأسلحة اللازمة للجيش الصليـبي .

تنوعت وتعددت الأسلحة الصليـبية في عهد لويس التاسع ، ويمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية:

أ_ **الأسلحة الخفيفة** : وهي الأسلحة الفردية التي حملها الفرسان والمشاة على حدٍ سواء كالسيف والرمح والحربة والقوس والبلطة (الفأس الحربية) والهراوة (العصا) والخنجر (٥) ، ومن أهم الأسلحة الفردية الخفيفة ما يلي :

_ **السيوف** : السيف هو من الأسلحة الجارحة والقاتلة التي استخدمها الفرسان والمشاة ، وقد تميزت السيوف الصليـبية بصلابتها (٦) ، وتنوعت الأذواق الصليـبية في حمل السيوف فاستعمل بعضهم السيوف الطويلة حتى أن كبار رجال الصليـبيين كانوا يتباهون بحمل السيوف الطويلة (٧) ، بينما حمل قسم آخر منهم السيوف القصيرة المستقيمة (٨) ، وتميز السيف الطويل بثقل وزنه ،

---

(١) كاهن : ص٢٢٦ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص٧٤-٧٥ ، ١٧٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٥-١٩٢ .

(٤) ابن بطوطة ، محمد : رحلة ابن بطوطة ، دار الرسالة ، ط١، دمشق ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ص٦٥ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٣-١٩٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٧-١٩٣١ .

(٦) بيشوب ، موريس : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، تر : علي علي ، طباعة المجلس الأعلى للثقافة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ص٩١ ؛ Labrune et Toutain : op . cit , p37 .

(٧) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٤٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ .

(٨) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣ ، ص١٣٢ .

بينما اتصف السيف القصير بوزنه الخفيف لكنه أجبر صاحبه على الاقتراب بشكل أكبر من خصمه ، وهذا ما عرَّضه للخطر ، مما جعل بعض الصليـــبيين يستخدمون السيوف اليمنية التي امتازت بطولها المتوسط وخفة وزنها ، ويُحتمل أنهم اشتروا تلك السيوف من تجار الجمهوريات الايطالية (١) .

_ **الرماح** : استخدم الصليـــبيون الرماح الطويلة أكثر من الرماح القصيرة ، وبشكل عام صُنعت من الخشب القاسي ، أما أسنتها (مقدمتها) فصُنعت من الحديد على شكل مدبب (٢) ، واستعمل الفرسان الرماح أكثر من الرجالة لأنه أيسر استعمالاً للفارس من الراجل ، فعندما نزل الصليـــبيون على شاطئ دمياط ظهر لويس التاسع وهو يحمل رمحاً تحت إبطه لاختراق صفوف خصومه (٣) ، وأثناء الهجوم الصليـــبي على المسلمين جنوب أشموم طناح استخدموا الرماح أكثر من غيرها ، وذلك من أجل ضرب التجمعات ، وإلحاق الأذى فيها ، كما لفوا أسنة الرماح بالقماش المبلل بالمواد المشتعلة أحياناً من أجل إشعال الحرائق و حرق الأشخاص أيضاً (٤) .

_ **القسي الفردية** : القوس عبارة عن عود من الخشب اللين يثبت عليه وتر من الجلد (٥) ، وقد عُرف بالقوس النشاب الذي أُستخدم في رمي السهام الخشبية البسيطة (٦) ، كما عرفوا نوعية أخرى سُميت بقوس الزنبورك (٧) ، وهو أكثر تطوراً من سابقه حيث تم تزويده بمجراة (نفق) ، مما أعطى دقة في التصويب لأنها حددت مساراً محدداً للسهم ، ووصل طول السهم حوالي نصف متر ، وسماكته بسماكة الإبهام ، وله رأس حديدي أحياناً وفي بعض الأحيان تم وضع الريش في نهايته لتثبيته في الفضاء (٨) ،

---

(١) النقاش ، زكي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليـــبية ، دار الكتاب اللبناني، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م ، ص١٦٢ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ،الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٥-١٩٢٧ ؛ بيشوب : ص٩١ ؛ Labrune et philipp : op . cit , p37 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص٦٩ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٣٣ .

(٥) هندي ، إحسان : الحياة العسكرية عند العرب ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ، د.ت ، ص٩٧-٩٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٢-١٨٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٠٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٣٣ ؛ Nicolle : op . cit , p318.

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٠٧ .

(٨) هندي ، إحسان: الأسلحة وآلات القتال عند العرب المسلمين في القرون الوسطى ، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م ، ص١٨١-١٨٢ .

وأنشأ لويس التاسع إثر وصوله إلى عكا فرقة خاصة أجرى لها الدورات التدريبية على الرمي بقسي الزنبورك (١) ، كما استعملوا القوس العقار (٢) أما العقار فخصص لرمي النيران والقوارير النفطية بواسطة السهام (٣) ، و لم تكن عكا مركزاً لصناعة القسي العقارة فحسب بل أنفق لويس التاسع تسعة وثلاثين ألف ليرة ذهبية على فرقة رماة القسي العقارة في صفد (٤) ، و لم يبدِ لويس التاسع عناية بالأسلحة الخفيفة فقط بل حظيت الأسلحة الثقيلة بجزء من اهتماماته .

ب_ **الأسلحة الثقيلة** :تحتاج لمجموعة من المقاتلين لحملها واستخدامها ، وغالباً ما تطورت عن الأسلحة الخفيفة ، ومن أهم الأسلحة الثقيلة لدى الصليـــبيين ما يلي :

_ **المجانيق** : لم تختلف المجانيق الإسلامية عن الصليـــبية من حيث بنية المنجنيق الذي هو عبارة عن آلة لها ذراع ، وفي نهايته كفة لوضع المقذوف (٥) ، ويُعد أعنف اشتباك بالمجانيق بين المسلمين والصليـــبيين عندما كان المسلمون جنوب أشموم طناح والجيش الصليـــبي شماله حيث انهالت الضربات من كلا الطرفين بالمقذوفات الحجرية (٦) ، والنفوط (النيران الإغريقية) (٧) ، وعلى ما يبدو أن المسلمين كانوا أكثر مهارة من الصليـــبيين في استخدام المنجنيق لأنهم أحدثوا أضراراً كبيرة في المعسكر الصليـــبي ، مقارنة مع الأضرار البسيطة في معسكر المسلمين ، مما جعل لويس التاسع يأمر عمال الهندسة ببناء آلات جديدة للتصدي لضربات المسلمين والرد عليهم (٨) ، وبشكل عام فقد احتاج ذلك المنجنيق حوالي خمسة عشر رجلاً لتشغيله ، وغالباً ما كان المقذوف حجارة أو نفوط قارب وزنها مائة وخمسين كيلو غرام ، ووصلت إلى مدى أقصاه مائة وخمسين متر (٩) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٥-١٩٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٥ ؛ كريستوفر : الموسوعة ج٨٣ ، ص٧٤ .

(٣) الطرسوسي : ص١٢٣-١٢٦ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٤ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٥ ؛ هندي : الحياة العسكرية ، ص١٣٠-١٣١ ؛

The new encyclopedia Britannic, Paris and London and Tokyo, volume 29, p536-538.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٤٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ .

(٧) النار الإغريقية : صنعها المهندس السوري كالينيكوس للإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٤٨-٦٦هـ/٦٦٨-٦٨٥م) ، لمواجهة الحصار الإسلامي للقسطنطينية ، وهي تتألف من مزيج من النفط والزيت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . يوسف : العدوان الصليـــبي على مصر ، ص١٥٦ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٨١ .

(٩) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٣١٤-٣١٥ .

_ **الأبراج القتالية** : أُطلق عليها الدبابة والزحافة والقطة والسنور(١) ، وكل هذه المسميات تدل على مسمى واحد ألا وهو البرج الحربي (٢) ، وخير مثال على تلك الأبراج ذلك البرج الذي أمر لويس التاسع بإنشائه شمال أشموم طناح لتأمين الحماية للمهندسين الذين أرادوا إنشاء جسر على أشموم طناح ، ولكن نيران المسلمين التهمت ذلك البرج ، فأمر لويس التاسع بإنشاء برج آخر ، فكان مصيره كسابقه (٣) ، أما عن آلية عمل البرج فيلاحظ أنه انقسم إلى طوابق عديدة تعلو بعضها بعضاً ، وقد خصص القسم السفلي للنقابين الذين اختصوا بتفكيك حجارة التحصينات ، وغالباً ما استخدموا رأس كبش (٤) ، عُلق بسلاسل في سقف البرج ، وإلى جانب النقابين وُجدت فرق الألغام التي كانت تحفر الأنفاق، وتشعل الحرائق داخل المناطق المحاصرة ، بينما اتخذ الرماة من الطابق الثاني مقراً لهم ، وربما إلى جانبهم مجموعة من عمال الإطفاء ، أما القسم العلوي من البرج فخصص للمراقبة ، وتوجيه الأوامر إلى الرماة ، وتم تزويد البرج بجسر متحرك للنـــزول إلى داخل الأماكن المحاصرة ، وبذلك جمع الصليـــبيون عدة آلات في آلة واحدة أدت العديد من المهام (٥) .

_ **القسي الثقيلة** : طوَّر الصليـــبيون القسي الفردية إلى قسي ثقيلة ، وقد اتخذ لويس التاسع من عكا مقراً لصناعة القسي الثقيلة والتدريب عليها (٦) ،وقد عرفوا القسي الزيارة التي أخذوها عن المسلمين ، وسموها بالقسي الزيارة أو القسي الكبيرة (٧) ، ولا تشير المصادر الصليـــبية إلى التفاصيل الدقيقة حول هذه النوعية من القسي ، ولكنها لا تختلف عن القسي الزيارة الموجودة لدى المسلمين بما أنهم أخذوها عنهم ،وقد أوضح الطرسوسي بأنها آلة ثقيلة ثابتة لرمي السهام الكبيرة (٨) ،كما عرف الصليـــبيون

---

(١) يُنظر الشكل رقم (٤) ، ص٣١٣.

(٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٣٤٦-٣٤٨ .

(٣) المقريزي : السلوك،ج١ ، ص٣٨٤ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١١٤-١١٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٠-١٩٢٣ .

(٤) رأس الكبش : عمود من الخشب طوله حوالي عشرة أمتار ، ويحمل في مقدمته رأس من الحديد على شكل رأس الكبش ، وإذا ما أرادوا هدم جدار معين أرجحوا العمود ، وصدموه بالجدار حتى ينهار . هندي : الحياة العسكرية ، ص١٤٦-١٤٧ .

(٥) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٣٤٦-٣٤٨ ؛ هندي : الأسلحة ، ص٢٢٦ ؛
The new encyclopedia Britannic : op . cit , volume29 , p538 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٥ .

(٧) هندي : الحياة العسكرية ، ص١٢٤ .

(٨) الطرسوسي : ص١١٨-١٢٣ .

نوعاً آخر من القسي شبيه بالقسي الزيارة ، ولكنها أصغر منها حجماً سُميت قوس الجرخ ، وخصصت لها سهام أصغر من سهام القسي الزيارة (١) ،واستخدموا أيضاً القسي العقارة (٢) ، وهذه النوعية خصصت لرمي القوارير النفطية والقدور النارية (٣) ، وبذلك تنوعت الأسلحة الثقيلة لدى الصليـــبيين ، وبلغت شأناً كبيراً ، وقد اعتقدوا بأنها قادرة على تأمين الحماية لهم .

د_ **أسلحة الوقاية** : وهي الأسلحة التي استخدمها الصليـــبيون لحماية أنفسهم ، وأظهروا اهتماماً بها أكثر من الأسلحة الهجومية ، وذلك بسبب خوفهم الشديد من الموت ، ومن أهمها ما يلي :

_ **الخوذ** : إن الرأس هو الجزء الأكثر عرضة للخطر من الجسم ، وقد تنوعت الأذواق الصليـــبية في استعمال الخوذ ، فوضع بعضهم قلنسوة من الزرد غطت الرأس والعنق مع قبعة فولاذية تحتها كالتي لبسها جوانفيل في بلاد الشام (٤) ، بينما استخدم فرسان آخرون خوذة عريضة سميت خوذة القدر ، ومن المحتمل أن لويس التاسع لبس خوذة اسطوانية عُرفت بخوذة وعاء الغلي ، وهذا النوع من الخوذ كان على نوعين إما أن تكون الخوذة قطعة واحدة ، ولا يظهر منها سوى عيني الفارس ، أو أن تكون مُزودة بقناع متحرك يغطي الوجه ، وهذه تُمَكن الفارس من رفع الغطاء عندما يريد استنشاق الهواء الصحي ثم إعادة القناع ، كما أن لويس التاسع ارتدى التاج فوق قلنسوة حديدية ، و لم يرتدِ الجنود الصليـــبيون الخوذ فحسب بل ألبسوا أحصنتهم خوذاً حديدية لم يظهر منها سوى عينا الحصان (٥) .

_ **التروس** : الترس آلة تُحمل باليد تقي الفارس ضربات السيوف والسهام والرماح والحجارة (٦) ، وقد صُنعت التروس من الحديد والفولاذ ، وأخذت أشكالاً عديدة منها البيضوي والمستطيل (٧) ،

---

(١) مجهول : منظومة نونيه في شرح علم الفروسية ، رقم المخطوط ٣٤٦٥٩ ، مكتبة الأسد ، دمشق ، ورقة ٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٧٢ .

(٣) الطرسوسي : ١٢٣-١٢٦ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٠ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٣٠ ؛ بيشوب : ص٩٣ .

(٥) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣،ص١٣٠-١٣١ ؛
Encyclopaedic history of world civilization , volume16 , p102-105 .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٩٧-٩٨ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٤٠ ؛ الطرسوسي : ص١٤٧-١٤٨ ؛
Nicolle : op . cit , p318-319 .

(٧) هندي : الحياة العسكرية ، ص٧٠-٧١ .

بينما حمل لويس التاسع ترساً مثلث الشكل ، وهو من أكثر التروس شيوعاً في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ،لمتانته وخفة وزنه (١)، وأخذ المسلمون عن الصليبيين نوعية من التروس سميت طاريقا مستطيلة الشكل (٢)،وغدت التروس أداة فعالة لصد الضربات عن الفارس وعن حصانه إذا أمكنه ذلك .

ــ **الدروع** : أكثر الصليـــبيون من لبس الدروع ، وقد أخذوا لبس الدروع عن المسلمين ، واشتهرت لديهم الدروع الجنوية (٣) ، حيث ظهر لديهم نوعان من الدروع بدا النوع الأول على شكل صفائح معدنية غطت الجسم بشكل كامل ، وأحياناً عدا الظهر(٤) ، أما النوع الثاني فعُرف بالسوابغ أو الزرديات ، وهو على شكل قميص صُنع من الزرد فغدا أشبه بحراشف السمك ، وغالباً ما ارتدى الفارس الصليـــبي معطفاً خارجياً فوق دروعه (٥) وقد ظهر لويس التاسع مع جنوده في لوحه مرتدياً قميصاً من الزرد ، ووضع صفائح واقية على ركبتيه (٦) ، وبشكل عام أكثر الصليـــبيون من لبس الدروع حتى أن رُوبرتْ كونت أرتوا كاد أن يغرق أثناء عبور أشموم طناح لكثرة دروعه ، فأنقذوه ، ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذ حصانه الذي غرق في الماء (٧) ، ولم يكن رُوبرتْ هو الوحيد الذي أكثر من لبس الدروع بل معظم الفرسان الصليـــبيين كذلك، مما أفقدهم سرعة الحركة ، وقد اعتادوا في أوربة على ارتداء الدروع الثقيلة ، ولم يكن لها تأثير كبير عليهم لأن بلادهم معتدلة الحرارة وعلى الأغلب مناخها بارد ، فلما جاؤوا إلى الشرق واصطدموا مع المسلمين ، عانوا من كثرة الدروع التي أدت لارتفاع حرارة أجسادهم ، وبخاصة في فصل الصيف الحار الذي تميزت به مصر وبلاد الشام .

---

(١) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٣٢ .

(٢) كاهن : ص٢٢٦ .

(٣) حتي ، فيليب :تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، تر : كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت ،١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ج٢ ، ص٢٥١ .

(٤) يُنظر الشكل رقم (٦) ، ٣١٥.

(٥) كاهن : ص٢٢٦ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٢٩ ؛
Tate , Jeorges: L ,orient des croisades ,1991 , p158-160 .

(٧) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣،ص١٣١ .

وعلى هذا حصل لويس التاسع على أحدث أنواع الأسلحة في عصره ، وجهز الجيش الصليـــبي بترسانة عسكرية لا يستهان بها ، ولكن المشكلة لا تكمن في السلاح ، إنما فيمن استخدم السلاح ، أي في الفارس الصليـــبي الذي خاف من الموت ، وهذا أمر بديهي ، فهو في النتيجة مُعتدٍ ومُحتل (١) ، مما جعله يُكثر من لبس الدروع وحمل الأسلحة حتى بدى وكأنه رجل حديدي طالما أنه على ظهر حصانه ، وما إن يسقط من على جواده حتى يموت خوفاً ، لأنه يدرك اقتراب منيته ، وقد حاول لويس التاسع أن يصنع من أولئك الصليـــبيين رجالاً أشداء ، وأن يجعل من مواقعهم معاقل حصينة منيعة تتحدى الصعاب (٢) .

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٣-١٦٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٨١-١٩٥٥ .
(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٣٨-١١٣٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣،ص١٣٤-١٣٦ .

٤_ التحصينات والدفاعات

خشي لويس التاسع على المملكة اللاتينية التي أحاط بها المسلمون من الجوانب كافة ، و لم يبق لهم منفذ سوى البحر ، فحاول تعزيز دفاعاتها حتى غدت المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين فائقة التحصين ، وتمتعت بقدرات دفاعية عظيمة أملاً بأن تكون في حالة تأهب للدفاع والهجوم ضد أي قوة إسلامية ، وبدأ لويس التاسع بأعمال التحصين منذ وصوله إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، واستمر طيلة مدة وجوده هناك ، وبادئ ذي بدء أخذ بتحصين عكا عاصمة الكيان الصليبي (١).

_ **تحصين عكا** : تربض مدينة عكا على تلة مرتفعةٍ في منطقةٍ زراعيةٍ خصبةٍ ، اتخذت شكل مثلث أشرف ضلعان منه على البحر بينما امتد الثالث على اليابسة ، فأعطاها ذلك الموقع أهمية إستراتيجية (٢)، و لم يكن سيد مدينة عكا يُوحَنا بن حنا بريين (٣) مُبالياً بأوضاع مدينته التي غدت مسرحاً للفوضى (٤) ، بينما شعر لويس التاسع بضرورة تحصين عاصمة الصليبيين ، فبدأ بترميم أسوارها،ثم عززها بمجموعة من الأبراج امتدت على طول الأسوار ، والغاية من الأبراج تمتين الأسوار ، كما أُستخدم القسم السُفلي من تلك الأبراج لحفظ المئونة والمعدات القتالية ، أما القسم العلوي فخصص للمراقبة ، كما زَود الأسوار والأبراج بمزاغِل (فَتَحاتْ) خُصصت لرمي السهام والنيران إذا ما حوصِرت المدينة ، ثم أمر بحفر خندق أحاط بالأسوار ، وعلى الأغلب كان يُملأ بالماء ، لإبعاد المهاجمين عن أسوار المدينة (٥) ،وأما ميناء عكا فبني على بوابته برجان ، ومُد بينهما سلسلة حديدية (٦) ،

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٣٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ ؛
Fedden , Robin : crusaders castles , London , 1955 , p27 ; Lawrence , T . E : crusader castles , London, 1992 , P53-57.

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٤٢-٢٤٣ ؛ ابن بطوطة ، محمد : رحلة ابن بطوطة ، دار الرسالة ، ط١،دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ص٤٥ .

(٣)يُوحَنا بريين : هو شقيق الإمبراطورة ماري زوجة إمبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني ، وقد تزوج يُوحَنا سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م من جين صاحبة قلعة مونتفورت (القورين) الواقعة شمال حيفا . دي نوفارا : الموسوعة ، ج٣٤ ، ص ١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩١ .

(٤) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩١ .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية،الموسوعة ج٣ ، ص٤٠٨-٤٠٩ ؛ Smail , R . S: the crusaders , Cambridge , 1973 , p73 .

(٦) زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،الموسوعة ج٣ ، ص٤٠٨-٤٠٩ .

حتى غدت عكا بحصانتها " تشبه قسطنطينية العظمى " (١) ، بعد أن استغرق لويس التاسع في تحصينها زهاء عشرة أشهر منذ شهر صفر سنة ٦٤٨- شهر محرم ٦٤٩هـ /شهر أيار عام ١٢٥٠ - حتى أواخر شهر آذار من عام١٢٥١م (٢) .

_ **تحصين حيفا** : انطلق لويس التاسع من عكا جنوباً إلى قيسارية ، ومن المحتمل أنه مرَّ في طريقه على حيفا إحدى المدن الواقعة تحت سيطرة الفرنجة(٣) ، و لم يُطل الإقامة فيها لأنها كانت حصينة ، فبحث عن مناطق الضعف فيها ، ورممها على وجه السرعة ، ثم تابع سيره إلى قيسارية (٤) .

_ **تحصين قيسارية** : وصل لويس التاسع إلى قيسارية في شهر صفر سنة ٦٤٩هـ/أيار ١٢٥١م وأمضى فيها قرابة عام (٥) ، وقيسارية هذه إحدى موانئ فلسطين التي تتميز بحصانتها ، وقد أطلق الصليبيون عليها قيسارية البحر (٦) ، وحُكمت آنذاك من قبل جون (يُوحَنا) أليمان (Jean Aleman) (٧) ، الذي استقبل لويس التاسع وجيشه عندما حلوا ضيوفاً عليه، و لم يصطحب لويس التاسع الجيش معه محارباً ، إنما من أجل تحصين قيسارية ، وهذا يدل على أن لويس التاسع اعتمد على جنوده في أعمال التحصين فضلاً عن مساعدة المتطوعين من الصليبيين (٨) ، وأخذ لويس التاسع في البحث عن مناطق الضعف في تحصينات قيسارية ، فأمر بحفر خندق أحاط بالمدينة من جهة الشمال والشرق والجنوب ، بينما كان البحر حارساً للجهة الغربية .

---

(١) ابن بطوطة : ص٤٥ .

(٢) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩١ .

(٣) يُنظر المصور رقم (٧) ، ص٣٠٦.

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٣٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٣-٢٩٤ ؛ عطية : ص٣٨٨ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , 506-507 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٠٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٧ .

(٦) ابن شداد ، عز الدين محمد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تح : سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦٣م ، ص٢٥٠ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(٧) يُوحَنا أليمان : استلم حكم قيسارية سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وشارك في الأعمال الصليبية بشكلٍ عام ، ولكن إثر رحيل لويس التاسع إلى فرنسا اضمحل نفوذه ، وهاجم الظاهر بيبرس قيسارية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م حيث فرض الحصار عليها ، فهرب يُوحَنا ورجاله من أحد منافذ قيسارية السرية ، فاستولى بيبرس وجنوده عليها ، ثم دمروها . العيني : الموسوعة ، ج٦٠، ص٨٠٥؛ رنسيمان : ج٣ ، صفحات متفرقة .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ .

فضلاً عن وجود القلعة بالقرب من الشاطئ في الغرب (١) ، ثم أحاط المدينة بأسوار عالية وأبراج ضخمة ، مستخدماً في بنائها حجارة مصقولة مربعة الشكل، واستهدف من الأبراج تدعيم الأسوار (٢) ، ولم يكتف بذلك بل وضع ضمن الأسوار أعمدة رخامية وغرانيتية على شكل صليب ، وعبّر عن ذلك المقريزي بقوله :

قام " بتصليب العمد في بنيانها حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا علقت " (٣) ، وبدت أسوار المدينة شديدة الانحدار ذات شكل مائل كي لا يستطيع المهاجمون تسلقها إذا ما اجتازوا الخندق (٤) ، وأصبح عدد الأبراج كما أشار صاحب ذيل رونلين قائلاً : " أحاط (لويس التاسع) المدينة بسواتر دفاعية وبستة عشر برجاً " (٥) وقد نظم الأبراج حسب امتداد السور ، فشيد ثلاثة أبراج على السور الشمالي ، وتسعة على السور الشرقي ، وأربعة على السور الجنوبي (٦) ،وأنشأ لويس التاسع المزاغل (كوى الرمي) في الأسوار والأبراج ، فأكثر منها لاستخدامها في الدفاع عن المدينة من خلال ضرب المُهاجمين لها من تلك المزاغل (٧) ، وترك للمدينة بابين رئيسيين أحدهما في الشمال ، والثاني في الجانب الشرقي ، كما أنشأ أبواباً سرية للضرورة (٨) ، وتوجب على من أراد الدخول من أحد الأبواب الرئيسية اجتياز الخندق ، وذلك من خلال جسر متحرك نُصب عليه أمام الباب ، وقد رُبط الجسر المتحرك بسلاسل حتى يتمكنوا من نصبه على الخندق ، ورفعه عند أي هجوم على المدينة ، وفي هذه الحالة يمكن احتجاز الجنود المُهاجمين ، وأخذهم على حين غرة ،

---

(١) باريس : الموسوعة، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٥٠ ؛
Grousset: op . cit , volume3 , p504 .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ،ص١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ ؛ حسين عبد الوهاب، حسن : تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص١٩٦ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٢٦ .

(٤) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٤٢-١٥٧ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام ، ص١٩٦ .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ .

(٦) حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام ، ص١٦٩ .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام ، ص١٩٦ .

(٨) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٥٤ .

فيما إذا وقفوا على الجسر (١) ، وبعد عامٍ من العناء غدت قيسارية قوية بأسوارها منيعة بحصونها (٢) وأشار ابن العبري إلى أن لويس التاسع إثر تحصينها أسكن فيها جماعة دون أن يحدد هويتها ، ومن المحتمل أن لويس التاسع ترك حامية عسكرية فيها للدفاع عنها (٣) ، ثم قرر لويس التاسع شدّ الرحال نحو يافا .

ـ **تحصين يافا** : يافا مدينة ساحلية من أعمال فلسطين تقع بين عكا وغزة ، وفيها ميناء كبير ومرسى للمراكب البحرية (٤) ، وتولى حاكم يافا يُوحَنا إبلين (٥) تحصين قلعة يافا ، وركّز جل اهتمامه عليها، وعندما وصل لويس التاسع إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/أيار ١٢٥٢م ضرب خيامه حول قلعة يافا وعسكر مع رجاله ، وأُعجب بحصانة القلعة لكنه وجد أن أسوار المدينة بحاجة إلى جهدٍ كبير ، فبدأ بإزالة الطين من الخندق الذي أحاط بالمدينة ،ولم يجلس على عرشه مراقباً للعمل بل كان أول النازلين لتنظيف الخندق (٦) ، ثم جهز الخندق الثاني الذي أحاط بالقلعة (٧) ، وبعد أن أعد الخندقين جرى ترميم الأسوار التي اندمج فيها أربعة وعشرون برجاً(٨) ، وأنشأ للمدينة ثلاثة أبواب في الشمال والجنوب والشرق ، وقد تطوع النائب البابوي

---

(١) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٥٤ ؛ حسين عبد الوهاب : قيسارية الشام ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ .

(٣) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٦٠ .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٢٢٥ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(٥) يُوحَنا إبلين : حاكم مدينة يافا (٦٤٥-٦٦٥هـ/١٢٤٧-١٢٦٦م) ، وهو ابن أخ يُوحَنا الثاني إبلين صاحب بيروت ، وقد انضم إلى جانب لويس التاسع في هجومه على مصر ، وإثر نجاته من ذلك الهجوم أخذ بمهاجمة القوافل التجارية للمسلمين ونهبها ، وساءت علاقته مع جنوه فحاولت اغتياله لكنه نجا من الاغتيال ، ويعد من أشهر رجال القانون الذين برزوا في مملكة عكا ، وتوفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، واستلم حكم يافا ابنه جاي من بعده. كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٠٦ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص ٣٥٩-٨٠٩ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠-١٩١ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٠٦-٢٠٧؛
Smith : op . cit , p186 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٦ ؛
Brellier : op . cit , p227 .

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٢٥٧ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢٠٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛
Brentano : op . cit , p298-299 .

(القاصد الرسولي) أودو أوف شاتوركس (Ado of Chateauroux) ببناء إحدى البوابات مع جزء صغير من السور ، بلغت تكلفته حوالي ثلاثين ألف ليرة ذهبية (١) ، كما تهافت الصليــبيون إلى يافا للمشاركة في عملية التحصين بعد إصدار البابا أنوسنت الرابع سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م غفراناً لمدة أربعين يوماً إلى كل المشاركين في تحصين يافا ، فتوافدت جموع الصليــبيين إلى يافا لتنال الغفران (٢)، وما إن أحاط لويس التاسع " البلدة بالدفاعات والأبراج والخنادق" (٣) حتى ودع يافا بعد أن أمضى فيها أكثر من عام ،ثم انطلق إلى صيدا في شهر جمادى الأول سنة ٦٥١هـ/ حزيران عام ١٢٥٣ م (٤) .

-**تحصين صيدا** : صيدا بلدة حصينة تقع شمال صور ، وعُرفت بصيدون نسبة لصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام ، وفيها ميناء مهم (٥) ، وقبل وصول لويس التاسع إليها أرسل مجموعة من العمال للبدء في تحصينها ، ولكنهم هُوجموا من قبل الجيش الأيوبي الذي أرسله صاحب دمشق الناصر يوسف الثاني ، فقتل الكثير منهم ، بينما تحصن من نجى منهم في قلعة صيدا التي تميزت بحصانتها(٦) ، وقد شجع ذلك الهجوم لويس التاسع على الإسراع والمجيء بنفسه لاستكمال تحصين صيدا بعد أن كان يفكر بتحصين أحد القلاع القديمة الواقعة بين بيت المقدس ويافا، ولكن البارونات نصحوه بأن تحصين صيدا أهم من تلك القلعة القديمة ذات الأهمية الضئيلة، فأخذ برأيهم ووصل إلى صيدا في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م (٧) ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٠٧؛
Villeneuve : op . cit , p208-209 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،، ص٢٠٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٠٧ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠-٢٠٥ .

(٥)ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٩٨ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٩٨ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢-٢٠٥؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٤ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص١٠٥ ؛
Stevenson : op . cit , p330-331 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢-٢١١ ؛
Tibble , Steven: kingdom of Jerusalem , oxford , 1989 ,P 173 .

وكان حاكمها آنذاك جُوليَان بن باليَانْ دي رِينلْ (Julian du Rinel)(١) ، وأخذ لويس التاسع بترميم ما خربه ملك دمشق ، وشرع في رفع الأنقاض ، وإعادة بناء الاستحكامات العسكرية (٢) ، فحصنها "بأسوار عالية وأبراج وخنادق واسعة نظفها من الطين من الداخل ومن الخارج " (٣)، وبذلك أصبح هناك سور للمدينة وآخر للقلعة ، وأحاط خندقها بالأسوار (٤) ، عدا الجهة الغربية البحرية التي كان يحميها جرف صخري طبيعي (٥) ، وبعد جهودٍ دامت ثمانية أشهر غدت صيدا مدينة فائقة التحصين (٦) .

_ **تحصين صور** : ولا تشير المصادر لتحصين لويس التاسع لمدينة صور ، وقد أشار سعيد عاشور إلى أن لويس التاسع قام بتحصينها وهنا لدينا احتمالان :

الاحتمال الأول : وجد لويس التاسع صور مُحصنة بشكل جيد (٧) ، وقد نوه القزويني إلى حصانتها بأنها تميزت " بقنطرة من عجائب الدنيا ، وهي من أحد الطرفين إلى الآخر قوس واحد " (٨) .

الاحتمال الثاني : من المحتمل أن لويس التاسع أثناء مسيره من يافا إلى صيدا وجَّه في طريقه الأوامر إلى سيد صور فِيليبْ مُونتفورتْ بتحصين مدينته ، فأجرى لها تحصيناً سريعاً .

---

(١) جُولْيَان : هو بن باليان صاحب صيدا من زوجته مارِغريتْ دي رينل ابنة عم يُوحَنا بريين الذي قاد الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، استلم جُوليَان حكم صيدا سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ، ثم تزوج من فيمي (Fime) ابنة هَيثُومْ الأول ملك أرمينية ، ولم يستطع جُوليَان حماية صيدا من المسلمين ، فباعها لمنظمة الداوية سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ،وتوفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . رنسيمان : ج٣ ،ص٨٤٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٩٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١١ ؛ مونرود : مج ٢ ، ص٣٣٩؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٨ ؛

Edde , Anne : la principaute ayyoubide d,alep , Paris , 1955 , p154 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ . كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٤٢ ؛

Gebhart : op . cit , p205 .

(٥) فينر ، فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ، تر : محمد الجلاد ، دار الفكر ، ط٢، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٩١.

(٦) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٨ .

(٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٤ ؛

Maurice , Chehab : Tyr des croisades , Paris , 1979 , P270-271 .

(٨) القزويني ،زكريا : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ص٢١٧ .

شغل لويس التاسع معظم وقته في أعمال التحصين ، وقد توهم كما يتوهم الكيان الصهيُوني اليوم بأن حصونهم مانعتهم من المسلمين ، فبنى الكثير من القلاع والاستحكامات العسكرية بل لم يسبق أن اهتم ملك صليـــبي قبله ولا حتى بعده بأعمال تحصين كالتي قام بها ، كما تبني الصهيُونية المستوطنات على البقعة ذاتها من الأراضي المقدسة حتى غدت تلك المستوطنات أشبه بالقلاع لكثرة الأسوار والحواجز التي أحاطت بها .

وهكذا حمل لويس التاسع الحجارة بيديه ومواد البناء وحفر الخنادق ، وتسابق مع جنوده في إنجاز العمل ، وكل ذلك من أجل حماية الكيان الصليـــبي (١) ، ولم يذهب ذلك الجهد سدى فقد أنتج نماذج من القلاع والاستحكامات العسكرية تمتعت بقدرات دفاعية عظيمة (٢) ،وغدت تلك التحصينات بمثابة درع لحماية الصليـــبيين ، كما استخدموها لشن الغارات على المسلمين، ثم العودة للتحصن بداخلها ، ويعود الفضل في ذلك الانجاز إلى لويس التاسع الذي عمل على إطالة عمر الكيان الصليـــبي متحدياً الصعاب التي اعترضت سبيله سواء أكانت مشاكل بشرية أو مالية (٣) .

---

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠-١٩١ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٩ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٩-٢٢١ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص١٧٢-٢٥٧ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٤٢-٢١١ ؛

Lawrence , T . E : op . cit , p63-105 .

٥- مشاكل لويس التاسع البشرية .

قدم لويس التاسع إلى مصر على رأس حملته الصليـــبية التي قارب عددها خمسين ألف مقاتل ، وهذا عدد لا يستهان به في تلك الحقبة ، لكن ذلك العدد الكبير تبدد وتلاشى في مصر ، ما بين قتلى وأسرى ، و لم يعد إلى عكا سوى عدد ضئيل منهم ، وإذا ما أراد لويس التاسع الثأر لجنوده لا بد له من إعداد قوة عسكرية جديدة لعلها تحقق أهدافه في المشرق العربي الإسلامي ، وقد بدا الحصول على العنصر البشري أمراً صعباً ، ولكن لويس التاسع أظهر ذكاءً في هذا الجانب ، فلم يعتمد على مورد واحد للحصول على المقاتلين ، بل أراد الحصول عليهم من مصادر عديدة لعله يصنع جيشاً قوياً يقهر به المسلمين ، ومن أهم موارد قوته العسكرية ما يلي : (١)

_ **الجنود الإقطاعيون** : وجد لويس التاسع ضالته في نظام الإقطاع العسكري الذي ساد الكيان الصليـــي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، فأمد النظام الإقطاعي الجيش الصليـــبي بعناصر حية بشكل مستمر (٢) حيث توجب على الإقطاعي إنشاء فرقة عسكرية للدفاع عن أملاكه ، وعن الفلاحين الذين عملوا لديه ضد أي خطر يهدده وبخاصة غارات المسلمين ، كما فُرض على السيد الإقطاعي إمداد الجيش الصليـــبي بالفرسان بشكلٍ دائم من أجل الخدمة في جيش لويس التاسع حيث قدَّم الإقطاعي فارساً واحداً عن إقطاع قيمته ألف دينار ، وكلما زادت قيمة الإقطاع زاد عدد الفرسان ، وقد نظم السيد الإقطاعي دوراً لفرسانه للعمل تحت قيادة لويس التاسع ، ومن أشهر الإقطاعيين الذين برزوا في عهد لويس التاسع أسرة آل إبلين التي حازت مساحات كبيرة من الأراضي ، وأردفت الجيش الصليـــبي بعدد كبير من الفرسان (٣) .

– **النفير العام** : اعتاد الصليـــبيون إذا ما اشتدت عليهم الأزمات أن يعلنوا النفير العام ، وخير مثال على ذلك عندما أعلن لويس التاسع من قبرص إثر وصوله إليها النفير العام ووجه النداء إلى صليـــبيي الشرق للانضمام إلى حملته ، فقَدِم كل من هو قادر على القتال ، وتجمعوا في قبرص حتى ضاقت

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤-٢٨٨ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٣٤-٣٦٣ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٠٩-١١٦٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٠-١٩٩٢ ؛

Dagen : op . cit , p150 ; Brentano : op . cit , p285-299 .

(٢) رنسيمان : ج٣ ، ص٦١٥-٦١٦ ؛ غروسيه : ص٩٨ ؛ Smail : op . cit , p82 .

(٣) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٦-٨١ .

الجزيرة بنـــزلائها (١) ، ولكن لويس التاسع إثر هزائمه في مصر لم يعد يتجرأ على إعلان النفير العام للمملكة اللاتينية بأكملها ، وغالباً ما اقتصر النفير على المدينة التي كانت تتعرض للخطر ، حيث لم يزج بقواته كافة في المعركة خوفاً من الوقوع في كمين يكون سبباً في القضاء على الكيان الصليـــبي ، فاقتصرت الأعمال الهجومية على قوة متوسطة العدد لم تتجاوز في بعض الأحيان بضع مئات (٢) .

– **المرتزقة الصليبيون** : وجد لويس التاسع بأن المال وسيلة مجدية لإغراء الكثير من الصليـــبيين ، وتجنيدهم في الجيش الصليـــبي (٣) فلم يمض لويس التاسع شهراً واحداً إثر إطلاق سراحه ، ووصوله إلى عكا حتى أبدى غضبه تجاه باروناته لأنهم لم يبدؤوا في إعداد الجنود ، واتهمهم بالتقصير فتذرع البارونات بأن معظم الجنود الصليـــبيين يفضلون العودة إلى فرنسا أو يطلبون أجور غالية ، فاستدعى لويس التاسع ثيوبالد كونت شامبانيا ، وطلب أن يُعِدَّ له جيشاً من المرتزقة الصليـــبيين إذا أمكن ذلك ، فأكد له بأنه إذا توفر المال فليس ذلك بالأمر العسير ، فأعطاه لويس التاسع مبلغ مائتي ألف ليره ذهبية (٤) ، وما إن أغدق المال على أولئك المرتزقة ، وعين لهم رواتب عالية حتى شكل جيشاً منهم ، وفضَّل الكثير ممن كان يفكر بالعودة إلى فرنسا البقاء في مملكة عكا طمعاً بدعم لويس التاسع المادي والمعنوي (٥) .

_ **الحجاج** : لم تنقطع وفود الحجاج المسيحيين من أوربا وأرمينية عن القدوم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين (٦) ، وتوافدوا من أصقاع البلاد المسيحية ، وبخاصة مع مطلع فصل الربيع حيث استفادوا من تخفيض رسوم النقل التي منحتها الجمهوريات الايطالية مع بداية الربيع بمناسبة عيد الفصح (٧) ، وقد اعتقد الحجاج بأن حجهم غير جائز إذا لم يشاركوا في دعم الكيان الصليـــبي معنوياً وعسكرياً من خلال شن الغارات أو حتى إلحاق الأذى بالمسلمين ، وغالباً ما كانت وفود الحجاج

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٣٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٠٥ ؛ مجهول : ذيل الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٨٧٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٨١ ؛ Smith : op . cit , p184-186 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة، ج٣٥، ص١٩٩ . Grousset : op . cit , volume3 , p506-510 .

(٣) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٢٧-١٢٨ ؛ يوسف : العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، ص١٣٢ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p497 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٢-١٦٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p193 .

(٥) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٢٧-١٢٨ ؛ زيادة : ص٢٤٢ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٥ .

(٧) الحايك : ج٢ ، ص٢١٣ .

قبل وصولها إلى القدس تلتقي بلويس التاسع كي تنال بركته لأنه في نظرهم حامي المسيحية والمدافع عن المقدسات ، وقد شكّل الحجاج مورداً دائماً للعنصر البشري لم ينقطع (١) .

– **المتطوعون** : ظهر الكثير من الصليبيين الحاقدين على المسلمين أو الطامعين في الحصول على حياة أفضل في مملكة عكا ، فعندما كان لويس التاسع في قبرص وصلت مجموعات من مسيحيي اليونان وانضمت إلى حملته في قبرص (٢) ، كما أن أمير الموارنة في جبل لبنان إثر وصول لويس التاسع إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م تطوع بإرسال جيش تألف من خمسة وعشرين ألف مقاتل من أجل تدعيم قوة لويس التاسع العسكرية (٣) ، ومن المحتمل أن الرابطة الدينية هي التي دفعت أمير الموارنة لتقديم ذلك الدعم الكبير للملك الفرنسي ، علماً أن هذا العدد مبالغٌ فيه ، بينما تطوعت مارغريتْ دي رينل والدة جُوليَان صاحب صيدا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بإعداد أربعين مقاتل على حسابها الخاص ، وألحقتهم بخدمة لويس التاسع ، وكثيرة هي الأمثلة عن المتطوعين والمتزمتين الذين ناصروا لويس التاسع تحت دوافع دينية أو مطامع شخصية (٤) .

– **الخدمة العسكرية** : شكلت كل من مملكة عكا ، وإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس ، وقبرص جيوش خاصة بها (٥) ، كما أن المنظمات العسكرية أعدت جيوش خاصة بها كانت تصول وتجول دفاعاً عن الكيان الصليبي ، وتزعمت الطليعة في كل هجوم ، وامتاز أفراد تلك المنظمات بالخدمة العسكرية مدى الحياة على الأغلب طالما أنهم قادرين على القتال(٦) ، وكان الصليبيون بشكلٍ عام يؤدون الخدمة العسكرية التي فُرضت على جميع الصليبيين حيث توجب على كل من هو قادر على القتال منهم الالتحاق بالجيوش الصليبية لمدة عامٍ كامل (٧) ، ولم يُعفَ أحد من الخدمة العسكرية سوى أبناء

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢-١٩٣ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٠ ؛ الحايك : ج٢ ، ص٢١٤ .

(٢) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧١ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٥٠ .

(٣) الدويهي : الطائفة المارونية ، ص١١٠-١١١ ؛ الشدياق : ج٢ ، ص١٢ .

(٤) جونفيل : حياة لويس ، الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٧٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٢ ؛ سالم : ص٢٠٢-٢٠٣ ؛
Grusset : op . cit , volume3 , p512-515 .

(٦) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٢-١٩٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٥-١٩٥١ ؛
Brellier : op . cit , p224-227 .

(٧) الحايك : ج٢ ، ص٢١٧ .

الجاليات الإيطالية لأنها كانت تتبع لإيطاليا الدولة الأم ، فخدموا كمرتزقة ، و لم يخضعوا لأنظمة مملكة عكا فيما يخص الخدمة العسكرية (١) .

وعلى هذا تغلب لويس التاسع على مشكلة نقص العنصر البشري بحنكته ، فأغدق الأموال على كل من ينضوي تحت قيادته ، فقصده المرتزقة من أماكن بعيدة (٢) ، كما كان بإمكانه إعلان النفير العام إذا ما وقع في ورطة ، وحينها تهب المملكة اللاتينية بأكملها لمواجهة الخطر (٣) ، وازداد الجيش الصليـــبي " بشكل كبير جداً ، ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال " (٤) ، وأصبح لدى لويس التاسع قوة عسكرية كبرى ، وفّر لها مستلزماتها العسكرية والمادية (٥) .

---

(١) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٨٢-١٨٣ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣،ص١٢٧-١٢٨ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٣٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٨.

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٨ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٢-١٧٢ ؛ Mayer : op . cit , p265-266 .

٦- مشاكل لويس التاسع المالية .

يعد الجانب المادي أحد الجوانب الأساسية في تقرير مصير المعركة ، وربما تعكس المشاكل المادية واقع الأحداث وتُحوِل النصر إلى هزيمة ، وقد وقع على أوربا عبء إعداد الحملة الصليـــبية السابعة التي كادت أن تؤدي لأزمة مالية في أوربا ، فلم يترك البابا أنوسنت الرابع أسلوباً لجمع الضرائب والهبات والصدقات إلا واتبعه لتجهيز الحملة التي تطلب إعدادها مليون ونصف ليرة ذهبية (١) ، ولم تنته المشاكل المالية للحملة مع مسيرها بل أدت المدة الطويلة التي أمضتها في قبرص لنفاد مؤونتها ، فأخذ لويس التاسع يستعين بالمسيحيين " ويرجوهم بإلحاح بالإحسان إليه " (٢) ، فتلقى المساعدات من صليـــبيي مملكة عكا والجمهوريات الايطالية ، (٣) ، كما أرسل له الإمبراطور الألماني فردريك الثاني المعونات ، مما أدى لإنقاذ " الجيش الصليـــبي من مجاعة كبيرة ومُخيفة " (٤) ،ووصلت الحملة إلى دمياط واستولت عليها فتنفست الصعداء بعد أن عثرت فيها على بقايا أسلحة وذخيرة وحبوب ، وغيره من الأموال (٥) ، وأخطأ لويس التاسع بتوزيعه تلك الأموال عليهم ، لأنهم انغمسوا في الملذات وبذّروا أموالهم (٦) ، ولكن ألفونسو كونت بواتيه أسعفهم بقدومه مُحملاً بالمساعدات الفرنسية (٧) ، وما إن وصل الصليـــبيون إلى المنصورة حتى حلت بهم المجاعة بعد قطع توران شاه الإمدادات عنهم (٨) ، وأشار متى باريس إلى أنهم أُرغموا " حتى على أكل خيولهم الثمينة التي كانت ضرورية جداً إليهم " (٩) ، أما صاحب ذيل روثلين فنوه على أنهم

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص٨٩٥-٩١٢ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٠٣ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٠٥٧ .

(٣) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٤٩ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١٠٥٨ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٢ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج٢ ، ص٢٨٤-٢٨٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٨١ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٣ ؛ ابن إياس :ق١ ج١، ص٢٧٧ ؛ Michaud : op . cit , p451-453 .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٣ .

(٧) عاشور : الحركة الصليـــبية ، ج٢ ، ص١٠٦٤ ؛ رنسيمان : ج٣، ص٤٥٣ .

(٨) ابن واصل : ج٦، ص١٢٠-١٢١ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٥٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٥ ؛ Smaith : op . cit , p184-185 .

(٩) باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١٠٩٢ .

" صاروا نحيفين وضعفاء وأكلوا الحمير والبغال" (١) ، وكانت تلك المجاعة من الأسباب التي أدت لأسر الجيش الصليـــبي (٢) ، وبصعوبة بالغة دفع لويس التاسع نصف الفدية للمسلمين (٣) ، وحينما وصل إلى عكا وضع إستراتيجية استهدفت تقوية الاقتصاد الفرنجي بعد أن أخذ دروساً لا تُنسى في المجاعات والأزمات المالية التي مرت بها حملته ، فأراد تلافي المشاكل المالية الماضية ، وهنا يمكن التساؤل (٤) :

كيف حصل لويس التاسع على موارده المالية ؟

وكيف أنفق على مشاريعه العمرانية والعسكرية في مملكة عكا ؟

أراد لويس التاسع استثمار الموارد المالية الصليـــبية والأوربية ، وتسخيرها لخدمة المشروع الصليـــبي ، ومن أهم تلك الموارد ما يلي :

ـ **الزراعة** : اهتم الصليـــبيون بالزراعة ، وغالباً ما استخدموا الأسرى المسلمين في الأعمال الزراعية ، وكان النظام الإقطاعي هو السائد آنذاك ، وبلغت الزراعة درجة عالية من التطور نتيجة الاهتمام بها (٥) ، وقد قام الإقطاعي بتقديم المستلزمات الأساسية للفلاح ، ثم تولى الفلاح حراثة الأرض وزراعتها وسقايتها وجني المحصول ، وغالباً ما استقر الإقطاعي في المدينة ، وقسَّم الإقطاع إلى رساتق (قرى ومزارع) ، وعيَّن في كل قرية مختار (ناظر الضيعة) للإشراف على سير الأعمال فيها، كما أخذ حصة الإقطاعي من المحصول التي تراوحت ما بين ربع وثلث الإنتاج ، وبالرغم من الحروب بقيت الزراعة نشيطة (٦) ، وأحياناً ساد الوئام في المناطق الحدودية بين المسلمين والصليـــبيين بسبب الحاجة لاستثمار الأراضي الزراعية (٧) ،

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٣٢ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٣٢-١٩٣٨ ؛ دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ،ص١٣٢ ؛ Stambouli : op . cit , p252-255 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٤١-١٩٤٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٣٥ ، ص١٩٤١-١٩٤٢ ؛ Brellier : op . cit , p225 .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٠-١٩٩٤ ؛ Setton : op . cit , volume2 , p566 .

(٥) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٨-٨٠ ؛ كاهن : ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ The encyclopaedia of islam : London, 1997 , volume 9 , p267-268 .

(٦) براور : عالم الصليـــبيين ، ص١١٣-١١٤ ؛ النقاش : ص١٧٠ .

(٧) ابن جبير ، محمد :رحلة ابن جبير ، الموسوعة ، تح وتر: زكار ، دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٤ ، ص٥٩-٦٠ ؛ الحايك : ج١ ، ص٨٨-٨٩؛ Smail : op . cit , p80-82.

واستغلوا الأراضي حسب نظام المقاسمة (١) ، واستثمروا الأراضي في زراعة الأشجار المثمرة مثل التين والزيتون والعنب والمشمش والرمان والحمضيات والكرز ، كما زرعوا الحبوب كالقمح والشعير والعدس والفول والسمسم ، ومن المحاصيل الصناعية القطن وقصب السكر (٢) ، ويلاحظ بأن الصليـــبيين اهتموا بالزراعة بشكل كبير ، ومنذ قدوم لويس التاسع إلى الشرق اصطحب معه الكثير من أدوات الفلاحة ، وذلك لتأمين المواد الغذائية للصليـــبيين فضلاً عن توفير المواد الأولية للصناعة (٣) .

ـ **الصناعة** : إن تطور الزراعة في عهد لويس التاسع وفرّ المواد الأساسية للصناعة ، فلم يقتصر الصليبيون على الأعمال العسكرية بل زاولوا المهن ، وأتقنوا الكثير من الصناعات (٤) ، فظهرت الصناعات الغذائية ، كصناعة السكر وطحن الحبوب والمشروبات الكحولية مثل البيرة التي صنعوها من الشعير (٥) ، كما اشتهروا بصناعة المنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة (٦) حيث بلغ عدد أنوال النسيج في عهد لويس التاسع بأنطاكية وطرابلس أربع آلاف نول (٧) ، بينما اشتهرت طرطوس بصناعة القماش من وبر الجمل ، وقد أُعجب لويس التاسع بهذا القماش ، وكلف جوانفيل أن يشتري له مائة

---

(١) المقاسمة (المناصفة) : طُبق هذا النظام على مناطق الحدود بين المسلمين والصليـــبيين ، وبخاصة الأماكن المتنازع عليها كي لا تُترك دون استثمار ، وكانت أوضاع المناطق الحدودية مضطربة بسبب تعرضها للصراع ، ومن أجل إنهاء النـــزاع القائم عليها رأى حكامها سواء أكانت تابعة للمسلمين أم للصليبيين أن تدار بطريقة المناصفة ، وفي هذه الحالة يتنازل طرف للآخر عن نصف الغلال تفادياً للمشاكل واتقاءً لشره ، وبشكل خاص إن لم يتمكن حكامها من الدفاع عنها ، كما عرفوا نظام المثالثة ، ولم يختلف عن سابقه كثيراً حيث يتم تقسيم المحصول على المسلمين والصليبيين والفلاحين الذين يعملون فيها ، وقد استمر نظام المناصفة والمثالثة منذ بداية الوجود الصليبي وانتهى بانتهائه . ابن جبير : الموسوعة، ج١٤ ، ص٥٩-٦٠ ؛ جوني ، وفاء : دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين ، أطروحة دكتوراه ، جامعة دمشق ، ١٤١٢هـ/١٩٩٠م ، ص٩٦-١٠٤ .

(٢) القزويني : ص١٤٢-٢٢٤ ؛ ابن بطوطة : ص٤٥-٥١ ؛ النقاش : ص١٦٩-١٧٧ ؛ البيشاوي ، سعيد : الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليـــبية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٤١٨-٤٢٢ ؛
Sarkis , Hassan : L,histoire de Tripoli de sa saregion des croisades , Paris , 1980 , p22-23.

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٩٣ .

(٤) رنسيمان : ج٣ ، ص٦٠٤-٦٠٥ .

(٥) النقاش : ص١٧١-١٧٩ ؛ حلاق ، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الدار الجامعية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٢١١-٢١٥ ؛ Smail : op . cit , p82 .

(٦) رنسيمان : ج٣ ،ص٦٠٤ ؛ Villeneuve : op . cit , p224 .

(٧) سالم : ص٢٣٠-٢٣١ .

قطعة ليأخذها هدايا معه أثناء عودته إلى فرنسا (١) ، أما عكا فاشتهرت فيها صناعة الأواني النحاسية (٢) ، كما عرف الصليبيون صناعات أخرى مثل الأصبغة والخزف والمرايا (٣) ، والأواني الفخارية والعقاقير والحديد (٤) ، والأخشاب التي استخدموها في صناعة أسلحتهم (٥)، وقد أمنَت هذه الصناعات حاجات الصليبيين ، وفُرضت عليها الضرائب التي صبَت في خزينة المملكة، فضلاً عن إسهامها في تقوية النشاط التجاري في مملكة عكا (٦) .

ـ **التجارة** : أدى النشاط الصليبي في مجالي الزراعة والصناعة لتطوير التجارة في مملكة عكاحيث توفرت المواد التجارية كالفواكه والزيتون (٧) ، والسكر والخزف والفخار والحرير والمنسوجات والحُلي (٨) ، والأعشاب الطبية والقرفة والزنجبيل (٩) ، وغدا الصليبيون صلة وصل واتصال تجارية بين الشرق والغرب ، وتحولت عكا إلى سوق تجارية دولية ، وكان أحد أسباب ازدهار تجارتها ، وجود الكثير من أبناء الجاليات الايطالية فيها (١٠) ، ويمكن القول بأن معظم السُكر الذي استهلكته أوربا خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أتى من الكيان الصليبي ، وبخاصة من مدينة صور التي كانت أكبر مُصدر في مملكة عكا للسكر ، ربما تم تصنيعه من الشوندر السكري وقصب السكر (١١) وفُرضت ضرائب متنوعة على التجارة كالضرائب على المحلات التجارية والأسواق والمبيعات والمشتريات (١٢) ، وفُرضت المكوس على التجار المسلمين لقاء مرورهم في المناطق التي سيطر الصليبيون عليها ، وبذلك شكلت التجارة مورداً مالياً زاد

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٦-٢١٧ .
(٢) ابن بطوطة : ص٤٧ .
(٣) النقاش : ص١٧١-١٧٩ ؛ حلاق : ص٢١١-٢١٥ .
(٤) رنسيمان : ج٣، ص٦٠٥-٦١٧ .
(٥) القزويني : ص٢٢٣ .
(٦) كاهن : ص٢٠٤-٢٠٧ ؛ البيشاوي : الممتلكات الكنسية ، ص٤٣٠-٤٣٢ .
(٧) ابن بطوطة : ص٤٥-٥١ .
(٨) النقاش : ص١٧٩-١٨٤ .
(٩) رنسيمان : ج٣ ،ص٦١٠-٦١١ .
(١٠) زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٤٠٨-٤٠٩ ؛ حلاق: ص٢١٥-٢١٧ .
(١١) رنسيمان : ج٣ ،ص٦٠٤-٦١١ .
(١٢) سالم : ص٢٠٥-٢٠٦ .

في ميزانية مملكة عكا (١) .

_ **الغنائم** : عاش الصليـــبيون على السلب والنهب ، حيث وجدوا في الغارات وسيلة لتوجيه الضربات لخصومهم والعودة بالغنائم ، ولم تكلفهم هذه العمليات سوى مراقبة تحركات جيرانهم المسلمين ، وانتظار الأوقات المناسبة للهجوم على مواشيهم أو محاصيلهم الزراعية أو قوافلهم التجارية ونهبها ، ثم العودة إلى حصونهم وقلاعهم للتحصن بداخلها ، وكثيرة هي الشواهد على ذلك فقد هاجم حاكم أرسوف يُوحَنا الثالث إبلين ورجاله سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إحدى مراعي المسلمين في بيسان حيث استقرت إحدى القبائل ، فقتلوا بعض رجالها ، وغنموا " ١٦٠٠٠ رأس من الحيوان مابين كبير وصغير " (٢) ، وأسرَوا شيخ القبيلة ، وعادوا إلى أرسوف للعناية بذلك العدد الكبير من الحيوانات الذي درَّ عليهم أرباحاً كبيرة ، وأمَّن لهم الغذاء لمدة زمنية طويلة (٣)، كما تابع كونت يافا يُوحَنا إبلين الذي كان ابن عم حاكم أرسوف يُوحَنا الثالث إبلين أخبار القوافل التجارية وتنقلاتها ، وأكد ذلك جوانفيل، وأشار إلى أنه " عاش معظم وقته على ما كان يربحه من المسلمين " (٤) ، بينما اعتاد الصليـــبيون في قيسارية على حياة الرفاهية ولم يتحملوا التقشف ، ولكي يبقوا في رفاهية دائمة توجب عليهم شن الغارات بشكل مستمر على المناطق الإسلامية المجاورة لهم للحصول على الغنائم (٥).

_ **الدعم البابوي** : لم يكن البابا أنوسنت الرابع ليرسل قوة إلى المشرق العربي الإسلامي وينساها حيث استمر الدعم البابوي للويس التاسع على الرغم من وضع البابا الحرج ، وخلافه مع الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (٦) ، فقد استمر البابا في فرض ضريبة العشر على أملاك الكنائس الأوربية لاستمرار بقاء الكيان الصليـــبي ، وهدد كل من يتواطأ بالحرمان ، كما صادر أموال الهراطقة ، وفرض الضرائب على اليهود ، وجمع النذور والهبات ، وبشكل خاص من المرضى وضعفاء الأجساد غير القادرين على المشاركة في الحملات الصليـــبية ، وشكل البابا جمعيات خيرية لجمع الأموال والتبـــرعات (٧) ،

---

(١) كاهن : ص٢٠٧ ؛ عطية : ص٣٧٨ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٣ .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٩٦-١٣٩٧ .

(٦) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٣٩٦-١٣٩٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٨٥ . ج٤٩ ، ص١٢٧٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٧.

(٧) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٠٤-١١٣ .

وطلب من ملك إنكلترا هِنريْ الثالث تقديم المساعدات للويس التاسع في الأراضي المقدسة (١) ، ولكن هِنريْ الثالث لقي احتجاجاً من قبل أساقفة إنكلترا على جمع المساعدات ، وأظهروا له أن لويس التاسع بدد شعبه وأمواله ، وهم ليسوا مُجبرين على إفقار إنكلترا،مما يؤدي لارتداد الناس عن المسيحية ، وبشكل عام كانت تصل المعونات الأوربية إلى لويس التاسع لعلها تسد احتياجاته المادية (٢) .

ـ **المعونات الفرنسية** : تحملت فرنسا العبء الأكبر في إعداد الحملة الصليــبية السابعة حيث دفعت الكنائس الفرنسية ضريبة العشر عن أملاكها لمدة ثلاث سنوات (٣) ، و لم يكتف البابا بذلك بل أراد الاستمرار في أخذ ضريبة العشر من الكنائس الفرنسية لحسابه الخاص ، فاحتج لويس التاسع لأن تلك الأموال ضرورية لمشاريعه الإصلاحية في مملكة عكا (٤) ، و لم يتوقف دعم بلانشيه لابنها لويس التاسع فما إن سمعت بالمآسي التي حلت بحملته الصليــبية في مصر حتى أرسلت له سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م مبالغ مالية كبيرة على متن إحدى السفن الفرنسية ، ولكن عاصفة قوية هبت ، وأغرقتها في مياه البحر المتوسط (٥) ، و لم تيأس بلانشيه بل جمعت حوالي مائتين وأربعة وسبعين ألف ليرة ذهبية ، وأرسلتها إلى لويس التاسع ، و لم تنقطع الإمدادات الفرنسية عن لويس التاسع حتى فارقت بلانشيه الحياة سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، حيث قلَّ الدعم الفرنسي إثر الأزمة المالية التي رافقت وفاة بلانشيه (٦) .

وبذلك سعى لويس التاسع لتنويع موارده المالية حيث قوّى الاقتصاد الداخلي لمملكة عكا ، كما حصل على المعونات الأوربية ، مما مكنه من القيام بالكثير من الإصلاحات التي كلفته مبالغ مالية طائلة ، وتجاوز كل المشاكل المالية التي اعترضت سبيله (٧) .

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١١٧٣-١١٧٤ ؛

Wrong , George : Britain history , London , p79-80 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١١٧٣-١١٧٤ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٧٧ .

(٤) يوسف : العدوان الصليــبي على بلاد الشام ، ص١٣٦ .

(٥) باريس : الموسوعة، ج٤٩ ، ص١٢٣٦ ؛ يوسف : العدوان الصليــبي على مصر،ص٢١٧ .

(٦) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١٠٤ .

(٧) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٢٣٦-١٣٩٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٠-١٩٩٤ . كريستوفر: الموسوعة ، ج٨٣، ص٧٥-١٢٦ ؛ Setton : op . cit , volume2 , p566 .

٧_ سك عملة جديدة .

تدخل لويس التاسع في كل صغيرة وكبيرة فيما يخص الإدارة المحلية للكيان الصليبـــي، وقد عدَّ السكَّة (١) أحد المظاهر الحضارية التي عبرت عن جانب من جوانب التقدم الحضاري ، فلم يكن مرتاحاً للتقليد الصليـبـي للسِكَّة الإسلامية ، فتضافرت جهوده مع جهود البابا أنوسنت الرابع لإيجاد نقود صليـــبية جديدة مغايرة لنقود المسلمين (٢) ، وقد استعمل الصليـــبيون النقود الفضية والنحاسية والحديدية للتعامل الداخلي (٣) ، واضطروا لاستخدام النقود الذهبية للتعامل الخارجي (٤) مع العلم أن أوربا لم تستعمل العملة الذهبية قبيل الحروب الصليـــبية بشكلٍ كبير باستثناء الأندلس وصقلية ، لأن الفضة كانت هي المعدن الأكثر استعمالاً في صناعة النقود الأوربية (٥) ، ومن أهم أنواع النقود التي استعملها الصليـــبيين ما يلي :

_ **الدينار** : قطعة نقدية ذهبية (٦) كُتب عليها العبارات الدينية مثل (الله أحد) (٧) ، وبلغ وزن الدينار حوالي ٤,٢٥ جرام (غرام) (٨) ، وقد تداول الصليـــبيون الدينار الإسلامي أحياناً ، وقد سكُّوا دنانير مشابهة له (٩) .

_ **الليرة التورونية** : سميت نسبة لمدينة تُورْ (TOUR) الفرنسية ، وهي عملة فرنسية ذهبية سُكَّت

---

(١) السِكَّة : أشار ابن خلدون إلى أن السكة بكسر السين وتشديد الكاف هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس لمعرفة الصحيح من المغشوش منها ، بينما نوه المقريزي إلى أنه يتم قياس قطع ذهبية وفضية بأوزان متساوية ثم تُوضع نقوش عليها . ابن خلدون ، عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ج١ ، ص٢١٧-٢١٨ ؛ المقريزي ،أحمد: النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود ، تح : محمد بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية، ط٥ ، النجف، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م ، ص٦٧-٦٩ .

(٢) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٥-٣١٧ ؛ حلاق : ص٢٢٢-٢٢٣ .

(٣) كاهن : ص٢٥١-٢٥٢ ؛ براور : الاستيطان الصليـــبي ، ص٤٥٩-٤٦١ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٦ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٢ ؛
The encyclopaedia of islame : op . cit , volume 9 , p268 .

(٥) رنسيمان : ج٣ ، ص٦١٨ .

(٦) القزويني : ص٢١٧ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٢ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p492-493 .

(٧) ابن خلدون : ج١ ، ص٢١٧ .

(٨) المقريزي : النقود ، ص٦٠ .

(٩) براور : عالم الصليـــبيين ،ص١٦٨ .

في مدينة تور بجنوب فرنسا (١) ، ولم يعط لويس التاسع جنوده رواتبهم إلا بها (٢) .

ـ **البيزنت (البيزنط)** : عملة ذهبية قديمة عُرفت بالنوميسما أو الهيبربيرون ، ومصدرها بيزنطة (٣) ، حيث تراوح وزن القطعة مابين ٢,٨٢ — ٣,٦٣ جرام ، وقد نافس الدينار الإسلامي البيزنت ، ونادراً ما استخدم المسلمون البيزنت ، ربما لأسباب دينية (٤) .

ـ **الدرهم** : قطعة نقدية فضية (٥) ،أخذها الصليـــبيون عن المسلمين، وسكُّوا الصليب عليها ، وعلى الوجه الثاني صورة الشمس أو الهلال تقليداً لشعار مدينة تُولوز (Touloz) الفرنسية (٦) ، وبلغ وزن الدرهم ٢,٧٠- ٢,٩٠ جرام من الفضة (٧) .

وقد سُكَّت هذه النقود في أوربة ، وأُرسلت إلى الكيان الصليبـــي ، بينما وصلتهم أحياناً سبائك معدنية استخدموها في سكِّ النقود ، (٨) ، وبشكلٍ عام كانت النقود التي سكَّها الصليـــبيون تقليداً للنقود الإسلامية ، كما أحدثوا فيها تغييراً طفيفاً (٩) ، ويلاحظ بأنهم قلَّدوا المسلمين في سكِّ نقودهم حرصاً على استمرار التعامل التجاري مع المسلمين ، بينما استعمل لويس التاسع العملة التورونية الفرنسية المسكوكة باسمه ، ثم استحدَث نوعية أخرى عُرفت بالليرة التُورونية الكبيرة (Gros tournois) ، ومن المحتمل أنها من الذهب الخالص ، أما الأولى فمُزجت ببعض المعادن الرخيصة ، وإلا أبقى لها التسمية ذاتها ، ولم يُسميها التورونية الكبيرة (١٠) ، وقد استعملها لويس التاسع على الدوام إلا ما ندر حيث أشار جوانفيل إلى أن لويس التاسع شهِد الصلاة على جنازة في عكا ،

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٦ ؛ سوريال عطية ،عزيز : الحروب الصليـــبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، تر : فيليب سيف ، دار الثقافة ، ط٢، القاهرة ، د.ت ، ص٧٧ .

(٢) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١١٨ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة، ج٣٥، ص١٣١؛ سوريال عطية: ص١٧٥-١٧٦؛ Stambouli : op . cit , p254 .

(٤) براور : الاستيطان الصليـــبي ، ص٤٥٥-٤٦١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣ .

(٦) سالم : ص٢٠٤-٢٠٥ .

(٧) المقريزي : النقود ، ص٥٣ .

(٨) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٥-٣١٦ .

(٩) سالم : ص٢٠٥ ؛ حلاق : ص٢٢٣ ؛ براور : عالم الصليـــبيين ، ص١٦٩ ؛ The encyclopaedia of islam : op . cit , volume 9 , p268 .

(١٠) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٦ .

دعته إليها مارغريتْ بريين والدة صاحب صيدا جُوليّان دي رينل ، وكان المتوفى ابن عمها يُوحَنا بريين ، واعتادوا إثر دفن الجنازة ، وإجراء القداس أن يحمل أحدهم طبق ، ثم يدور على الجميع لجمع التبـــرعات منهم ، وغالباً ما تبرع كل شخص بدرهم من الفضة لمساعدة المحتاجين ، وشمعة لإشعالها على قبر المتوفى ، وعندما أتى دور لويس التاسع تبرع بشمعة ودينار ذهبي من دنانير صيدا ، فأثار هذا العمل دهشة الحضور لأن لويس التاسع لم يستخدم سوى النقود التورونية المنقوشة باسمه ، ولكن هذه المرة خرق القاعدة المعتادة ، ومن المحتمل من أجل التقرُب من سيدة صيدا ، ولطفاً منه نحوها استخدم دينار من عملة صيدا (١) ، وفي الحقيقة لم يستخدم لويس التاسع النقود الصليـــبية سوى لمرة واحدة ، لأنها مأخوذة عن النقد الإسلامي ، فلم يرض استخدامها إلا في ذلك الموقف الوحيد (٢) ، و لم يختلف موقف البابا عن موقف لويس التاسع حيث ندد أنوسنت الرابع باستخدام الصليـــبيين للنقود الإسلامية والنقود الصليبية المشابهة لها (٣) ، وهنا راح لويس التاسع يسعى لإيجاد عملة صليـــبية جديدة لا تمت للمسلمين بأي صلة ،وبالفعل ظهر تغيير جذري في النقد الصليـــبي حيث كَلف لويس التاسع سيد المورة غليوم الثاني سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م بسكّ نقود تتماشى مع طموحات لويس التاسع (٤) ، ومن المحتمل أن لويس التاسع كلف سيد المورة بذلك العمل لأن سيد المورة كان من المؤيدين والمشجعين للحروب الصليبية ، فقد أسهم في دعم الحملة الصليبية السابعة حيث أرسل قوة عسكرية انضمت إليها ، وهذا ما أدى لتكليفه من قبل لويس التاسع بسكّ النقود (٥)، بينما ذهب بُوهِمِندْ السادس أمير أنطاكية وكونتية طرابلس تماشياً مع رغبة لويس التاسع واعترافاً بفضله وعنايته له ، فقد سكّ نقوداً ذهبية وفضية عليها شعار لويس التاسع وهو (المسيح يقهر ، المسيح يحكم ، المسيح يهيمن) ، وهذا الشعار يعود إلى سنة ١٨٤هـــ/٨٠٠م حيث تم تتويج الإمبراطور الفرنجي شارلمان ، ثم توراث ملوك أوربا هذا الشعار، وكان يُهتف به عندما يتم تتويج أحدهم ، وغدا شعاراً للويس التاسع (٦) ، كما أخذت دار السكة في عكا

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣ ؛ يوسف :لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٦-٣١٧ ؛
Villeneuve : op . cit , P 203 .

(٢) حلاق : ص٢٢٣ .

(٣) حلاق : ص٢٢٣ . براور : الاستيطان الصليـــبي ، ص٤٦١ .

(٤) مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، حاشية ص٦٠٥ .

(٥) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص٦٤-٦٥ .

(٦) عطية: ص٣٩٠-٣٩١ .

بأوامر لويس التاسع ، وسَكّت سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م نقود ذهبية وفضية ونحاسية وحديدية تختلف عن النقود الإسلامية شكلاً ومضموناً حيث زُينت بنقوش دائرية متحدة المركز ، ونُقش بوسطها صليب ، وكتب عليها عبارة (الله واحد) وعلى الوجه الآخر (نفتخر بسيدنا المسيح) عليه السلام ، ويلاحظ أنهم استبدلوا الآيات القرآنية بعبارات مسيحية ، (١) حيث بلغ قطر الدينار ٢٣مم ، ووزنه ٨٢, ٢ — ٢٥ , ٤جرام ، واعتمدوا في الغالب على النقود الفضية والنحاسية في التعامل اليومي ، بينما استخدموا العملة الذهبية في التداول العالمي (٢) ، كما أن البُندُقية اتبعت أسلوباً مماثلاً خوفاً من احتجاج البابا وعدم رضى لويس التاسع ، فسكّت نقود نقشت عليها العبارات المسيحية باللغة العربية كي تُرضي المسلمين والمسيحيين (٣) ،وبذلك نجح أنوسنت الرابع ولويس التاسع في إجبار الصليـبيين على سكّ نقود جديدة ، وتم تحقيق ما لم يستطع تحقيقه من قبل البابوات الذين سبقوا أنوسنت الرابع أو حتى الملوك الأوربيون الذين أتو قبل لويس التاسع، وأصبحت النقود الصليـبية معتدلة الشكل والمضمون حيث كُتبت عليها العبارات المسيحية التي تُعلن عن عقيدتها إرضاءً للبابا ولويس التاسع ، بينما بقيت حروفها أحياناً باللغة العربية للحفاظ على التعامل مع السوق العالمية وبخاصة في بلاد العرب المسلمين (٤) .

وهكذا ساس لويس التاسع الكيان الصليـبي بذكاء خارق ، ويكفي أن الصليبيين أصبحوا طوع بنانه ورَهن إشارته ، والسِّر في ذلك هو إخلاصه لمبدئه ، وغيرته على مصالحهم ،وإصلاحاته العظيمة التي قام بها على الأصعدة كافة ، فقاد مملكة عكا إلى بر الأمان ، وأطال في عمرها ، وحقق خلال مدة زمنية بسيطة ما لم يستطع غيره من قادة الصليـبيين تحقيقه خلال عشرات السنين ، وكل ذلك من أجل الحفاظ على بقاء الكيان الصليـبي في قلب المشرق العربي الإسلامي رغماً عن المسلمين الذين ألحقوا به في مصر هزائم لا تنسى (٥) .

---

(١) حلاق : ص٢٢٣ ؛ براور : الاستيطان الصليـبي ، ص٤٦١ .

(٢) براور : الاستيطان الصليـبي ، ص٤٦٢ .

(٣) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣١٨ ؛ كاهن : ص٢٥١ .

(٤) مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، حاشية ص٦٠٥ ؛ عطية : ص٣٩٠-٣٩١ ؛ حلاق : ص٢٢٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦١-٢٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٧-١٩٥١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٤-١٩٩٢ ؛ Brentano : op . cit , p298-299 .

_ الفصل الثالث _

علاقة لويس التاسع مع المماليك .

١ – نهاية الحكم الأيوبي في مصر .

٢ – موقف الصليبـــيين والمماليك من اتفاقية سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م .

٣– إطلاق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبيـــين .

٤ – معركة العباسة سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥١م .

٥ – اتفاقية سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م بين لويس التاسع والمعز أيبك .

٦– المحاولة الصليبيـــية – المملوكية لشن هجوم على الأيوبيين .

٧– اجتماع أرسوف الصليبيـــي سنة ٦٥١هـــ/١٢٥٣م .

١ - نهاية الحكم الأيوبي في مصر .

أصيب لويس التاسع بخيبة أمل بعد إخفاق حملته الصليبـــية ، وتدمير جيشه الذي أتى على رأسه ، ويعود الفضل الكبير في الهزائم التي حلت به إلى المماليك الذين أبلوا بلاءً حسناً ، ودمروا الحملة الصليبيـــة السابعة (١) ، وهنا أخذ لويس التاسع في البحث عن طريقة للثأر منهم ، وكان يأمل بحدوث انشقاق في صفوف المسلمين إثر الثورة المملوكية التي أطاحت بالسلطان الأيوبي توران شاه ، فتوترت العلاقة الأيوبية المملوكية ، وساد المنطقة جوٌ كئيب، وما إن لاحت الفرصة للويس التاسع حتى أصبح ميالاً للدبلوماسية أكثر من إتباع أسلوب القوة العسكرية ، فتظاهر بنهج سياسة ودية مع ملوك المسلمين ، وانتهز خلافاتهم لعله يضرب الطرفين مع بعضهما البعض ، مما يُنهك الطرفين ، وربما يقضي أحد الأطراف المتصارعة على الطرف الآخر ويَضعُف الثاني ، وهذا ما يسهل على لويس التاسع تحقيق غاياته في السيطرة على المشرق العربي الإسلامي ، والانتقام من خصومه المماليك أو على الأقل إخراج الأسرى الصليبـــيين من السجون المصرية ، وبذلك يكسب ماء وجهه أمام فرنسا ، والكيان الصليبـــي بل والغرب الأوربي وعلى رأسه البابا راعي الحروب الصليبـــية (٢) .

ذهب توران شاه ضحية خبرته الضئيلة في شؤون السياسة ، أمام نشوء قوة مملوكية فتية في مصر ، لا يمكن تجاهلها بأي شكلٍ من الأشكال ، وكانت تقتضي الضرورة كسب تلك القوة المملوكية أمام التحديات الصليبـــية ، لأن تناسيها يعني خسارتها ، وربما تحويلها لقوة عاتية ومدمرة ، وبالفعل ظهرت عوامل عديدة أدت لاستياء المماليك ونفورهم من سيدهم توران شاه ، ومن أهمها ما يلي (٣) :

أ- كان توران شاه يتهدد ويتوعد البحرية ، فإذا احتسى الخمرة ، استل سيفه ، وأخذ يضرب الشموع

---

(١) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٤-٧٧٨ ؛ أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦١-٣٦٤ ؛ المقريزي: السلوك، ص٣٣٩-٣٤٠ ؛ الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٣٩-٣٤٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٦-٢٨٧ ؛
Setton : op . cit , volume 2 , p566-567 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٢٥-١٢٤٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٣١-١٩٥٤ ؛
Kedar , Benjamin : crusade and mission , press , united states of America , 1984 , p161-168 ; .Holt , P.M : the age of the crusade ,London ,1986 ,p83-84 .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٩-٣٧١ ؛ ابن سباط: ج١ ، ص٣٤٩-٣٥٠ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٥-٢٦٦ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٤٧-٢٤٨ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٦٠-٣٦١ .

قائلاً : "كذا أفعل بالبحرية " (١) ، ويسميهم بأسمائهم (٢) .

ب- اعتمد توران شاه على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا ، وقد عبَّر عن ذلك العيني بقوله : "قدم الأراذل والأنذال ، وأبعد الأماثل والأكابر" (٣) وعلى ما يبدوا أن توران شاه وجد أولئك المماليك قد استبدوا بشؤون الحكم فخشي من ازدياد سطوتهم ، وأخذ بالحد من نفوذهم (٤) .

ج- أشار ابن تغري بردي أن توران شاه " احتجب عن الناس أكثر من أبيه " (٥) ، ولكن في الحقيقة من حق القائد الاحتجاب عن الناس أحياناً لإدارة شؤون دولته أو أموره الخاصة ، وأي احتجاب لتوران شاه طالما كان يمد السماط (٦) ، ويتناول الطعام مع كبار رجال دولته ! (٧) .

د- خلاف توران شاه مع أقطاي الجمدار المعروف بأقطيا أحد أمراء البحرية حيث وعده توران شاه عندما انطلق للمجيء به من حصن كيفا أن يُؤمره ، ولكنه عندما رأى ازدياد النفوذ المملوكي ، لم يف بوعده له (٨) .

هـ- طالب توران شاه زوجة أبيه شجر الدر بأموال وثروة أبيه ، واتهمها بأنها قد أخفتها عنه ، وهي التي أرسلت للمجيء به من حصن كيفا كي تُسلمه الحكم فتملكها الذعر ، والتجأت لطلب مساعدة البحرية ضد توران شاه (٩) .

كل ماتقدم جعل المماليك يحقدون على توران شاه ، فحاكوا مؤامرة بالتنسيق مع شجر الدر ، للتخلص

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٩٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨١-٧٨٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧٠-٣٧١ .

(٣) العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٥٩٦ .

(٤) ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٨ ؛ ابن سباط: ج١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٧ . ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٤٨ ؛ Mayer : op . cit , p263-265 .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧٠ .

(٦) السماط : المائدة السلطانية ، أو ما يبسط على الأرض من أجل وضع الطعام عليه . نجم ، زين الدين: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ط١ ،د.م ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ص٣٢٧ .

(٧) ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٤ .

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٤-٣٧١ ؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ج٧ ، ص٧ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٩٧ .

(٩) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٤-٧٨٢ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٨٦-٥٩٧ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٤٠-٣٦٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبـي على مصر ، ص٢٢٥ .

منه ،وتزعم المؤامرة أربعة من زعمائهم، لم تذكر المصادر منهم سوى أقطاي وبيبرس البندقداري (١) . انشغل توران شاه بالانتصارات التي حققها على الحملة الصليبية السابعة فضرب لنفسه برجاً خشبياً على شاطئ النيل في مدينة فارسكور ، وإلى جانبه دهليزاً سلطانياً (٢) ، وأقام الولائم ، ومد السماط بعد ظهيرة يوم الاثنين في ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ/٢ أيار سنة ١٢٥٠م ، ثم تناول طعام الغداء مع كبار رجال دولته ، وكان زعماء البحرية الأربعة بانتظار الفرصة المواتية ليفتكوا بتوران شاه ، وبعد أن انصرف الجميع وبقي توران شاه وحيداً هاجمه بيبرس وضربه بسيفه ، فتلقى الضربة بين أصابعه ، وما إن قام بيبرس بفعلته حتى فر هارباً ، بينما صعد توران شاه إلى برجه الخشبي ، وأخذ ينادي من نافذة البرج " من جرحني؟ قالوا : الحشيشية ، فقال لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ! " (٣) ، ثم استدعى الطبيب لمداواة جرحه ، وهنا خشي قادة المؤامرة على أنفسهم ، فأحاطوا بالبرج ، وأضرموا النار في البرج ، فرمى بنفسه من أعلى البرج ، والسهام تنهال عليه ، وهو ينادي " خذوا مُلكَكُم ، ودعوني أرجع إلى حصن كيفا " (٤) ، ورمى بنفسه على أقطاي مستجيراً به ، فما كان من أقطاي إلا أن ركله برجله ، ولم يكتف بذلك بل استل سهماً وصوبه نحوه ، فهرب ليرمي بنفسه في ماء النيل حيث أصابه أقطاي في جنبه ، مما أدى لاختلال توازنه ، ووصل إلى شاطئ النيل ورمى بنفسه في الماء وقبل أن يبتعد كثيراً تعاورته سيوف البحرية ، وأتت الضربة القاضية من قبل بيبرس حيث وجه له ضربة بالسيف " من تحت إبط اليد الأخرى فوقع قطعتين " (٥) ، وأصبحت جثته قطعتين وسقط ميتاً دون أن يتجرأ أحد على إنقاذه أو الاقتراب منه (٦) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١، ص٣٥٨-٣٦٠ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٥٩٧-٥٩٨ .

(٢) الدهليز السلطاني : خيمة حربية تُنصب للقائد ، وتختلف عن الخيَم التي تنصب أثناء الأعياد ، وفي أوقات السلم . نجم : ص٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٩٥ .

(٤) ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٤ .

(٥) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٥ .

(٦) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٢ ؛ ابن واصل : ج٦ ، ص١٢٨-١٣٠ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠، ص٥٩٧-٥٩٩ ؛ الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٤٠-٣٤١ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧١ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٣٦١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣٥٩-٣٦٠ ؛ ابن إياس : ق١ ج١، ص٢٨٤ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص١٩٣ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٤١ ؛ ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٠٥ .

كم هي نهاية مؤلمة للسلطان الأيوبي ، ولكن لماذا صمت الجميع دون أن يتجرأ أحد على إنقاذه ؟ أخوفاً من البحرية ؟ أم كرهاً بتوران شاه ؟

هذا هو حكم القوي على الضعيف ، لقد شكلت البحرية أكبر قوة عسكرية في مصر ، والأقوى هو الذي يحكم بغض النظر عن أن توران شاه صاحب الحق الشرعي في الحكم حيث وقف توران شاه أمام أمرين ، إما أن يكون دُمية بيد البحرية ، أو أن يقف بوجهها ويدفع حياته ثمناً لذلك ، فالمشكلة أنه دخل وحيداً في المعركة حتى أن رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا ، وسلمهم المناصب لم يدافعوا عنه ، وهذا دليل على أنه أخطأ في اختيار حاشيته التي خذلته في أحلك الظروف ، بينما قامت البحرية من على مائدته وغدرت به ، ولم تقم وزناً لذلك ، كما لم تقم وزناً لوالده الصالح نجم الدين أيوب الذي اشتراهم رقيقاً وصنع منهم رجالاً ، وصدق المتنبي في قوله :

لا تشـــتري العبـــد إلا والعصـــا معه إن العبيـــد لأنجـــاسٌ مناكيـــد

توفي توران شاه بعد شهرين ونصف من استلامه السلطنة ، وبقيت جثته في العراء ثلاثة أيام ، والسماط تتخاطفه الكلاب ، ولا يجسر أحد على الاقتراب منه ، وهناك روايتين حول دفنه فتشير الأولى إلى تدخل رسول الخليفة العباسي حيث سمح المماليك بدفنه (١) ، أما الرواية الثانية فنوهت إلى أن أحد صيادي الأسماك علقَه بسنارة صيد ، ثم ركب في القارب وجرَّه من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من النيل ، فبدى وهو يجره كأنه حوت علق بتلك السنارة حيث واراه التراب هناك (٢) .

لاحت بارقة أمل أمام لويس التاسع إثر مقتل توران شاه على الرغم من أنه كان لازال أسيراً ، ولكن سرعان ما انتشر خبر مقتله حتى بين الصليبـيين ، فموت توران شاه يعني انتهاء الحكم الأيوبي في مصر ، فضلاً عن عدم استقرار أوضاع المماليك في مصر بين عشية وضحاها ، وربما تكون هناك ثورة أيوبية في مصر ضد المماليك ، وإذا لم يحدث شيء من هذا فإن بني أيوب في بلاد الشام لا يمكن أن يخضعوا لسيادة مماليكهم ، وبذلك تنفصل عُرى الوحدة بين بلاد الشام ومصر ، وإذا ما حدث هذا ،

---

(١) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٢ ؛ المقريزي : السلوك، ق١ج١ ، ص٣٦٠ . الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧١ .

(٢) أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٦ .

فربما يستطيع لويس التاسع رد اعتباره ، وحينئذٍ يثأر للهزائم التي حلت بحملته الصليبية (١) .

انتهى حكم الأسرة الأيوبية في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وأضحى عرش السلطنة شاغراً ، فعقد أمراء البحرية اجتماعاً أسفر عن تسليم السلطنة لشجر الدر ، وأن يكون عز الدين أيبك التركماني(٢) أتابك (٣) ، العسكر ،فأصبحت أول سلطانة مملوكية ، وهي أمَة ذات أصل أرمني أو تركي اشتراها الصالح نجم الدين ثم أعتقها وتزوجها (٤) ، فأنجبت منه طفلاً سمته خليل ، توفي وهو صغير (٥) ، وبعد أن استلمت الحكم قبضت على زمام الأمور بقوة ، وتحاشت إبراز اسمها في المراسيم التي أصدرتها ، فوقعت المراسيم والكتب باسم أم الخليل نسبة لابنها المتوفى ، أو باسم المستعصمية كدلالة على نيابتها عن الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦) ، وأدارت أمور الدولة على خير ما يرام " حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية أحسن سياسة " (٧) ، لم تستطع شجر الدر مجابهة الرأي العام خارج مصر حيث ثار الأيوبيين في بلاد الشام ضدها وعلى الصعيد السياسي عقدت اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م مع لويس التاسع، واستعادت دمياط من أيدي الصليبيين ، وقد

---

(١) الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٤١-٣٤٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٠-١٩٤٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٨ ، ص١١٤٦-١١٦٠ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٤-٢٩٥ ؛ Brentano : le moyen age la croisade ,p296-299 ; Hakky , Ihsan : L,enseignement sous les Ayyubides et les premiers Mamluk en Syrie et Egypt , these de doctorat , volume3 , p1404-1405 .

(٢) عز الدين أيبك : هو عز الدين أيبك المعروف بالتركماني ، أصله من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد جعله جاشنكيره (الشخص الذي يتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً من دس السم فيه) ، وإثر مقتل توران شاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م سلمه المماليك البحرية أتابك العسكر مستغلين عدم قوة شوكته ، فيما إذا أرادوا عزله ، فساس البلاد بحنكة ودهاء ، وتزوج من أرملة سيده شجر الدر ، وعندما علمت بأنه قد خطب ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الأرمني تآمرت عليه ، وتم قتله سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٣-١٢ ؛ القرماني : مج٢ ، ص٢٦٧-٢٦٨ .

(٣) أتابك : أصلها أطابك ، وتعني الوليد الأمير أو الأمير الأب ، كما تعني أبو الأمراء ، وهو بمثابة نائب للسلطان ، وأول من تلقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي عندما فوضه ملكشاه في تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م . القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ج٤،ص١٨ .

(٤) النويري : ج٢٩ ، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ ابن تغري بردي ، يوسف : الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تح : فهيم شلتوت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، ص٣٣٠-٣٤٤ ؛ Hakky : op . cit, volume3 , p1400-1404 .

(٥) الفيومي، عبد البر : نثر الجمان، رقم المخطوط ٦١٩ ، مكتبة الأسد ، دمشق ، ورقة ١١٧ ؛المقريزي: السلوك ، ج١،ص٤٥٩ .

(٦) ابن تغري بردي :مورد اللطافة ، ص١٤٤-١٤٦؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٦ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٢ .

(٧) ابن إياس : ق١ ج١ ، ص٢٨٦ .

فتح استلامها أمام لويس التاسع آمالاً عريضة ، فظن بأن حكومة تقودها امرأة من السهل الإيقاع بها ، مما جعله يمتنع عن العودة إلى فرنسا ، وأصر على البقاء في مملكة عكا (١) ، وحمّلوها مسؤولية مقتل توران شاه (٢) ، كما احتج الخليفة العباسي المستعصم بالله (٣) ، فأرسل إلى مصر مُستهزئاً باستلام شجر الدر للحكم قائلاً : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نُسير إليكم رجلاً " (٤)، ليكون سيداً على مصر ، فما كان من أمراء البحرية إلا أن عقدوا اجتماعاً ، واقترحوا زواج عز الدين أيبك التركماني من شجر الدر ، وتسليمه الحكم بدلاً منها ، وقد استجابت شجر الدر لمطلبهم ، وتنحت عن السلطة أواخر شهر ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ/شهر تموز عام١٢٥٠م بعد أن دام حكمها حوالي ثلاثة أشهر ، ثم تزوجت من أيبك ، وتلقب بالمعز أيبك (٥) .

مما تقدم يلاحظ أن المماليك ظهروا على مسرح الساحة السياسية في مصر وازدادت مكانتهم لدى الجميع عدا توران شاه الذي خشي من نفوذهم المتزايد ، وعندما أراد الوقوف بوجههم غدروا به ودفع حياته ثمناً لذلك بل لا زال يُضرب المثل بمقتل توران شاه الذي مات جريحاً حريقاً غريقاً ، وعلى أنقاض الدولة الأيوبية في مصر نشأت دولة مملوكية فتية ، بدأت باستلام شجر الدر لها ، ولأول مرة في تاريخ مصر في العصر الإسلامي ، استلمت زعامتها إمرأة ، فساست البلاد بحنكة ودهاء ، ولكنها ما لبثت أن فُوجئت بسيل من الانتقادات ، فأُجبرت على التنحي عن العرش بعد أن استعادت دمياط من الصليبيين، وقامت بإجلائهم عنها (٦).

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٢-١٣٤؛ Smith : op . cit , p184-185 ; Mayer : op . cit , p260-265 .

(٢) الدواداري : ج٨ ، ص١٢-١٣ ؛ Stevenson : op . cit , p328-330 ; Holt : op . cit , p 83-84 .

(٣) المستعصم بالله : هو عبد الله ابن المستنصر بويع بالخلافة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وكان رجلاً سمحاً اتصف بهمة ضعيفة ، وخبرة ضئيلة في تدبير أمور البلاد ، فكان حاله كما يقال في الأمثال : من أضاع جنده في السلم لم يحفظوه في لقاء الخصم ، كما أخطأ في اختيار حاشيته حيث أشار عليه وزيره ابن العلقمي استرضاء المغول بالمال ، فساقه إلى حتفه حيث قتله هولاكو سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م السكتواري ، علي دده : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، رقم المخطوط ١٤٥٣٨ ، مكتبة الأسد ، دمشق ، ورقة ٣٠١-٣٠٦ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٤ .

(٥) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٤ ؛ النويري : ج٢٩،ص٣٦٢-٣٦٤ ؛ العاملي ، زينب : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، المطبعة الأميرية ، ط١،بولاق ، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م ،ص٢٢٥ .

(٦) ابن واصل : ج٦ ،ص١٢٤ ؛ المقريزي: السلوك ، ق١ج١ ، ص٣٤٦-٣٩٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٤٦-٢٥٢ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص٢٥٨-٢٥٩ ؛ Khader : op . cit , p33-35 .

٢- موقف الصليبـــيين والمماليك من اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

أطاح المماليك بسيدهم توران شاه ، ثم واصلوا المفاوضات مع لويس التاسع ، وانتهت تلك المفاوضات لعقد اتفاقية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وفرضت هذه المعاهدة التزامات على الجانبين المملوكي والصليبـــي ، وقد نظر الصليبـــيين إلى المماليك على أنهم أخلوا بالاتفاقية ، كما نظر المسلمون إلى الصليبـــيين على أنهم خرقوا الاتفاقية (١) وقد تضمنت ما يلي: توجب على لويس التاسع تسليم دمياط للمسلمين ، والعودة إلى فرنسا ، وألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية (٢) ، وأن يدفع المبلغ المتبق من الفدية وهو مائتي ألف ليرة ذهبية ، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين في السجون الصليبـــية (٣) ، بينما تعهد المسلمون بإطلاق سراح لويس التاسع ، وكبار رجال حملته ، والحفاظ على الأسلحة الصليبـــية ، واللحوم المملحة ريثما يتم دفع المبلغ المتبق من الفدية (٤) .

حلَف لويس التاسع الأيمان للمسلمين ، ووعدهم بتطبيق الاتفاقية التي أُبرمت ، ثم سلم دمياط وركب سفينته مغادراً إياها (٥) ، وهنا تشير المصادر الغربية أنه إثر إطلاق سراحه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، ودخول أهالي دمياط مدينتهم قد هاجموا المرضى والجرحى الذين تركهم لويس التاسع في دمياط ، ولكن لماذا ترك أولئك المرضى والجرحى ؟

لو أنهم كانوا مرضى وجرحى لأخذهم لويس التاسع على متن السفن التي أقلته مع كبار رجال حملته

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٤-١٣٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٩ ؛ باريس: ج٤٨ ، ص١١٥١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٠ ؛ ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٢ ؛
Aziz , Philippe : histoire de la franc , Paris , 1981 , volume 3 , p21300 .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣١٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٠-١٩٤١ ؛ السيوطي ، جلال الدين : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١،د.م، ١٣٧٨هـ/١٩٦٨م، ج٢ ، ص٣٦ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٦-١٣٧ ؛ Stambouli : op . cit , p257-259 .

(٥) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٨ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٨-١٤٢ ؛ المهندس ،محمود : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، المطبعة الأميرية ، ط١، بولاق، ١٣١٣هـ/١٩٨٥م ، ج٤ ، ص٢٥٦ ؛
Kedar , Benjamin: the franc in the levant 11-14 centuries , Britain , 1993 , p267-273 .

من أجل مداواة جراحهم ، مما يؤكد بأنه لم يترك خلفه جرحى إنما ترك حامية عسكرية لحراسة الأسطول والعتاد ريثما يَدفع المبلغ المتبقي عليه من الفدية ، كما أشارت تلك المصادر الأوربية إلى أن المسلمين أحرقوا لحوم الخنازير المُمَلحة ، وكسروا براميل الخمرة ، وأحرقوا الأسطول الصليبـــي (١) .

أما المصادر الشرقية فلها وجهة نظر مختلفة تماماً عن المصادر الغربية ، فقد نوهت إلى أن أهالي دمياط بعد عودتهم لدمياط كردة فعل على ما فعله الصليبـــيون بهم من تهجير وقتل وتدمير ، فقد اشتبكوا مع الجنود الصليبـــيين الذين تركهم لويس التاسع في دمياط لحماية العتاد العسكري ، وفي تلك اللحظة تدخل زعماء البحرية ، وضربوا أولئك الناس الذين اشتبكوا مع الصليبـــيين ، وأبعدوهم عنهم ، وهذا يؤكد رفض زعماء البحرية التام لهذا العمل (٢) ، ومن المحتمل أن المسلمين حطموا براميل الخمرة وأحرقوا لحوم الخنازير حيث لم يروا لها فائدة ، ولكن من المستحيل إحراق الأسطول الصليبـــي ، وبدلاً من إحراقه كان بإمكانهم أخذه كغنيمة والاستفادة منه بدلاً من إتلافه .

ما إن استقل لويس التاسع السفينة مع كبار رجال حملته إثر مغادرة شاطئ دمياط حتى أظهر سوء نيته تجاه المسلمين متناسياً العهود التي قطعها على نفسه ، فما إن أبحر من دمياط وابتعد قليلاً حتى أرسل رسالة للمماليك البحرية نعتهم فيها بقلة دينهم ، وضعف رأيهم ، ونقص عقولهم ، فأما أنه اتهمهم بقلة الدين بسبب غدرهم بسيدهم توران شاه ، ولم يرعوا عهد والده الصالح نجم الدين أيوب الذي رباهم صغاراً ، وصنع منهم أمراءً وقادة ، بعدما كانوا عبيداً أذلاء ، وأما عن ضعف رأيهم فلأنهم سلموا قيادتهم لامرأة ، بينما اتهمهم بنقص العقل لأن لويس التاسع لم يتوقع أن يطلب المماليك منه ذلك المبلغ الزهيد الذي كان أربع مائة ألف ليرة ذهبية لقاء إطلاق سراح الآلاف من الأسرى الصليبـــيين ، وقد نوه عن ذلك قائلاً : " وحق ديني لو طلبتم مني مملكتي دفعتها إليكم ، حتى أخلص " (٣) ، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن لويس التاسع ما إن أصبح حراً طليقاً حتى خرق الاتفاقية ، ربما أنسته فرحته بالنجاة من الأسر الأسرى الصليبـــيين ، فإذا ما أخل بالاتفاقية فربما يؤدي ذلك لقتل المماليك للأسرى ، ولكن بالرغم من ذلك لم يفعلوا ، وهذا ما أدى لندم المماليك البحرية لأنها لم تقتل

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥١-١١٥٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤-١٩٤٥ ؛ بردج : ص٢٧٢ ؛ Dagen : op . cit , p72 .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٥٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج٦ ، ص٣٦٩ .

(٣) الحريري : الإعلام والتبيين ، ص١٠٠ ؛ منتخب الزمان ، ص٣٤٢ .

لويس التاسع عندما اقترح عليهم حسام الدين الهذباني قتله بعد استعادة دمياط ، فعارض أيبك وشجر الدر (١) ، وقد ردَّ المعز أيبك على استهزاء لويس التاسع بقصيدة من نظم الشاعر المصري يحيى ابن مطروح من أهم أبياتها ما يلي :

وقـــل لهـــم إن زعمـــوا عـــودةً	لأخـــذ ثـــأر أو لفعـــل قبيـــح
فـــدار ابن لقمـــان على حالـــها	والقيـــد باق والطواشـــي صبيـــح

وفي هذا تعبير بليغ ، وتهديد واضح وصريح إلى لويس التاسع إذا ما أصر على نقض الاتفاقية (٢) .

قرر لويس التاسع نقض الاتفاقية بطريقة لبقة خوفاً من انتقاد الصليبـــيين له ، فيما إذا انتقدوه ، مع العلم أن شيءً من هذا لم يحدث ، ولكن تحسباً لذلك فإن لويس التاسع أراد أن يتحرر من اليمين الذي قطعه على نفسه للمماليك من أجل تطبيقه الاتفاقية ، فعقد اجتماع سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م ، حضره النائب البابوي والنبلاء الصليبـــيين ، ورجال الدين والعلمانيين من أبناء الكيان الصليبـــي حيث بدأ لويس التاسع بذكر بنود الاتفاقية التي عقدها مع المماليك ، وعرض على الحضور التحكيم ، ومعرفة فيما إذا أحل المماليك بها ، فإن أخلوا فهو يريد التحرر من اليمين الذي قطعه على نفسه ، " وبعدما جرى فحص القضية ومناقشتها تماماً من قبل جميع الحضور " (٣) ، قرر النائب البابوي في نهاية الاجتماع تحليل لويس التاسع من يمينه ، فأصبح غير مرتبط بالاتفاقية التي عقدها مع المسلمين (٤) ،ولكن في حقيقة الأمر أغمض أولئك الأعضاء أعينهم عن مساوئ لويس التاسع ، وركزوا على مهاجمة المسلمين للجنود الصليبـــيين الذين أبقاهم لويس التاسع في دمياط ، فلماذا لم يسألوه لماذا لم يدفع الفدية ؟

وهل كان صادقاً مع المماليك عندما وعدهم بألا يسيء إليهم ،وألا يقصد سواحل المسلمين مرة ثانية ؟ فيما يتعلق بالفدية أشار أحد مؤرخي الغرب المعاصرين ويدعى أنتوني بردج إلى ذكاء لويس التاسع وحنكته وبعد نظره في تخلُّصه من دفع الفدية ، بينما وجه انتقاداً لاذعاً لأهالي دمياط الذين هاجموا الجنود الصليبـــيين لأنهم لم يكونوا سوى مرضى وعجزة ، في الوقت الذي أشاد فيه بلويس التاسع

---

(١) الحريري : الإعلام والتبيين ، ص٩٩-١٠٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٩-٣٧٠ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٥٢-٥٣ .

(٢) الحريري : منتخب الزمان ، ص٣٤٢ ؛ ابن إياس : ق١ ج١ ، ص٢٨٢-٢٨٣ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٢-١٩٥٣ .

على مماطلته عن دفع الفدية (١) ، بينما راح بعض مؤرخيهم أمثال مكسيموس مونرود إلى الادعاء بأن لويس التاسع دفع الفدية كاملةً (٢) وفي الحقيقة لم يماطل لويس التاسع في دفع الفدية فحسب (٣) بل أثار الفتنة بين دمشق والقاهرة ، فهو لم ينتهك الاتفاقية فقط بل أشعل حرب أهلية ، ولَيْتَه اكتفى بعدم دفع الفدية (٤) .

أما فيما يتعلق بعدم إساءة لويس التاسع للمسلمين ، وعدم مهاجمتهم ، فإنه لم يترك وسيلة لضرب المسلمين إلا واتبعها حيث راح يراسل المغول لإدخالهم في دوامة الحروب الصليبيـــية (٥) ، كما حاول كسب الحشيشية ، وأرسل لهم الهدايا الفاخرة لكسبهم ضد الأيوبيين ، لكن الحشيشية لم تستجب لرغباته (٦) ، ولم يتورع عن مهاجمة المسلمين كلما سنحت له الفرصة كحملتيه على قلعة الصبيبة وبانياس سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م (٧) .

وأما فيما يتعلق بإطلاق سراح لويس التاسع للأسرى المسلمين فقد سكتت المصادر الإسلامية عن ذلك ، بينما أشار صاحب ذيل روثلين إلى أنه أطلق ثلاثمائة أسير من المسلمين وأرسلهم إلى مصر (٨) ، ويمكن الإشارة إلى أن لويس التاسع انتهز النـــزاع الأيوبي – المملوكي ، فأخرج الأسرى من السجون

---

(١) بردج : ص٢٧٢ .

(٢) مونرود : مج٢ ، ص٣٣١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص١٧٤-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبـــية ، ج٢ ، ص١٠٩١ .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٢٠ ، ص٥٥-٦١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١٥-٦٢٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٦-١٩١ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧-١٢٠٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠-١٩٥٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٥٤-١٥٥ ؛
Stevenson : op . cit , p329-330 .

(٥) المهندس : ج٤ ، ص٢٥٣-٢٥٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٥٠٩-٥١١ ؛ عاشور : الحركة الصليبـــية ، ج٢ ، ص١١٠٠-١١٠١ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p522-525 .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٧-١٦٩ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٢٣٦-٢٣٧ ؛
Brellier : op . cit , p226-227 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٧ -٢١٩ ؛
Stevenson : op . cit , p331 .

(٨) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ .

المصرية دون أن يدفع ليرة واحدة لفديتهم (١) .

وعلى هذا يلاحظ أن الصليبـــيين لا عهود لهم ولا مواثيق ، وهذا ما يُذكرنا اليوم بالصهيونية التي ضللت الرأي العام العالمي بتصريحاتها ، ووعودها للشعب الفلسطيني صاحب الأرض بإنشاء دولته المستقلة، فهي اعتادت في كل مؤتمر أن تنفي ما قالته في المؤتمر الذي سبقه ، وإن هناك تشابه كبير بين الصهيُونية ولويس التاسع من حيث المماطلة والتهرب من الحقائق ، ولكن إذا ما أردنا أن نكون واقعيين فالمشكلة لا تكمن في لويس التاسع والصهيُونية ،إنما تكمن المشكلة في الأيوبيين والمماليك هذا في الأمس والعرب اليوم بعد أن تفرقت كلمتهم ، وتشتت شملهم ، وهذا في الوقت الذي يتبدل فيه المعتدي عشرات المرات حسب ما تقتضي مصلحته ، وعلاوة على ذلك تدَّعي الصهيُونية بأنها مظلومة وبائسة ، على الرغم من كل اعتداءاتها على العرب ، كما أن لويس التاسع عقد اجتماعاً ليتحلل من يمينه تجاه الاتفاقية التي عقدها مع المماليك ، وقد أيده رجاله ، وأكدوا له بأنه هو صاحب المبادئ السامية ، بينما المماليك ليسوا أهلاً للعهود .

لم يحققْ لويس التاسع ما حققه من مكاسب لولا الخلاف الأيوبي – المملوكي ، فهو لم ييأس من إشعال الفتنة بينهما حتى استطاع في النهاية إطلاق سراح الأسرى الصليبـــيين من أيدي المماليك دون أن يدفع فديتهم (٢) .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٥٥-٦١ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٢٠٧ ، ج٤٩ ، ص١٣١٠-١٣١١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٥-١٩٥٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٥٦-١٦١ ؛

Brentano : le moyen age la croisade , p296-299 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٤٢-٢١٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤-١٩٥٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٢-٥١٣ ؛

Edde : op . cit , p150-154 .

٣- إطلاق سراح الدفعة الأولى من الأسرى الصليبـــيين .

انتهز لويس التاسع حالة التوتر الأيوبي المملوكي أملاً بإخراج الأسرى الصليبـــيين من السجون المصرية ، والحصول على المزيد من التنازلات من الأيوبيين والمماليك ، فراسل المماليك ، وحاول استمالتهم ، ولوح لهم بالمساندة ضد تهديد الزعيم الأيوبي الناصر يوسف الثاني لهم ، في الوقت الذي خشيت فيه السلطنة المملوكية من تشكيل حلف أيوبي ـــ صليبـــي يقضي على دولتهم الفتية ، فأرادت كسب لويس التاسع والإذعان لمطالبه ، وأصبح لويس التاسع سيد الموقف في ظل الانشقاق الأيوبي المملوكي ، ووجد بشكل مبدئي أن مصلحته تكمن في محالفة المماليك ، ريثما يتم إطلاق سراح الأسرى الصليبـــيين من السجون المملوكية (١) .

أرسل الناصر يوسف الثاني إلى لويس التاسع لإقامة تحالف بينهما ضد المماليك ، فلم يعطه جواباً صريحاً ، لأن قضية الأسرى آنذاك كانت أهم قضية لديه ، وعندما تأكد بأن بني أيوب أرادوا استجداءه (٢) ، أرسل إلى المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م وفداً صليبـــياً برئاسة حاكم حيفا جَانْ دي فَالَنسينْ(Jean du Valencienne) حيث انطلق ذلك الوفد من عكا إلى دمياط ، ووجد أمراء المماليك البحرية قد غادروا دمياط إلى القاهرة ، فتابع الوفد مسيره إلى القاهرة ، والتقى مع زعماء المماليك البحرية ، وقدَّم إلى زعيمهم المعز أيبك مطالب واقتراحات لويس التاسع التي تتلخص بما يلي :

إذا ما أراد المعز أيبك محالفة لويس التاسع ضد بني أيوب في بلاد الشام ، فإن ذلك مقرون بإخراج الأسرى الصليبـــيين من السجون المملوكية ، وإعادة العتاد العسكري الصليبـــي الذي بقي في دمياط ، ثم وجه جَانْ دي فَالَنسينْ إنذارا إلى أيبك ، فيما إذا لم يوافق على مطالب لويس التاسع ، فإنه لن يتورع عن محالفة الأيوبين في بلاد الشام ، وأمام ذلك التهديد استبقى السلطان المملوكي الوفد ريثما

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٩٣-٦٢٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص١٧٢-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٥-١٩٥١ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p498-500 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧ ؛ Smith : op . cit , p186 .

تتم دراسة مطالب لويس التاسع (١) .

نظر أمراء المماليك البحرية وعلى رأسهم المعز أيبك إلى الظروف الصعبة التي ألمت بهم ، حيث لم ينظر بنو أيوب في بلاد الشام بعين الرضى للانقلاب المملوكي الذي أطاح بتوران شاه ، فأعلنوا العداء لهم ، واستعدوا لمهاجمة مصر (٢) ، كما أنِفَ بعض زعماء المماليك البحرية (٣) ، استلام المعز أيبك سلطاناً عليهم ، فقد كان أولئك الزعماء أكثر منه قوةً ومكانةً ، فعمد أمراء البحرية أمام التهديد الأيوبي والمعارضة الداخلية لتعيين الأشرف موسى المعروف بأقسيس (٤) ، سلطاناً على مصر ، وأن يكون المعز أيبك شريكاً له في الحكم ، ويساعده زعماء البحرية في إدارة شؤون مصر (٥) ، بينما راحت مجموعة من المماليك البحرية بزعامة ركن الدين خاص ترك وجمال الدين آقوش تراسل

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤-١٩٤٥ ؛ زيادة : ص٢٤٧ .

Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٧٩-٧٨٠ ؛ أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٦-٣٦٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص٢٥٩-٢٦٠ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٣٦٣-٣٦٧ .

(٣) زعماء البحرية الذين احتجوا على استلام أيبك هم : فارس الدين أقطاي مقدم البحرية ، والأمير ركن الدين الرشيدي ، وسنقر الرومي ، وهؤلاء هم من أكابر المماليك الصالحية نسبة إلى سيدهم الصالح نجم الدين أيوب . ابن واصل : ج٦ ، ص١٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥ .

(٤) الأشرف موسى : هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك الناصر يوسف الثاني بن الملك المسعود بن الكامل بن العادل الأيوبي ، وقد عاش هذا الغلام عند عماته القطبيات في القاهرة ، وقد عُرفن بالقطبيات نسبة لشقيقهن الملك المفضل قطب الدين أحمد ، حيث بلغ الأشرف ست سنوات من العمر ، بينما أشار ابن تغري بردي إلى أن عمره عشرة سنوات ، وبعد أن أحضر زعماء البحرية ذلك الصغير سلموه السلطنة ، وخطبوا له على المنابر ، وخرجت المراسيم موقعة باسمه واسم شريكه في الحكم المعز أيبك مع العلم أن تعيينه قد تم بعد تسليم أيبك بخمسة أيام في شهر جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ/ شهر آب عام ١٢٥٠م . العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٠٥-٦٢٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٥٣-٢٥٤ ؛ النفحة المسكية في الدولة التركية ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١،صيدا وبيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ص٤٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥-٦ .

(٥) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ،ص٦٢٢-٦٢٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٠ ؛ ابن سباط: ج١ ،ص٣٥٦ ؛ المنصوري ،بيبرس: مختار الأخبار المعروف بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تح : عبد الحميد حميدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص٩ ؛

Edde : op . cit , p151 .   Holt: op . cit , p 84.

المغيث عمر سيد الكرك لتسليمه مصر (١) ، فما كان من المعز أيبك أمام التمرد الداخلي والخطر الخارجي إلا أن أعلن بأن مصر هي للخليفة العباسي المستعصم بالله ، وهو وأقسيس يحكمان مصر بالنيابة عن الخليفة العباسي (٢) .

إن الأوضاع العصيبة التي ألمت بمصر والظروف الصعبة جعلت المعز أيبك أكثر مرونة مع السفير الصليبـــي جَانْ دي فَالَنسينْ حيث خشي من مخالفة لويس التاسع للناصر يوسف ملك دمشق ، فأطلق سراح قسم من الأسرى الصليبيـــين من أصل اثنا عشر ألف أسير (٣) ، واختلف المؤرخون حول عدد الأسرى الذين أُطلق سراحهم ، فأشار جوانفيل على أنهم " مائتي فارس أطلق سراحهم من الأسر إلى جانب رجال من مراتب أدنى ، وجميع عظام كونت دي بريين " (٤) ، وقد اكتفى جوانفيل بتحديد عدد الفرسان ، ونوه صاحب تاريخ هرقل إلى أن عددهم بلغ تسع مائة وواحد وعشرون أسير (٥) ، بينما كان صاحب ذيل روثلين أكثر دقة في تحديد مجموعة الأسرى التي ضمت " مقدم الاسبتارية مع خمسة وعشرين فارساً من الاسبتارية ، وخمسة وعشرين فارساً من الداوية ، وعشرة فرسان من اسبتارية الألمان (التيوتون) ، ومائة فارس علماني ، وستمائة من السجناء الآخرين من الرجال والنساء " (٦) ، ويبدو أن عدد الأسرى تراوح مابين خمس مائة إلى ألف أسير .

قاد جَانْ دي فَالَنسين الأسرى الصليبيـــين ، وأرسل المعز أيبك مع فالنسين سفارة مصرية ، كلّفها السلطان المملوكي أن تعرض على لويس التاسع إنشاء حلف مملوكي ــ صليبـــي ضد الأيوبيين ،

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٤٢ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٤ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص١٤ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٠ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٨-٢٦٩ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٥ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p498 ; Holt: op . cit , p84 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٥ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p500 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢ .

مقتل كونت دي بريين : هو وولتر كونت يافا الذي قتل إثر معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، وذلك بعد انتصار الصالح نجم الدين أيوب وحلفائه الخوارزمية على الجيش الصليبـــي ــ الأيوبي حيث حُمل وولتر إلى يافا بعد أن طلب المسلمون منه تسليم مدينة يافا مقابل إخلاء سبيله ، وبالفعل فقد حملوه إلى أبواب يافا ، وبدلاً من تسليم المدينة طلب من أهاليها المقاومة وعدم الاستسلام ، فقتله المسلمون . باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٢١٤-١٢١٦ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٣٩٤-٣٩٥ .

(٥) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢ .

(٦) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ .

وساروا جميعاً ، فقصدوا عكا حيث كان هناك لويس التاسع ، ووصلوها في ١٩ رجب سنة ٦٤٨هـ/ ١٧ تشرين الأول سنة ١٢٥٠م (١) .

بالغ المؤرخون الغربيين في وصف حالة أولئك الأسرى الذين قدموا مع جَانْ دي فَالَنسينْ حيث وصفوهم بأنهم ارتدوا ثياباً ممزقة ، وقد عانوا أصنافاً من التعذيب والآلام على أيدي المماليك حتى أن الصليبـــيين الذين استمعوا لحديث الأسرى جرت دموعهم وكأنها سواقي الأنهار (٢) ، بينما لم تذكر المصادر الشرقية شيء من هذا القبيل أبداً ، ولا يوجد لهذه المبالغة سوى تفسير واحد فمن المحتمل أن أولئك الأسرى أرادوا استعطاف لويس التاسع وحثه على الإسراع بإخراج أهلهم وذويهم من الأسرى الذين تركوهم وراءهم في السجون المصرية ، وقد شجعهم على ذلك تحسن العلاقة الصليبـــية ـ المملوكية ، وبشكل خاص بعد قدوم سفارة مصرية إلى عكا .

لكن يلاحظ أن المماليك عاملوا الأسرى على أنهم بشر ، بينما كان لويس التاسع في الأمس يهدد الصالح نجم الدين أيوب ، ويتوعد بأن يسوق الناس أمامه كالبقر ، فمهما عانى أولئك الأسرى لن يعانوا أكثر مما عاناه المسلمين على أيدي الطغاة الصليبـــيين ، ومن يُقلب صفحات الحروب الصليبـــية لا يتأكد من قسوة الصليبـــيين فحسب بل يتأكد من انعدام الرحمة من قلوبهم تجاه المسلمين (٣) .

لم يرض لويس التاسع بذلك العدد القليل من الأسرى، وبخاصة بعد أن وصلت سفارة مملوكية لأن هذا يعني بأن المماليك هم بأمس الحاجة إلى لويس التاسع حيث طلبت السفارة منه إنشاء تحالف مملوكي ـ صليبـــي ضد بني أيوب في بلاد الشام ، فاغتنم لويس التاسع الخلاف الأيوبي - المملوكي ، وأملى شروطه على السفارة المملوكية ، فأكد لها إذا ما أراد المماليك التحالف معه يتوجب عليهم إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبـــيين ، والتنازل عن المبلغ المتبق من الفدية على لويس التاسع (٤) .

عادت السفارة المملوكية إلى مصر ، وبرفقتها جَانْ دي فَالَنسينْ، وعلى ما يبدو أن السفارة

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣ ؛ يوسف: العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٥٩ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٦-١٩٤٧ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٢٣ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٣٣٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣-١٧٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبـــية ،ج٢ ، ص١٠٩١ ؛ زيادة : ص٢٤٨ .

الصليبـــية انتظرت طويلاً في مصر نتيجة للاضطرابات التي مرت بها مصر عشية قدوم جَانْ دي فَالَنسينْ إليها (١) .

ولا بد من الوقوف على أوضاع مصر لمعرفة الظروف التي مرت بها ، ومدى تأثيرها على العلاقة المملوكية _ الصليبـــية ، لقد واجه المعز أيبك معارضة من قبل العربان في الصعيد المصري ، فاضطر لإلقاء القبض على أمرائهم لإنهاء تمردهم (٢) ،كما حاول السلطان المملوكي إشغال المصريين بنقل رفاة الصالح نجم الدين أيوب من جزيرة الروضة إلى الصالحية في القاهرة ، وذلك في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٠ م حيث أقيم العزاء وحلق المماليك رؤوسهم دليلاً على حزنهم العميق على سيدهم الراحل " وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر ، وأقيمت عليه المآتم بالدفوف" (٣) ، ربما استهدف المعز أيبك من ذلك إظهار محبته للسلطان الراحل لعله يكسب المصريين ، ويُهدء من روعهم وغضبهم تجاه انتقال السلطة من أيدي الأيوبيين إلى المماليك (٤) ، كما أراد المعز أيبك كسب الشعب المصري ، وبخاصة أمام التهديد الأيوبي للمماليك في بلاد الشام (٥) ، فقد خشي من هجوم مفاجئ على مصر من قبل الأيوبيين أو الصليبـــيين وربما الاثنين معاً ، فاقترح الأمراء البحرية عليه هدم دمياط ، لأن الصليبـــيين قد قصدوها أكثر من مرة فضلاً عن موقعها الحصين ، فإذا ما استولى عليها الصليبـــيين قد تكون معقلاً لتهديد مصر برُمتها ، وبالفعل أخذ المعز أيبك برأيهم ، وأرسل الصناع والحجارين إلى دمياط " فأزيلت أسوارها ومُحيت آثارها ، و لم يبق منها سوى الجامع" (٦) ، وبنوا مدينة في الجنوب من دمياط بحيث أبعدوها عن الشاطئ ، سموها المنشية ،

(١) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٧٤ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p500-502 .

(٢) المقريزي : السلوك ،ج١ ، ص٤٦٦ ؛ ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٩ .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٤٤ .

(٤) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٦ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٥ .

(٥) ابن كثير : ج٧ ، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦-٧ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٤١٩-٤٢٠ .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٦ .

وقد استقر أبناء دمياط فيها (١) ، وكل هذا أدى إلى تأخر جَانْ دي فَالَنسينْ في مصر .

وعلى هذا أصبح لويس التاسع سيد الموقف في ظل الحرب التي اشتعلت نيرانها بين الأيوبيين والمماليك ، فنجح في تأجيج نار العداء بينهما ، وأخذ يتوعد المماليك ، فإما أن يرضخوا لمطالبه ، وإما أنه آتٍ على رأس جيشٍ صليبـــي ـــ أيوبي لتدمير مصر ، مما أخاف المماليك فما لبثوا أن استجابوا لمطالبه ، وأطلقوا سراح دفعة من الأسرى الصليبـــيين دون أن يستلموا ليرة واحدة من الفدية التي تعهد لويس التاسع بدفعها ، ولم يؤد هذا التواطؤ مع لويس التاسع لكسب صداقته بل انعكس سلباً على المماليك حيث أخذ يطالبهم بالمزيد من التنازلات ، ولم يكن يتجرأ على التهديد والوعيد لولا الاضطرابات الداخلية التي عاشتها مصر ، فضلاً عن التهديد الأيوبي لها (٢) .

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٤٥-١٤٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٦٢ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص١٥ ؛ الحريري : الإعلام والتبيين ، ص١٠١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-١٧٩ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١١٩٧-١٢٠٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٧-١٩٥١ ؛
Setton : op . cit , volume 2 , p566-567 .

٤- معركة العباسة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م .

راح الناصر يوسف الثاني ينتظر عبثاً موافقة لويس التاسع لعله يستجيب لطلبه في إنشاء حلف أيوبي _ صليبي ، وقد طال انتظاره ، ولم يخف عنه التطور الذي طرأ على العلاقة المملوكية _ الصليبية ، فخشي من مغبة الأمر ، وأراد تدمير تلك العلاقة في مهدها قبل أن تتطور ، وتشكل خطراً على الأيوبيين في بلاد الشام (١) ، وبخاصة بعد أن أخذوا بالتمادي حيث هاجم أقطاي غزة في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٠م ، وهزم القوات الأيوبية التابعة للناصر يوسف الثاني (٢) .

نظراً لإخفاق المحاولة في إنشاء تحالف أيوبي مع لويس التاسع ، وهزيمة الأيوبيين في غزة قرر الناصر يوسف الثاني مهاجمة مصر ، وقد شجعه على ذلك قائد جيشه شمس الدين لؤلؤ الذي " كان يستهزئ بالعساكر المصرية ويقول : آخذها بمائتي قناع " (٣) ، كما شجعه أيضاً الكتب التي وصلته من المصريين لتسليمه مصر ، ولكنه لم يدرك بأن تلك الكتب التي كانت تأتي " من الأصاغر فيظنها من الأعيان " (٤) ، فحشد الناصر يوسف الثاني جيشاً من الملوك الأيوبيين في بلاد الشام (٥) ، وانضم إليه مماليكه الناصرية ، ومماليك والده الذين عُرفوا بالعزيزية ، ثم انطلق الجيش الأيوبي قاصداً مصر (٦) .

وصلت أنباء المسير الأيوبي نحو مصر إلى المماليك ، فأخذ المعز أيبك بالاستعداد لمواجهة الموقف

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤-١٧٣ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٨٣-١٢٨٤ ؛
Edde : op . cit , p151-153 .

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص١٤٣ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٦ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص٢٩ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p498-499 .

(٣) العيني : الموسوعة ؛ج٦٠ ، ص٦٠٨ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦ .

(٥) ملوك بني أيوب الذين انضموا للناصر يوسف الثاني في معركة العباسة هم : الملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم صاحب حمص (٦٤٦-٦٦٢هـ/١٢٤٨-١٢٦٣م) ، والمعظم توران شاه بن صلاح الدين وأخوه نصرة الدين الذي توفي بدمشق سنة ٦٦١هـ/١٢٧١م ، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل الأيوبي ، والملك الأمجد تقي الدين عباس بن العادل ، والأمجد حسن والظاهر شادي ابنا الناصر داود بن المعظم عيسى ، وغيرهم من الملوك . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٨ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٦ .

(٦) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٠-٧٨١ ؛ ابن واصل : ج٦ ، ص١٥٥-١٥٦ .

وبدأ بإخراج المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك ابنا الصالح عماد الدين إسماعيل من السجن ، وقد كانا في السجن منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب، وبالغ المعز أيبك في إكرامهما ، وربما استهدف من ذلك تهدئة المعارضة الأيوبية في مصر ، ومن المحتمل أنه أراد بث الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والصالح إسماعيل لأن إخراج ولدي الصالح إسماعيل من السجن في ذلك الوقت بالذات أمر مثير للاستغراب ، فهذا يعني بأن الصالح إسماعيل الذي سار إلى جانب الناصر يوسف الثاني ربما يكون على تواصل مع السلطان المملوكي وينضم إليه إذا ما بدأت المعركة(١) ، كما أن المعز أيبك أثار دعاية مفادها بأنه قد تصالح مع الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، علماً بأن صاحب الكرك التزم الحياد ، ومن المحتمل أنه أراد إثارة مخاوف ملك دمشق من هجوم مفاجئ على جيشه من قِبل صاحب الكرك ، وهنا لا يتجرأ الناصر يوسف الثاني على متابعة مسيره نحو مصر (٢) ولكن تلك المناورات لم تكن مجدية حيث وصل الجيش الأيوبي إلى منطقة تدعى الكراع قريباً من العباسة (٣) ، وقد عسكر فيها ، بينما عسكر المماليك أمام الجيش الأيوبي في منطقة تسمى سَموط ، وأصبح الجيشان وجهاً لوجه (٤) .

انتظم كل من الجيشين على شكل ميمنة وقلب وميسرة (٥) وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ الثاني من شباط عام ١٢٥١م ، اشتبك الجيشان (٦) ، ثم ما لبث الجيش المملوكي أن تراجع إلى العباسة ، بينما صمد المعز أيبك مع جماعة من البحرية

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩١ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٩ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٩ .

(٢) ابن واصل : ج٦، ص١٥٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٧ .

(٣) العباسة : قرية مصرية تقع مابين بلبيس والصالحية ، وسُميت العباسية نسبة إلى العباسة ابنة أحمد ابن طولون حيث خرجت لذلك المكان لوداع ابنة أخيها قطر الندى بنت خمارويه التي زُفت عروساً إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله ، وبقيت العباسة منتزه لملوك مصر ، ومنهم الكامل محمد الأيوبي الذي كان يقصدها لصيد السمك والطيور ، وقد أنشأ الظاهر بيبرس السلطان المملوكي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م على وادي العباسة قرية الظاهرية ، وبنى في وسطها جامعاً . المقريزي ، أحمد: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد ، دار الفرقان ، لندن ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، مج١ ، ص٦٢٨-٦٢٩ ؛ أبو الفداء ، إسماعيل : تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، ص١٠٨ .

(٤) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٨ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٧ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص١٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٨ .

(٦) يُنظر المصور رقم (٨) ، ص٣٠٧.

" لا يزيدون على سبعين فارساً " (١) ، وتابع الجيش الأيوبي فلول المماليك إلى العباسة ، وضربوا دهليزاً للناصر يوسف الثاني ، بينما بقي الناصر في مكانه تحت السناجق السلطانية ، وإلى جانبه المماليك العزيزية (مماليك الملك العزيز صاحب حلب والد الناصر يوسف الثاني) ، وهنا أراد السلطان المملوكي أن يبحث عن مكان آمن يختبئ فيه بعد هزيمة جيشه ، ولا سيما بعد أن راح خطباء المنابر في بعض مساجد مصر يخطبون للناصر يوسف الثاني ، فظَنَّ الجميع بأنه لن تقوم قائمة للمماليك بعد تلك الهزيمة ، وفي تلك اللحظات الحاسمة غدرت المماليك العزيزية بالناصر يوسف الثاني، و لم ترض المماليك العزيزية بهزيمة أبناء جلدتها من المماليك البحرية ، فهاجمت سيدها الناصر يوسف الثاني ، ونهبت أمواله ، ثم انضمت للسلطان المملوكي ، وأضاف ابن واصل إلى أن المماليك الناصرية أصحاب الناصر يوسف الثاني غدروا به وساندوا المعز أيبك ، وحملت على الناصر يوسف الثاني وأعيان الأمراء الذين معه حملة رجل واحد وأسر أيبك معظم الأمراء الأيوبيين ، بينما ولى ملك دمشق هارباً ميمماً وجهه نحو بلاد الشام (٢) .

لا بد من العودة إلى الجيش الأيوبي المُنتصر الذي وصل العباسة ، فقد انشغل الأمير جمال الدين ابن يغمور أحد قادته بنصب دهليز للناصر يوسف وباتوا ينتظرون قدومه ، ولكنهم صُعقوا عندما علموا بأنه هُزم أمام قوات المعز أيبك ، وفرَّ هارباً إلى بلاد الشام ، مما أوقعهم في حيرةٍ من أمرهم ، فإذا هاجموا القاهرة قد لا يستطيعوا دخولها مع العلم لو أنهم تابعوا مسيرهم إليها لامتلكوها حيث ثارت القاهرة على المماليك ، وأخذت تهتف باسم ملك دمشق " الملك الناصر يا منصور " (٣) ، وإذا ما أرادوا العودة إلى بلاد الشام ، فإن قوات أيبك خلفهم ، وفي النهاية أجمعوا على العودة إلى بلاد الشام ، وما إن أرخى الليل سدوله حتى شدوا رحالهم ، وهرعوا نحو بلاد الشام حيث التقوا مع الناصر يوسف الثاني في غزة ، وعادوا من حيث أتوا يجرون ذيول الخيبة ، بينما دخل السلطان المملوكي القاهرة في صبيحة يوم السبت ١٢ ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ/ ٤شباط ١٢٥١م ، وبرفقته المماليك البحرية والعزيزية ،

---

(١) ابن واصل : ج٦، ص١٥٩ .

(٢) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٠-٧٨١ ؛ ابن واصل : ج٦ ، ص١٥٩-١٦١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٧-٤٦٩ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٦٩-٢٧٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٨-٣٦٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦-٨ ؛ أبو شامة: الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٧ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٠٨-٦١٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٧-٣٤٨ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p498-499 .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٠ .

وأُحيط بموكب مهيب ، وأُستقبل استقبال الأبطال ، وأمام ذلك الحشد قتل بعض الملوك الأيوبيين الذين وقعوا في الأسر ، كما قتل شمس الدين لؤلؤ أحد أهم قادة الجيش لدى الناصر يوسف الثاني، ثم لاحق العناصر المناوئة له في مصر (١) .

أسفرت معركة العباسة عن النتائج التالية :

أ – أكدت تلك المعركة ضعف الخبرة القتالية لدى الناصر يوسف الثاني، فلم يَجِدّ في المسير خلف جيوشه التي وصلت العباسة بينما بقي قابعاً في كراع ، فحوَّل النصر إلى هزيمة .

ب – انتصار المماليك ، ومقتل معظم الملوك الأيوبيين الذين اشتركوا في المعركة ، التي شكلت منعطفاً تاريخياً ، ونقطة تحول حاسمة ثبتت أقدام المماليك في مصر ، و لم يكتفوا بذلك بل استولى أقطاي على غزة (٢) ، " والساحل ونابلس إلى نهر الشريعة " (٣) .

د – إن المستفيد الأكبر في هذه الحرب هو لويس التاسع الذي راقب الأحداث عن كثب ، كذلك مؤرخو الغرب آنذاك الذين رصدوا الأحداث بدقة ، و لم يقحم لويس التاسع نفسه بتلك الحرب بل انشغل بتحصين مدينة قيسارية ، وكان على ثقة بأن كل من الأيوبيين والمماليك لا بد أن يخطبوا وده بعد أن أُنهك الطرفان فضلاً عن الخسائر الكبيرة التي حلت بهم في الأرواح والأموال (٤) .

إثر دخول المعز أيبك إلى القاهرة لم يتساهل مع المتواطئين من الأيوبيين ، فأعدم كل من كان يشك بميله للأيوبيين من أمراء مصر (٥) ، بينما لم يستطع ضبط المماليك البحرية الذين بالغوا في الفساد والنهب ، ربما استغلوا حالة الفوضى والحرب التي مرت بها مصر آنذاك (٦) ،

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٦٣–١٦٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٩–٦١١ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٩–٣٦٠ ؛ ابن الجزري : ص٢٢٥–٢٢٦ ؛ ابن العميد : ص٤٠–٤١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١–١٩٥٢ ؛ Edde : op . cit , p152-154 .

(٢) ابن واصل : ص١٥٩–١٦٧ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٠٨–٦١١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٧–٣٤٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٤ . نهر الشريعة : هو الجزء الجنوبي من نهر الأردن والممتد من بحيرة طبرية إلى البحر الميت . المقريزي : السلوك ، ج١ ، حاشية ص٤٧٤ .

(٤)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤–١٩٧ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٦ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،الموسوعة ، ج٣ ، ص٤١٠ ؛ Smith : op . cit , p186 .

(٥) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١١ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٠٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٨.

(٦) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧١ ؛ ابن العميد : ص٤١ .

ثم أفرج المعز أيبك عن ثلاثة آلاف مقاتل من أسرى معركة العباسة وأرسلهم إلى دمشق ، و لم يَستبقِ لديه سوى أبناء الأمراء كوسيلة ضغط على الأيوبيين في بلاد الشام ، ولاسيما بعد أن أدرك بأن أولئك المقاتلين لا ذنب لهم ، وكانوا مجبرين على تطبيق أوامر سادتهم من ملوك البيت الأيوبي (١) .

وعلى هذا خُيِّلَ للعيان بأن الجيش الأيوبي أوشك أن ينهي الوجود المملوكي وإلى الأبد ، ولكن معركة العباسة كانت إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ ، لأنها مهدت السبيل لقيام الدولة المملوكية التي استمرت حوالي قرنين ونصف من الزمن ، بينما وَلّى الجيش الأيوبي هارباً ، وفي مقدمة المنهزمين الناصر يوسف الثاني قائد الحشد الأيوبي ، و لم ينته النـــزاع الأيوبي المملوكي لأن الأيوبيين أرادوا الثأر للهزيمة التي حلت بهم بينما شعر المعز أيبك بضرورة توخي الحذر تجاه الأيوبيين (٢) ، علماً أن المستفيد الأكبر من هذه الحرب هو لويس التاسع الذي أتته فرصة جديدة تخدم الوجود الصليـــي في بلاد الشام (٣) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧١ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦١١ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩١-٢٩٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص١٩٨-٢٠٢ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٨-٣٦١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦-٩ ؛ ابن العميد : ص٤٠-٤١ ؛

Irwin : op . cit , p28-30 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤-١٩٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٦ ؛ ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٦٠ ؛

Stevenson : op . cit , p329-330 .

٥- اتفاقية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بين لويس التاسع والمعز أيبك .

انعكس النصر الذي حققه المماليك على الأيوبيين في معركة العباسة انعكس بشكل ايجابي على مملكة عكا الثانية حيث اتبع المماليك سياسة التسامح تجاه الصليبيين ، وهنا أراد لويس التاسع أن يحقق بطريقة دبلوماسية ما عجز عن تحقيقه بالقوة العسكرية ، فعمل على إذكاء نار الفتنة بين الأيوبيين والمماليك ، وتوصل في نهاية المطاف لعقد اتفاق مع المماليك كاد أن يحقق معظم رغباته في المشرق العربي الإسلامي (١) .

بقيت الأوضاع متوترة بين الأيوبيين والمماليك إثر معركة العباسة ، أما السفارة التي أرسلها لويس التاسع بقيادة جَانْ دي فَالَنسين إلى مصر فقد بقيت تنتظر انتهاء الصراع المملوكي ــ الأيوبي في معركة العباسة ، وترقب الأحداث لعلها تحصل على ردٍ حاسم ، وتُحقق الأهداف التي جاءت من أجلها ، وبالفعل ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى عقد زعماء المماليك البحرية اجتماعاً مالوا فيه إلى محالفة لويس التاسع ، فأرسلوا مع جَانْ دي فَالَنسين رسالة إلى لويس التاسع تضمنت وعوداً مغرية له إن لم يحالف دمشق حيث وعدوه بتسليمه بيت المقدس (٢) ، وإطلاق سراح ما تبقى من الأسرى الصليبيين لديهم ، والتنازل عن المبلغ المتبقي من الفدية (٣) ، وتعبيراً عن حسن نية المعز أيبك تجاه الصليبيين أطلق سراح دفعة ثانية من الأسرى الصليبيين بلغوا حوالي " التسعين من الفرسان الصليبيين مع ألفين ومائتين من الرجال والنساء " (٤) ، كما أرسل المعز إلى لويس التاسع بعض الهدايا الثمينة مثل التحف البلورية والعطور إضافة لفيل وحمار وحشي (٥) ، ويلاحظ بأن السلطان المملوكي أبدى اهتماماً زائداً بلويس التاسع أملاً في إرضائه ، فلماذا أذل نفسه إلى هذه الدرجة ؟

---

(١) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٠٩-٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٩-٦٢٩ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٦-١٣٠٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠-١٩٥٤ .

(٢) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٢٩ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .

(٣) باريس: الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٠٨-١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٤ ؛
Brentano : le moyen age la croisade , p298-299 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١ ؛ زيادة : ص٢٥٠ .

إن كان المعز أيبك يخشى من بني أيوب فقد أنزل بهم هزيمةً نكراء في العباسة ، ولكن ربما توقع هجوم آخر من قبلهم ، وخاف أن يكون ذلك الهجوم بالاشتراك مع لويس التاسع ، ومن المحتمل أنه رأى في جذب لويس التاسع ضرب القوتين الصليبـــية بالأيوبية ، وإشغال الطرفين عن دولته الفتية ريثما يشتد ساعدها .

عاد جَانْ دي فَالَنسين إلى لويس التاسع ، ومعه الأسرى الذين أُطلق سراحهم ، وقد حمل عروضاً مغرية إلى سيده (١) ، وفي الوقت نفسه أرسل الناصر يوسف الثاني سفارة إلى لويس التاسع سنة ٦٥٠هـ/١٢٥١م حيث كان الثاني في قيسارية ، وقد عرض عليه إنشاء تحالف ضد المماليك في مصر ، فلم يعط لويس التاسع السفارة رداً حاسماً ، فعادت من حيث أتت (٢) ، وهذا يدل على أن لويس التاسع رفض محالفة الأيوبيين بينما رغب في محالفة المماليك ، وذلك لأسباب عديدة ، وهي :

أ – أراد لويس التاسع التخلص من دفع الفدية المتبقية عليه ، وإطلاق سراح الأسرى الصليبـــيين فضلاً عن الحصول على بيت المقدس .

ب ـ لم يرغب لويس التاسع في الوقوف لجانب الطرف الأيوبي الضعيف الذي لم يصمد أمام المماليك ، وينتظر عبثاً مساعدته ، وقد كان بأمس الحاجة إلى حليف قوي يستفيد من قوته كالمماليك .

جـ – أراد لويس التاسع محالفة المماليك للوقوف في وجه الأيوبيين ، واستغلال الخلاف بينهما لصالح المشروع الصليبـــي (٣) .

عندما عاد جَانْ دي فَالَنسينْ من مصر إلى قيسارية رافقته سفارة مصرية اجتمعت مع لويس التاسع في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـ/شهر أيار عام ١٢٥٢م ، وتوصل الطرفان إلى عقد معاهدة نصت على البنود التالية : (٤)

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥١-١٩٥٣ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٦ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٨٨٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٩ ، ص١٣٠٨-١٣٠٩ Brellier : op . cit , p226-227 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٧٧ ؛ Setton : op .cit , volume 2 , p566-567 .

١ – تسليم بيت المقدس للصليبـــيين ، وإحياء أمجاد مملكة بيت المقدس الأولى (١) .

٢ – التعهد بقيام حملة مشتركة مملوكية – صليبـــية ضد الأيوبيين في بلاد الشام حيث تعهد لويس التاسع بإعداد قوة عسكرية والانتظار في يافا ، بينما تعهدت السفارة المملوكية بتشكيل جيش والتمركز في غزة ، ثم التقاء الطرفين في نقطة معينة من أجل مهاجمة بلاد الشام (٢) .

٣ – اقتسام الصليبـــيين والمماليك لبلاد الشام على أن تكون بلاد الشام للمماليك ، بينما يأخذ الصليبـــيين بيت لحم والجليل ونابلس والخليل والمنطقة الواقعة غرب نهر الأردن (٣) باستثناء " غزة وجباليا وجينين الكبيرة والداروم (دير البلح) " (٤) .

٤ – إخلاء سبيل جميع الأسرى الصليبـــيين الموجودين في مصر منذ معركة غزة الثانية سنة ٦٤٢هـــ/١٢٤٤م حتى رحيل الحملة الصليبـــية عن دمياط سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م (٥) .

٥ – تنازل المماليك عن الفدية المتبقية لهم في ذمة لويس التاسع ، والتي بقي منها مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية . (٦)

٦ – إعطاء الحرية للصليبـــيين الذين اعتنقوا الإسلام إذا ما أرادوا الارتداد إلى المسيحية أو البقاء على الدين الإسلامي ، (٧) ، أما الأطفال الصليبـــيين الذين اعتنقوا الإسلام فلا يخيرون ، إنما يتوجب على المماليك إعادتهم للصليبـــيين (٨) .

---

(١) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبـــية ، الموسوعة ،ج٣ ، ص٤١٠ ؛ Villeneuve : op . cit , p202-203 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ ؛ Edde : op . cit , p153 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٩٧ . Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٤ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٦ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .

(٧) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p502.

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٣-١٧٤ ؛ Stevenson : op . cit , p230 .

٧ – إرسال وفد صليبـــي إلى مصر للتفتيش عن الأسرى الصليبـــيين الذين لم تعترف السلطنة المملوكية بوجودهم لديها ، وإخراجهم من الأسر دون قيدٍ أو شرط (١) .

٨ – إنشاء علاقة صداقة بين لويس التاسع و المعز أيبك (٢) ، وإعلان الحرب على الناصر يوسف الثاني " على أساس أنه عدوهما المشترك والمضي بالعمل حتى تدميره " (٣) .

٩ – مدة المعاهدة خمسة عشر عاماً تبدأ منذ التوقيع عليها سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (٤) .

وما إن تم الاتفاق على بنود المعاهدة حتى أقسم لويس التاسع وأعضاء السفارة المصرية على احترام بنودها ، وعدم الإخلال بها (٥) .

أشار متى باريس إلى أن المعز أيبك التقى مع لويس التاسع ، وعقدا اجتماعاً لم يحدد مكانه ، وقد حضر مترجمين لنقل وجهات نظر كل طرف إلى الآخر ، وجرت محاورة بينهما مفادها أن لويس التاسع أظهر الحزن والأسى على ترك أمه بلانشيه في فرنسا ، وهو بعيداً عنها في الشرق ، و لم يحقق أهدافه التي أتى من أجلها ، فاستفسر المعز أيبك عن أهم هدف لديه في المشرق العربي الإسلامي ، فلم يعط جواباً صريحاً ، وهنا أشار المعز أيبك بأن الطمع في السيطرة على بلاد العرب المسلمين هو الذي قاده إلى الحالة المأساوية ورغبته في القضاء على المسلمين ، فرد لويس التاسع أن غايته ليست القضاء على المسلمين فحسب بل والأهم من ذلك إزهاق أرواحهم ، وهذا يدل على الحقد الأوربي ، وبخاصة من قبل رجال اللاهوت آنذاك ، صحيح أن هذه وجهة نظر متى باريس لكنه في الحقيقة يمثل وجهة نظر أوربا أو على الأقل فهو يمثل رجال الدين في أوربا ، بينما نوه المعز أيبك له بأن قتلى المسلمين في الجنة وقتلاهم في النار ، لأنهم شهداء في سبيل الدفاع عن أوطانهم وأموالهم وأعراضهم ، ولا توجد مشكلة بالنسبة لهم فليخسروا الحياة الدنيا في سبيل الحصول على السعادة الأبدية ، واستمرت المناقشات الدينية ، فانهمرت عينا السلطان المملوكي بالدموع ؛ ويتوقع متى باريس بأن ذلك دليل على ميّل المعز أيبك

---

(١) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٤٨ ؛ Stevenson : op . cit , p330 .

(٢) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٠٩-١٣١٠ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p502 .

(٣) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣١٠ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ؛ ص١٣٠٨-١٣٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على مصر ، ص٢٧٨ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٧٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

لاعتناق المسيحية (١) ولكن شيء من هذا لم يحدث فيما بعد .

وفي نهاية الاجتماع أكد لويس التاسع للمعز " بأنه لن يعود إلى فرنسا ، بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لِنَيلِ أرواح المسلمين " (٢) !

وفي الحقيقة يجب التحفظ تجاه هذه الرواية لأن المصادر العربية لم تتطرق لها ، كما أن جوانفيل مستشار لويس التاسع لم يتطرق لها ، ولو أن المقابلة تمت فعلاً لدَّونَ جوانفيل ذلك الحدث المهم ، وهذا يؤدي للشك في صحة الرواية (٣) .

وعلى هذا يلاحظ بأن المقدسات أصبحت وسيلة لتحقيق الأمنيات الرخيصة دون مراعاة لمشاعر المسلمين ، و لم يكتف المعز أيبك والناصر يوسف الثاني بذلك بل راح كلٌ منهما يسعى لكسب صداقة لويس التاسع ، وكأنَ الطرف الذي يقف لجانبه لويس التاسع لا بد أنه منتصر لا محالة (٤) ، وأخيراً حظي السلطان المملوكي بصداقة لويس التاسع ، وتوصل الطرفان لعقد معاهدة استسلامية انهزامية جاءت كل بنودها لصالح الصليبيين ، وتخيلَ السلطان المملوكي بأن هناك بند واحد لصالحه ألا وهو تشكيل قوة مشتركة مملوكية – صليبية لضرب الأيوبيين ، واقتسام بلاد الشام من قبل المماليك والصليبيين ، وقد تراءى إلى لويس التاسع أن تلك المعاهدة هي السبيل لإحياء أمجاد مملكة بيت المقدس الأولى ، وإبقاء بلاد الشام ومصر في حالة من التفرقة أملاً في اقتسام بلاد الشام مع المماليك ثم يتفرغ لضرب المماليك ، ويصبح لويس التاسع سيداً على المشرق العربي الإسلامي بلا منازع (٥) .

---

(١) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣١١-١٣١٢ .

(٢) باريس : الموسوعة، ج٤٩، ص١٣١٣ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، حاشية ص١٣١٣ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٧٩-١٨٠ .

(٤) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٤ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ،ص١٨٨٤ ؛
Stevenson : op . cit , p330 ; Edde : op . cit , p153 .

٦ – المحاولة الصليبيـــة – المملوكية لشن هجوم على الأيوبيين .

أظهر لويس التاسع رغبةً كبيرةً في تشكيل حلف صليبـــي – مملوكي مستغلاً حداثة عهد السلطنة المملوكية التي كانت تسعى لتثبيت أقدامها في مصر ، فرأى أن بإمكانه الاستفادة منها دون مقابل ، وقد زرعت المعاهدة التي عقدها مع المماليك سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م في نفسه الأمل من أجل تشكيل حملة مشتركة مع المماليك لغزو بلاد الشام ، والتخلص من خصومه الأيوبيين الذين أحاطوا بالمملكة اللاتينية من الجوانب كافة (١) ، وقضوا مضاجع الصليبيـــين ، فما تكاد مملكة عكا تقف على قدميها حتى تعصف بها الهجمات الأيوبية وتخرب كل ما بنوه ، فوجد لويس التاسع أن الوقت قد حان للقضاء على بني أيوب قضاءً مبرماً (٢) .

ما إن عقد لويس التاسع المعاهدة مع المماليك حتى أعد جيشاً بلغ حوالي ألف ومائتي فارس منهم ثمانمائة فارس علماني ورهبان ، والباقي من الفرسان التوركبلية (٣) ، وتطبيقاً للمعاهدة سابقة الذكر أراد لويس التاسع التمركز بقواته في يافا ، ثم الانضمام إلى الجيش المملوكي الذي توجب عليه التمركز في غزة من أجل تشكيل قوة واحدة لمهاجمة الأيوبيين ، لذا انطلق لويس التاسع على رأس جيشه من قيسارية إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة٦٥٠هـــ/ شهر أيار عام ١٢٥٢م ، وعسكر في حقولها ريثما يصل الجيش المملوكي إلى غزة للبدء بتنفيذ الهجوم (٤) .

أعد المعز أيبك جيشاً تجاوز عدده " ستة آلاف أو سبعة آلاف رجل مسلح " (٥) ، وتمركز بقواته في منطقة السائح (السانح) قريباً من العباسة ، واختار المعز أيبك ذلك المكان

---

(١) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ . مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٠٤ ؛ Stevenson : op . cit , p330

(٢) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٤١٩-٤٢٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٧٦- ٢٩٣ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٤٠٨-٤٢٦ .

(٣) التوركبلية : هم الجند الفرنج المحليين المنحدرين من والدين يعتنقان دينيين مختلفين ، وعلى الأغلب الإسلام والمسيحية ، وأهم الأعمال التي أُوكلت إليهم الاستطلاع كونهم أبناء المنطقة فهم أدرى من غيرهم بشعابها . سميل : فن الحرب ، ص١٨١ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٠٤ ؛ Stevenson : op . cit , p330 .

(٥) باريس : الموسوعة، ج٥، ص١٨٨٥ .

بالقرب من بلاد الشام تحسباً لأي هجوم أيوبي مفاجئ (١) ، وقد عقد السلطان المملوكي العزم على إرسال ذلك الجيش للانضمام إلى الجيش الصليبـــي أملاً في الخلاص من التهديد الأيوبي للمماليك (٢) ، وبخاصة بعد أن شعر بأنه لا يمكن إرضائهم حيث توقع أن تعيينه للأشرف موسى الأيوبي شريكاً له في الحكم قد يُهدأ من روعهم ، لكن ذلك لم يغير شيء في الأمر ، فسارع لخلعه سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م ونقله من سدة العرش إلى السجن مع العلم أنه لم يكن سوى سلطاناً فخرياً (٣) .

لم يكن الناصر يوسف الثاني غافلاً عن المؤامرة الصليبيـــية — المملوكية وربما علم بها عن طريق جواسيسه الذين وافوه بالتطورات الجارية على العلاقة الصليبيـــية — المملوكية (٤) ، وعندما أيقن بأن هناك هجوم مؤكد من قبل خصومه خشي مغبة الأمر ، ووجد بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع فأعد جيشاً كما أشار متى باريس أن قوامه " اثنى عشر ألف مقاتل ، وهو متوقع أن يكون هناك ثلاثة آلاف آخرين " (٥) سوف يلحقون به ، بينما حدد جوانفيل عدد ذلك الجيش بأربعة آلاف مقاتل ، وعشرة آلاف من البدو (٦) ، ويرجح رأي جوانفيل لأنه كان متابعاً لتطورات ذلك التحالف الصليبـــي — المملوكي ، وعقد عليه الآمال لتحقيق أهداف الحركة الصليبـــية ، بينما بالغ متى باريس لأن خمسة عشر ألف مقاتل عدد كبير في ذلك الوقت ، بينما حدد جوانفيل العدد بأربعة آلاف مقاتل نظامي ، أما البقية فهم من البدو الذين انضموا إلى الناصر يوسف الثاني ، ربما كانوا هم من السكان المحليين لفلسطين ، كما أن متى باريس كان في أوربة يستقصي الأنباء ، أما جوانفيل فكان في قلب الحدث على الأغلب ، وعنصراً فعالاً في الأحداث التي كانت تجري آنذاك ، فيُرجَح رأي جوانفيل .

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١٥ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٤ ؛ الغزي : ج٣ ، ص١٣٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٦١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٣) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٢٠ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦١٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٨١ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٥) باريس : الموسوعة، ج٥٠، ص١٨٨٤-١٨٨٥ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ، ١٩٨ .

سلم الناصر يوسف الثاني قيادة الجيش الأيوبي إلى أستاداره (١) الأمير سيف الدين بكتوت (٢) ، وانطلق ذلك الجيش ، ورابط على تل العجول قريباً من غزة (٣) ، واستهدف الناصر يوسف الثاني من إرسال قواته إلى تل العجول قطع الاتصال بين الحليفين لويس التاسع والسلطان المملوكي (٤).

انتظر لويس التاسع في يافا وصول القوات المملوكية إلى غزة لتنفيذ عملية الهجوم على بلاد الشام ، ولم يُضَيِّع وقته في الانتظار ، فانشغل في تحصين يافا (٥) ، ريثما يصل الجيش المملوكي ، ولكن بدلاً من أن يتابع الجيش المملوكي المسير من السائح إلى غزة فقد أمر المعز أيبك بانسحاب قسم كبير منه لمواجهة ثورة العربان في صعيد مصر وذلك سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، مما أدى لتأخر تحقيق حلم لويس التاسع في الهجوم على بلاد الشام (٦) .

وفي هذه الآونة عندما كان لويس التاسع في يافا ينتظر قدوم حليفه المعز أيبك أرسل له السلطان المملوكي دفعة ثالثة من الأسرى الصليبيين ، وقد كان هؤلاء معظمهم من الأطفال الصليبيين الذين كانوا في سجون مصر حيث نال هؤلاء عطف ورعاية لويس التاسع (٧) .

تطبيقاً للمعاهدة المملوكية – الصليبية أرسل لويس التاسع وفد صليبي إلى مصر للبحث عن الأسرى الصليبيين وإخراجهم دون قيدٍ أو شرط ، وربما المقصود هنا بأن الصليبيين توقعوا أن هناك أسرى غير أولئك الذين اعترف المماليك بهم ، ووضع الصليبيون احتمال بأنه في أماكن خفية

---

(١) الأستاداره : هو الشخص الذي يُكلف بالإشراف على بيوت السلطان من مطابخ وطعام وشراب ، كما يُعين الجاشنكير أي الشخص المسؤول عن الطعام وتذوقه قبل أن يتناوله الملك . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٢ .

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص١٦٨-١٧٤ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٨ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١٥ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص٢٦٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٣ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٠-٣٥١ ؛

Edde : op . cit , p153 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ باريس: الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٥ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p504 .

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٢٥٧ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠-١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ .

(٦) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٩-٤٨٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٥ .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٨٢ .

Villeneuve : op . cit , p202-209 ; Stevenson : op . cit , p330 .

قد وضعوا أسرى صليبـــيين لاستخدامهم في الضغط عليهم إذا اضطر الأمر ، ولكن في الحقيقة كانوا سجون المنصورة ، وهي معروفة لدى المماليك والصليبـــيين ، ولم تكن مواقع السجون مخفية ، وعلى الأغلب لم يعثر ذلك الوفد على أسرى من ذلك النوع بل كانت سجون واضحة للعيان مخصصة للأسرى الصليبـــيين ، ولو أن ذلك الوفد عثر على مواقع خفية للسجناء لذكرتها المصادر ، ولم تصمت عن ذلك (١) .

تحمس لويس التاسع للهجوم الصليبـــي – المملوكي على الأيوبيين ، ولكن القوات المملوكية لم تفِ بوعدها ، ولم تصل إلى غزة بسبب انشغال أيبك بثورة العربان في الصعيد ، فأخذ لويس التاسع بمطالبة حليفه بالإسراع في القدوم إلى غزة ، فوعده الثاني بقدومه على رأس جيش مملوكي إلى غزة في القريب العاجل للإطاحة بالنظام الأيوبي في بلاد الشام (٢) ، بينما عسكر الجيش الأيوبي على تل العجول ، وهو على أهبة الاستعداد لخوض المعركة التي قدِم من أجلها (٣) .

ويلاحظ للوهلة الأولى أن هناك معركة حاسمة ستقع لا محالة ، وفي تلك اللحظات المصيرية تدخل رسول الخليفة العباسي نجم الدين البادرائي ، نجح في التوصل في شهر صفر سنة ٦٥١هـ/شهر نيسان عام ١٢٥٣م لإصلاح الخلاف بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيبك ، فكان ذلك الصلح حدثاً تاريخياً عظيماً في تاريخ المماليك حيث اعترف الناصر يوسف الثاني بالدولة المملوكية ، وأصبحت بلاد الشام للأيوبيين ، ومصر وجنوب غرب بلاد الشام للمماليك (٤) .

أصيب لويس التاسع بخيبة أمل بعد أن أخفقت محاولته هذه المرة في ضرب المماليك بالأيوبيين (٥) ، وذلك بفضل جهود الخليفة العباسي المستعصم بالله ورسوله نجم الدين البادرائي ، ولكن على

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٤٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ Stevenson : op . cit , p330 .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٧٤ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦١٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٠-٣٥١ .

(٤) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ المقريزي : السلوك، ص٤٧٩ ؛ ابن العميد : ص٤٢ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٧٤ ؛ Edde : op . cit , p153 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٨٥ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ص١٩٥٤ ؛

Grousset : op . cit , volume3 , p504-505 ; pernoud : op . cit , p234-235 .

الرغم من الصلح بين المسلمين (أيوبيين ومماليك)،فقد التزم السلطان المملوكي بالمعاهدة التي عقدها مع لويس التاسع ، وتنازل له عن المبلغ المتبقي من الفدية ، وأطلق سراح جميع الأسرى الصليبيين الموجودين لديه (١) .

أما الحصول على بيت المقدس مجرد حلم أمام لويس التاسع ، وهنا لابد من الإشارة إلى أن الخلاف الأيوبي ـــ المملوكي قد بث الأمل في نفس لويس التاسع عندما راح كلٌ منهما يحاول استرضاءه خوفاً من انضمامه للطرف الآخر ، فحقق الكثير من المكاسب ، ومن أهمها إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وشجعته تلك المكاسب على التمادي ، فحاول الإيقاع بين المسلمين لعله يتخلص من المضايقات الأيوبية للصليبيين ، ثم يقتسم بلاد الشام مع المماليك ، وتصبح بيت المقدس للصليبيين ، وبعد ذلك يتفرغ لويس التاسع لضرب المماليك كي يصبح الزعيم الوحيد في المشرق العربي الإسلامي ، وتغدو بلاد الشام ومصر مستعمرة صليبية فرنجية ، ولكن لم تكن آماله مطابقة للأحداث الجارية .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المعاهدة جعلت لويس التاسع أكثر تفاؤلاً ، فظن أن نهاية الأيوبيين قد اقتربت فيما إذا عاضده المماليك ، ويكون لويس التاسع قد نجح في تفرقة المسلمين ، ولكن مع تدخل الخليفة العباسي انطفأت نار الفتنة ، وأَمِنَ المماليك والأيوبيين بعضهم بعضاً ، فانقلبت الموازين ، ولم يعد هناك استجداء للويس التاسع من قبل المسلمين بل أعلنوا الحرب عليه ، مما أثار غضبه بعد أن انتظر في يافا قرابة عام ، وخرج خاسراً من تلك الجولة ، فما كان منه إلا أن أعلنها حرباً شعواء على المعز أيبك حليفه بالأمس (٢) .

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣١١ ، ١٣٤٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٨١-١٨٢ ؛ زيادة : ص٢٥١-٢٥٢ .

(٢) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٩ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٩٠-١٩١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤-١٩٥٥ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ ؛ Stevenson : op . cit , p330-331 ; Edde : op . cit , p153.

٧- اجتماع أرسوف الصليـــي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م .

بنى لويس التاسع آمالاً كبيرة على حليفه المعز أيبك ، وقد اتفقا على شن هجوم مشترك ، وتوجيه ضربة قاصمة للأيوبيين ، ولكن مع تدخل الخليفة العباسي ، ومصالحة الأيوبيين والمماليك ماتت خطة لويس التاسع في مهدها ، وهرع الجيش الأيوبي يدك الحصون الصليبيـــة ؛ فحمَّل لويس التاسع المسؤولية كاملةً للمماليك (١) ، ورأى ضرورة إرسال حملة تأديبية لحلفائه المماليك لأنهم لم يفوا بوعدهم له ، ولا يمكن تأديبهم إلا بتوجيه ضربة لهم في الصميم من خلال مهاجمة مدينة نابلس ، وتهديد بيت المقدس ، وقد اختار نابلس لأنها تشكل الخط الدفاعي الأول لبيت المقدس فضلاً عن كونها عاصمة الإقليم الجبلي الفلسطيني ، وإذا ما استولى عليها أصبحت السيطرة على بيت المقدس أمراً مضموناً (٢) ، وهنا لابد من التنويه إلى أن نابلس كانت محط خلاف بين الأيوبيين والمماليك حيث استولى عليها الناصر يوسف الثاني إثر مقتل توران شاه (٣) ، ثم استولى عليها فارس الدين أقطاي ، وأصبحت تحت سيادة المماليك (٤) ، واستمرت المناوشات بين الطرفين حول نابلس حتى أقر الخليفة العباسي في المعاهدة التي عقدها بينهما بأن تكون نابلس جزءاً من الدولة المملوكية (٥) .

أمضى لويس التاسع في يافا قرابة عام ، وبعد أن فرغ من تقوية تحصيناتها انطلق نحو صيدا ، ومرَّ في طريقه على أرسوف ، وحط رحاله بالقرب من قلعتها ، وفي شهر جمادى الأول سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م عقد اجتماعاً في أرسوف استهدف منه عرض مشروع الحملة التي كان ينوي القيام بها ، وافتتحه مُقترحاً على الحضور مهاجمة مدينة نابلس ، فحبذ الحاضرون الفكرة بالإجماع ، ولكن فرسان الداوية والاسبتارية وبارونات الكيان الصليـــي

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٦ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٤-١٩٥٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١-٢٠٥ ؛ البيشاوي ،سعيد : نابلس ، في عصر الحروب الصليبيـــية ، ط١، عمان، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ص١٦٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٥ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٢٤٧ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٤ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٤٧٤ .

(٥) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٩ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥١ .

اشترطوا عليه ألا يتولى قيادة الجيش بنفسه ، لأنه هو الأمل الوحيد للمملكة اللاتينية والغرب الأوربي في إحياء أمجاد مملكة بيت المقدس الأولى ، وإذا ما أُصيب بمكروه فإن الكيان الصليبـــي مآله إلى الضياع ، وتشبث لويس التاسع بموقفه ، بينما تمسك الطرف الثاني برأيه ، مما أدى لبقاء هذا المشروع مجرد فكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ (١) ، وهنا لماذا استهدف لويس التاسع مهاجمة نابلس ؟ ولماذا احتج كبار رجاله أخوفاً على لويس التاسع أم أن هناك أسباباً خفية ؟

أمضى لويس التاسع بضع سنوات في الشرق يحيك المؤامرات والدسائس ، فتسابق الأيوبيين والمماليك لكسب رضاه ، وتوصل للاتفاق مع المماليك على إعداد حملة مشتركة ضد الأيوبيين ، وكان يمكن إذا تم ذلك أن يعيش الكيان الصليبـــي بأمان بعيداً عن الضربات الأيوبية (٢) ، ويصبح بيت المقدس بيد الصليبـــيين ، وعندما لم يفِ المماليك بوعدهم قرر الانتقام منهم بعد أن تركوه ينتظرهم في يافا قرابة عام (٣) ، كما أن لويس التاسع أراد الاستفادة من موقع نابلس الاستراتيجي على طريق بيت المقدس ، فضلاً عن غناها بالمنتجات الزراعية (٤) .

نعم لقد أحب الصليبيون لويس التاسع ، وخافوا عليه ، ولكن ليست هذه المرة الأولى التي يستلم فيها قيادة حملة عسكرية ، فكم من الحروب والمعارك التي خاضها منذ لحظة وصوله إلى مصر وحتى أسره ، وقد كان دائماً في طليعة الجيش الصليبـــي ، فلماذا خاف عليه الصليبـــيون في ذلك الوقت بالتحديد ؟ (٥)

وفي حقيقة الأمر هناك أسبابٌ أخرى أدت لمعارضة البارونات للهجوم الصليبـــي على نابلس ، وهي تخوفهم إذا ما هاجموا نابلس فإن المماليك لن يقفوا مكتوفي الأيدي ، وهنا يقعوا بين ناري الأيوبيين والمماليك ، في الوقت الذي أعلن فيه الناصر يوسف الثاني الحرب على الصليبـــيين ، فخاف الصليبـــيون من فتح جبهة ثانية هم بغنى عنها آنذاك ، وتوجب عليهم مواجهة الخطر الذي شكله

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٥ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٨-٢٠٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١-١٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٠٤ ؛عاشور : الحركة الصليبيـــة ، ج٢ ، ص١٠٩١-١٠٩٢ ؛ Villeneuve : op . cit , p205-209 .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص٢٩٣ ؛البشاري : ص١٤٨-١٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٦٤-٢٠٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٠-١٩٩٣ .

الناصر يوسف الثاني بشكلٍ مبدئي (١) ، كما أن مهاجمة نابلس بدت أمراً متعذراً للصليبيين لأنها محاطة بالجبال الشاهقة ، وهذا ما زاد في مناعتها ، وربما جهل لويس التاسع معالمها الجغرافية ، ويكفي الإشارة إلى أن معرفة المعالم الجغرافية سبباً أساسيا في تحقيق النصر (٢) ، فجهل لويس التاسع بجغرافية مصر كان سبباً في إخفاق حملته ، وفي النتيجة استطاع الصليبيون إقناع لويس التاسع بالعدول عن فكرته في الهجوم على نابلس.(٣) .

دخلت العلاقة المملوكية – الصليبية إثر استياء لويس التاسع من حلفائه المماليك في مرحلة من الجمود حيث انشغل لويس التاسع بالهجمات الأيوبية على المواقع الصليبية (٤) بينما انشغل المعز أيبك بخطرين هددا أمن واستقرار مصر ، وهما ما يلي :

أ – ثورة حصن الدين ثعلب .

تذمر العربان من استلام المماليك لحكم مصر ، فقاموا بحركة تمرد قادها حصن الدين ثعلب أحد زعماء العربان سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، وقرر الاستقلال في صعيد مصر لأنه عدَّ أهالي مصر أحق بالسلطة من المماليك الأرقاء ، فأخذ حصن الدين بإدارة منطقة الصعيد ، وشكل جيشاً لا يستهان به " بلغ عدد الفرسان إثني عشر ألف فارس ، وتجاوزت عدة الرجال الإحصاء لكثرتهم " (٥) ، وأرسل حصن الدين إلى الناصر يوسف الثاني للإطباق على المماليك ، و لم يكن في وسع ملك دمشق الدخول في تلك المغامرة بعد هزيمته في العباسة ، وإصلاح الخليفة العباسي بينه وبين المماليك (٦) .

أخذ الخطر الذي شكله حصن الدين يتنامى شيئاً فشيئاً ، وتوجب على المعز أيبك وضع حد لتمرد العربان ، فأعد جيشاً قوامه خمسة آلاف فارس ، وأرسل على رأسه فارس الدين أقطاي الجمداري والمعز أيبك الأفرم ، وقد اختارهما السلطان المملوكي لعله يتخلص من زعماء البحرية وتمردهم (٧) ،

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩-١٤٢٩ ؛ البيشاوي : نابلس ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٢) البشاري : ص١٤٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٦-٢٠٥ ؛يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢١٠ ؛
Grousset: op. cit, volume 3, p507.

(٤) جوانفيل: الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨-٢٠١ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩-١٤٢٣ .

(٥) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٩-٤٨٠ ؛ العبادي ، أحمد : قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص١٣١ .

(٧) ابن خلدون: ج٥ ، ص٤٣٢-٤٣٣ .

وسار الجيش المملوكي نحو الصعيد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، والتحم الطرفان " وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم " (١) وانتصر الجيش المملوكي على الرغم من قلة عدته ، ويعود ذلك إلى المهارة القتالية التي امتاز بها (٢) ، وإثر هزيمة حصن الدين أخذ يطلب الأمان ، فأُعطيَ ذلك ، وانطلت الحيلة عليه ، فقدم إلى القاهرة على رأس " ألفي فارس وستمائة راجل ، وأمر الملك المعز فنصب الأخشاب من بلبيس إلى القاهرة وشنق الجميع " (٣) ، أما حصن الدين فوُضع في جب تحت الأرض في الإسكندرية ، وتخلص المعز أيبك من خطر العربان بعد أن أنزل بهم ذلك العقاب ، فأرهبهم ومالوا إلى الهدوء رغماً عنهم ، ولم تنجح خطة السلطان المملوكي في ضرب البحرية بالعربان لأن ذلك النصر زاد في غرور أقطاي وتمرده (٤) .

ب ـ تمرد فارس الدين أقطاي .

شغلت الاضطرابات الداخلية السلطان المملوكي عن الخطر الصليبي ، فلم ينته من خطر العربان حتى ظهرت عقبة جديدة تمثلت بتمرد مقدم البحرية أقطاي الذي طغى وتجبر (٥) ، ونافس المعز أيبك على الحكم ، وعندما خطب ابنة المنصور محمد صاحب حماة ، طلب من المعز أن يسمح له بالإقامة مع عروسه في قلعة الجبل (قلعة القاهرة) التي كانت مقراً للسلطان (٦) ، فسايره السلطان ، واتفق مع فرقة المماليك التي سماها باسمه فعرفت بالمعزية على التخلص منه ، فأظهر المعز له بأن المعزية غير راضية بالاقطاعات التي منحها إياها ، وهي تنوي المسير إلى الناصر يوسف الثاني للانضمام إليه ، وطلب من أقطاي أن يصلح بينه وبين المعزية ، وبالفعل دخل أقطاي قاعة العواميد في قلعة الجبل ، وقد اختصت هذه القاعة بالحاجات المنـزلية للسلطان ، فأمر أيبك بإغلاق باب القلعة ، وفي تلك اللحظة هاجمه ثلاثة

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٢) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٢ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٠ .

(٤) ابن خلدون : ج٥، ص٤٣٢-٤٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٠-٤٨١ ؛ المنصوري : زبدة الفكرة ، ص١٦ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٩ .

(٥) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢٣ ؛ أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٢١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٢ .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٨١ ؛ اليافعي : ج٤ ، ص٩٩ ؛ Edde : op . cit , p157 .

فرسان من المماليك المعزية (١) ، فقتلوه في شهر شعبان سنة ٦٥٢هـ/شهر أيلول عام ١٢٥٤م (٢) ، ولما عرف أصحابه بمقتله تجمعوا حول القلعة ، وقد بلغوا حوالي سبعمائة فارس وتزعمهم بيبرس البندقداري ، وانتظروا من المعز أيبك أن يفتح باب القلعة " فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رَمى بها المعز إليهم ، فسقط في أيديهم وتفرقوا بأجمعهم " (٣) ، وقصدوا الباب الشرقي للقاهرة وعُرف بباب القراطين فوجدوه مُغلقاً ، فأضرموا النار فيه ، فعرف بالباب المحروق منذ ذلك الوقت ، ثم انطلقوا نحو بلاد الشام (٤) ، وقد هاجمت البحرية في طريقها المواقع الصليبية في بلاد الشام ، وعلى ما يبدو أن الهجوم كان على شكل غارة قامت بهجوم سريع ، فحصلت على الغنائم ثم تابعت مسيرها نحو دمشق ، ولم يكن في وسع لويس التاسع مهاجمة المماليك رداً على غارات البحرية ، لأن البحرية بطبيعة الحال كانت متمردة على السلطان المملوكي (٥) كما أنه لم يرغب بملاحقتها إثر الغارات التي قامت بها ، لأنه كان في حالة حرب مع ملك دمشق (٦) ، وبذلك تخلص المعز أيبك من مضايقات المماليك البحرية التي سببت له المتاعب كما أثارت الاضطرابات للصليبيين ، وتابعت البحرية سيرها إلى دمشق ، وإثر ذلك دخلت العلاقة المملوكية ـ الصليبية في حالة من الجمود ، فلم يعد هناك رغبة ملوكية في كسب لويس التاسع ، ولا يمكن للمعز أيبك أن يعلن العداء له لأنه في حالة توطيد لدولته ، ولا تسمح له إمكاناته سوى في إعادة الهدوء والاستقرار للسلطنة المملوكية (٧) .

وهكذا انقسم المسلمون ، مما أدى لبقاء لويس التاسع في الشرق لعله يثأر للهزائم التي حلت به على أيدي المماليك (٨) ، وأسفرت الحرب التي أشعلها لويس التاسع عن اصطدام

---

(١) قتلة أقطاي هم : سيف الدين قطز وبهادر وسنجر الغتمي . أبو الفداء ، المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٧ .

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص١٧٨ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٩-٢٢٠ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٣١-٦٣٢ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٨٣ .

(٤) العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٣٢ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٢٠ .

(٥) ابن العميد : ص٤٢ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٦٣ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٠-٢١١ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٧-٤٧٨ .

(٧) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١-٣٢٣ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٦٣ ؛ Irwin : op . cit , p28 .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٣٣-١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٢-١٩٥٤ ؛ Brentano : le moyen age la croisade , p296-299.

الأيوبيين والمماليك (١) ، مما شجع لويس التاسع على الاتفاق مع المعز أيبك على شن هجوم مشـــترك على الأيوبيين واقتسام بلاد الشام (٢) ، وقبل البدء بالهجوم تدخلت الخلافة العباسية وحلّ الوئام بـــين الأيوبيين والمماليك (٣) ،فضاعت آمال لويس التاسع ،وأخفقت محاولته في تفرقة صفوف المســـلمين ، فَحمَّلَ المسؤولية للمماليك ، وقرر مهاجمتهم ، لكنه ما لبث أن تراجع خوفـــاً مـــن وقـــوع الكيـــان الصليبـــي بين شقي رحى أيوبية ـ مملوكية (٤) .

---

(١) ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٨-٣٥٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٧-٨ .

(٢) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛

Villeneuve : op . cit , p205-207 .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٨-٤٧٩ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص٢٢-٢٣ ؛

Mayer : op . cit , p264-265 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠-٢٠٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٨٤-١٨٨٥ .

– الفصل الرابع –

علاقة لويس التاسع مع الأيوبيين

١– موقف الأيوبيين من مقتل توران شاه .

٢– مراسلات الناصر يوسف الثاني للويس التاسع .

٣– موقف أوربا من إنقاذ لويس التاسع .

٤– الصلح الأيوبي – المملوكي وانقلاب الموازين .

٥– الهجوم الأيوبي على المعاقل الصليبـيـة .

٦– الهجوم الصليبـــي على بانياس .

٧–هزيمة الصليبـــيين في الصبيبة .

٨–عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

١ – موقف الأيوبيين من مقتل توران شاه .

أنِفَ ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام الخضوع للدولة المملوكية الجديدة ، ومن الطبيعي أن يقفوا موقف العداء منها ، وقد كانت وراء مقتل السلطان الأيوبي توران شاه ، وإطلاق سراح غريمه لويس التاسع ، فاشتعلت نار الثورة الأيوبية ضد السلطنة المملوكية ، وهذا ما زرع الأمل في نفس لويس التاسع ، وشجعه على البقاء في مملكة عكا، وأتاح له فرصة ذهبية لتحقيق جزءاً من طموحاته ، وبشكل خاص بعد أن التمس الأيوبيين مساعدته ضد المماليك ، فأخذ بزيادة حدة الجفاء بين القاهرة ودمشق ، وخَططَ لمشاريع صليبية جديدة مستغلاً الخلاف المملوكي مع العروش الأيوبية الصغيرة ، ولكن بني أيوب ما لبثوا أن اعترفوا بشرعية الدولة المملوكية في مصر من أجل ضرب الوجود الصليبـــي في بلاد الشام في الوقت الذي ازداد فيه نشاط لويس التاسع وخطره على المسلمين ، لكن ما لبث أن هدأت حدة التوتر الأيوبي – المملوكي ، فيئس لويس التاسع من تحقيق نصرٍ حاسم على المسلمين (١) .

انقسم المسلمون على أنفسهم وأعلنت بلاد الشام العداء الصريح للمماليك ، ورفض الأيوبيون الدخول في طاعة مماليكهم ، لأنهم عدوا أنفسهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم بسبب انحدارهم من سلالة صلاح الدين الأيوبي ، وعندما أرسلت شجر الدر وفداً مملوكياً إلى دمشق سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م لأخذ يمين الولاء والطاعة للسلطانة الجديدة من نائب توران شاه على دمشق جمال الدين بن يغمور (٢) احتج أمراء القيمرية (٣) في دمشق ، ورفضوا طلب الوفد ، وأرسلوا إلى الناصر يوسف الثاني صاحب

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٥٤-٦٥ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٤٦-٣٧٦ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص١٥١-٢٠١ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤-١٩٥٥؛

Stevenson : op . cit , p229-231 .

(٢) ابن يغمور : هو جمال الدين موسى بن يغمور ، وقد عينه الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه في مصر ، ثم استنابه على دمشق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وعُزل عن نيابة دمشق بعد استيلاء الناصر يوسف الثاني عليها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وعندما استلم الظاهر بيبرس السلطنة عينه (أستاداره) ، وفارق الحياة عن عمر ناهز أربعة وستون عاماً وذلك في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٤١ ؛ الصفدي ، خليل: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تح : إحسان خلوصي وزهير حميدان ، دار البشائر ، ط٢، دمشق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص٤٤٦ .

(٣) القيمرية : طائفة من الأكراد الذين خدموا لدى الأيوبيين والمماليك ، ويُنسبون لقلعة قيمر الواقعة ما بين خلاط والموصل ، وقد لمعوا إثر وفاة الصالح نجم الدين أيوب ، ورفضوا الخضوع للمماليك ، فسلموا دمشق للناصر صاحب حلب سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م . الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٢٠ ، ص٥٨ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٣ ؛ ابن تغري بردي ، يوسف: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تح : أحمد نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، ج١ ، حاشية ، ص١٠ .

حلب لتسليمه دمشق (١) ، وهذا لا يعني بأن القيمرية هم الوحيدين عارضوا الخضوع للمماليك فحسب بل الملوك الأيوبيين بشكل عام رفضوا الولاء لمماليكهم ، وذلك لأسباب عديدة أهمها ما يلي :

أ _ أنف الملوك الأيوبيين الخضوع للمماليك ، ونظروا لهم نظرة ازدراء لأنهم رقيق (٢) .

ب _ غَدْرِ المماليك بسيدهم توران شاه ، وقَتله بطريقة مؤلمة ، واستلامهم الحكم بدلاً عنه (٣) .

جـ _ إطلاق المماليك سراح لويس التاسع ، ومجيئه إلى بلاد الشام وتقويته المملكة اللاتينية ، فضلاً عن إثارته المشاكل للأيوبيين في بلاد الشام (٤) .

كل هذه الأسباب أدت لعدم اعتراف الملوك الأيوبيين للتغيير الذي حصل في مصر ، فأعلنوا الحرب على المماليك ، وأهم حركاتهم ضد المماليك ما يلي :

١ – حركة المغيث فتح الدين عمر : ما إن سمع بدر الدين الصوابي الصالحي نائب توران شاه على الكرك والشوبك بمقتل السلطان الأيوبي حتى أخرج المغيث فتح الدين من سجنه في الكرك (٥) ، وسلّمه قيادة الكرك والشوبك (٦) ،وإثر ذلك راسله بعض الأمراء البحرية الرافضين لاستلام المعز أيبك للسلطنة من أجل تسليمه مصر ، وذلك في شهر جمادى الثاني سنة ٦٤٨هـ/شهر أيلول عام ١٢٥٠م ، ولكن على ما يبدو أنه كان إنسان واقعي ، وربما شعر أن هناك من هو أكثر منه كفاءة لذلك الأمر كالملك الناصر صاحب حلب ، فلم يدخل فتح الدين عمر تلك المغامرة (٧) ،

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٢-٦٠٤ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٣٤-٣٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٨-٢٨٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبـيـة ، ج٢ ، ص١٠٨٦-١٠٨٧ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p496 .

(٢) ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٤-٦ ؛

Mayer : op . cit , p265 .

(٣) أبو الفداء : المختصر، ص٢٩١ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٨-٤١٩ ؛ thorau : op . cit , p38-39 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٨٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٣ .

(٥) فتح الدين عمر : هو الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل سيف الدين أبي بكر بن الكامل ، عاش في مصر عند عمائه ، وعندما وصل توران شاه إلى مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م شعر بازدياد شعبية المغيث فألقى القبض عليه ، وإثر مقتل توران شاه أخرجه بدر الدين الصوابي من سجنه ، واستلم الكرك والشوبك ، وبقي سيداً عليهما حتى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حيث اتهمه الظاهر بيبرس بمراسلة المغول ، فاستدعاه إلى مصر وقتله . ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٧ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٧٠٩.

(٦) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٩ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٣ ؛ابن العميد : ص٣٩ .

(٧) المقريزي أحمد : السلوك، ج١ ، ص٤٦٤ ؛ أبو شامة : الموسوعة ، ج٢٠ ، ص٣٦٧ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص١٤ .

بينما كان ملك حلب أكثر جرأة منه .

٢- حركة الملك الناصر يوسف الثاني: راسلت القيمرية الملك الناصر يوسف الثاني صاحب حلب لتسليمه دمشق ، فأعد جيشاً وسار من حلب إلى دمشق ، وقد فتحت له القيمرية باب الجابية في يوم الاثنين في العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/الثاني عشر من شهر تموز عام ١٢٥٠م ، فدخل دمشق وخلع على أهلها وأحسن إليهم (١) ، بينما " اعتقل نائب دمشق جمال الدين ابن يغمور ثم أخرجه بعد قليل من الاعتقال وأحسن إليه " (٢) ، وهذا إن دل على شيء يدل على أن ابن يغمور كان متردداً في تسليم دمشق للملك الناصر ، ربما ليعرف ما ستنجلي عنه الأمور إثر الفوضى التي عاشتها بلاد الشام ومصر آنذاك ، وبعد أن استولى الملك الناصر على دمشق انطلق جنوباً لمد نفوذه ، فوجد صعوبة حيث " عصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة مديدة ثم سلمت جميعها إليه " (٣) ، بينما استلم الملك السعيد عثمان (٤) قلعة الصبيبة من نواب الصالح نجم الدين أيوب (٥) .

وصلت أنباء الحركات الأيوبية والتغيرات التي طرأت إلى المماليك ، فسارع المعز أيبك لملاحقة القيمرية في مصر ، وألقى القبض على رجالها الموالين للناصر يوسف الثاني (٦) ، وعمت بلاد الشام ومصر فوضى عارمة ، وتأزمت العلاقة بين الطرفين لكن الناصر يوسف الثاني أرسل قوة عسكرية إلى غزة ، وفاجأ المعز أيبك الأيوبيين في غزة ، فهزم الجيش الأيوبي في شهر رجب سنة ٦٤٨هـ/تشرين الأول عام ١٢٥٠م ، ثم عادت القوة الأيوبية أدراجها إلى دمشق (٧) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١، ص٤٦٢-٤٦٣ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٤٤ ؛ ابن العميد : ص٣٩-٤٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص٦ ؛

Edde : op . cit , p150-151 .

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام، ص١٩٨ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٩ ؛والمعنى ذاته عند ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٨ .

(٤) الملك السعيد : هو السعيد بن الملك العزيز عثمان بن العادل ، كان حاكماً على قلعة الصبيبة بالقرب من بانياس ، وقد تنازل عنها للصالح أيوب مقابل اقطاع منحه إياه في مصر ، وإثر مقتل توران شاه استولى على قلعة الصبيبة مرة ثانية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ولما قدِم التتار إلى دمشق انضم إليهم ، ومات سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . ابن واصل : ج٦، ص٤١١ .

(٥) ابن واصل : ج٦، ص١٣٦ .

(٦) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٤ .

(٧) ابن واصل :ج٦ ، ص١٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٧٥ .

هكذا احتدم النـــزاع بين الأيوبيين والمماليك ، فقد عدَّ المماليك أنفسهم أصحاب الفضل في تدمير الحملة الصليبيـــة السابعة ، بينما رفض الأيوبيون الاعتراف بهم لأنهم كانوا رقيقاً لدى السادة الأيوبيين ، والسلطة الشرعية كانت بأيديهم ، كما استاء بنو أيوب من المماليك الذين لم يتخلصوا من لويس التاسع وأطلقوا سراحه ، فأخذ بإحاكة المؤامرات ضد المسلمين (١) ، وأصبح في بلاد الشام ومصر قوتان متنازعتان احتدم الصراع بينهما في الوقت الذي كان فيه لويس التاسع متابعاً لأخبار ذلك الشقاق ، مما أنعش آماله في تعويض ما خسره في مصر بل راح يعمل على تقوية المواقع الصليبيـــية في المملكة اللاتينية (٢) ، وراقب الأمور عن كثب ، إذ أن وجود لويس التاسع قريباً من مسرح النـــزاع جعل كل من الأيوبيين والمماليك يسعى لكسبه أملاً في أن يتفوق كل منهما على الآخر ، بينما استهدف لويس التاسع أن يحرز نصراً مُزدوجاً على حساب الطرفين (٣) .

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٠-٤٦٦ ؛ العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٠٢-٦٥٨ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ص٥-٩ ؛ابن إياس :ق١ج١ ، ص٢٨٤-٢٩١ ؛
The Cambridge history of islam , volume 1 , p209-211 .

(٢) يُنظر المصور رقم (٩) ، ٣٠٨.

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥١-١٧٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٤-١٩٥٠ . مونرود : مج٢ ، ص٣٣١-٣٣٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٤٦-١٤٨؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p496-500 .

٢– مراسلة الناصر يوسف الثاني للويس التاسع .

استولى الناصر يوسف الثاني صاحب حلب على دمشق ، وأصبح سيداً على معظم بلاد الشام ، وأخذ يتطلع إلى مصر لعله يكون الزعيم الأيوبي الوحيد بلا منازع (١) ، ولم يجد حرجاً في محاولة كسب أعدائه الصليبيين ضد المماليك ، لتحقيق ما كان يصبو إليه في الوقت الذي كان فيه لويس التاسع مُحبطاً نتيجة للخسائر التي حلت بحملته الصليبية ، وما إن لاحت له الفرصة حتى ارتفعت معنوياته ، وازداد تصميمه على متابعة مسيرته لتحقيق غاياته في المشرق العربي الإسلامي (٢) .

خشي الناصر يوسف الثاني من القوة المملوكية التي سادت مصر ، فأراد القضاء عليها قبل أن يشتد ساعدها (٣) ، فرغب في استقطاب لويس التاسع إلى جانبه ضد المماليك ، فما كاد لويس التاسع يستقر في عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى أرسل له رسالة ودية شاكياً فيها من المماليك الذين قتلوا السلطان الأيوبي ، واستولوا على حكم مصر ، ثم عَرَض عليه تسليمه بيت المقدس مقابل الدخول معه في حلف ضد المماليك (٤) ، ولكن هل وافق لويس التاسع على محالفة الناصر يوسف الثاني ؟

لقد تراءى للناصر يوسف استغلال العداء بين لويس التاسع والمماليك وإنشاء صداقة مع لويس التاسع ، وبذلك يمكن تحقيق أماني الطرفين فيثأر لويس التاسع للعار الذي لحق به على أيدي المماليك ، ويحصل على بيت المقدس ، بينما يتخلص ملك دمشق من الدولة المملوكية في مهدها قبل أن تبتلع المناطق المجاورة لها وبخاصة بلاد الشام ، إذاً تلاقت في هذه الحالة مصالح الفريقين ، وأصبح الخلاص من المماليك هدفاً لهما .

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٩ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦ ؛
Stevenson: op . cit , p329 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p496-501 .

(٣) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٨–٤١٩ ؛ الصفدي ، خليل : نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك ، تح :عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا وبيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ص١٤٥؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ج٢ ، ص١٢٤ .
Mayer : op . cit , p265-266.

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٩٧ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p501 ; Setton : op . cit , volume 2 , p566-567.

إن لويس التاسع وضع بيت المقدس كأحد أهدافه في بلاد الشام ، ولكن من المستحيل أن يتحالف مع الأيوبيين ، ويدعمهم بجيش لمهاجمة المماليك ، لأن لويس التاسع استهدف تحقيق أهدافه بطريقة دبلوماسية هذه المرة ، فلا يمكن أن يغامر بدعم الأيوبيين بعد اضمحلال قوتهم ، والأفضل له محالفة المماليك لأنهم الأقوى ، وإذا ما وضع لويس التاسع بيت المقدس في كفة يتوجب عليه وضع الأسرى في الكفة الثانية ، فالحصول على بيت المقدس مرهون بخسارة الأسرى ، وبذلك يكون قد أباد رجال حملته الصليبــية مقابل الحصول على بيت المقدس ، وإذا ما خسر اثنا عشر ألف أسير فإن أوربا لن ترحم استهتاره لأنه ضحى قبل ذلك بثمان وثلاثين ألف مقاتل في مصر .

التجأ لويس التاسع إلى الحيلة ، ووجه إنذارا إلى المماليك ، فإما أن يستجيبوا لمطالبه أو سيحالف الأيوبيين ضدهم (١) ، وإثر وصول رسالة ملك دمشق إلى لويس التاسع أرسل الملك الفرنسي الراهب إيفْ البريتونيْ الناطق باللغتين الفرنسية والعربية على رأس سفارة إلى دمشق (٢) ، وقد سارت السفارة الصليبـــية إلى دمشق ، والتقت مع الناصر يوسف الثاني ، وأشارت له بأن لويس التاسع من المُحتمل أن يدخل في حلف معه ضد المماليك إذا لم يستجب المماليك لمطالبه في إخراج الأسرى الصليبـــيين ، وتركت السفارة باب المفاوضات مفتوحاً ، وعاش ملك دمشق على الأمل ، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على ذكاء لويس التاسع في التعامل مع خصومه ، وعندما سمع المعز أيبك بأن سفارة صليبية قد زارت دمشق سارع أيبك لإرضاء لويس التاسع ، خوفاً من تحالفه مع الأيوبيين (٣) .

وبينما كان لويس التاسع مقيماً في يافا(٦٥٠-٦٥١هـ/١٢٥٢-١٢٥٣) وجه له الناصر يوسف الثاني دعوة لزيارة بيت المقدس (٤) ، وذلك إما رغبةً منه في كسب لويس التاسع أو ربما أنه

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٣ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبـــية ، الموسوعة،ج٣ ، ص٤٠٦-٤٠٩ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤ ؛ حبشي ،حسن : الشرق العربي بين شقي رحى ، دار الفكر ، د.م ، د.ت ، ص١٢١ ؛ بدور ،كمال : مملكة حلب الأيوبية ٥٨٩-٦٥٨هـ/١١٩٣-١٢٦٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، ص١٦٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٣ ؛ رنسيمان : ج٢ ص٤٧٦ ؛ عاشـــور : الحركـــة الصليبـــية ، ج٢ ، ص١٠٩٠-١٠٩١ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p501-502 ; Edde : op . cit , p151-153 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٢٣-٣٢٤ .

سمع عن رغبة لويس التاسع في زيارة بيت المقدس، فعلى الرغم من حالة الحرب بينهما فإنه وجه النداء إلى عدوه من أجل زيارة بيت المقدس عندما علم برغبته في زيارة المقدسات ، وإذا ما تم الافتراض جدلاً أن بيت المقدس كان تحت سيادة لويس التاسع، فهل يمكن أن يسمح للناصر يوسف بزيارة بيت المقدس؟

لن يكون لويس التاسع أفضل ممن سبقه من الملوك الصليبيين ولا حتى أقل قسوة وعدوان منهم ، مما يدل على حقدٍ صليبي دفين لا مبرر له سوى الرغبة في السيطرة وقهر الآخرين ، فلم يمنع المسلمون أحداً من زيارة المقدسات بغض النظر عن هويته ، ولكن الغرب الأوربي اتخذ من المقدسات ذريعة للسيطرة على المسلمين بل وإزالتهم من الوجود، ومما يؤكد ذلك الاجتماع الذي عقده لويس التاسع .

إثر الدعوة التي وصلت إلى لويس التاسع من ملك دمشق لزيارة بيت المقدس ، عقد اجتماعاً لتحديد موقفه ، وأكد جوانفيل في نهاية الاجتماع أنهم قرروا أن "ما من واحد أشار عليه بالذهاب " (١) ، وأشار جوانفيل إلى سبب ذلك الرفض أنه لا يليق بلويس التاسع، وهو حامل صليب الحروب المقدسة أن يزور بيت المقدس لأنه تحت سيادة المسلمين ، وإذا ما قام بذلك فإن الصليبيين من بعده لن يفكروا في السيطرة على القدس ، وسيسيرون على خطى لويس التاسع ، ويكتفوا بالحج إلى تلك المدينة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القتال للسيطرة عليه (٢) ، وأثناء انعقاد الاجتماع استشهد أحد الحضور بحادثة تعود إلى الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ، عندما اقتربت قوات الحملة من بيت المقدس ، ولاحت معالمها ، أخذ أحد الفرسان ينادي على الملك الانكليزي ريشارد قلب الأسد طالباً منه النظر إلى بيت المقدس ، ولكنه رفض حتى النظر إلى القدس طالما أنها بأيدي المسلمين ، وهو غير قادر على أخذها منهم ، ولم يكن ريشارد كذلك فحسب بل أصبح مضرب المثل لدى المسلمين في الخوف والرعب ، فإذا ما بكى طفل كانت أمه تخوفه بريشارد قائلة له : (قد أتاك ريشارد) ، وعلى لويس التاسع أن يكون كريشارد رمزاً لنشر الخوف والإرهاب ، و في نهاية الاجتماع وافق لويس التاسع على رغبة كبار رجاله ، ورفض الدعوة التي وجهها له ملك دمشق (٣) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٢٣٨ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٢٣-٣٢٤ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق، ص٣٢٤ .

عندما رأى الصليبيـــون سَعي الناصر يوسف الثاني الحثيث لكسب لويس التاسع كثُرت تعدياتهم على المسلمين ، وقد روى جوانفيل في سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م إلى أن أحد أمراء دمشق و لم يذكر اسمه ، ربما كان أحد أمراء الاقطاع ، أراد جني محصول القمح في أحد الحقول القريبة من يافا، ومعه مجموعة من الفلاحين ، فهاجمتهم مجموعة من الصليبـــيين منهم جوانفيل فقتلوا اثنين من الفلاحين بينما يتباهى جوانفيل بقوة الفارس الصليبـــي الذي سدد برمحه إلى الأمير فاخترق الرمح أضلاعه ، وانكسر في جسده لشدة الضربة ،فعاد الفلاحون من حيث أتوا وقد حملوا جثة أميرهم بدلاً من حمل غلال القمح (١) ، ومن المحتمل أن الأراضي التي استغلها الأمير الدمشقي لم تخضع لنظام المناصفات ، فأراد الصليبـــيون إثارة الشغب ومهاجمة الفلاحين وقتلهم ، وذلك لإجبارهم على ترضية الصليبـــيين وإعطاءهم جزءً من الغلال بشكل سنوي حتى يسمحوا لهم باستغلال الأرض .

استاء الناصر يوسف الثاني من تعديات الصليبـــيين ، ومن نوايا لويس التاسع الذي لم يعطيه وعداً بقبول أو رفض محالفته ، ولكنه لم يعلن له العداء بشكل صريح إنما أثار الاضطرابات للصليبيين بطريقة سرية حيث شجع التركمان على مهاجمة المناطق الصليبـــية ، وبخاصة أنطاكية القريبة منهم ؛ فأصبحت هدفاً لهجماتهم سنة ٦٥٠هـــ/١٢٥٢م ، وكان الناصر يوسف الثاني وراء تلك الغارات (٢) .

وعلى هذا فإن الانشقاق المملوكي — الأيوبي أدى لانتعاش لويس التاسع ، وبخاصة عندما تسابق الناصر يوسف الثاني والمعز أيبك في كسب صداقته ، ولكن يتوجب الإدراك أن المُحتل لن يكون صديقاً حميماً مهما طال الزمان ، علماً أن الخلاف بين الشام ومصر لم يكن سوى خلاف بين الناصر وأيبك ، فالأول أراد زيادة أملاكه ، بينما أراد الثاني إثبات وجوده ، ولم يكن لأبناء الشام ومصر في ذلك الصراع لا ناقة ولا جمل ، وقد أظهر لويس التاسع براعة سياسية عندما لم يعط للناصر يوسف رداً حاسماً حول محالفته ، فهرع المعز أيبك لإطلاق سراح الأسرى الصليبـــيين دون مقابل ، كما عمل على توسيع هوة الخلاف بينهما ، ريثما تصله النجدات الأوربية كي يتخلص من خصومه الأيوبيين والمماليك (٣) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩١ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٩-١٣١٠ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٢-١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٦-١٣١٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠-١٩٥٤ ؛ Brellier : op . cit , p227-228 ; Edde : op . cit , p151-154 .

٣- موقف أوربا من إنقاذ لويس التاسع .

بقي لويس التاسع يتخبط في مملكة عكا ، ووجد صعوبةً بالغةً في العودة إلى فرنسا لعل مرور الزمن كفيل أن يمحي من أذهان الشعب الأوربي ذكريات الهزائم الأليمة التي حلت به ، كما أخذ يعمل ما في وسعه للنهوض بالكيان الصليبـــي ، ريثما تصل حملة صليبية جديدة وقد تأملَ خيراً إثر عودة النبلاء الفرنسيين إلى أوربا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ليشرحوا للشعب الأوربي المآسي التي تعرضوا لها على ضفاف النيل (١) ؛ وتباينت مواقف الدول الأوربية حول إعداد حملة صليبية جديدة ، وبشكل عام امتازت مواقفها بالفتور وعدم وجود رغبة صادقة بإعداد حملة صليبيـــة جديدة ، ومن أهم تلك الدول الأوربية (٢) :

أ – **إيطاليا** : ساءت أوضاع البابا أنوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م) إثر الصراعات التي دخلها مع الإمبراطور الألماني فردريك الثاني، فانشغل البابا في مواجهته (٣) ، وأخذ يجمع الأموال من أجل التصدي لأطماع فردريك الثاني في إيطاليا (٤) ، وقد وصل آنذاك ألفونسو كونت بواتيه وشارل كونت آنجو وبروفانسْ (أخوي لويس التاسع) إلى البابا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وطلبا منه الدعوة لإعداد حملة صليبية.جديدة وإنقاذ لويس التاسع ، ولكن البابا كان " عنيداً متشبثاً ، وبناءً عليه غادر الكونتان بقسوة ، ومع كلمات نابية " (٥) ، ويلاحظ بأن الكنيسة الرومانية فقدتْ هيبتها آنذاك إثر انشغال البابا ورجال الدين بالمناصب الدينية ومصالحهم الخاصة ، واتخذوا من الحرمان الكنسي وسيلة لمواجهة خصومهم ، فتدهورت أوضاع الكنيسة ، واستاء الشعب منها ، ومن حبها لجمع الأموال حتى باتت الكنيسة بحاجة إلى إصلاح ، فنشأت حركات الهراطقة التي وقفت في وجه الكنيسة ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦١-١٦٣ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٨-١٩٥٠ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p493-500 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٦١-١٢٠٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٣) فابري : الموسوعة، ج٣٨ ، ص١١٧٠ ؛ رفعت وحسونه : ص١٨١ ؛
Didier , Jean : les homes et leur histoire , larousse ,volume 5 , p58 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٥٩-١١٦٠ .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٧٩ .

وانحراف رجال الدين، وهذا ما شغل البابا في مواجهة الاضطرابات (١) ، وقد عبَّرَ عن ذلك متى باريس بقوله : إن " البلاط الروماني الذي يُفترض أن يكون نبع العدالة كلها ، صدرت عنه آثام لم يُذكر مثلها " (٢) ، ولم يكن البابا مستعداً لإرسال حملة صليبية جديدة لإنقاذ لويس التاسع ، بسبب الأوضاع السيئة التي عاشتها إيطاليا ، فاكتفى بتوجيه نداء إلى ملوك أوربا لمساعدة لويس التاسع مادياً وعسكرياً(٣) .

ب – ألمانيا : استاء البابا أنوسنت الرابع من الإمبراطور الألماني فردريك الثاني هوهنشاوفن الذي كان طامعاً بأملاكه في إيطاليا (٤) ، فطرده البابا من رحمة الكنيسة وحرمه كنسياً (٥) ، ولم يرض البابا أن يحلله من الحرمان على الرغم من وساطة أخوي لويس التاسع ألفونسو كونت بواتيه وشارل كونت آنجو وبروفانس (٦) ، وفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أصيب فردريك الثاني بمرض متعذر ، وفارق الحياة في العام نفسه ، واستلم من بعده ابنه كونراد الرابع (٦٤٨-٦٥٢هـ/١٢٥٠-١٢٥٤م)(٧) ، وعلى ما يبدو أن كونراد الرابع لم يكن أهلاً للمسؤولية ، فأهمل شؤون إمبراطوريته ، وانشغل بملذاته الشخصية ، مما أدى لاستياء شعبي ضد سياسته ، فضلاً عن خلافه مع البابا على المناطق الحدودية ، فحرمه البابا كنسياً ، وأراد تسليم عرش ألمانيا إلى وليم كونت هولندا (٨) ، وهذا ما أدى لاستيلاء كونراد الرابع علي شمال إيطاليا وصقلية (٩) ، فأعلن البابا الحروب الصليبية سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، ولكن هذه المرة ليس ضد المسلمين إنما ضد كونراد الرابع ، ووعد البابا المشاركين في هذه الحرب " بمكافأة مجزية وهي الغفران من جميع ذنوبهم ، وكان هذا أعظم مما مُنح

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٩-١١٨٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٢٣-١٢٤ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٦٦ .

(٣) مونرود : مج٢ ، ص٣٣٤ .

(٤) رفعت وحسونه : ص١٤٥-١٤٦ ؛ Stevenson : op . cit , p290 .

(٥) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٠ ؛ Gebhart : op . cit , p206-207 .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص ١١٧٨ .

(٧) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٧٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٨، ص١١٨٠-١١٩٧ ؛ Brellier : op . cit , p266 .

(٨) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

(٩) زيتون ، عادل : تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، مطبعة الروضة ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٢٧٧ .

من أجل الحج إلى الأرض المقدسة " (١) ، فوقف كونراد عاجزاً عن درء الخطر البابوي ، وبشكل خاص إثر تمرد حكام المقاطعات الألمانية الراغبين بالاستقلال بمقاطعاتهم ، وكل ما تقدم يؤكد بأن كونراد الرابع لا يملك المؤهلات الكافية لإنقاذ لويس التاسع وسط ظروف غاية في الصعوبة عاشتها ألمانيا آنذاك (٢) .

جـ - **انكلترا** : لم تقتصر الجولة التي قام بها ألفونسو كونت بواتيه وكونت بروفَانسْ على زيارة البابا وألمانيا بل شملت انكلترا من أجل حث ملكها هِنرِيْ الثالث (٦١٣-٦٧١هـ/١٢١٦-١٢٧٢م) على إنقاذ لويس التاسع في الأرض المقدسة ، وقد قطع لهما هِنرِيْ عهداً على نفسه بأنه سيسعى لإصلاح الخلاف بين فردريك الثاني والبابا أنوسنت الرابع ، لإرسال حملة صليبية باسم أوربة ، ولكن فردريك الثاني وافته المنية قبل أن يتم الصلح بينه وبين البابا (٣) ، ولم يكترث هِنرِيْ الثالث بأمر لويس التاسع ، فطالبه البابا سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م في الإسراع بدعم لويس التاسع ، والسماح للمتطوعين من أبناء مملكته في المسير إلى الأراضي المقدسة (٤) ، فعاهد هِنرِيْ الثالث البابا على حملِ الصليب للدفاع عن مملكة عكا (٥) ، واستغرب الشعب الانكليزي من حماس ملكهم بل " صعُب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب إلا لغرض واحد هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثرواتها " (٦) ، وما لبث أن فرض الضرائب على الناس ، فأدركوا جشعه وطمعه في زيادة أملاكه (٧) ، وسرعان ما كشفوا نواياه حيث أعطى البابا أنوسنت الرابع مبلغاً مالياً ضخماً ، لإعفائه من العهد الذي قطعه على نفسه في المسير إلى الأراضي المقدسة ، ولم يكتف بذلك بل فرض حراسة على سواحل بلاده لمنع رعاياه من المسير إلى مملكة عكا (٨) ، وبقي هِنرِيْ الثالث في صراع مع رجال دولته بسبب حُبه لتكديس

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٥٨ .

(٢) فالنتين ، فاين : تاريخ الألمان تر : حيدر أحمد ، دار الأبجدية ، ط١، دمشق ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص٧١ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١١٧٩-١١٩٧ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٧٣ ؛ Brellier : op . cit , p226-227 .

(٥) باريس: الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٧٣ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٠ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٨٣ .

(٧) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٨٣ .

(٨) يوسف : العدوان الصليبـي على بلاد الشام ، ص١٢٦ .

الثروات ، وهذا مامنعه من المسير لإنقاذ لويس التاسع (١) .

د – اسبانيا : لم تشارك اسبانيا تلك المشاركة الفعالة في الحروب الصليبيـــية ، ولكن عندما سمع ملك قَشتالة فرديناند الثالث (٦١٤-٦٤٨هـ/١٢١٧-١٢٥٠م) بالهزائم التي حلت بالحملة الصليبيـــية السابعة على أيدي المسلمين ، قرر المسير إلى المشرق العربي الإسلامي من أجل الثأر لتلك الحملة الصليبيـــية، مع العلم أن حرب الاسترداد الاسبانية ضد المسلمين كانت على أشدها (٢) ، فأرسل فرديناند الثالث إلى ملك انكلترا هِنريْ الثالث سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م لإعداد حملة صليبية مشتركة ، ولكن المنية عاجلته قبل إرسالها ، وإثر وفاته انشغل الإسبان بمتابعة حربهم ضد المسلمين ، و لم يطرأ أي تقدم على مسألة إنقاذ الكيان الصليبـــي (٣) .

هـ – فرنسا : خيم على فرنسا حزنٌ عميق إثر النوازل التي حلت بالحملة الصليبيـــية السابعة (٤) ، فظهرت حركة شعبية سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م عُرفت بصليبية الرعاة (crusade of the pastoureaux) قادها رجل هنغاري الأصل أطلق على نفسه سيد هنغاريا (٥)، وادعى بأن السيدة مريم العذراء كلفته بجمع الرعاة لإنقاذ الأراضي المقدسة ، وذلك لأن الرعاة أكثر بساطة وتواضع من الفرسان الذين انغمسوا في المعاصي حسب اعتقاده ، وسرعان ما انتشرت حركته في أنحاء فرنسا ، وانهالت عليهم التبـــرعات بعد أن اعتقدوا أن " الرب غالباً ما يختار الأجزاء الضعيفة في العالم ليخزي بها الأجزاء الأقوى " (٦) ، كما تلقوا دعماً كبيراً من نائبة لويس التاسع السيدة بلانشيه (٧) ، وبلغ عددهم أكثر من مائة ألف رجل ، وقد اتخذوا من صورة الحمل الوديع شعاراً لهم ، ولكن ما لبث أن انضم إلى أولئك الرعاة جموعٌ غفيرة

---

(١) باريس : الموسوعة، ج٤٩ ، ص١٣٥٣ ؛ Wrong : op . cit , p79 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٢٦ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٢٨-١٢٢٩ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٥ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٥٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٨ .

(٥) اتخذ سيد هنغاريا على ما يبدو أسماء عديدة فضاع اسمه الحقيقي ، فَعُرِفَ بيعقوب وروجيه وجاك . يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٢٧ .

(٦) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٤٥ .

(٧) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٤٤-١٢٤٥ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٠-٤٨١ ؛ Lamy : op . cit , p40-41 .

من اللصوص والمنفيين والمحرومين كنسياً (١) ، ومما يلفت الانتباه إلى أن هذه الحركة لم تكن سوى ثورة على رجال الدين في فرنسا ، لأن زعيم الحركة سرعان ما تحول عن هدفه في إنقاذ لويس إلى مهاجمة رجال الدين الذين وصفهم بصيادي المال (٢)، وقد ألقـى موعظة في مدينة أورلين(Orli) الفرنسية على الرغم من رفض أسقف المدينة لتلك الموعظة حتى أن أسقف المدينة هدد رجال الدين في مدينته بالحرمان الكنسي إذا ما حضروا الموعظة ، وذلك خوفاً من المُشادات والاصطدامات بين الطرفين ، ولكن الكثير من رجال الدين لم يكترثوا بتهديد الأسقف ، وبالفعل ما إن بدأ سيد هنغاريا زعيم الحركة يتحدث حتى أظهر استخفافاً كبيراً برجال الدين ، كما وجه لهم الشتائم ، فأتى أحد رجال الدين ورد عليه بالطريقة نفسها ، ثم ما لبث أن قَدم أحد أتباع سيد هنغاريا ، وضرب ذلك الرجل بفأس ، فشطر رأسه قسمين ، وعلى إثر ذلك هاجم الرعاة أثرياء المدينة وبخاصة رجال الدين منهم ، فنهبوا أموالهم (٣) ، ووصلت أنباء الاضطرابات إلى بلانشيه ، فقررت حرمان الرعاة كنسياً ، وأكدت ضرورة الخلاص من أثرهم ، وتابع الرعاة مسيرهم إلى مدينة بورجي (Borger) الفرنسية ، وقد تقدم أحد جزاري المدينة ، وضرب سيد هنغاريا بفأس ، فراح رأسه يتدحرج على الأرض ، وتفرق أتباعه ، فاستلم أحد الرعاة قيادة الحركة ، ولكن سرعان ما أُلقي القبض عليه ، ووضع في زنزانة ، فاستلم شخص ثالث القيادة ، وأراد الهرب مع أتباعه إلى انكلترا ، ولكنه لقي حتفه في إحدى الغابات ، وتلاشت جموع الرعاة ، وعادوا فحملوا الصليب بدلاً من صورة الحمل ، وانتهى أمرهم (٤) .

وعلى هذا يلاحظ بأن زعماء أوربة لم يكونوا متحمسين لإرسال حملة صليبية من أجل إنقاذ لويس التاسع ، لأنهم قد انشغلوا في صراعاتهم ومشاكلهم الداخلية ، وربما أدركوا صعوبة السيطرة على المشرق العربي الإسلامي (٥) ، وعندما أيقن لويس التاسع بأن أوربا لن ترسل حملة صليبية جديدة ، اعتمد على إمكانات الكيان الصليبـي في تقويته بوجه التحديات المملوكية والأيوبية (٦).

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٤٦-١٢٤٧ ؛ زابورف : ص٣١٥ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٤٦-١٢٤٧ ؛يوسف : العدوان الصليبـي على بلاد الشام ، ص١٢٧-١٢٩ .

(٣) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٤٧-١٢٤٨ ؛ زابورف : ص٣١٥-٣١٦ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٢٤٩-١٢٥٢ .

(٥) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١١٧٨-١١٧٩ ؛ ج٤٩ ، ص١٢٥٨-١٣٥٣ ؛ مجهول: تاريخ هرقل ، الموسوعة؛ ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٣ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٢-١٨٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٤٨-١٩٥٤ ؛ Stevenson : op . cit , p329-332 .

٤- الصلح الأيوبي – المملوكي وانقلاب الموازين .

بذل الناصر يوسف الثاني جهداً كبيراً لكسب لويس التاسع ، وأغراه بالكثير من التنازلات على الرغم من أن أوربا تركته وحيداً في مملكة عكا ، ولكن الناصر يوسف الثاني ما لبث أن أدرك الخطر الذي شكله لويس التاسع على المسلمين (١) ، ويعود الفضل في ذلك إلى الخليفة العباسي الذي شعر بضرورة توحيد المسلمين لمواجهة الطامعين بتفتيت وحدة المشرق العربي الإسلامي والسيطرة عليه (٢) .

ازداد الخلاف الأيوبي – المملوكي ، وكان للملك الفرنسي دور كبير في إذكاء جذوة النـــزاع الذي لم ينته باصطدام الطرفين في معركة العباسة (٣) ، بل وضع المعز أيبك ولويس التاسع خطة لمهاجمة الأيوبيين في بلاد الشام (٤) ، واستعداداً لتنفيذ الخطة انطلق لويس التاسع إلى يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠هـــ/شهر أيار عام ١٢٥٢م ، وعسكر مع جنوده فيها (٥) ، وانتظر لويس التاسع قدوم القوات المملوكية لمهاجمة الأيوبيين ، بينما حشد الناصر يوسف الثاني قواته في غزة للتصدي للمعز أيبك ولويس التاسع (٦) ، في الوقت الذي أثار فيه المغول حالة من الرعب (٧) .

أوشكت الحرب أن تبدأ بين الناصر يوسف الثاني والحلف المملوكي – الصليـــبي ، ولكن الخليفة العباسي المستعصم بالله أنقذَ الموقف كما أدرك ملك دمشق بأن إزالة الدولة المملوكية أمراً مستحيلاً ، ولاسيما إثر الهزيمة التي حلت بالجيوش الأيوبية في معركة العباسة ، في الوقت الذي وجد بأن

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٢٣-٣٢٩ ؛
Stevenson : op . cit , p329-330 .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٢٠ ، ص٦٧ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٣ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٦٤-١٩٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٠-١٩٥٤ ؛
Smith : op . cit , p186 .

(٤) ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛
Edde : op . cit , p153-154 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٠ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ .

(٦) ابن واصل : ج٦ ، ص١٦٨ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص٢٢-٢٣ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٦١ .

(٧) سبط ابن الجوزي : ق٢ج٨ ، ص٧٨٧ ؛ القلقشندي ، أحمد : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تح : عبد الستار فراج ، الكويت ، ١٣٨٤هـــ/١٩٦٤م ، ج٢ ، ص٨٩-٩٠ ؛ الديار بكري ، حسين: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، دار شعبان ، بيروت ، ج٢ ، ص٣٧٢ .

الاستيلاء على مصر مغامرة غير مضمونة ، ربما تُكلفه خسارة مملكته ، فكان الصلح خير وسيلة للحفاظ على الممالك الأيوبية في بلاد الشام ، بينما سئم المماليك من النـــزاع مع الأيوبيين ، فضلاً عن التنازلات التي قدموها للويس التاسع ، مما أدى لإثارة مشاعر المسلمين ضدهم ، فآثروا قبول وساطة الخليفة العباسي لمواجهة المشاكل الداخلية التي واجهتهم (١) .

تردد رسول الخليفة العباسي نجم الدين البادرائي بين الناصر يوسف الثاني و المعز أيبك ، وبفضل مساعيه استطاع التوفيق بينهما في شهر صفر سنة ٦٥١هـــ/شهر نيسان عام ١٢٥٣م ، وتقرر الصلح بينهما ، ومن أهم بنوده :

أ – اعتراف الناصر يوسف الثاني بالدولة المملوكية ، وسيادتها على مصر وجنوب غرب بلاد الشام بما في ذلك نابلس وبيت المقدس وغزة (٢) .

ب – اعتراف المعز أيبك بالسيادة الأيوبية على ما تبقى من بلاد الشام (٣) .

جـــ – إفراج المعز أيبك عن أسرى معركة العباسة من أبناء الأمراء الأيوبيين الذين أبقاهم لديه في السجن بعد أن أطلق سراح الأسرى إثر المعركة ،واحتفظ بأبناء الأمراء فقط (٤) .

خاب أمل لويس التاسع إثر الصلح الأيوبي – المملوكي ، وبدا له أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح حلماً صعب المنال بل ما إن اطمأن الناصر يوسف الثاني للمماليك حتى أعلنها حرباً شعواء على الصليبـــيين ، وأمر القوات الأيوبية التي رابطت في غزة بمهاجمة المواقع الصليبيـــة ، فبدأت بالهجوم على مدينة يافا في شهر ربيع الأول سنة ٦٥١هـــ/شهر أيار عام ١٢٥٣م (٥) ، وحدد جوزيف يوسف عدد القوات الأيوبية التي هاجمت يافا حوالي ٢٠ ألف جندي نظامي

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٢٠ ، ص٥٩-٦٧ ؛ ابن العميد : ص٤٠-٤٢ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص١٨٥ .

(٢) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٢ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٢٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبيـــة ، ج٢ ، ص١٠٩٢ .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٧٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥١؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ج٢ ، ص١٢٥ .

(٤) ابن واصل : ج٦، ص١٧٥ ؛ ابن كثير : ج١٧ ، ص٣٢١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٠ ؛المنهل الصافي ، ص١٠ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨ ؛ باريس : ج٤٩ ، ص١٤٢٣ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٧-٤٧٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٠ .

و١٠ آلاف من البدو (١) ، بينما أشار Grousset إلى أن الجيش النظامي ٢٤ ألف و١٨ ألف من البدو (٢) ، وهذه الأعداد مبالغ فيها لأن جوانفيل أعطى رقماً مقبولاً وهو " ثلاثة آلاف من(الجنود) المسلمين وعشرة آلاف من البدو " (٣) ، ومن المحتمل أن هؤلاء البدو هم من أهالي المدن الفلسطينية الناقمين على الصليبيين ، وقد انطلق الجيش الأيوبي من غزة ، واتجه نحو الشمال ، وعلى ما يبدو أن لويس التاسع علِم بتحرك ذلك الجيش ، ربما عن طريق جواسيسه ، وقد كان مقيماً في يافا آنذاك ، وقبل وصول الجيش الأيوبي بالقرب من يافا أمر لويس التاسع بإرسال فرقة استطلاعية لمراقبة تحركات خصومهم ، كما كلّف مقدم فرقة رماة سهام الزنبورك سيمون دي مونتبليارد بمهمة حراسة المعسكر الصليبي الموجود في يافا ، وأشار جوانفيل إلى أن عدد فرسان هذه الفرقة حوالي مائة وثمانين مقاتل ، بينما نوه جوزيف يوسف إلى أن عددهم بلغ مائتي وثمانين مقاتل، وبالفعل بقيت الحراسة مستمرة ثلاثة أيام بلياليها ، ولكن الغريب في الأمر أن فرقة الحراسة قد تم تطويقها من قبل الجيش الأيوبي ، ومن المحتمل أن أولئك الحراس لم ينتشروا على أطراف المعسكر الصليبي إنما اجتمعوا في مكان واحد توقعوا مرور القوات الأيوبية منه ، مما أدى لتطويقهم ،كما أن فرقة الاستطلاع كانت بعيدة عن الحدث ، وإلا كانت أنذرت فرقة الحراسة قَبل أن يتم تطويقها من قِبَل الجيش الأيوبي ، وما إن تم تطويق فرقة الحراسة حتى وصل أحد الجنود إلى لويس التاسع يطلب منه النجدة ، وقد كان لويس التاسع مشغولاً بسماع القداس ، فأرسل جوانفيل على رأس " أربعمائة أو خمسمائة من الرجال الصليبيين " (٤) ، لفك الحصار عن فرقة الحراسة ، وما إن بدأت المناوشات حتى شعر الجيش الأيوبي أنه بين نارين وهما قوات جوانفيل من الخلف وفرقة الحراسة من الأمام ، وهنا فكّ الجيش الأيوبي الحصار عن فرقة الحراسة ، وتراجع إلى ربوة قريبة من المعسكر الصليبي حيث رابط على تلك الربوة بقية الجيش الأيوبي ، مما يدل على أن القائد الأيوبي أبقى قسم من قواته على الربوة أما القسم الآخر هاجم فرقة الحراسة ، ولو أن الجيش الأيوبي بأكمله هاجم فرقة الحراسة لأبادها ، وربما أبقى القائد الأيوبي قسم من قواته على الربوة للتدخل إذا ما اقتضت الضرورة ، فضلاً عن مراقبتها لتحركات الصليبيين ،

---

(١) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٢) Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩ .

وعندما أصبح الجيش الأيوبي بأكمله في أعلى الربوة ، قرر الهجوم(١) .

أما لويس التاسع فأنزل إلى ساحة القتال فرقتين عسكريتين إحداهما قادها جوانفيل ، والأخرى سيمون دي مونتبليارد ، واحتفظ لويس التاسع ببقية الجنود جانباً ، ونشبت المعركة في شهر ربيع الأول سنة ٦٥١هـ/شهر أيار سنة ١٢٥٣م ، وعندما تغلبت القوات الأيوبية على الجيش الصليبـــي أنزل لويس التاسع حوالي مائة وعشرين مقاتل ، فرجحت كفة الصليبيـــين ، وأخذت القوات الأيوبية بالتراجع ، فنـــزلت قوات أيوبية إضافية من أعلى الربوة ، وقاتلت بشكلٍ مُذهل ، وهنا تدخل النائب البابوي وبارونات مدينة يافا ، وأخذوا يلومون لويس التاسع عندما رأوا بأن الجيش الأيوبي يفوق القوة الصليبيــية ، فنصحوه بسحب قواته ، وبالفعل ما لبث أن أمر قواته بالتراجع والتحصن داخل أسوار يافا ، و لم يلحق بها الجيش الأيوبي (٢) ، وانتهت معركة يافا ، وأسفرت عن النتائج التالية :

أ – فقدَ لويس التاسع الأمل في الحصول على بيت المقدس بعد أن خسر صداقة الناصر يوسف الثاني ، فقد كان بالأمس يستجدي لويس التاسع ، ويَعِدهُ ببيت المقدس ، لكنه ما لبث أن انقلب بشكلٍ فُجائي عندما أدرك نواياه في ضرب القوتين الأيوبية بالمملوكية للحفاظ على الكيان الصليبـــي(٣) .

ب – انتصار الجيش الأيوبي على الصليبيـــن في معركة يافا ، و لم يرغب القائد الأيوبي بمتابعة فلول الجيش الصليبـــي الذي ولى منهزماً ، وتحصن داخل أسوار يافا (٤) ، لأن يافا كانت حصينة بفضل جهود لويس التاسع ، ولا يمكن للجيش الأيوبي الذي لم يحمل سوى الأسلحة الخفيفة أن يخترق أسوارها المنيعة، فأسوارها كفيلة بحمايتها ، فضلاً عن الضربات التي يمكن أن يتلقاها فيما إذا حاصر المدينة (٥).

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨-١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٠-٢٠١ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p505-506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨-١٩٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠١-٢٠٢ ؛ بدور : ص١٧٥ ؛ Grousset : op . cit , volume 3, p505-506 ; villeneuve : op . cit , p215-217 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-١٩٨ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ ؛ زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيــية ،الموسوعة ، ج٣ ، ص٤٠٩-٤١١ ؛ Stevenson : op .cit , p330-331 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة، ج٤٩ ، ص١٤٠٩ ؛ Edde : op . cit , p153-154 .

(٥) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨، ص١٩٩٣ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص٢٥٠ ؛ عاشور : الحركة الصليبيـــية ، ج٢ ، ص١٠٩٣ ؛ Kedar: the franc , p274 .

جـ – تراجع القوات الصليبية ، وهزيمتها أمام الجيش الأيوبي ، وقد صَمدت في بداية المعركة لأن وجود لويس التاسع إلى جانبها أعطاها دافع معنوي ، ولكنها عندما شعرت بأنها أوشكت على الخسارة أمر لويس التاسع بانسحابها من المعركة (١) ، وعَلل جوانفيل بأن الجيش الأيوبي لم يتابع القوات الصليبية المتراجعة " لأنهم كانوا يعانون مع خيولهم من الجوع في غزة ، حيث أمضوا هناك حوالي سنة" (٢) ،وعلى ما يبدو أن جوانفيل ، لم يعترف بالهزيمة إنما اكتفى بالإشارة إلى أن القوات الأيوبية لم تكن مستعدة لمتابعة القتال ، علماً أن الصليبيين قد تركوا الجيش الأيوبي في أرض المعركة ، وعادوا ليحتموا داخل أسوار يافا .

وهكذا نجحت مساعي الخليفة العباسي في إطفاء جذوة الخلاف بين الأيوبيين والمماليك أملاً في التصدي لأكبر خطرين هددا المشرق العربي الإسلامي ألا وهما الخطر الصليبي والخطر المغولي ، فانتهت حالة التوتر بينهما ، و لم يجد الناصر يوسف الثاني بداً من الاعتراف بشرعية السلطنة المملوكية في مصر ، وما إن عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي حتى انقلبت الموازين (٣) ، وتلاشت أحلام لويس التاسع بعد أن تسابق المماليك والأيوبيين في خطبِ ودِّهِ وطلب رضاه ، ولكنهم انقلبوا عليه عندما بدأ الناصر يوسف الثاني بشنِ هجومٍ على الصليبيين في يافا ، و لم يمنع القوات الأيوبية من الارتداد عن يافا سوى الأسوار والحصون القوية التي أنشأها لويس التاسع لها ، و لم تكتف القوات الأيوبية بذلك بل واصلت هجماتها وتتابع مسلسل الهزائم الصليبية (٤) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩ ؛ حبشي : ص١٢٨؛
Grousset : op. cit , volume 3 , p505-506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩ .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٦٢-١٧٥ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٧٦-٤٧٩ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤١٩ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٠٨-٦٠٩ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٧٠-٢٧٤ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-١٩٨ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٨-١٤٠٩ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٥ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٣-٣٣٩ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p501-506 ; Brellier : op . cit , p226-227.

٥- الهجوم الأيوبي على المعاقل الصليبيـــية .

هاجم الجيش الأيوبي مدينة يافا ، وفوجئ بالقوة العسكرية الصليبيـــية التي تصدت له ، وعلى الرغم من ذلك أحرز نصراً عليها ، ولكنه لم يتجرأ على اقتحام أسوار يافا حيث وجدها حصينة منيعة وصعبة المنال (١)، فتركها وانطلق نحو الشمال قاصداً عكا وما يجاورها من المواقع الصليبيـــية ، لعله يظفر بالسيطرة على عاصمة الكيان الصليبـــي أو على الأقل زعزعة الأمن الصليبـــي أملاً بالخلاص من وجوده، وإثر الهجوم على يافا تابع ذلك الجيش مسيره ، وهاجم عكا ثم صيدا (٢) .

أ – مهاجمة الجيش الأيوبي لمدينة عكا .

انطلق الجيش الأيوبي من يافا قاصداً عكا ، وقد دَمر في طريقه حصن الداوك (تل الداعوق) وتل الكرادنة (خربة الكرادني) (٣) ، و لم تشر المصادر الجغرافية أو التاريخية لهذين الموقعين ، وهما حصنان بالقرب من عكا ، والحصن أشبه بالقلعة ، ولكنه يمتاز بصغر حجمه وضآلة أهميته (٤) ، وإثر تدمير الحصنين أصبح الجيش الأيوبي يدق أبواب عكا ، وقد كان قائد الحامية الصليـــية في عكا آنذاك يُوحَنا الثالث دي إبلين كونت أرسوف ، فأرسل قائد الجيش الأيوبي إنذاراً إليه ، وتضمن الإنذار تهديد يُوحَنا الثالث بدفع مبلغ خمسين ألف بيزنتة ، وإلا فإن الجيش الأيوبي سوف يدمر المزارع والحقول المحيطة بمدينة عكا فردعليه (٥) ، " بأنه لن يعطيهم ولا بيزنتة واحدة " (٦) ، مما أدى لزحف الأيوبيين حتى غدوا على مقربة من أسوار عكا ، بينما خرج يُوحَنا الثالث دي إبلين على رأس الحامية الصليبيـــية من عكا ، وتمركز مع قواته على جبل القديس يُوحَنا بجانب مقبرة القديس نيقولا، واستهدف حماية الحقول والبساتين ،كما تقدمت من عكا فرقة المشاة التابعة للملك الفرنسي لويس التاسع ، وقد بدت مدججة

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٨-١٩٩ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٤٢٣ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ Edde : op . cit , p154 .

(٣) ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p506 .

(٤) يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩-٢٠٠ ؛ عاشور : الحركة الصليبيـــية ، ج٢ ، ص١٠٩٣ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٣-٢٠٤ ؛ حومد : ج٢ ، ص٣٠٤ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٠ .

بالرماح والقسي ، وما إن وصلت حتى شرعت في مناوشة الجيش الأيوبي ، ومن الملاحظ أن فرقة المشاة خرجت من عكا دون أن تتلقى الأوامر من يُوحَنا الثالث الذي رأى ضرورة بقاء تلك الفرقة داخل عكا للدفاع عنها ، وبخاصة أنها تألفت من المشاة بينما كان الجيش الأيوبي من الفرسان ، وفي هذه الحالة من الصعب أن يصمد المشاة أمام الفرسان ، فأراد يُوحَنا الثالث إبقاء فرقة المشاة داخل أسوار عكا كي يتولى مع فرسانه مواجهة الفرسان الأيوبيين ، وأرسل يُوحَنا الثالث أحد فرسانه ويدعى جيانون (Gianone) الجنوي الأصل لإبلاغ أوامره إلى فرقة المشاة ، وبالفعل أوصل أوامره ، وفي طريق عودته رأى أحد الفرسان المسلمين فدعاه جيانون إلى المبارزة متكلماً معه باللغة العربية ، فرد عليه الثاني بأنه يَسرُه ذلك ، وتظاهر جيانون بأنه انطلق لمنازلة الفارس المسلم ، لكنه ما لبث أن انحرف نحو مجموعة صغيرة من المسلمين تألفت من ثمانية أفراد ، وقفت لتشهد المبارزة ، فاخترق المجموعة برمحه الطويل ، فأردى أحد فرسانها قتيلاً ، فهاجمه بقية فرسان المجموعة ، وهنا أسرع عائداً إلى الجيش الصليبي ، وقبل وصوله أدركه أحد فرسان المجموعة ، فضربه بدبوس على خوذته الفولاذية ، ورد عليه جيانون بضربة سيف على رأسه أطاحت بعمامته وسط الحقول ، ثم اندفع نحوه فارس مسلم أراد توجيه ضربة رمح له بين كتفيه ، فضرب الرمح بسيفه وطار من يد خصمه ، وكانت تلك المغامرات والمشاهد المثيرة التي قام بها جيانون على مرأى القائد الصليبي وجنوده ، والنساء الصليبيات اللواتي وقفن خلف أسوار عكا (١) ، وإثر تلك المناوشات الفردية التي قد يشوبها شيء من المبالغة لم يصطدم الجيش الأيوبي مع الصليبيين بعد أن عاد المشاة إلى داخل عكا للدفاع عنها بينما بقي فرسانهم وجهاً لوجه مع الجيش الأيوبي ، وهنا فَضَلَ قائد الجيش الأيوبي عدم الاصطدام معهم (٢) ، بعد أن رأى أسوار عكا القوية فقط كفيلة بتأمين حماية الصليبيين الموجودين بداخلها ، ويعود الفضل في حصانتها إلى لويس التاسع الذي جعلها على درجة عالية من الحصانة والقوة تحسباً لأي هجوم إسلامي كهذا ، وأمام متانة أسوار عكا ، واستعداد الجيش الصليبي للدفاع عنها انسحب الجيش الأيوبي

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٠-٢٠١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٠٤-٢٠٥ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٠-٢٠١ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506 .

لعله يجد غنيمةً أسهل من عكا (١) .

ب – مداهمة الجيش الأيوبي لمدينة صيدا .

استعصت الكثير من المواقع الصليبيـــية على الجيش الأيوبي لحصانتها ومتانة أسوارها ، ولكن ذلك الجيش لم ييأس ، فاتجه نحو صيدا (٢) ، وتوقعَ لويس التاسع بأن الجيش الأيوبي سيُهاجم صيدا بما أنها في طريقه إلى دمشق ، كما أنها ضعيفة التحصين ، وقد كان لويس التاسع في يافا ، فأسرع في إرسال قوة عسكرية صغيرة رافقت البنائين والحجارين إلى صيدا من أجل زيادة تحصينها ، وتقوية استحكاماتها العسكرية ، ومن المحتمل أن ذلك الجيش علم بذلك ، وعرف بأن صيدا ضعيفة التحصين مقارنة مع المدن الأخرى التي هي تحت سيطرة الصليبيين ، والتي هاجمها قبل صيدا ، وهذا ما أدى لانطلاق الجيش الأيوبي نحو صيداً ، وقد وصلها في شهر ربيع الثاني سنة ٦٥١هـــ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م (٣) .

اقتحم الجيش الأيوبي صيدا في الوقت الذي انشغل فيه العمال والبنائين في إعمار أسوارها ، فسارع سيمون دي مونتبليارد الذي كان رئيس فرقة القسي العقارة في صيدا وقائد للقوات الصليبيـــية التابع للويس التاسع بالانسحاب إلى قلعة صيدا الحصينة حيث أحاطت بها المياه من معظم جوانبها ، لعل تلك القلعة تُؤمن لهم الحماية بعد أن أدرك بأنه غير قادر على مواجهة جيش أيوبي بتلك القوة ، وعلى ما يبدو لم تتسع القلعة لسكان صيدا ، فضاقت بالفارين إليها من الصليبـــيين ، وعندما هاجمها الجيش الأيوبي لم يَجد مقاومة تذكر ، لأن معظم الصليبـــيين تحصنوا في القلعة (٤) ، وعلى الرغم من تحصنهم داخل القلعة ذهب ضحية الهجوم الأيوبي كما حدد جوانفيل : بأنهم " قد قتلوا ما يزيد على ألفين ثم غادروا المدينة " (٥) ، أما صاحب تاريخ هرقل فأشار إلى أن الأيوبيين " قتلوا ثمانمائة أو أكثر من الناس

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١-٢٢٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ . ص١٤٠٩-١٤٢٤ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٢-١٩٩٣ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨-٣٣٩ ؛ حبشي : ص١٢٨ ؛
Edde : op . cit , p154 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩-٢٠١ ؛ الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبيـــية ، ج٢ ، ص١٠٩٣-١٠٩٤ ؛ حبشي : ص١٢٨ ؛ villeneuve : op . cit , p218-220 ; Edde : op . cit , p154 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٦-٢٠٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢. رنسيمان : ج٣ ، ص٤٧٨ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p506-507 ; Tible : op . cit , p173 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١ .

وحمّلوا أربعمائة أوأكثر أسرى وبنائين وسواهم " (١) ، ويُرجح رأي جوانفيل لأن صاحب تاريخ هرقل غير متأكد من العدد الصحيح للقتلى لأنه حدد الرقم ثمانمائة أو أكثر ، وهذا يؤكد عدم تأكده من العدد الحقيقي للقتلى ، ولكن هرقل أضاف فكرة جديدة بتحديده لعدد الأسرى ، وهذا ما لم يَذكره جوانفيل، بينما عبَّر مكسيموس مونرود عن كثرة عدد القتلى عندما نوه بأن أرض صيدا كانت مليئة بأجساد أولئك المساكين (٢) ، لكن ما الذي أجبر أولئك المساكين على غزو بلاد المسلمين ؟

لم يُجبرهم سوى الطمع وحُب السيطرة على الآخرين ، وقد توقعوا بأنهم سينالوا من المسلمين دون أن يتجرأ أحد على مجابهتهم ، ولكنهم أدركوا وتأكدوا بأن الطريق أمامهم مليئة بالصعاب ، ولا ينتظرهم سوى الموت على أيدي الفرسان المسلمين .

وعندما علم لويس التاسع بما حلَّ في صيدا كان وقع النبأ عليه قاسياً ، فغضب لذلك الأمر ، وتمنى للبارونات لو أنه استطاع تعويض الخسائر التي حلت بهم ، ثم عقد العزم على إعادة تحصين صيدا خوفاً من هجوم إسلامي آخر قد يؤدي لسقوطها بأيديهم ، وبالفعل قصد صيدا في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥١هـ/شهر حزيران عام ١٢٥٣م لتخفيف آلامها، وتقوية دفاعاتها العسكرية (٣) .

وهكذا لم تذهب جهود لويس التاسع سُدى ، فقد كانت التحصينات التي أنشأها بمثابة درع واقي أدى لتأمين الحماية للمعاقل الصليبيـــة ، فلم يستطع الجيش الأيوبي أن ينال من المدن الحصينة كيافا وعكا وغيرها من المدن ، وقد وقف عاجزاً أمام أسوارها لا حول ولا قوة له ، بينما اجتاح صيدا التي لم ينته تحصينها بعد، وكادت أن تسقط مدينة صيدا ، ولكن القلعة الحصينة فيها كانت ملاذاً للفارين ، مما أطال في عمرها (٤) ، وهنا سارع لويس التاسع بالتوجه إلى صيدا ليرى الكارثة التي حلت بها لعله يستطيع مداواة جراحها ، والثأر للقتلى والأسرى (٥) .

---

(١) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ .

(٢) مونرود : مج٢ ، ص٣٣٩ .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ . عاشور : الحركة الصليبيـــة ، ج٢ ، ص١٠٩٤؛ Grousset : op . cit , volume3 , p506-507 ; Stevenson : op . cit , p331.

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩-٢٠١ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبيـــة ، ج٢ ، ص١٠٩٣-١٠٩٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p505-507 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١-٢٠٧ ؛ حومد : ج٢ ، ص٣٠٤-٣٠٥ ؛ Edde : op . cit , p154 ; Tible : op . cit , p173 .

٦- الهجوم الصليبـــي على بانياس .

أغار الجيش الأيوبي على المواقع الصليبيـــية فدكَّ أسوارها وألحقَ بها أضراراً بالغةً في الأرواح والأموال (١) ، فقررَ لويس التاسع المُضي في أعمال التحصين التي كان قد بدأ بها منذ وصوله إلى مملكة عكا لتأمين حماية الصليبـــيين (٢) ، كما أراد أن يَرُد على الأيوبيين رداً عنيفاً ، فقرر مهاجمتهم في عقر دارهم كي يضع حداً لتعدياتهم المتكررة على الكيان الصليبـــي ، فسار على رأس جيشه الصليبـــي من يافا قاصداً صيذا ، وقبل أن يصل إليها نزل في صور التي كان يحكمها فيليب دي مُونتيفورتْ آنذاك ، وفي صور عقد اجتماعاً حضره كبار رجال دولته، مقترحاً إرسال حملة عسكرية لمهاجمة مدينة بانياس ، ووافق الجميع على اقتراحه لسببين وهما (٣) :

أ – إن بانياس كانت من أملاك الملك الأيوبي السعيد عثمان بن العادل حتى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م ، ثم جَرَدَهُ منها الناصر يوسف الثاني صاحب دمشق (٤) ، وقد وافق الصليبـــيون على مهاجمتها (٥) ، لأنها من أملاك الناصر يوسف الثاني الذي وجه ضربات قاسية للكيان الصليبـــي (٦) .

ب- توقع الصليبـــيون أن الاستيلاء على بانياس أمراً سهلاً لأنها مُحاطة بالمدن والقلاع التي سيطر الصليبيين عليها مثل قلعتي شقيف أرنون وشقيف تيرون ، وحصني هُونين وتبنين ؛ ومدينتي صفد والناصرة (٧).

جـ- رغب الصليبـــيون بمهاجمة بانياس لأنهم إذا ما استولوا عليها أصبح من السهل عليهم السيطرة على دمشق ، كما أنها امتازت بموقعها التجاري فقد عُرفت بانياس لديهم باسم قيسارية (٨) ،

---

(١) ابن الجزري : ص٢٣٢ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p215-220 ; Stevenson : op . cit , p330-331 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١-٢٠٢ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٢-٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢٠٨-٢١٣ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p506-507 .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص١٤٢-١٤٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٩٩-٢٠٧ .

(٦) ابن الجزري : ص٢٣٢ .

(٧) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٤٥-٢٤٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٦.

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧ .

والقيسارية مجموعة حوانيت في الأسواق ، وهذا يدل بأن بانياس اشتهرت بكثرة أسواقها فأطلقَ الصليبيـــون عليها قيسارية (١) .

انقسم الجيش الصليبـــي إثر الاجتماع الذي عُقد في صور إلى قسمين : القسم الأول وقد ضم ثلة قليلة من الجيش انطلق على رأسها لويس التاسع قصدت صيدا ، أما القسم الثاني فتألف من غالبية الجيش الصليبـــي الذي قرر مهاجمة بانياس (٢) ، وقد عَهِدَ لويس التاسع إلى العديد من القادة للإشراف على الجيش (٣) ، ثم سار الجيش الصليبـــي مع بزوغ الفجر ، وقد تم تنظيمه إلى المقدمة التي شكلتها منظمة الداوية ، أما الميمنة فشكلتها الاسبتارية ، وشكل صليبيـــي مملكة عكا الميسرة ، بينما شكلت القوات الفرنسية وفرسان التيوتون قلب الجيش .

وضع الصليبيـــون خطة لاقتحام بانياس قامت على تكليف المقدمة بالتمهيد للهجوم ، ثم تقوم الميمنة والميسرة بشن هجومين متباعدين من نقطتين مختلفين لعل أحد الهجومين يؤدي لاختراق أسوارها، مما يساعد على تدفق بقية الجيش إلى المدينة ، كما أنهم استهدفوا من القيام بهجومين في آن واحد وفتح أكثر من جبهة على المدافعين من أبناء بانياس ، بينما كانت مهمة القلب منع التواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة وتحقيق هدفين : الأول منع وصول الإمدادات من الصبيبة ، أما الثاني فقد أرادوا نصب كمين للفارين من أبناء بانياس نحو الصبيبة (٤) ، المجاورة لها ، وإذا ما نجحت الخطة واستولوا على بانياس ، تابع الجيش الصليبـــي بأكمله شنِ هجوم عام على قلعة الصبيبة (٥) .

---

(١) المقريزي ،أحمد : خطط المقريزي ، تح : أحمد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، مج٣، ص٢٩٦ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507 .

(٣) قادة الحملة الصليبيـــة على بانياس هم : فيليب مُونتيفورتْ صاحب صور الذي قاد صليبيي بلاد الشام ، وتزعم وليم شاتنوف فرسان الاسبتارية ، وعلى رأس الداوية توماس بيـــرار ، أما القوات الفرنسية فقادها يُوحَنا كونت أيو والمارشال الفرنسي جايل دي برن والفارس جيفري سارجين وجوانفيل ، وانضم فرسان التيوتون إلى القوات الفرنسية . جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٤-٢١٩ .

(٤) قلعة الصبيبة : تقع إلى الشرق من بانياس ، وتُعد من القلاع المنيعة ، وكانت ملاذاً لأهالي بانياس فيما إذا تعرضوا لأي هجوم معادي . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٤٩ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٤-٢١٧.
Grousset : op . cit , volume 3 , p207-208 ; Edde : op . cit , p154 .

ويلاحظ بالرغم من اهتمام جوانفيل الكبير بأحداث الحملة على بانياس إلا أنه لم يحدد تاريخها ، ولكن بما أن الجيش الأيوبي هاجم صيدا في شهر ربيع الثاني سنة ٦٥١هـ/حزيران عام ١٢٥٣م ، فَيُرجح أن تاريخ الهجوم الصليبي على بانياس بعد هذا التاريخ بشهر أو شهرين كحد أقصى لأن الرد الصليبي جاء بشكل مباشر ، فما إن سمع لويس التاسع بأنباء الهجوم الأيوبي على صيدا حتى سارع في المسير من يافا إلى صور ، ومن صور أرسل حملته على بانياس (١) .

زحفت القوات الصليبية نحو بانياس وفقاً للخطة المرسومة وبدأت مقدمة الجيش بالتمهيد للهجوم ، ثم تابع القلب الذي ضم القوات الفرنسية محاولة اقتحام أسوار بانياس ، فتصدى لهم المسلمين، لكن جوانفيل قاد مجموعة من الفرسان وتصدى للمسلمين وأرغموهم على التراجع (٢) ، وبعد ذلك انطلق جوانفيل مع فرسانه من أجل التمركز على الطريق الواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة ، ولكن ذلك الطريق امتاز بوعورته الشديدة " وبصعوبة بالغة كان يمكن للفرس الاحتفاظ بحوافره على الأرض دون السقوط " (٣) ، فضلاً عن الأعداد الكبيرة من الجنود المسلمين الذين انتشروا في قمة الجرف الصخري الواصل بين بانياس وقلعة الصبيبة (٤) ، وهنا نجحت الميمنة والميسرة الصليبية في اختراق أسوار بانياس ، ويُرجَح أن أسوارها لم تكن متماسكة حتى استطاع الفرسان الصليبيين تهديمها واختراقها ، والدليل على ذلك ، فقد استطاع الفرسان القيام بهذه المهمة مع العلم أن اجتياز الأسوار من اختصاص المشاة المُزَوَدين بالمجانيق والكباش ، ولكن أسوار بانياس كانت مُتداعية وغير متينة ، مما أدى لاقتحامها من قبل الفرسان الصليبيين الذين توغلوا إلى داخل المدينة(٥) ، عندها ضعفت مقاومة المسلمين هربوا إلى قلعة الصبيبة للتحصن بها، و لم تستطع قوات قلب الجيش الصليبي والتي كُلفت بنصب كمين لأبناء بانياس الفارين من مدينتهم إلى الصبيبة (٦) أن تقوم بأداء مهمتها ، وذلك لسببين وهما :

أ – إن المهمة التي أُوكلت لقلب الجيش الصليبي القيام بنصب كمين للمسلمين الفارين من بانياس إلى الصبيبة فقط ، بينما لم يتقيد القلب بالأوامر ، وراح يُهاجم أسوار المدينة ، و لم يبقَ منهم سوى جوانفيل

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠١-٢٠٧ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢١٧-٢١٨ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥،ص٢٠٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٢٥ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨ ؛ Edde : op . cit , p154 ; Stevenson : op . cit , p331 .

(٦) الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٤ .

مع مجموعة من الفرسان للقيام بتلك المهمة ، فلم يُنجزوا مهمتهم على أكملِ وجه .

ب – إن طبيعة الطريق الذي سلكه المسلمين من بانياس نحو الصبيبة كان جُرفاً صخرياً وعراً ، ولا يمكن للفرسان الصليبيين الذين لحقوا بهم القتال في ذلك المكان ، فكان من الأفضل لو وضعوا مجموعة من المشاة لأن الخيول غير قادرة على الحركة بحُرية على ذلك الجرف ، بينما كان الفارين من المسلمين مُعظمهم من المشاة ، مما مكنهم من المناورة بشكل أكبر من أجل مُتابعة سيرهم إلى الصبيبة (١) .

وجدير بالذكر أن جوانفيل ومجموعة الفرسان الذين كانوا تحت قيادته لم يستطيعوا التصدي للمسلمين الهاربين نحو الصبيبة فحسب بل وقعوا في خَطَر ، وكادوا أن يهلكوا لولا وصول مجموعة من فرسان منظمة التيوتون في الوقت المناسب (٢) ، وهنا أخذ جوانفيل بإثارة الحماس الديني لدى الفرسان الصليبيين ، فاستطاعوا هزيمة المسلمين الذين لاذوا بالفرار إلى قلعة الصبيبة (٣) .

وعلى هذا لم يستطع أبناء بانياس التصدي للجيش الصليبي ، فوقعت بانياس في براثن الصليبيين، لأن أسوارها لم تكن كما يجب أن تكون عليه من القوة ، فتداعت أمام أضعف الضربات الصليبية لها (٤) ، كما يعود نجاح الصليبيين في الاستيلاء على بانياس إلى تطبيق الخطة الصليبية بحذافيرها إلى حدٍ ما،باستثناء قلب الجيش الصليبي الذي لم يتقيد بها ، ولم يقوم بمهمته في القضاء على الفارين من المسلمين (٥) ، فوجد المسلمون في قلعة الصبيبة مكاناً آمناً وحصيناً لحمايتهم (٦) ، وإعادة تنظيم أنفسهم ، ويمكن الإشارة إلى أن الجيش الصليبي التزم بالخطة ، فنجحوا في الاستيلاء على بانياس ، ولكن القلب لم يتقيد بها ، فوقع الصليبيون في ورطة عندما هاجموا قلعة الصبيبة (٧) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧-٢٠٨ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨-٢٠٩ .

(٣) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص ٢٣١ .

(٤) الدبس : ج ٦، ص٢٤٨ ؛ حبشي : ص١٢٨-١٢٩؛ Stevenson : op . cit , p 330-331 .

(٥) جوانفيل الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢٠٧-٢٠٨ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٦) أبو الفداء : تقويم البلدان، ص٢٤٩ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٤ ؛ Edde : op . cit , p154 .

(٧) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٢٠٧-٢٠٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-509 .

٧- هزيمة الصليبـــيين في الصبيبة .

ما إن استولى الجيش الصليبـــي على بانياس حتى تابع المسير إلى قلعة الصبيبة (١) ، وأخذ يرنو بنظره إلى تلك القلعة الرابضة في أعالي شعاب أحد جبال لبنان الشرقية والذي عُرف بالحرمون قديماً أما حديثاً فعُرف بجبل الشيخ (٢) ، بينما أطلق عليه أبو الفداء جبل الثلج لأن الثلج قد غطى قمة الجبل صيفاً وشتاءً ، تلك القلعة عُرفت بقلعة الصبيبة ، وقد جثمت في أعالي الشعاب الجبلية (٣) ، وقد كانت الخطة الصليبـــية تقوم على مسير الجيش الصليبـــي بأكمله نحوها ، ولكن فرسان منظمة التيوتون لم يتقيدوا بالخطة ، وسارعوا بمفردهم لاقتحام قلعة الصبيبة .

فرَّ أهالي بانياس تاركين مدينتهم للجيش الصليبـــي الذي نهب المدينة ودمرها ، ثم قرر الجيش الصليبـــي الالتحاق بالفرسان التيوتون الذين سبقوا الجيش في مطاردة فلول أبناء بانياس الفارين نحو الصبيبة ، بينما انشغل بقية الجيش بتمشيط المنطقة (٤) ، وقد خشي جوانفيل من مغبة الأمر وخاف على فرسان التيوتون من المسلمين ، فأخذ يناديهم : " أيها السادة إنكم تبتعدون عن الصواب بما تقومون به ، فنحن في موقع أُمرنا باحتلاله ، وأنتم تتجاوزون الآن أوامركم " (٥) ، و لم يستطع كونت أيو قائد قوات القلب كبح جماح التيوتون ، و لم يقدر أن يضع حداً لتهورهم على الرغم من أن التيوتون كانوا جزءاً من قوات القلب ، وجَدَّ فرسان التيوتون في المسير حتى وصلوا مشارف قلعة الصبيبة غير مبالين بالعواقب ، وعندما نظروا إلى أسفل الجرف الصخري المحيط بالقلعة أدركوا أنهم وحيدين في المعركة لأن الجيش الصليبـــي بأكمله كان لايزال في بانياس ويحتاج إلى وقتٍ وجهدٍ كبير حتى يصل إليهم فشعروا بالخطأ الفادح الذي ارتكبوه ، فقفلوا راجعين ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨ ؛
Stevenson : op . cit , p331 ; Edde :op . cit , p154 .

(٢) فينر : ص٥٢ .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٤٩ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٥-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٨-٢١٩ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩ .

لكنهم فُوجئوا بأبناء بانياس الذين استردوا شجاعتهم ونظموا أنفسهم وخرجوا من الصبيبة هم وأبناء الصبيبة ، وأحاطوا بالتيوتون ، وكان المسلمين مشاة لأن الخيل عديمة الفائدة على ذلك الجرف الصخري ، وأخذ المسلمون يرموهم بالرماح كما رشقوهم بالسهام ، فأسرع التيوتون مهرولين نحو الوراء حيث الجيش الصليبـــي (١) ، وعندما شاهد الصليبيـــون ذلك الموقف " بدؤوا يشعرون بالخوف وتنهار عزائمهم " (٢) ، وشعر جوانفيل بتخاذل الجنود الفرنسيين الذين كانوا برفقته ، فهددهم بالطرد من جيش لويس التاسع إذا ما تراجعوا عن المسير نحو الصبيبة وإنقاذ التيوتون (٣) ، وعلى ما يبدو أن المجموعة التي رافقت جوانفيل كانت من المشاة ، وكان هو الوحيد الذي امتطى جواداً ، فأشار له جنود تلك المجموعة أن ذلك ليس عدلاً ، لأنه إذا ما داهمهم الخطر فبإمكانه النجاة بنفسه بما أنه يركب حصاناً ، فَتَرجل جوانفيل ، وسلم حصانه إلى فرسان الداوية الذين ساروا خلف مجموعتهم ، ثم جَدوا في المسير نحو الأعلى لإنقاذ التيوتون (٤) .

بدأت المناوشات بين جنود جوانفيل والمسلمين على ذلك الجرف الصخري ، فأتى سهم أصاب جين دي اسكُوتْ أحد جنود جوانفيل الذي سقط ميتاً على الأرض ، وهنا أراد عمه هُوغو دي اسكُوتْ (Hok du escot) حمل جثته ، وطلب من جوانفيل مساعدته في ذلك ، فرفض الثاني مساعدته لأن هوغو كان أحد الفرسان الذين انضموا إلى التيوتون ، وساروا إلى الصبيبة دون أن يتلقوا الأوامر من أحد ، مما أوقع الجيش الصليبـــي في أزمة ، وسعى جوانفيل ورجاله لكسر طوق الحصار الذي فرضه المسلمين عليهم ، بينما لا يزال بقية الجيش الصليبـــي في بانياس ، وعندما وصلتهم أنباء الخطر المُحدق بالتيوتون ورجال جوانفيل ، توسل حاكـــم حيفا جَانْ دي فَالَنـــــــــــسينْ (Jan du Valencienne) لقادة الجيش الصليبـــي للإسراع بإنقاذهم ، فأرسلوا أولِفر دي تيرم (Oliver du Terme) أحد الفرسان الفرنسيين وقد قاد الجنود الفرنسيين ، بينما بقي صليبيـــي مملكة عكا في بانياس تحسباً لأي هجوم طارئ ، ووصل أولفر إلى أرض المعركة ، ورأى

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٨-٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٨-٢١٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p508 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٩ .

خطورة الموقف أمام الأعداد الكبيرة من المسلمين التي خرجت من الصبيبة لمواجهة العدوان ، فاقترح على جوانفيل خطة للنجاة (١) ، قامت على عدم متابعة الجيش الفرنجي النـــزول إلى بانياس لأن المسلمين كانوا يتعقبونهم ، فأرادوا إيهام المسلمين أنهم أرادوا الالتفاف عليهم من خلف الجبل كي يهاجموا قلعة الصبيبة في الوقت الذي أشعل فيه الصليبـــيين النيران في حقول القمح ، فانطلت الحيلة على المسلمين ظناً منهم أن الفرنج سيهاجمون قلعتهم من الخلف كما أُجبروا على التراجع بعد أن شاهدوا النيران الملتهبة تلتهم حقولهم ، فهرعوا لإطفاء الحرائق ، بينما استطاع الجيش الصليبـــي بأكمله الفرار نحو صيدا تاركاً بانياس والصبيبة للالتحاق بلويس التاسع (٢) ، وبذلك نَزلت هزيمة نكراء بالجيش الصليبـــي أمام قلعة الصبيبة ، ومن الأسباب التي أدت لهزيمتهم :

أ – إن العامل الجغرافي والموقع الحصين لقلعة الصبيبة (٣) أعاق تقدم الصليبـــيين من بانياس إلى الصبيبة حيث سلكوا جزفاً صخرياً وعراً لا يمكن للفرسان أو المشاة المسير عليه إلا بِشَقِ الأنفس ، والمسير في طريق كهذا أشبه بالانتحار (٤) .

ب – إن غياب لويس التاسع عن ساحة المعركة أثر على سير الأحداث ، وبخاصة مع تعدد القادة ، فلم يُعين لويس التاسع قائداً عاماً للجيش إثر مسيره إلى صيدا ، إنما سلم قيادة الجيش لعدد من القادة ، مما أدى لانعدام القرار الموحد ، والتعاون بين وحدات الجيش الصليبـــي (٥) .

ج – عدم تَقَيُد قوات قلب الجيش الصليبـــي بالأوامر ، وقد قاد كونت أيو تلك القوات حيث تم تكليفه بالقضاء على المسلمين الفارين من بانياس نحو الصبيبة ، بينما راحت قوات القلب ، وانقسمت إلى قسمين قاد القسم الأول كونت أيو وهاجم بانياس ، أما القسم الثاني من قواته والذي مثله التيوتون فقد أخذوا بمطاردة فلول المسلمين حتى وصلوا مشارف قلعة الصبيبة ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩-٢١٠ ؛ يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٢١٩-٢٢٠ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p508-509 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٠-٢١١ ؛ الدبس : ج٦، ص٢٤٨ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٢٥ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون ، ص٢٦٥ ؛ Edde : op . cit , p154 .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٤٩ ؛ فينر : ص٥٢ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p508 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٢٢٥ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٥-١٧٦ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .

وهنا قوات القلب بأكملها لم تتقيد بالخطة أبداً (١) .

د – لم يستكين أبناء بانياس الذين فروا نحو الصبيبة ، فأعادوا تنظيم أنفسهم بالاتفاق مع أهالي الصبيبة ، وشنوا هجوماً موحداً على الصليبيين ، كما أنهم اعتادوا المسير على تلك المنحدرات المليئة بالصخور والحجارة ، ولا غَرابة في ذلك فهم قد وُلدوا على تلك البقاع ، وعاشوا عليها فكانوا أقدر على التعامل مع أرضهم من غيرهم (٢) .

وصلت فلول الصليبيين إلى صيدا تجر ذيول الخيبة حيث كان لويس التاسع قد انذهل بما فعله الجيش الأيوبي بأهالي صيدا حيث تناثرت جثث القتلى هنا وهناك في أرجاء المدينة (٣) ، فلم يكترث أمام تلك المصيبة بالهزيمة التي حلت بجيشه في الصبيبة ، فأخذ لويس التاسع والنائب البابوي في البحث عن بقعة لدفن الموتى ، ثم حفروا مقبرة جماعية لجميع القتلى ، وأظهر الكثير من الجنود الصليبيين اشمئزازاً من مناظر الجثث ، فَتَرَجّل لويس التاسع من على حصانه " وحمل بذاته بعض الجثث المتهرئة وذات الرائحة النتنة إلى الحفرة الكبيرة " (٤) ، فحذا حذوه بقية الصليبيين مع أنهم اضطروا لسد أنوفهم تفادياً للرائحة المنبعثة من الجثث باستثناء لويس التاسع الذي أظهر الحزن والأسى على أولئك القتلى ، وقد استغرقت عملية الدفن خمسة أيام ، ثم أقاموا الصلاة الجنائزية على مقبرتهم (٥) ، وإثر دفن موتى صيدا شرع لويس التاسع بإعادة ترميم أسوار صيدا كي تكون قوية منيعة إذا ما هاجمها المسلمين(٦) .

وعلى هذا فقد أخطأ لويس التاسع خطئاً فادحاً عندما ترك الجيش الصليبي يُهاجم قلعة الصبيبة دون تعيينه قائد محدد لذلك الهجوم ، وهذا ما أدى لعدم انصياع كونت أيو للخطة الموضوعة ،

---

(١)جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧-٢٠٩ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون ، ص٢٦٥ .

(٢) الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٤؛ Edde : op . cit , p154 .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٩ ؛ Villeneuve : op . cit , p218-220 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١١ ؛ الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨؛ مونرود : : مج٢، ص٣٣٩ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١١ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٩٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p509 ; Tible : op . cit , p173 .

كما تَسرَّع فرسان التيوتون في مهاجمة الصبيبة ، مما أوقع الصليبيين في خطر (١) ، وإن هذا التهور أشبه بما حصل مع رُوبِرتْ كونت أرتوا الذي ارتكب حماقة كبرى عندما اجتاز مع طليعة الجيش الصليبي أشموم طناح ، ثم أصر على مهاجمة مدينة المنصورة دون أن يأخذ موافقة أخيه لويس التاسع في الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي لم يعبر فرع أشموم طناح بعد ، مما أوقعهم في كمين داخل أسوار المنصورة لم ينج منه إلا القليل ، وكان في مقدمة القتلى رُوبِرتْ كونت أرتوا (٢) ، أما هنا فإن حماس فرسان التيوتون في مهاجمة قلعة الصبيبة أدى لإرباك الجيش الصليبي الذي لم يعد قادراً على الاستيلاء على الصبيبة فحسب بل خَسِرَ مدينة بانياس بعد أن دخلها ، ولاذَ بالفرار إلى صيدا لدفن الجثث التي سببها الهجوم الأيوبي عليها ، وبدلاً من أن يثأروا لأولئك القتلى حلت بهم هزيمة نكراء ، وبذلك توالت الخسائر الصليبية أمام العرب المسلمين (٣) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٠٧-٢١٠ ؛ الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨ ؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون ، ص٢٦٤ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p507-508 .
(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٢٥-١٩٢٧ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩١-١٩٩٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٦٩ ؛
Villeneuve : op . cit , p123-125 ; Dagen : op . cit , p72 .
(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٠-٢١١ ؛ يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢١٩-٢٢١ .

٨- عودة لويس التاسع إلى فرنسا .

بينما كان لويس التاسع منشغلاً في تحصين مدينة صيدا ، وصله نبأ وفاة والدته بلانشيه التي نابت عنه في تدبير المملكة الفرنسية ، فانزوى حزيناً ، ورأى بأنه لا يوجد من يضاهيها في الجلوس على عرش فرنسا ، فخشي من حدوث القلاقل والاضطرابات في المملكة الفرنسية (١) ، في الوقت الذي اشتعلت فيه الحروب مع الأيوبيين ، وساءت أوضاع الصليبـيين إثر الضربات القاسية التي نزلت بهم على أيدي الأيوبيين (٢) ، وهذا ما جعل لويس التاسع في حيْرةٍ من أمره حول البقاء في مملكة عكا أو العودة إلى فرنسا (٣) .

شعرت الملكة الفرنسية بدنو أجلها ، فلبست لباس الحجاج الأبيض ، ووضعت فوقه التاج الملكي ، واستعدت للرحيل عن الدنيا ، وطلبت من الحاشية الملكية أن يدفنوها في دير للراهبات كانت قد أشرفت بلانشيه على تأسيسه (٤) ، وفي شهر رمضان سنة ٦٥٠هـ/شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٢م توفيت بلانشيه ، وشيَّعَتْ فرنسا ملكتها الراحلة وسط أجواء الحزن والأسى (٥) ، وغدت فرنسا إثر موت بلانشيه مسرحاً للفوضى حيث تولى مقاليد الحكم ابنها شارل كونت آنجو ، ولم يتمكن أخيه ألفونسو من مشاركته في الإدارة بسبب مرضه (٦) ، وظهرت مطامع انكلترا وألمانيا في الأملاك الفرنسية سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٣م ، وهذا ما أدى إلى صراعات دامية تطلبت وجود لويس التاسع لإنهائها (٧) .

لم يصل نبأ وفاة بلانشيه إلى لويس التاسع حتى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ؛

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٧-٢١٨ . مونرود : مج٢ ، ص٣٣٩ ؛ الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨-٢٤٩ .
Villemeuve : op . cit , p220-223 ; Aziz : op . cit , p21300 .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٠٩ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ ابن الجزري : ص٢٣٢ .

(٣) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٣٣ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٣٦٢-١٢٦٣ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٧ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٢ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p531 .

(٦) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٢٣٢ .

(٧) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٤٤٥-١٤٥٥ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٣ .

حيث كان في مدينة صيدا (١) ، تأثر لويس التاسع وزوجته مارغريتْ بشكل كبير ، وأظهر حزناً عميقاً ، فأتى جوانفيل يواسي سيده ، وألقى عليه المواعظ ، وطلب منه ألا يُظهر الأسى كي لا يفرح خصومه المسلمين وأن يتجاوز محنته ، ويتابع تحصين صيدا ، وبالفعل كان ذلك حيث تابع لويس التاسع أعماله في صيدا (٢) ، ولكن بفقدان الملكة الفرنسية أصبح موقف لويس التاسع حرجاً حول مشكلة البقاء في الشرق أو العودة إلى فرنسا ، وهذا ما يُذكر بالظروف التي رافقت قدومه إلى عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث عقد اجتماعات عديدة حتى قرر في نهايتها البقاء في المملكة اللاتينية ، ولكنه كان مطمئناً لأن والدته بلانشيه كانت قادرة على إدارة البلاد أثناء غيابه ، أما الآن بوفاتها لم يعد هناك من ينوب عنها أو يسد الفراغ الذي تركته (٣) ، فأرسل لويس التاسع خلف النائب البابوي الموجود في عكا ، وطلب منه إقامة الصلاة والدعاء إلى الله لعله يهديه إلى اختيار الصواب ، ثم عقد لويس التاسع اجتماعاً في صيدا سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م لمعرفة موقف بارونات الكيان الصليبي من بقائه هناك أو عودته إلى فرنسا ، وفي الاجتماع توجه البارونات بالشكر الجزيل للملك الفرنسي على جهوده في تحصين المواقع الصليبية وإعادة الأمن والاستقرار إليها ، ثم نصحوه بالاستعداد للعودة إلى فرنسا من أجل مواجهة الدول الأوربية الطامعة في بلاده ، ولم يَسَعهُ إلا الموافقة على اقتراحهم ، ومن المُرجح أن جوانفيل لم يَحضر ذلك الاجتماع لأن لويس التاسع قد كَلَّفَهُ بمرافقة زوجته مارغريتْ إلى صور ، وإثر عودة جوانفيل أخبره النائب البابوي بأن لويس التاسع قرر العودة إلى وطنه ، وقد أظهر النائب البابوي حزناً عميقاً على ذلك ، وانهمرت عيناه بالدموع حزناً على فراق لويس التاسع ورجاله المخلصين ، وقد حَبَّذَ جوانفيل فكرة العودة لأن رأيه من رأي سيده لويس التاسع (٤) .

بعد أن قرر لويس التاسع الرحيل غادر صيدا في شهر محرم سنة ٦٥٢هـ/شهر شباط عام ١٢٥٤م قاصداً صور حيث اصطحب زوجته مارغريتْ وابنه يُوحَنا الحزين الذي ولد في دمياط ، وابنته بلانشيه

---

(١) الدبس : ج٦ ، ص٢٤٨ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٣٢-٣٣٤ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٧-٢٢٠ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٢٠-١٥٦ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٤٧-١٩٥٥ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٣٢-٣٤٠ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢٠-٢٢٢ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق، ص٣٣٤-٣٣٧ .

التي ولدت في عكا ، ثم تابع سيره إلى مدينة عكا (١) ، وفي عكا ترك لويس التاسع جيفري دي سارجينْ (Gefry du sargin) أحد فرسانه على رأس قوة عسكرية ، وزوده بالمال للدفاع عن الكيان الصليبـي (٢) ، ثم أعدّ لويس التاسع السفن اللازمة التي بلغت ثلاث عشرة سفينة ، وفي مساء عيد القديس مرقص وَدعَ لويس التاسع ورجال حملته صليبـي مملكة عكا بحزنٍ عميق ، وكأنهم شعروا بأن ذلك الوداع هو الوداع الأخير لهم ، وانتهت حملة لويس التاسع، وأبحر مع زوجته ومن تبقى من رجال حملته في ١٦ ربيع الثاني سنة ٦٥٢هـ/الموافق ٢٥ نيسان من عام ١٢٥٤م مُيمماً وجهه شطر الغرب الأوربي (٣) .

سار الأسطول الفرنسي وفي الطريق خَيمَ ضبابٌ كثيف ، مما أدى لاصطدام السفينة الملكية بإحدى الصخور ، فأخذ الماء يتسرب إليها ، وقد كان على متنها لويس التاسع ، مع ثمانمائة من رجاله ؛ فاقترح كبار البحارة على لويس التاسع ترك السفينة ، وتوزيع ركابها على السفن الأخرى ، ولكنه رفض الفكرة ، وأصلح بالتعاون معهم الخلل في السفينة ، ثم تابعوا المسير ، وواجهتهم رياحٌ عاتية أجبرتهم على النـزول في قبرص ، فتزودوا منها بالطعام والشراب ، وتابعوا رحلتهم (٤) ، ولم تنته الصعاب التي واجهتهم حيث قامت إحدى الراهبات اللواتي قُمنَ بخدمة مارغريتْ زوجة لويس التاسع بترك المنشفة قريباً من الموقد الناري ، الذي كانت فيه شمعة تحترق ، مما أدى لاحتراق المنشفة ، وأخذ الدخان يتصاعد، وعندما استيقظت مارغريتْ أخذت تَصرخ ، فقام بعض الرجال الذين هرولوا ليروا ما حدث ، وحمل أحدهم المنشفة ورماها في البحر ، ثم أطفؤوا الحريق قبل أن يمتد في بقية أنحاء السفينة (٥) ، وبعد حوالي شهرين وصل لويس التاسع ورجال حملته الصليبية عائدين إلى وطنهم ، وقد حَطوا رحالهم في ميناء هيرْ (Hiere) الفرنسي في شهر جمادى الأول سنة ٦٥٢هـ/شهر تموز عام ١٢٥٤م ،

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٣٨ .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٥ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٤ ؛ Grousset : op . cit , volume 3 , p531 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢٢ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٥ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٣٨-٣٣٩ ؛ Villeneuve : op . cit , p240 .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٢٢-٢٢٨ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٠ ؛ Villeneuve : op . cit , p240-242 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٣١ .

وذلك بعد ست سنوات ذاقوا خلالها ويلات الحرب (١) ، ولكنهم نسوا ما لاقوه من آلام عندما رأوا الحشود الهائلة من الرجال والنساء والأطفال قد خرجوا في موكب مُهيب لاستقبالهم بالأهازيج الوطنية والترانيم الدينية (٢) .

وعلى هذا فإن وفاة بلانشيه أجبرت لويس التاسع على مغادرة مملكة عكا عائداً إلى فرنسا على رأس بقية رجال حملته الصليبـــية السابعة (٣) ، وقد أسفرت حملته التي دامت ست سنوات عن نتائج عديدة أهمها :

- اتخذ لويس التاسع من المقدسات ستاراً أخفى خلفه مآربه في السيطرة على المشرق العربي الإسلامي، فضحى بقوة بشرية هائلة كانت مصر وبلاد الشام مقبرةً لها .

- برز لويس التاسع كناشط سياسي ، فلم يكتف بإرسال السفراء إلى الحكام المسلمين فحسب بل أراد إيجاد تحالف صليبـــي – مغولي – أرمني للإطباق على المسلمين والقضاء عليهم .

- حقق لويس التاسع خلال مدة زمنية وجيزة ما لم يستطع أسلافه تحقيقه خلال عشرات السنين ، فقد قضى على الانقسامات والخلافات في أوساط الكيان الصليبـــي، كما أنجز تحصينات تميزت بقدرات دفاعية عظيمة ، وهذا دليل على ذكاء لويس التاسع الذي حول الهزيمة إلى نصر من خلال تلك الإنجازات التي حققها .

- اتصف لويس التسع بالدهاء والمكر حيث سلك سبيلاً لتفتيت وحدة المسلمين ، ونجح إلى حدٍ ما في مسعاه ، ولكنهم ما إن أدركوا حقيقته حتى تلافوا خلافاتهم التي لم تكن سوى نزاع بين حاكمين ، وهما الناصر يوسف الثاني و المعز أيبك ، وليست بين شعبي بلاد الشام ومصر .

- أخفق لويس التاسع في الحفاظ على الكيان الصليبـــي في قلب المشرق العربي الإسلامي ، وذلك بسبب تنامي قوة الأيوبيين والمماليك ، اللذين أرادا القضاء على الكيان الصليبـــي مهما كلف الثمن .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٣٢-٢٣٤ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٠-٣٤١ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٣ ؛ يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٣٩ ؛

Villeneuve : op . cit , p249 ; pernoud : op . cit , p237 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٣٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٦٨ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢١٧-٢٢٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٤ ؛ فابري : الموسوعة، ج٣٨ ، ص١١٧٢ .

- ضاعت أحلام لويس التاسع في استمرار الخلاف الأيوبي – المملوكي ، وما إن تدخلت الخلافة العباسية ، وأصلحت بينهما حتى راح الجيش الأيوبي يُهاجم المعاقل الصليبـــية ، و لم يحميها سوى الحصون المنيعة التي أنشأها لويس التاسع ، علماً أن تلك الحماية كانت مؤقتة .

- عاش لويس التاسع في مملكة عكا على أمل وصول حملة صليبية جديدة لعلها تثأر لهزائم الحملة الصليبـــية السابعة ؛ ولكن الشعب الأوربي لم يكن مستعداً للمسير إلى حتفه إثر سماعه بالويلات التي حَلّتْ بالصليبـــيين .

وهكذا عَمِلَ لويس التاسع على تدعيم مركز الصليبـــيين في الشرق ، وله فضل كبير في إطالة عمر مملكة عكا اللاتينية (١) ، ولكن ما إن أنهى مهمته في الشرق حتى ترك الكيان الصليبـــي يواجه مصيره أمام قوى المسلمين التي أرادت اقتلاع ذلك الكيان من جذوره ، فأصبح زواله قاب قوسين أو أدنى (٢) .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-٢٠٨ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٥٤ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٣٠٨-١٣٤٨ ؛ Pernoud : op . cit , p235-236 .

(٢) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٨-٤٧٧ ؛ الغزي : ج٣ ، ص١٣٨-١٣٩ ؛ اليماني : ص٣٠-٣٤٥ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص٥٣-٦٥ ؛ Brellier : op . cit , p233 .

أوضاع بلاد الشام ومصر إثر رحيل لسويس التاسع سنة٦٥٢هـ/١٢٥٤م .

١– حرب القديس سابا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م .

٢– النزاع الأيوبي – المملوكي .

٣– أوضاع لويس التاسع في فرنسا .

١- حرب القديس سابا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م .

غادر لويس التاسع مملكة عكا عائداً إلى فرنسا ، وقد كان أمله أن تستفيد المملكة اللاتينية من انقسام المسلمين، أو على الأقل المحافظة على المكاسب التي حققها خلال مدة إقامته في مملكة عكا ، ريثما تصلها النجدات الأوربية ، وفي الحقيقة ترك رحيل لويس التاسع فراغاً كبيراً ، و لم يوجد من يسد ذلك الفراغ و لم تبرز شخصية قوية كشخصية قادرة على إدارة شؤون المملكة اللاتينية حيث أخذت كل فئة صليبية تبحث عن مصالحها الخاصة ، فانقسم الصليبيون على أنفسهم ، واندلعت الحرب الأهلية دون أن يضعوا في حسبانهم الخطر المُحدق الذي شكلته عليهم السلطنة المملوكية التي وُلدت حديثاً على ضفاف النيل ، وبرزت كقوة عسكرية أرادت القضاء على بقايا الكيان الصليبي(١) .

إثر الهجمات التي شنها ملك دمشق الناصر يوسف الثاني على المواقع الصليبية استطاع نائب لويس التاسع جيفري دي سارجين وقادة المنظمات العسكرية الصليبية التوصل لإقامة سلام بين الأيوبيين والصليبيين ، وعقدوا هدنة لمدة عشر سنوات وعدة أشهر (٢) .

أمِنَ الصليبيون جانب الأيوبيين ليستمروا في أعمالهم العدوانية ضد المماليك ، فهم لم يهادنوا الأيوبيين إلا من أجل الاستفادة من وقوفهم على الحياد كي يتفرغوا لضرب المماليك ، وبالفعل فقد أعد جيفري دي سارجين نائب لويس التاسع ويُوحَنا دي إبلين سيد يافا والمنظمات الصليبية قوة عسكرية ، " ثم بعثوا الكشافة للدخول إلى أراضي المسلمين ليكتشفوا أين يمكنهم جمع أغنى المنهوبات " (٣) ، وإثر عودة مجموعة الاستطلاع أغارت القوة الصليبية على أملاك المماليك في بلاد الشام سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، وقد انفرد صاحب ذيل روثلين من المصادر العربية والأجنبية بذكر هذه

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٦٧-١٦٢٤ ؛ مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٥-١٩٦٠ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٤-١٩٩٦ ؛ عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٠٣ ؛
setton : op . cit , volume 2 , p566-576 ; Brellier : op . cit , p227-229.

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢١٨ ؛ حدد ابن دقماق مدة الهدنة بعشر سنوات وست شهور ، وقد وافقه الرأي ابن سباط في كتابه: صدق الأخبار ، ج١ ، ص٣٦٧ ؛ أما المقريزي في كتاب السلوك ، ص٤٨٥ فحدد مدة الهدنة بعشر سنوات وستة أشهر ، وأربعين يوماً ؛ بينما أشار باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٥٤١ إلى أن مدة الهدنة عشر سنوات فقط ؛ وحدد صاحب ذيل روثلين، الموسوعة ، ج٥٨ ، ص١٩٥٦ ، أن مدة الهدنة عشر سنوات وعشر أشهر وعشرة أيام .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٦.

الرواية، وأشار إلى أن القوة الصليبية سارت تحت جنح الظلام ، وهاجمت القرى الممتدة بين غزة وعسقلان (١) ، ثم عادت وقد حَمَلَتْ " أربعمائة من الأسرى دون أن يحسبوا عدد القتلى ، والذين كانوا ثمانمائة أو أكثر ، وقد حصلوا على عشرة آلاف رأس من الحيوانات الصغيرة ، وعلى ما لا يقل عن ألف من رؤوس الحيوانات الكبيرة ، كان معظمها من الثيران والجمال " (٢) ، وما إن علم السلطان المملوكي المعز أيبك بأنباء تلك الغارة الصليبية حتى وجه أوامره إلى نائبه في بيت المقدس بتأديب الصليبيين ، فأعد قوة عسكرية كبرى ، وهاجم مدينة يافا سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، فتحصن الصليبيون داخل أسوار يافا ، ووقف الجيش المملوكي عاجزاً أمام أسوارها ، وهنا أرسل القائد المملوكي قسم من جيشه لمهاجمة المناطق الصليبية المجاورة ليافا لعله يجبر الصليبيين على الخروج من يافا ، فنهبوا تلك المناطق ، وأسروا حوالي مائة رجل من الصليبيين ، وساقوا أمامهم أربعين ألف رأس من المواشي ، وبالرغم من ذلك لم يخرج الصليبيون من مدينة يافا حيث بقوا قابعين فيها ، وأعاد المماليك الكرة ثانية وهاجموا يافا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، فتحصن الصليبيون كعادتهم داخل أسوارها ، ولكن هذه المرة باغتوا الجيش المملوكي المُحاصِر للمدينة ، وقتلوا الكثير منه ، ومن ضمن القتلى النائب المملوكي في بيت المقدس ، فلاذ الجيش المملوكي بالفرار إثر مقتل قائده ، ولم يكن المعز أيبك مستعداً لمتابعة القتال ضد الصليبيين إثر تجدد الخلاف بينه وبين الأيوبيين ، وبدلاً من اغتنام الصليبيين لذلك الخلاف وقعوا هم أنفسهم في حروبٍ أهليةٍ مُدمرة (٣) .

لقد سيطرت الجمهوريات الإيطالية على تجارة الكيان الصليبي من خلال جالياتها التي استقرت في موانئ الساحل الشرقي لبحر الشام (البحر المتوسط) ، واشتد التنافس بين تلك الجمهوريات من أجل فرض الهيمنة التجارية ، وقد كان في مدينة عكا حياً خاصاً بجنوه ، وآخر خاصاً بالبُندُقِية ، وحدث أن اختلفا سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م حول دير بُني منذ قديم الزمان على تلة مرتفعة عُرف بدير القديس سابا (st saba) ، وعلى ما يبدو ليس الهدف من الخلاف

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٨ ، ص١٩٥٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٣٨، ص٢٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢، ص١١٠٤ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٥ ؛ Grousset : op . cit , volume 3, p532-533

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٨ ، ص١٩٥٦ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٨ ، ص١٩٥٧-١٩٥٩ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٣٨، ص٢٩٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص١١٠٤ .

هو مُلكية الدير بل لأن الدير يُشرف على ميناء عكا ، وبينما كانت المحادثات جارية بين الطرفين لإنهاء النـزاع هاجم أبناء جنوه دير القديس سابا ، واستولوا عليه، فاحتج أبناء البُندُقِية على ذلك ، وهذا ما أدى لمهاجمة جنوه وبيزا لحي البُندُقِية ، وأخذوا البنادقة على حين غرة ، واستولوا على جميع سفنهم (١) ،واستغل فيليب مُونتيفورتْ حاكم صور هزيمة البُندُقِية ، فسارع لطرد البنادقة من صور لأنه استاء من أطماعهم فيها بعد أن كانوا قد استولوا على ثلث مدينة صور (٢) .

بدأ كل جانب في البحث عن حلفاء ومؤيدين له في ذلك الصراع ، وسرعان ما انخرط جميع صليبيي الشرق فيه ، وقد أظهر قنصل البُندُقِية في عكا ماركُو جويستَانِيْ (Marco Jwestane) براعة سياسية في كسب معظم قوى الكيان الصليبي حيث استطاع إثارة قلق يُوحَنا الثالث دي إبلين حاكم أرسوف من أن صور تنوي الاستقلال عن مملكة عكا بمساعدة جنوه ، كما استمال كونت يافا يُوحَنا دي إبلين ــ ابن عم يُوحَنا سيد أرسوف ــ الذي لم يكن على علاقة طيبة مع جنوه بعد أن حاول أحد أفراد جنوه اغتياله ، أما بيزا فأظهر لها ماركُو جويستاني أن جنوه لا تبحث سوى عن مصالحها ، ولا يمكن الاطمئنان إليها أو الثقة بها ، فتخلت بيزا عن جنوه ، كما ساندت مرسيليا البُندُقِية لأنها لم تكن على علاقة طيبة مع جنوه ، وانقسمت المنظمات الصليبية حسب ما اقتضته مصالحها حيث أيدت الداوية والتيوتون جمهورية البُندُقِية ، بينما ساندت الاسبتارية جمهورية جنوه ، كما انضم إلى جنوه حاكم جبيل هِنريْ امبرياكُو (Henry Emperiaco) لأنه ذو أصول جنوية ، وبذلك تحدى هِنريْ امبرياكو أوامر سيده بُوهِمِندْ السادس أمير أنطاكية وكونتية طرابلس الذي أراد منه التزام الحياد ، فاضطر بُوهِمِندْ السادس أمام إعلان هِنريْ امبرياكو العداء له إلى مساندة البُندُقِية ، وبذلك انقسمت قوى اللاتين ، وتحولت إلى حلفين كلٌ منها أراد أن ينال من الآخر (٣) .

وأمام تأزم الموقف انطلق بعض عقلاء الصليبيين إلى بُوهِمِندْ السادس للتدخل من أجل إنهاء الفتنة ،

---

(١) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٦ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٤٨٦-٤٨٨ ؛ ريلي سميث : ص١٨٣-١٨٤ ؛
Setton : op . cit , volume 2 , p568 ; Mayer : op . cit , p273 .

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٠٧ ؛ عطية : ص٣٩٧ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p537-538 .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٠ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ، ص٤٨٨-٤٨٩؛ حسين عبد الوهاب : جماعة التيوتون ، ص٢٧٨-٢٧٩ ؛
Grousset : op . cit , volume 3 , p534-538 .

وبناءً على تلك الدعوة وصل بُوهِمِندْ السادس إلى عكا في شهر صفر سنة ٦٥٥هـ/شهر شباط عام ١٢٥٧م ، وقد اصطحب معه أخته بليسانس أرملة هِنريْ الأول ملك قبرص وابنها هيُو الثاني ملك قبرص (١) ، وعندما وصل عكا عقد اجتماعاً لكبار رجال الكيان الصليبـي ، وطلب منهم إعلان ولائهم لهيُو لوزجنان وأمه الوصية عليه باعتبار أن هيُو وريث مملكة عكا الذي يلي كونرادين بن كونراد بن فردريك الثاني ، وذلك لأن كونرادين لم يأت إلى الشرق ، وفي هذه الحالة يؤول العرش إلى أقرب أقاربه ، وقد وافق جميع الحضور على طلبه باستثناء جنوه ومقدم الاسبتارية وليم شاتونيف بحجة أنه لا يجوز اتخاذ قرار كهذا في غياب كونرادين ، وهذا ما أدى لاستياء بُوهِمِندْ السادس ، فعين الأمير يُوحَنا الثالث دي إبلين صاحب أرسوف نائباً عن هيُو في سيادة مملكة عكا ، " واستأجر على حسابه الخاص ثمانمائة من الجنود الفرنسين كانوا موجودين في البلاد لدعمه لمدة سنة ، وأمر الأمير يُوحَنا الثالث إبلين أن يتولى بقدر ما يستطيع مضايقة الاسبتارية وجماعة الجنوية " (٢) ، وكل من يساندهما ، ويلاحظ أن بُوهِمِندْ السادس لم يأت إلى عكا لإنهاء الفتنة إنما استهدف تحقيق مصالح خاصة بابن أخته هيُو الثاني ، وبذلك فضَّل بُوهِمِندْ السادس المصلحة الشخصية على المصلحة العامة للصليبيين بدلاً من العمل على تهدئة الأوضاع ، وصَبَّ الزيت على النار ، وأشعل الفتنة ، ثم قفل بُوهِمِندْ السادس راجعاً إلى إمارته ، بينما أبحرت أخته بليسانس وابنها هيُو الثاني إلى قبرص (٣) .

اندلعت الحرب الأهلية إثر رحيل بُوهِمِندْ السادس حيث هاجمت البُندُقِية وحلفائها الأسطول الجنوي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وقد قاد ذلك الهجوم أمير البحرية البندقي لورَانزو تِيبولوْ (Loranzo Tiepolo) ، فحَطَّمَ سلسلة ميناء عكا التي حمت مدخل المرسى ، ودمر الكثير من السفن الجنوية ، ولم يكتفوا بالمعارك البحرية بل اشتعلت معركة برية داخل مدينة عكا تقاذف فيها الطرفان ضربات المجانيق النارية والحجرية (٤)، وذكر صاحب ذيل روثلين " أن جميع أبراج عكا تقريباً

---

(١) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٦ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٠٨ ؛
Grousset : op . cit , vlume3 , p541-542 .

(٢) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٠-١٩٦١ ؛ رنسيمان : ج٣، ص٤٩٠-٤٩١ ؛
Setton : op . cit , volume 2 , p569-571 ; pernoud : op . cit , p243 .

(٤) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل، الموسوعة، ج٥٨، ص١٩٩٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٦٠ .

وبيوتها قد دُمرت ، وذلك باستثناء البيوت الدينية ، ومات في هذه الحرب عشرون ألفاً من هذا الجانب وذاك " (١) ، بينما اكتفى هرقل بالإشارة إلى أسرى وقتلى الجنوية بقوله : " وقع بالأسـر أو تعـرض للقتل في هذا الصراع ألف وسبعمائة رجل من الجنوية " (٢) ، ولا يوجـد أدنى شـك إلى أن تلـك الحروب قد دمرت الكثير من أبنية وتحصينات عكا ، ولكن يُلاحظ إذا كانت خسـارة جنـوه ألـف وسبعمائة رجل ، وهي الطرف الخاسر في المعركة فإن خسارة البُندُقية هي أقل بكثير بما أنهـا الطـرف المنتصر ، وبذلك نستنتج أن خسارة الطرفين لا تبلغ العدد الكبير الذي حدده صاحب تـاريخ هرقـل بعشرين ألف قتيل .

استولت البُندُقية على دير القديس سابا ، ولم يبق أي وجود للجنويين في عكا حيث هرب من بقي حياً منهم إلى حليفهم فيليب مُونتيفورتْ صاحب صور ، وسيطرت البُندُقية وأعوانها على عكا بينما انحصر أبناء جنوه في صور (٣) .

والجدير بالذكر أن البابا الكسندر الرابع (٦٥٢-٦٦٠هـ/١٢٥٤-١٢٦١م) أرسل نائبه الراهب الدومنيكاني تُوماس لنتينوْ (Tomas Lenteno) إلى مملكة عكا سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م لإصلاح ما أفسدته الحروب الأهلية بين الصليبيين (٤) .

وفي تلك الأثناء كان يُوحَنا الثالث دي إبلين حاكم أرسوف نائب مملكة عكا قد فارق الحياة ، فَقَدِمَتْ الملكة بليسانس وعينت جيفري دي سارجين نائباً عن ابنها هيُو الثاني ملكاً على عكا (٥) ،

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٢ .

(٢) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٧ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨، ص١٩٩٧ ؛ عطية : ص٣٣٩ ؛ غروسيه : ص٣٣٩ ؛ Setton : op . cit , volume 2 , p558-559 .

(٤) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٧ ؛ عطية : ص٣٣٩ ؛ Brellier : op . cit , p229 .

(٥) وصاية العرش : توفيت بليسانس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م ، واستقال جيفري سارجين في العام التالي بسبب إصابته بجرح خطير سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م ، وذلك إثر هجوم شنه المماليك على عكا ، وتطلب الأمر تعيين وصي على العرش القبرصي وسيداً على عكا ، فتقدمت آنذاك إيزابيلا لوزِجنان أخت ملك قبرص السابق هِنرِيْ الأول لوزِجنان وكانت قد تزوجت من هِنرِيْ شقيق بُوهِمِندْ الخامس برين أمير أنطاكية ، وطالبت بالوصاية على ابن أخيها هيُو ملك قبرص ، فرفضت المحكمة العليا في قبرص طلبها وعينت ابنها هيُو برين وصياً على ابن خاله هيُو لوزِجنان في قبرص ، لأن هيُو آنذاك أكبر الأمراء الذين يجري فيهم الدم الملكي ، بينما أقرت =

فأصبح جيفري نائباً لهيُو الثاني كما أنه نائب للملك الفرنسي لويس التاسع في مملكة عكا (١) ، وقد تعاون النائب البابوي توماس لنتينو وجيفري دي سارجين لإنهاء الخلاف القائم بين الصليبيين ، وتوصلا سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م لعقد اتفاق نص على أن تكون صور مقراً لأبناء جنوه بينما تكون عكا مقراً لأبناء البُندُقية وبيزا (٢) .

وهكذا انخرط الصليبيون في حروبٍ مدمرةٍ ، ونسوا المقدسات التي أتوا من أجلها ، هذا إن كانوا قد قدموا من أجل المقدسات ، لأن واقع الحال لا يشير إلى ذلك حيث جرَّتهم المصالح الاقتصادية إلى حروبٍ طاحنةٍ ، وكل ذلك من أجل الاستيلاء على ميناء عكا التجاري الذي كان أهم ميناء على الساحل الشامي ، وقد أدت الحروب لتخريب كل ما بناه لويس التاسع ، فكم بذل لويس التاسع من الوقت والجهد والمال حتى استطاع تحصين المعاقل الصليبية ! ولكن أمام الأطماع الصليبية في زيادة الثروات تهاوت أسوار وحصون عكا ، وغدت خراباً ، وذهب الآلاف ضحايا تلك الحروب الغاشمة ، وأصبح من الصعب اندمال الجراح التي سببتها حرب القديس سابا (٣) ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هل كان المسلمون أفضل حالاً من الصليبيين ؟

وهل استغلوا تلك الصراعات لتحرير بلادهم من الصليبيين ؟

- المحكمة العليا في عكا نيابة إيزابيلا على مملكة عكا ، فتركت إيزابيلا زوجها هنريَ يدير شؤون عكا ، ثم انطلقت إلى قبرص لمشاركة ابنها هيُو في إدارة شؤونها، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م ، وعوضًا أصبح هيُو لوزجنان القبرصي ملكاً لقبرص وبيت المقدس تحت وصاية ابن عمته هيُو برين ، وبقي هيُو متنقلاً بين قبرص وعكا ، وكان إذا تواجد في قبرص سلم عكا لجيفري سارجين الذي عاد من جديد لمتابعة عمله الإداري في إدارة عكا . رنسيمان : ج٣ ، ص٤٩٧-٥٤٥ ؛ غروسيه : ج٣ ، ص١١٣ ؛ عطية : ص٢٩٤ .

Grousset : op . cit , volume 3 , p617-618 ; Mont , John : feudal monarchy in Jerusalem , Amrica , 1932, p74-75 .

(١) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٩٣ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p558-559 .

(٢) رنسيمان : ج٣، ص٤٩٣ ؛ اليوسف ، عبد القادر : علاقات بين الشرق والغرب ، المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص٢١١ .

(٣) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٥٣-١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٣-١٩٩٧ ؛ Grousset : op . cit , volume3 , p534-549 ; Stevenson : op . cit , p331-332 .

٢- النـــزاع الأيوبي – المملوكي .

لم يغتنم المسلمون الفرصة التي لاحت لهم إثر دخول الصليبيين في حروب مدمرةٍ (١) ، لأنهم هم أنفسهم دخلوا في نزاعٍ مريرٍ ، وأوشكوا أن يدخلوا في حروب أهلية في الوقت الذي كان فيه الخطر الصليبـــي جاثماً على صدورهم (٢) فأظهر فارس الدين أقطاي غروراً كبيراً ، ورغبة في استلام عرش السلطنة المملوكية ، فتخلص منه المعز أيبك سنة ٦٥٢هـــ/١٢٥٤م ، وهنا خشيت حاشية أقطاي من البحرية على نفسها ، فهربت إلى بلاد الشام ، ووصلت مجموعة من البحرية إلى الملك المغيث عمر سيد الكرك ، وتابعت مجموعة أخرى المسير إلى الملك الناصر يوسف الثاني صاحب دمشق وحلب ، بينما سارت مجموعة أخرى إلى سلطان سلاجقة الروم (٣) علاء الدين كيقباذ (٤) ، وشجع المماليك البحرية الناصر يوسف الثاني على غزو مصر (٥) ، كما أن المماليك العزيزية راسلوه من مصر سنة٦٥٣هـــ/١٢٥٥م ، ووعدوه بقتل المعز أيبك ، وتسليمه مصر بشرط أن يعطيهم مساحات واسعة من الاقطاعات (٦) ، و لم تشر المصادر إلى موقف الناصر يوسف الثاني من مراسلة المماليك العزيزية له، لأنهم غدروا به في معركة العباسية سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥١م ، وتخلوا عنه في أحلك الظروف ، وانضموا إلى المعز أيبك ،وهذا ما أدى لعدم ثقته بهم (٧) ، كما أن المعز أيبك كشف مؤامرة

---

(١) مجهول : ذيل روثلين ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٦٠-١٩٦٢ ؛ مجهول : تاريخ هرقل، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٦ .

(٢) العيني: الموسوعة، ج٦٠ ، ص٦٤٨ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية ، ص٣٥-٣٦ ؛ ابن طولون ، محمد : إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تح : عبد العظيم خطاب ، مطبعة عين شمس ،القاهرة ، ١٣٩٣هـــ/١٩٧٣م، ص٧ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ، ص٤٨٣-٤٨٤ ؛ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد ، مؤسسة الفرقان ، لندن ، ١٤٢٢هـــ/٢٠٠٢م ، مج٤ ، ص١٩٦ ، الدواداري : ج٨ ، ص٢٦ .

(٤) علاء الدين كيقباذ : توفي غياث الدين كيقباذ سنة ٦٥١هـــ/١٢٥٣م ، فاستلم من بعده أبنائه عز الدين وركن الدين وعلاء الدين ، وكان أكبرهم علاء الدين ، ويُعد هو السيد الفعلي لسلاجقة الروم ، وكان الخطر المغولي أكبر خطر هدد كيانه ، وقد فارق الحياة سنة ٦٥٥هـــ/١٢٥٧م فاستلم حكم السلاجقة أخويه عز الدين وركن الدين من بعده . العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٦-٦٦١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ،ص٤٩٧ ؛ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٩٧ .

(٥) ابن العميد : ص٤٢ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٣ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٣٠-٣١ ؛ Edde : op . cit , p156-158 .

(٧) ابن واصل: ج٦ ، ص١٦١ .

المماليك العزيزية ، فقبض على قسم منهم ، بينما فر البقية منهم ، وتشتت شمل المماليك العزيزية (١) .

خشي المعز أيبك من إثارة المماليك البحرية للمشاكل حيث توقع هجوماً مشتركاً من قبل البحرية والناصر يوسف الثاني ، فأرسل للناصر يوسف وحذره من البحرية ، كما أرسل إلى علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم قائلاً له : " البحرية قوم مناحيس أطراف ، لا يقفون عند الأيمان ، ولا يرجعون إلى من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خانوا ، وان استحلفتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا " (٢)، وفي الحقيقة لا مصلحة لعلاء الدين كيقباذ في غزو مصر ، ويُرجح أن المعز أيبك خشي من تحالف سلجوقي – شامي مع البحرية وتهديد مصر ، وبخاصة إثر زواج الناصر يوسف الثاني من خاتون ابنة علاء الدين كيقباذ ، ولكن علاء الدين لم يدخل تلك المغامرة لأنه لا ناقة له في تلك الحرب ولا جمل (٣) ، بينما أعد الناصر يوسف الثاني جيشاً، وأرسله برفقة البحرية إلى مصر سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، ولم تشر المصادر إلى ذهاب الناصر يوسف الثاني على رأس الجيش ، كما لم تذكر المصادر اسم القائد الأيوبي الذي قاده ، وقد سارت البحرية والجيش الأيوبي ، وعسكروا على تل العجول (٤) .

ما إن علم المعز أيبك بنبأ الحشد الأيوبي على تل العجول حتى أعد قوة عسكرية ، وأرسلها لمواجهة الموقف ، عسكرت في العباسة بالقرب من الجيش الأيوبي ،وأصبحت المواجهة قاب قوسين أو أدنى ، وأوشكت الحرب أن تبدأ ، لكن نجم الدين البادرائي رسول الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، تدخل وتقرر الصلح بينهما (٥) على أن تكون بلاد الشام للناصر يوسف ، وتكون مصر للمعز أيبك ، بشرط أن يتعهد الناصر يوسف الثاني أن " لا يأوي عنده أحداً من البحرية ، فمضوا إلى المغيث بالكرك " (٦) ، وهنا عادت القوات الأيوبية إلى دمشق ، وقفلت القوات المملوكية راجعة إلى مصر (٧) .

---

(١) ابن واصل : ج٦، ص١٨١ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٤١ ؛ ابن فضل الله العمري: ج٢٧ ، ص٣٦٠ .

(٢) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٨٥ .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٨٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٨ .

(٤) الدواداري : ج٨ ، ص٢٨-٢٩ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٢٦ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٥) ابن واصل : ج٦، ص١٨١ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية ، ص٣٨ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام، ص٢٢٦ ؛ Edde : op . cit , p156 .

(٦) المقريزي : السلوك، ج١ ، ٤٨٩ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١١-١٢ ؛ النويري : ج٢٩ ، ص٤٣٤ .

لم ينته التنافس بين الناصر يوسف الثاني والمعز أيبك حيث أرسل الأول سفيره كمال الدين المؤرخ المعروف بابن العديم إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م من أجل الحصول على خلعه لسيده الناصر يوسف الثاني ، كما أرسل المعز أيبك رسوله شمس الدين سنقر الأقرع إلى الخليفة للحصول على خلعة لسيده ، وقد سعى سنقر الأقرع " في تعطيل وصول خلعة الخليفة إلى الملك الناصر" (١) ، وبالفعل فقد أرسل الخليفة خلعة إلى السلطان المملوكي ، وامتنع عن إرسال خلعة للناصر يوسف حيث اكتفى بإرسال سكيناً كبيرة له بدلاً من الخلعة ، ووعده أن يُرسل له خلعة في السنة القادمة (٢) ، ومن المُرجح أن الخليفة امتنع عن إرسال خلعة للناصر يوسف الثاني لعله يجد من رغبته في الاستيلاء على مصر أملاً بتهدئة حالة التوتر بين بلاد الشام ومصر في الوقت الذي لاح فيه الخطر المغولي القادم من الشرق ، فضلاً عن الخطر الصليبـــي القابع في بلاد الشام .

ساءت العلاقة بين المعز أيبك وزوجته شجر الدر ،وعلى ما يبدو أنه أراد إرضاءها فطلق زوجته الثانية أم علي ، وعلى الرغم من ذلك كانت دائماً تمُن عليه بأنه لولاها لما وصل إلى السلطة (٣)، فعزم على الزواج ، وأرسل يخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٤) ، وعندما علمت شجرالدر بذلك أرسلت هدية إلى الناصر يوسف الثاني ، وأخبرته بأنها عزمت على التخلص من زوجها ، والزواج منه ، وتسليمه مصر ، وما عليه إلا أن يُعد جيشاً وينطلق نحو مصر ، لكن الناصر يوسف الثاني لم يقتنع بتلك الفكرة ، ربما توقع أن هناك مؤامرة أحاكتها شجر الدر مع زوجها للخلاص منه ، ومَدِّ النفوذ المملوكي على بلاد الشام ، (٥) ، وعندما يئست شجر الدر من قدوم الناصر يوسف الثاني ،

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٨٩ .

(٢) ابن واصل : ج٦، ص١٨٩ ؛ الغزي : ج٣ ، ص١٣٠-١٣١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٩ ، ص٣٦١-٣٦٢ ؛ برحاوي ، سعيد : الحروب الصليبية في المشرق ، دار الآفاق الجديدة ، ط١، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٥٨٢ .

(٣) ابن إياس :ق١ ج١ ، ص٢٩٣ .

(٤) بدر الدين لؤلؤ : هو بدر الدين الأتابكي المُلقب بالملك الرحيم ، كان مملوكاً لنور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، وإثر وفاة نور الدين سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ترك ولداً صغيراً ، وأصبح بدر الدين لؤلؤ أتابكاً له ، وبعد مدة وجيزة استقل بدر الدين بحكم الموصل، وقد امتاز بشجاعته وحسن تدبيره ، وفي سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، فارق الحياة عن عمرٍ ناهز الثمانين عاماً. ابن واصل : ج٦، ص٢٤٥-٢٤٦ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٥١٠ ؛ الحنبلي ، أحمد : شذرات الذهب ، تح : عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، ط١،دمشق وبيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، ج٧ ، ص٤٩٩-٥٠٠ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج١، ص٤٩٣ ؛ عاشور ، سعيد : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة ، بيروت ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص١٦٤ .

قررت التخلص من أيبك ، وتآمرت مع عدد من الخدم الموجودين لديها في قلعة الجبل على قتله ، وأخذت تنتظر الفرصة المناسبة ، وكان أيبك قد اعتاد أن يلعب بالكرة كل يوم ثلاثاء ، وقد عاد في يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة٦٥٥ هـ/٩ نيسان من عام ١٢٥٧م حيث كان مُرهقاً من اللعب ، ودخل ليستحم ، فدخل وراءه الخدم الذين اتفقت معهم شجر الدر وقتلوه (١) ، وهنا أشاعت شجر الدر أنه مات فجأة ، ولكن مماليكه المعزية لم يُصدقوها لأنهم تركوه سليماً ، فأخذوا بتعذيب الخدم ، وأجبروهم على الاعتراف بجريمتهم (٢) ، وسرعان ما شاع خبر مقتله ، فأراد المماليك المعزية قتل شجر الدر ، ولكن المماليك الصالحية (مماليك الصالح نجم الدين أيوب) قاموا بحمايتها ، وكادت أن تحدث فتنة ، ولكن المماليك المعزية تركوا مسألة الانتقام للمعز أيبك حتى مجيء الوقت المناسب ، واتفقت كلمة الجميع على تسليم السلطنة لنور الدين علي ابن أيبك بلقب السلطان المنصور، وكان عمره خمس عشر سنة ، وما إن استلم السلطنة حتى أمر بصلب الخدم الذين قتلوا والده (٣) ، أما شجر الدر فقد حملها نور الدين علي إلى أمه في يوم السبت ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ٦٥٥هـ/٢٩ نيسان من عام١٢٥٧م ، " فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت " (٤) ، ثم ألقوها من على سور القلعة ، فكان مصيرها القتل كما قتلت زوجها ، وبقيت جثتها في العراء حتى واراها التراب بعض العامة من الناس (٥).

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٩٤-١٩٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٥٨-٦٥٩ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب ، مج٧ ، ص٤٦٢؛ السيوطي، جلال الدين : تاريخ الخلفاء، ص٣٦٥ ؛القيسراني ،إبراهيم : النور اللائح والدر الصادح، تح : عمر تدمري ، دار الارشاد ، ط١، طرابلس، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٥٦ ؛ المقريزي ، أحمد : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد، دار الفرقان ،لندن ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣ ، ص٧٦٨ ؛ المنصوري : زبدة الفكرة ، ص٢٤ ؛
Stevenson :op . cit , p332 .

(٢) العيني : الموسوعة ،ج٦٠ ، ص٦٥٩ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٣١-٢٣٢ .

(٣) ابن واصل : ج٦، ص١٩٦-١٩٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٣٠٠ ؛ المنصوري : مختار الأخبار، ص٩-١٠ ؛
Th Cambridge history of islame , volume1a , p210 .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٩٤ ؛ والمعنى ذاته لدى القدسي ، مجد الدين : دول الإسلام الشريفة البهية، تح: صبحي لبيب وأورليش هارمان ، دار الريحاني ، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ص٢٨ .

(٥) ابن واصل : ج٦ ، ص٢٠١ ؛ ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص٢٣٢ ؛ ابن إياس :ج١ ، ص٢٩٤-٢٩٥ ؛
Edde : op . cit , p160 .

لم يكد المنصور نور الدين علي يستلم السلطنة المملوكية حتى اعترضت سبيله الصعاب حيث أظهر سيد الكرك المغيث فتح الدين عمر رغبته في الاستيلاء على مصر ، وذلك بتشجيع من المماليك البحرية الذين هربوا من مصر ، وانطلقوا إلى مملكة الكرك ، ربما استغل ملك الكرك حداثة سن السلطان المملوكي الجديد ، مما زاد في أطماعه في مد نفوذه على مصر ، فانطلق المغيث فتح الدين عمر على رأس جيش ، وقد اصطحبه البحرية ، وقصد مصر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، والتقوا مع القوات المملوكية في الصالحية (١) في معركة ضارية ، أبلى فيها ملك الكرك وقواته بلاءً حسناً ، بينما أظهر المماليك فيها قوةً وثباتاً ، مما أدى لهزيمة جيش الكرك والبحرية بعد أن تركوا ذخائرهم وأثقالهم غنيمةً للمماليك ، وعاد من نجا منهم إلى الكرك، وأخفق المغيث عمر في السيطرة على مصر (٢) .

ويلاحظ أن حالة النـــزاع الأيوبي – المملوكي لم تكن تهدأ حتى تثور من جديد ، فلم يكف الملوك الأيوبيون عن محاولة ضَم مصر للسلطنة الأيوبية ، ولكن تلك المحاولات باءت جميعها بالإخفاق ، لأن المماليك أصبحوا قوةً لا يستهان بها في مصر ، و لا يمكن تجاهلها ، وتوجب على ملوك بني أيوب الاعتراف بها شاؤوا أم أبوا ، ولا يمكن أن تُغفل دور المماليك البحرية الذين هربوا من مصر ، والتجؤوا إلى بلاد الشام ، فهم كانوا طرفاً أساسياً في تلك الحروب لأنهم أوهموا الملوك الأيوبيين بسهولة الاستيلاء على مصر ، فانقاد الملوك الأيوبيين وراء تلك الأوهام التي لم يجنوا منها سوى الهزائم المريرة ، وأيقنوا مُؤخراً بأن مصر من الصعب أن تعود لدائرة السيادة الأيوبية (٣) ، ومع ظهور الخطر المغولي(٤) ،

---

(١) الصالحية : بلدة مصرية قديمة مُحاطة بأشجار النخيل ، تقع إلى الشرق من بلبيس ، وقد بُنيت في عهد الصالح نجم الدين أيوب لتكون مقراً لجنده . البستاني، بطرس : دائرة المعارف ، دار المعرفة ، بيروت ، د.م ، د . ت ، مج١ ، ص٦٨٩-٦٩٠ .

(٢) ابن دقماق : نزهة الأنام ،ص٢٣١-٢٣٣ ؛ الدواداري : ج٨ ، ص٣٠ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٧٧ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص٣٩-٤٠ ؛ النويري : ج٢٩، ص٤٣٤-٤٣٥ ؛ غوانمة ، يوسف : إمارة الكرك الأيوبية ، دار الفكر ، ط٢، عَمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ؛ ص٢٩٧-٢٩٩ ؛ Edde : op . cit , p152-160 .

(٣) ابن واصل : ج٦ ، ص١٧٩-٢١٢ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٧٤-٢٨٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥١-٣٦٦.

(٤) نتيجة لجهود لويس التاسع وهيثوم الأول دمر هولاكو بغداد سنة٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، كما عاث فساداً في حلب ، بينما عين الأشرف موسى صاحب حمص نائباً له على حمص لأنه لم يقف بوجهه ، وفي عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أنزل المماليك هزيمةً ساحقةً بالمغول ، وردوهم على أعقابهم . اليونيني، موسى : ذيل مرآة الزمان ، دار الكتاب الإسلامي ، ط٢، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، مج١ ، ص٣٩٧ ؛ ابن واصل: ج٦، ص٢٧٠-٢٩١ ؛ الحنبلي ،مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجليل ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٣م ، ج٢ ، ص١٠ ؛ الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٣٢ .

قام نائب السلطنة سيف الدين قطز وألقى القبض على السلطان نور الدين علي (١) ، واعتقله بقلعة الجبل ، وأعلن نفسه سلطاناً بدلاً منه سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م (٢) ، وعَيَّنَ قطز علم الدين سنجر الحلبي نائباً عنه على دمشق ، وبقي المنصور محمد ملكاً على حماة ، كما أقر صاحب حمص الأشرف موسى في مملكته ، وعيَّن الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سيداً على حلب (٣) ، ثم اعتلى بيبرس عرش السلطنة المملوكية إثر قتله سيف الدين قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، وتلقب بالظاهر ، وأراد بيبرس توحيد بلاد الشام ومصر من أجل الوقوف بوجه الأخطار المحدقة (٤) ، ولكن علم الدين سنجر سيد دمشق رفض الولاء لبيبرس إثر سماعه بمقتل قطز ، وأعلن نفسه سلطاناً للأيوبيين ، ولقب نفسه بالمجاهد علم الدين ، بينما ثارت بقايا المماليك العزيزية والناصرية في حلب ضد الملك السعيد علاء الدين لؤلؤ ، وعينوا حسام الدين لاجين الجوكندار ملكاً على حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، وقد كان حسام الدين موالياً لبيبرس على عكس المجاهد علم الدين ، و لم يتوان بيبرس في القضاء على المجاهد علم الدين ، فأرسل جيشاً بقيادة علاء الدين البندقداري إلى دمشق سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م حيث اقتاد صاحب دمشق أسيراً إلى مصر ، واستلم دمشق بدلاً عنه (٥) ، كما عَمِلَ بيبرس على إحياء الخلافة العباسية ، فأتى بشخص يدعى أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله ، ولقبه بالمستنصر بالله ، وعينه خليفة للمسلمين في شهر رجب سنة ٦٥٩هـ/شهر حزيران عام ١٢٦١م ،

---

(١) سيف الدين قطز : هو محمود بن ممدود ابن أخت علاء الدين تكش المعروف بمحمد خوارزم شاه ، وإثر الزحف المغولي غرباً ، وتدمير الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، أصبح قطز عبداً مملوكياً ، ثم تدرب في جيش الصالح نجم الدين أيوب ، واستلم نيابة السلطنة في عهد نور الدين علي ،وفي سنة ٦٥٧خهـ/١٢٥٩م أصبح سلطاناً للمماليك ، واشتهر بالتقوى والورع والصلاح ، وانتهت حياته على يد بيبرس سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . الذهبي : العبر، ج٣ ، ص٢٤٧ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب ، ص٥٠٧-٥٢٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٢٤٧ .

(٢) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٣٦ ؛ اليماني : ص٥٦٣ ؛ ابن إياس :ق١ ج١ ، ص٣٠١-٣٠٣ .

(٣) المنصوري : مختار الأخبار ، ص١١ ؛ زبدة الفكرة ، ص٥٢ .

(٤) ابن واصل : ج٦ ، ص٢٩٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٩ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٢٦٩-٢٧٠ . الملطي ،عبد الباسط : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، تح : محمد كمال الدين علي ، ط١، دار الثقافة الدينية ، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٧٣-٧٥ ؛ سرهنك ،إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، ص١٦٦-١٦٧ ؛ Brellier : op . cit , p230-233 .

(٥) اليونيني : مج١ ، ص٣٧٣-٣٧٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٢١-٥٢٢ .

وهنا اكتسب بيبرس صفة الشرعية (١) .

ثم وصلت أنباء إلى بيبرس تؤكد بأن الملك المغيث سيد الكرك قد راسل المغول ، وحثهم على غزو بلاد الشام ومصر ، وذلك بسبب استيائه من استيلاء بيبرس على الأملاك الأيوبية في بلاد الشـــام ، مما أدى لمسير بيبرس على رأس جيش إلى الكرك حيث ألقى القبض عليه ، وأخرج له الرسائل التي تبادلها مع المغول ، ثم أرسله إلى قلعة الجبل ليلقى حتفه هناك سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م ، وسلم الكرك للمعـــز أيدمر الأستادار ، وبذلك تخلص من تآمر المغيث مع المغول (٢) .

وعلى هذا انتهى النـــزاع الأيوبي ـ المملوكي، وعادت الوحدة بين بلاد الشـــام ومصـــر تحـــت السيادة المملوكية بعد أن ضَعُفت السلطنة الأيوبية ، وأصبح المماليك قوةً كبرى ، لها وزنها الاستراتيجي في المنطقة ، وقد سخروا تلك القوة في مواجهة الأعـــداء الـــذين تربصـــوا بالمســـلمين ، ولا ســـيما الصليبيـــن (٣) .

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٣٢٠-٣٢١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٢٥-٥٢٦ ؛ عاشور : مصر والشام ، ص١٧٤-١٧٥ .

(٢) المقريزي : السلوك، ق٢ج١ ، ص٤٨٢-٤٨٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٣٢٧-٣٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، محيي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تح : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م ، ص١٥٠-١٦٥ ؛ غوانمة : ص٣١٧-٣٢٥ ؛ Thorau : op . cit , p134-135 .

(٣) ابن تغري بردي : مورد اللطافة ، ص١٤٩-١٥٠ ؛ المكي ،عبد الملك : سمط النجوم العوالي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، د.ت ، ج٤ ، ص١٧-١٨ ؛ Irwin : op . cit , p30-32 .

٣- أوضاع لويس التاسع في فرنسا .

رحل لويس التاسع من مملكة عكا إلى المملكة الفرنسية ، فوجد الفساد قد استشرى فيها فضلاً عن تحرشات هِنريْ الثالث ملك إنكلترا بها ، فرأى أن من أهم واجباته أن يجعل من فرنسا قوة كبرى قادرة على دعم المشروع الصليبـــي (١) ، ويمكن الإشارة إلى أن لويس التاسع خلال إقامته في فرنسا ما بين حملتيه الصليبيتين الأولى والثانية قد ركّز اهتمامه على جانبين وهما :

أ- **الإصلاح الداخلي** : تجول لويس التاسع في فرنسا ، وتفقد أحوال رعيته ، فانشغل بمساعدة الفقراء والمحتاجين ، وأنهى النـــزاعات القائمة بين رجال الدين ، وتسامح مع العصاة المحرومين كنسياً ، فسمح لهم بالتحلل من الحرمان بعدَ مرور سنة ويوم من حرمانهم ، وكَرَّسَ الساعات الطويلة للعبادة ، وتقشف في مأكله وملبسه ، واهتم بكفيفي البصر ، فأنشأ مقراً لهم في مدينة باريس ، وقَدَّمَ لهم مستلزمات الحياة كافة (٢) ، كما اهتم بالمعوقين ، وأمر بتقديم وجبات الطعام لهم ، وعَيَّنَ لهم الرواتب ، واعتنى بالمسنين والعجزة ، وأنشأ الكثير من المباني العمرانية ، فبنى المشافي والكنائس والأديرة في أنحاء فرنسا كافة (٣) ، وحَصَّنَ قلاع نورماندي ، وشحنها بالعتاد والرجال (٤) ، ونتيجة للفساد الذي انتشر في فرنسا قَسَّمَ لويس التاسع الأعمال الحكومية إلى ثلاثة أقسام : أشرف القسم الأول على السياسة الخارجية ، أما القسم الثاني فاختص بالأمور الداخلية والمالية ، بينما اهتم القسم الثالث الذي مثله البرلمان بالإشراف على القضاء (٥) ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٣٣-٢٤٥ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٤٦٨-١٤٦٩ ؛ المهندس : ج٣ ، ص٢٥٤ ؛ الخوري : ص١٢-١٣ ؛ Miquel : op . cit , p51-52 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٣٩-٢٤٧ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٢-٣٤٤ ؛ حاطوم ، نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في أوربة ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ج٢ ، ص٧٨-٨٠ ؛ Davies , Norman : Euroup a history , new york , 1977 , p355-357 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٥٦-٢٥٨ ؛ ديورانت : ج١٥ ، ص٢٣٠ ؛ Villeneuve : op . cit , p257-263 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٦٥٣ .

(٥) حسونة ورفعت : ص١١٦ .

ويلاحظ أن السلطة التشريعية هي مهمة البرلمان ، أما هنا فإن التشريع كان من نصيب لويس التاسع الذي وضع تشريعات جديدة، ومن أهمها :

١- يتوجب على جميع موظفي الدولة أداء القسم على الإخلاص في أعمالهم ، وعدم التمييز بين غني أو فقير (١) .

٢- عدم اللعب بالنرد ، أو بأي نوع من أنواع المَيسر ، ويُمنع الصناع من صناعة طاولات النرد .

٣- يلتزم القضاة باستدعاء الشهود ، وتقليب القضية على وجوهها كافة لكي لا يكون هناك ظلم لأي طرف من الأطراف المتخاصمة (٢) .

٤- لا يجوز للإقطاعيين القيام بحروب شخصية من أجل مصالحهم الخاصة (٣) .

٥- يتوجب على رجال الدولة عدم اختلاس الأموال أو قبول الرشوة أوالهدية .

٦- تحريم الغش والخداع والسرقة ، وخرق القوانين .

٧- عدم بيع المناصب ، ويستلمها الأجدر في الحفاظ على المصلحة العامة .

٨- عدم تصدير المنتجات الفرنسية التي تُعد غذاءً رئيسياً للفرنسيين وبخاصة القمح .

٩- لا يُحاسب الموظف الجديد إن أخطأ وذلك طيلة أربعين يوم من مباشرته للعمل ، إنما يحاسب الموظف المُدرب له.

١٠- يجب أن يتمتع موظفو الدولة بأخلاقٍ عاليةٍ ، وألا يقترفوا الذنوب والآثام ، لأنهم قدوة الشعب الفرنسي (٤) .

ويلاحظ أن لويس التاسع اهتم بنشر العدل بين أبناء شعبه ، وإنصاف المظلومين(٥) ، ونشر القيم السامية بينهم لأنها كفيلة بالإصلاح ، والنهوض بأوضاع فرنسا ، وقد كان لويس التاسع قدوتهم في النـــزاهة والأمانة أملاً في أن يسيروا على خطاه ، فأحبه الجميع ، وسارت أوضاع فرنسا نحو الأفضل وسادها الهدوء والاستقرار على الصعيد الداخلي ،كما تحسنت علاقاتها الخارجية ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٤٨ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٥٠-٢٥٣ ؛ حاطوم : ص٨٠ .

(٣) الخوري : ص١٣ ؛ ديورانت : ج١٥ ، ص٢٣٠ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٤٩-٢٥٣ .

(٥) يُنظر الشكل رقم (٧) ، ص٣١٦ .

فسادها هدوءاً نسبياً (١) .

ب- السياسة الخارجية : اختلفت السياسة الفرنسية مع دول الجوار ، وذلك حسب ما اقتضته مصالحها، فكان لويس التاسع مرناً بشكل كبير لإنهاء الخلافات بين فرنسا وإنكلترا .

– **إنهاء الأزمة الفرنسية مع إنكلترا** : تجنب لويس التاسع الحروب مع جارته إنكلترا حيث أرسل لملك إنكلترا هِنريْ الثالث من أجل حَلِ النـــزاع على المناطق المتنازع عليها (٢) ، فَقَدِمَ هِنريْ الثالث وعقيلته اليانور (٣) إلى فرنسا سنة ٦٥٢هــ/١٢٥٤م ، وقد كان باستقبالهم لويس التاسع وزوجته مارغريتْ ، كما خرج أبناء باريس حاملين أغصان الورد ، مصحوبين بالأدوات الموسيقية (٤) ، ويُرجح أنه كانت هناك محادثات جانبية بين الملكين لم يطلع عليها أحد ، وقد تضمنت مناقشة النـــزاع القائم على المناطق المتنازع عليها بينهما ، ولم يتوصل الطرفان لحل الأزمة (٥) ، مما أدى لإرسال هِنريْ الثالث سفارة إلى لويس التاسع سنة ٦٥٥هــ/١٢٥٧م ، وكان الهدف منها مطالبة لويس التاسع بإعادة الممتلكات التي استولى عليها الفرنسيون من إنكلترا ، فأظهر لويس التاسع مرونة في موقفه ، بينما رفض مستشارو لويس التاسع الاعتراف بأية ممتلكات لهم ، فعادت السفارة إلى إنكلترا ، وعندما لمس هِنريْ الثالث أن هناك مرونة من قبل لويس التاسع أرسل له سفارة ثانية في العام نفسه ،

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٥٥-٢٥٨ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٢-٣٤٤ ؛ حاطوم : ص٧٨-٨١ . فشر ، هـــ . أ . ل : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، تر : السيد الباز العريني ومحمد زيادة وإبراهيم العدوي ، دار المعارف ،ط٣، مصر ، ١٣٨٦هـــ/١٩٦٦م ، ص٢٨٦-٢٨٨؛ Villemeuve : op . cit , p257-262 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٤٣ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٦٧٨ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥١٣ ؛ Davies : op . cit , p357 .

(٣) أنجب كونت بروفَانسْ ريموند برينغار الرابع (Rayymond Brengar 4) (٥٩٠-٦٤٣هــ/١١٩٨-١٢٤٥م) أربع فتيات من زوجته بياتريس سافوي (Biatres Safwa) ، فتزوجت مارغريتْ من لويس التاسع ، واليانور (Elianor) من هِنريْ الثالث ملك إنكلترا ، وسكاكنا (Scakna) من ريشارد كورنول (Rechard Cornel) سنة ٦٢١هــ/١٢٢٤م ، وغدت الصغيرة بياتريس (Biatris) وريثة أبيها في بروفَانسْ ، وتزوجت من شارل كونت آنجو (Charl cont anjo) فجعلت منه كونت بروفَانسْ (Brofans) . مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٣٢٢ -٥١٣ .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٩، ص١٤٩٢-١٤٩٨ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٤٣ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠، ص٥١٢ .

لكنها لم تكن أفضل حظاً من سابقتها حيث قابلها مستشارو لويس بالكلمات القاسية والتهديد (١) ، وبالرغم من ذلك لم ييأس هنري الثالث ، فأرسل وفداً إلى لويس التاسع سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ، ولم يُصرح ذلك الوفد بنتيجة المفاوضات التي دارت بين الطرفين حيث بقيت طي الكتمان (٢) ، ويُرجح أنه كانت هناك تطورات جديدة أراد لويس التاسع أن تبقى سرية خوفاً من إثارة مستشاريه ، وإثر المحادثات التي استمرت بين الطرفين توصلا لعقد معاهدة باريس سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ،التي تضمنت المعاهدة البنود التالية :

١- بقاء دوقية نورماندي (Normandy) وكونتية آنجو (Ango) تحت سيادة فرنسا .

٢- تنازل لويس التاسع عن غسكوني (Asconey) لهنري الثالث (٣) .

٣- يتوجب على ملك إنكلترا دفع مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة تورونية للملك الفرنسي (٤) .

أغضبت هذه المعاهدة مستشاري لويس التاسع بسبب تخليه عن غسكوني لإنكلترا ، ولكنه أكد لهم أنها من حقهم ، وذلك هو الحل الوحيد لإنهاء النـــزاع بين الطرفين (٥) ، ومن المحتمل أن لويس التاسع أراد إنهاء حالة النـــزاع مع إنكلترا أملاً في جرها إلى مشروع جديد من مشاريعه في الحروب الصليبية ، وإثر المعاهدة ساد السلام بين إنكلترا و فرنسا ، وانتهت حالة التوتر بينهما (٦) .

– **امتداد النفوذ الفرنسي نحو إيطاليا** : أنهى لويس التاسع النـــزاع الفرنسي مع إنكلترا ، ولكن استجابته لرغبات البابا أدت لتأجيج الصراع الفرنسي مع خلفاء فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، وإثر وفاة كونراد الرابع ابن فردريك الثاني سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م الذي حل مكانه على العرش الألماني ابنه كونرادين (Conradine) الذي كان طفلاً صغيراً (٧) ،

---

(١) باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٦٧٨-١٦٨٨ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٧٨ .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٨٧-١٧٨٨ ؛ المهندس : ج٣ ، ص٢٥٤ . حاطوم : ص٨٢ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص٣١٠-٣١١ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٧٨٧ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٤٤ .

(٦) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٧٨٧-١٧٨٨ ؛ حاطوم : ص٨٢ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص٣١١ .

(٧) رنسيمان : ج٣ ، ص٤٩٩ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص٢٧٧ ؛ Smith : op . cit , p198-199 .

برز آنذاك مانفريد ابن فردريك الثاني (Manefred du Fredrik 2) الذي طمع في عزل كُونرادين ، كما أعلن الحرب على البابويه حيث هَزَمَ الجيش البابوي في أبوليا (Abolia) سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، بينما كان البابا أنوسِنت الرابع (Anosent 4) على فراش الموت ، وعندما اعتلى العرش البابوي الكسَندر الرابع (Alecsander 4) هزمه مانفريد في أبوليا سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، وإثر ذلك الانتصار عَزَلَ مانفريد ابن أخيه كُونرادين عن عرش ألمانيا والصقليتين (مملكتي نابولي وصقلية) ، وذلك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م (١) ، ولم يكن البابا راضياً عن ازدياد نفوذ ما نفريد ، فرغب بتدخل فرنسا لعلها تضع حداً لتمادي مانفريد (٢) ، فعرض البابا أوربان الرابع (Orban 4) عرش الصقليتين على لويس التاسع ، فرفض استلامه بينما سمح لأخيه شارل كونت آنجو وبروفانس باستلامه ، ودون شك كان لويس التاسع مستاءً من مانفريد المتمرد على البابوية ، ومع أن البابا أوربان الرابع توفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م فقد أتم البابا كليمنت الرابع الاتفاق مع شارل على تسليمه عرش الصقليتين (٣) ، وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م اخترق شارل إيطاليا على رأس جيشٍ جرار ، حاملين الصلبان ضد مانفريد المتمرد على البابا (٤) ، واستعد مانفريد لمواجهة شارل ، والتقى الطرفان سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م في معركة بنْفِنْتو (Benvento) جنوب إيطاليا حيث دارت معركةً طاحنةً، أسفرت عن مقتل مانفريد ، وتمزيق جيشه ، وأصبح شارل آنجو سيداً على الصقليتين (٥) ، وهنا تطلع كونرادين حفيد فِردريك الثاني لاستعادة حقوقه في سيادة الصقليتين ، ولقي تأييداً من قبل اللومبارديين والتوسكانيين ، وعندما وصل إلى روما استقبله أهلها استقبالاً مهيباً ، فأعد جيشاً والتقى مع شارل آنجو قريباً من ضفاف نهر سَالتُوْ (Salto) ، ودارت معركة بين الطرفين سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م حيث وقع كونرادين أسيراً فيها ،

---

(١) زيتون : العصور الوسطى ، ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ ديورانت : ج١٥ ، ص٢٩٨ .

(٢) باريس : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٥٨-١٧٥٩ ؛ فابري : الموسوعة، ج٣٨ ، ص١١٧٤-١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥١٢-٥١٤ ؛ Michelet : op . cit , p206 .

(٣) مجهول : تاريخ هرقل ، الموسوعة، ج٥٨ ، ص١٩٩٩ ؛ المهندس : ج٣ ، ص٢٥٤ ؛ ديورانت : ج١٥، ص٢٩٨ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٢٢ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥١٥ ؛ Didier : op . cit , p58 .

(٥) فابري : الموسوعة، ج٣٨، ص١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥١٧-٥١٨ .

" فجرى إعدامه بناءً على أمر الملك شارل ، مع عدد من النبلاء من أسرته " (١) ، وأُرعِبَ أهالي نابولي وصقلية عندما رأوا ملكهم الجديد شارل قد أعدَم زعماء أسرة هوهنشاوفن الملكية ، وبذلك امتد النفوذ الفرنسي على الصقليتين ، وأضحى شارل سيداً للصقليتين بلا منازع (٢) .

وهكذا انشغل لويس التاسع بالنـــزاعات الأوربية ، وكان متابعاً للمآسي التي حلت بالكيان الصليبـــي ، وحالة التدهور التي عاشها الصليبيين (٣) ،

---

(١) ريشنغر : الموسوعة ، ج٠٥ ، ص١٨٤٢ .

(٢) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٥ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥٣٢-٥٣٨ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص٢٨١-٢٨٣ ؛ Smith : op . cit , p198-200 .

(٣) تدهور الكيان الصليبـــي : جرد بيبرس جيشاً ، وقصد عكا سنة ٦٦١هـــ/١٢٦٢م ، ومرَّ في الناصرة ، فنصب المجانيق على كنيستها ودمرها ، ثم أرسل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى عكا ، فأغار بجيشه على المدينة ، ونهب المناطق المجاورة لها ،كما هاجم قيسارية في شهر جمادى الأول سنة ٦٦٣هـــ/شهر شباط من عام ١٢٦٤م ، واستولى عليها ، ثم أمر بهدمها ، وتابع بيبرس مسيره إلى أرسوف ، وانتزعها من الصليبيين في شهر جمادى الآخر سنة ٦٦٣هـــ/شهر آذار عام ١٢٦٤م ، وبدأ بحصار صفد في ٨ رمضان سنة ٦٦٤هـــ/١٣حزيران عام ١٢٦٦م ، وقتل رجالها عن بكرة أبيهم ، وقد نظر المسلمون إلى هَيْثومْ الأول ولويس التاسع على أنهما وراء مجيء المغول إلى العراق وبلاد الشام ، فأراد بيبرس غزو الأرمن في عقر دارهم ، وفي شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـــ/ آب عام ١٢٦٦م أعدَّ السلطان المملوكي جيشاً من أبناء بلاد الشام ومصر ، وسلم قيادته للأمير المملوكي قلاوون وملك حماة المنصور محمد ، ووصلوا سيس عاصمة أرمينية الصغرى ، وجعلوا عاليها سافلها ،لم يترك بيبرس للصليبيين فرصةً للراحة ، وقد عاشت يافا مرحلة من الاستقرار في عهد يُوحَنا إبلين الذي فارق الحياة سنة ٦٦٥هـــ/١٢٦٦م ، فاستلم سيادتها ابنه جاي إبلين ، ولم يستطع الصمود بوجه بيبرس الذي هاجمها في شهر جمادى الآخر سنة ٦٦٦هـــ/شباط عام ١٢٦٨م ، فأصيب صليبيو يافا بالهلع ، وما إن أعطاهم الأمان حتى انطلقوا إلى عكا ، ومع بداية شهر رمضان سنة ٦٦٦هـــ/أيار عام ١٢٦٨م سقطت إمارة أنطاكية أول إمارة أقامها الصليبيون بعد مائة وإحدى وسبعين سنة من نشوئها ، وبقيت قبرص الأمل الوحيد للصليبيين بما أنها بعيدة عن الضربات المملوكية ، وحدث أن توفي هيُو الثاني لوزِجنان ملك قبرص الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره سنة ٦٦٦هـــ/١٢٦٨م ، فخلفه على العرش القبرصي ابن عمته هيُو برين الوصي عليه، ثم ما لبث أن تم تتويجه ملكاً على مملكتي قبرص وعكا باسم هيُو الثالث سنة ٦٦٦هـــ/١٢٦٨م ، وبذلك توحدت المملكتان الصليبيتان ، ولجأ هيُو الثالث إلى الدبلوماسية لتأمين حماية الصليبيين ، فسارع لالتماس الصلح مع بيبرس ، وأرسل له سفارة لعقد هدنة معه ، لكن السفارة لم تحقق هدفها ، وبذلك تهاوت المعاقل الصليبية ، وهدم بيبرس كل ما بناه لويس التاسع . الرشيدي ، محمد: تفريج الكروب في تدبير الحروب ، تح : عارف عبد الغني ، دار كنان ، دمشق ، ١٤١٦هـــ/١٩٩٥م؛ ص٢٩-٩٥ . النويري ، أحمد : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح: محمد شعيرة ومحمد زيادة ، مركز تحقيق التراث، ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م، ج٣٠ ، ص٨١ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص٥٣- ٥٤ ؛ مختار الأخبار ، ص٣٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص ٣٣٢ ـ٣٣٣ . =

اقتصر لويس التاسع على إرسال المساعدات المادية للكيان الصليبي حيث أرسل المعونات بشكلٍ دائم ، وبخاصة إلى قوات التجريدة الفرنسية التي كان يتزعمها جيفري دي سارجين (١) ، وقد حان الوقت المناسب لتقديم الدعم العسكري للصليبيين إثر إنهاء لويس التاسع للنـزاع المرير بين فرنسا وإنكلترا حيث ساد السلام بينهما ، كما شجع أخاه شارل في التوغل إلى الصقليتين ، لإنهاء تمرد أسرة هوهنشاوفن الألمانية على البابوية أملاً في إعداد حملة صليبية أوربية جديدة ، لعله يستطيع إنقاذ مملكة عكا قبل أن تسقط بأيدي المسلمين (٢) .

= المقريزي : السلوك ، ق٢ج١ ، ص٥٥١-٥٥٢ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص٢٧٣ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٤٥ ؛ ابن الشحنة ، محمد : الدر المنتخب في مملكة حلب ، دار عالم التراث ، دمشق ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٢٢٠؛ ابن عبد الظاهر : ص٣٣٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٥٠ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ٥٥٦_٥٦١ . Murray , Alan : Jerusalem from Clermont to the crusades , Brepols , 1998 , p131 ; Setton : op . cit , volume 2 , p572-575 ; Michaud : op . cit , volume 4 . p500-512 .

(١) كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص١١٥ ؛ رنسيمان : ج٣، ج٣ ، ص٤٩٩ ؛ بردج : ص٢٧٣ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٨٧-١٨٤٢ ؛ مجهول : مجموع هافنسيس ، الموسوعة، ج١٠ ، ص٥١٢-٥٣٧ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص٢٨٠-٣١١ ؛ Davies : op . cit , p357-359 .

- الفصل السادس -

حملة لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ / ١٢٧٠م

١- إعداد الحملة الصليبية .

٢- أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبية .

٣- مسير الحملة الصليبية وموقف المستنصر الحفصي منها .

٤- سقوط قرطاجة في قبضة الصليبيين .

٥- تفشي الأمراض في صفوف المعسكر الصليبي .

٦- وفاة لويس التاسع سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م .

٧- معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين .

٨- نهاية الحملة الصليبية الثامنة .

١ - إعداد الحملة الصليبيـــية .

بقي العمل الصليبـــي يراود خيال لويس التاسع ، وازداد حماساً مع تداعي وانهيار معظم المعاقل الصليبـــية تحت وطأة الضربات المملوكية ، وكان أول من أخذته الحمية من ملوك أوربا لويس التاسع، فأدرك ضرورة إمداد الكيان الصليبـــي (١) ، وتناسى العهد الذي قطعه على نفسه للمسلمين بعدم مهاجمة بلادهم إثر إطلاق سراحه منذ سبعة عشرة سنة ، سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م (٢) ، والمُثير للانتباه أن هذه الحملة لم تتجه إلى بلاد الشام أو مصر كما اعتادت الحملات الصليبـــية السابقة إنما انطلقت إلى تونس التي تبعد مسافات شاسعة عن القدس (٣) .

تجاه الوضع المؤلم الذي عاشته مملكة عكا وجه البابا كليمنت الرابع النداء إلى ملوك أوربا سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ، وحَثَّهُم على إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وصَوَّرَ لهم أعمال العنف والتدمير التي حلت بالصليبـــيين على أيدي المماليك ، ولكن أوربا لم تُبدِ ذلك الحماس الكبير لتلك الحملة (٤) ، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا خَفَّت رغبة الأوربيين بالاشتراك في الحروب الصليبـــية ؟

لقد وجدت الشعوب الأوربية أنها بددت مواردها الاقتصادية وأموالها في مشروع خاسر ، ويمكن من خلال تلك الموارد تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والداخلية بدلاً من هدرها ، لأنها أدركت أن قضية استعادة القبر المقدس ليست سوى ذريعة من أجل مَدِّ نفوذ أوربا إلى المشرق العربي الإسلامي وحتى مغربه ، ولكنها أيقنت أن احتلاله ليس أمراً سهلاً لأن مملكة عكا قد وصلت مرحلة الشيخوخة مع تقادم السنين ، واقتربت نهايتها ، و لم يَخفَ على الأوربيين تفاني المسلمين في الدفاع عن

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٧-٨٠٥ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٠-٢٦١ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١٧٢-١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٠-١٨٤١ ؛

Michaud : op . cit , volume 4 , p512-516 .

(٢) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٣-١٣٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٠ ؛ المطوي ، محمد : السلطنة الحفصية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٩٨ .

(٣) ابن كثير : ج١٧ ، ص١٧٣-٤٩٢ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٢٧١-٣٥٥ ؛

Gabrieli : op . cit , p266-285 ; Labrune and Toutain : op . cit , p34-35.

(٤) مونرود : مج٢ ، ص٣٤٦-٣٤٧ ؛ عامر : ، ص٨٦ ؛

Grousset : op . cit , volume 3 , p647- 649 .

أنفسهم وأوطانهم ، وهذا ما أدى لإصابتهم بالفتور تجاه الحروب الصليبـــية باستثناء المُتطرفين من بعض ملوك أوربا أمثال لويس التاسع ، وقد اضطر القليل من الأوربيين أن يحذوا حذو قادتهم لإرضائهم وليس حباً بالعمل الصليبـــي .

إثر نداء البابا لملوك أوربا من أجل إنقاذ الكيان الصليبـــي سارع لويس التاسع الذي كان من أكثر المتحمسين لغزو البلاد العربية الإسلامية (١) ، وعقد اجتماعاً للتخطيط لمشروع حملة صليبية جديدة في ٢٧ جمادى الآخر سنة ٦٦٥هـ/٢٤آذار عام ١٢٦٧م ، دعا إليه كبار بارونات فرنسا ، كما أرسل إلى جوانفيل الذي اعتذر بسبب مرضه الشديد ، فَوَجَّهَ إليه دعوةً ثانيةً ، وأشار له إلى أن هناك أطباء مهرة في باريس إذا ما أراد أن يتعالج ، فاضطر جوانفيل أمام إصرار لويس التاسع لحضور الاجتماع (٢) ، وقد ألقى لويس التاسع في ذلك الاجتماع خطاباً حماسياً بيَّن من خلاله الحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع مملكة عكا ، كما دعاهم إلى حمل السلاح لإنقاذ الكيان الصليبـــي ، ثم بادر لويس التاسع بحمل الصليب المقدس (٣) ، وحذا حذوه أبنائه الثلاثة ، وهم فيليب (Philips) ، وبيترو (petro) ، ويُوحَنا الحزين (jean Tristan) ، والكثير من النبلاء (٤) ، وأشار جوانفيل إلى أنه قد جلس أمامه أثناء الاجتماع اثنان من النبلاء حيث قال أحدهما للآخر :

" إذا لم نتناول الصليب ، ونأخذه نحن أنفسنا سوف نفقد حظوة الملك ورضاه ، وإذا ما أخذناه سوف نفقد عطف الرب ورضاه ، لأننا وقتها سوف نأخذه لا منْ أجل الرب ، بل خوفاً من غضب الملك وعدم رضاه " (٥) .

من هنا يلاحظ أن النبلاء الفرنسين لم يكن لديهم نية صادقة في حمل الصليب والمشاركة في الحملة الصليبـــية ، لكنهم شعروا إذا ما رفضوا المسير على خطا ملكهم في حَملِ الصليب ، فإنهم سوف يفقدون مكانتهم لديه بل إن مشاركتهم ليست من أجل الاستيلاء على المقدسات إنما خوفاً من غضب

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٠-٢٦١ ؛ برحاوي : ص٦٢١ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٠ ؛ الكناني ، مصطفى : حملة لويس التاسع الصليبـــية على تونس ، دار المعارف ، الإسكندرية ، د.ت ، ص١٤١-١٤٢ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٠-٢٦١ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٤٧-٣٤٨ ؛ عامر : ص٨٧ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦١ ؛ الكناني : ص١٤٢ ؛ Brellier : op . cit , p234-235 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦١ .

لويس التاسع، وإذا ما غضب منهم ، ربما يُجردهم من اقطاعاتهم ، وهذا ما أجبرهم على حمل الصليب ، وتأييد لويس التاسع في حملته الصليبـــية .

ما إن انتهى الاجتماع حتى بادر لويس التاسع بمراسلة ملوك أوربا لحثهم على المشاركة في الحملة الصليبـــية التي ينوي إعدادها ، فأرسل له البابا كليمنت الرابع مباركاً جهوده ، كما وجه النداء إلى الكنائس الأوربية من أجل تسخير ثرواتها لمساعدة لويس التاسع في إعداد الحملة (١) ، وقد اقتضى إعداد الحملة زهاء سنتين (٦٦٥-٦٦٨هـ/١٢٦٧-١٢٦٩م) بَذلَ لويس التاسع خلالها جهوداً كبيرةً لإعداد حملته ، فأرسل إلى ادوَارْ بن هِنرِيْ الثالث (Edwar du Henrey3) ملك إنكلترا ، فسارع ادوَارْ في المجيء إلى فرنسا حيث أظهر له لويس التاسع رغبته في اصطحابه إلى الأراضي المقدسة ، ولكن ادوَارْ اعتذر بسبب ضعف إمكاناته المادية ، فوعده لويس التاسع بإقراضه ثلاثين ألف ليرة ذهبية مقابل رهن موارد مقاطعة غسكوني (Asconey) ، ولَقِيَ ذلك الاقتراح القبول من قبل ادوَارْ ، وعاد إلى إنكلترا لأخذ موافقة والده هِنرِيْ الثالث الذي أخذ ينوح ويبكي ، وذلك لسببين وهما :

أ- خشي هِنرِيْ الثالث على ولده من تلك المغامرة ، فالطريق محفوفة بالمخاطر ، وقد لا يعود ادوَارْ لوالده سالماً .

ب- جرت حروبٌ دامية بين فرنسا وإنكلترا على غسكوني ضحت إنكلترا فيها بالكثير من جنودها حتى تنازلت لها فرنسا عنها ، وإن رهن موارد غسكوني قد يؤدي لاستيلاء فرنسا عليها مرةً ثانيةً .

ومع ذلك اضطر هِنرِيْ الثالث للموافقه على مضض لادوَارْ على المشاركة في الحملة الصليبية (٢)، وبينما كانت التنسيقات جارية في أوربة على قدم وساق من أجل إعداد مستلزمات الحملة أرسل الصليبـــيون إلى البابا وفداً طالبه في الإسراع بإنقاذ مملكة عكا (٣) ، كما أخبره الوفد أن أنطاكية قد سقطت بيد بيبرس ، والهجمات على الصليبـــيين كانت مستمرة (٤) ،

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن :العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، ط٢، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ؛ ج٦ ، ص٤٢٦ ؛ كريستوفر : الموسوعة، ج٨٣، ص١١٠؛ Michaud : op . cit , volume4 , p516-517.

(٢) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٧٨٧-١٨٤٢ .

(٣) الكناني : ص١٤٦-١٤٧؛ Setton : op . cit , volume2 , p578-579 .

(٤) ابن كثير : ج١٧ ، ص٤٧٦-٤٧٨ ؛ ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٤٥-٤٤٧ ؛ الغزي : ج٣، ص١٣٨ .

وفي خضم تلك الأحداث فارق البابا كليمنت الرابع (klement4) الحياة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م،وبقي العرش البابوي شاغراً (*) مدة ثلاثة أعوام وشهرين وعشرة أيام (١) .

لم يكن لموت البابا كليمنت الرابع ذلك الأثر الكبير على إعداد الحملة لأن لويس التاسع كان أكثر حماساً لذلك المشروع من البابوية ذاتها ، ونتيجةً لجهوده شارك في الحملة عدد كبير من النبلاء الأوربيين ، وهم :

ادوَارْ ابن هِنريْ الثالث (Edwar du Henrey3) ، وقد صحبته زوجته اليانور (Elianor) ، وعدد من بارونات إنكلترا (٢) ، " ومعه ألفي رجل " (٣) ، بينما شارك من الجانب الفرنسي شارل كونت آنجو (Charl cont Anjo) ملك الصقليتين (٤) ، وأخوه ألفونسو كونت بواتيه (Alphonso cont Boitey) ، وأخوه إيســــــوفي كونت فلاندر (Esofey cont flandar) وثيوبالد كونت نافار (Thiobald cont Navar) ويُوحَنا كونت بريتاني (Jean cont Britaner) (٥) ، فضلاً عن النساء الفرنسيات الشهيرات مثل أوسفور أميرة بواتيه (Esofey prinses Boiter) وتولوزو (Touloz) زوجة ألفونسو كونت بواتيه ، وجين أميرة شامبانيا (Jeane prinses Chambania) ، وغيرهُنَّ من الأميرات والنبيلات (٦) .

(*) لم يتم انتخاب بابا جديد بسبب تأخير شارل آنجو ملك الصقليتين لذلك ، حيث تعاون مع بعض رجال الدين لابقاء الكرسي البابوي شاغراً ، ربما أن شارل كان طامعاً في السيطرة على أملاك البابوية في إيطاليا ، وفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م تم انتخاب ثيوبالد بلاسنــــزا (Thiobald placenza) للعرش البابوي باسم غريغوري العاشر (Gregorey 10) (٦٧١-٦٧٥هـ/١٢٧٢-١٢٧٦م) . ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٢-١٨٥١ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٥٠١-٥٨٠ ؛
setton : op . cit , volume2 , p583-587 .

(١) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٢-١٨٤٣ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة، ج٥٠، ص١٨٤١ ؛ دي كانسي ،جوزيف وابن هِنريْ الثالث آنجو ،ادوَارْ : رسائل صليبيـــة من الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر:سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج٣٥، ص٣٦٠ ؛
Villeneuve : op . cit , p267 .

(٣) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٥٠ .

(٤) ابن سباط : ج١ ، ص٤٢٩ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦ ؛ Smith : op . cit , p201 .

(٥) ابن خلدون : ج٥ ، ص٤٢٦ ؛ ابن عبد الظاهر : ص٣٧٠ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٤ ؛ عامر : ص٩٧-٩٨ ؛
Michaud : volume4 , p518 .

(٦) مونرود : مج٢ ، ص٣٤٨ ؛ الكناني : ص١٧٩ .

أصبحت الحملة الصليبية الثامنة على أُهبة الاستعداد ، ولكن المثير للانتباه أنها لم تقصد مملكة عكا إنما قررت المسير نحو شمال أفريقيا ، وهذه أول حملة صليبية تنطلق إلى تونس (١) .

وعلى هذا فبفضل جهود لويس التاسع أعدَتْ أوربا حملةً صليبيةً ثامنةً ، معظم المشاركين فيها من الفرنسيين (٢) ،وقرر لويس التاسع الانطلاق نحو تونس تحديداً بإيحاء من أخيه شارل آنجو ، أملاً بفرض الهيمنة الفرنسية على أفريقيا ، وإذا ما استولى على شمال أفريقيا فبإمكانه متابعة المسير إلى بيت القدس (٣) ، وهذا ما يُذكِر بحملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م التي حملت أدوات الفلاحة من أجل زراعة أراضي مصر إذا ما استولوا عليها (٤) ،وهذا يعني أن الهدف الأول لحملة لويس التاسع هذه هدف استعماري ، أما الهدف الثاني فهو ديني ، فقدْ غدت تونس في نظر لويس التاسع هي الطريق المؤدي لبيت المقدس .

أكد بيير دوبوا بأن لويس التاسع قد عدَّ تونس بوابة بيت المقدس من خلال قوله :

" أما بشأن فكرة العبور من خلال إسبانيا ، والانتقال منها عبرَ مضيق جبل طارق إلى مدينة سبته ، ومنها إلى تونس أو عبرَ أي جزء من بلاد المغرب ، فإني أُوثر عدم الوقوف عندها ، فإنه انطلاقاً مما قلناه ، ونقوله ، وما يمكن أن نقوله ، إن هذه الطريق غير مناسبة ، وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة ، وبالتالي إلى احتلالها ، خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها " (٥) ، وهنا أشار بيير دوبوا إلى أن لويس التاسع سَلكَ طريقاً محفوفاً بالمخاطر ، بسبب امتداد الصحارى بشكل شبه متصل من تونس حتى بلاد الشام ، فضلاً عن القوى الإسلامية التي استقرت على طول ذلك الطريق ، وقد كان بإمكان لويس التاسع المسير بحراً إلى الأراضي المقدسة بدلاً من اختياره ذلك الطريق البري .

---

(١) سانوتو : الموسوعة ، ج٣٦، ص١٩ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛
Mayer : op . cit , p282-283 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٠-٢٦٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٤-١٨٤٥ .

(٣) رنسيمان : ج٣ ، ص٥٠١ ؛ villeneuve : op . cit , p265-266 .

(٤) باريس : الموسوعة ، ج٤٨ ، ص١٠٩٣ .

(٥) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١١١ .

٢- أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الصليبـــية .

حكم بنو حفص تونس منذ سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م إثر ضعف الموحدين في المغرب العربي ، وعُرفوا بالحفصيين نسبة لمؤسس الأسرة عمر أبو حفص بن يحيى الهنتاني من قبيلة المصامدة أكبر قبائل المغرب العربي ، ويُنسبون إلى قريش من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) ، وأول من تلقب من سلاطين بني حفص بأمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الذي تلقب بالمستنصر بالله (٢) ، بعدأن استلم حكم تونس سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م (٣) ، وقد امتدت حدود دولته من طرابلس الغرب شرقاً حتى أقصى بجاية غرباً (٤) ، وامتدت جنوباً إلى صحراء ورقلة الواقعة في الجزائر (٥)،وبعد أن تبين امتداد تونس لا بد من الوقوف على أوضاعها قبيل مهاجمتها من قبل الحملة الصليبـــية ، والتركيز على الأوضاع التي كانت سبباً أساسياً في جذب الصليبـــيين نحو تونس وهي :

أولاً : أسباب غير مباشرة .

أ- حدث أن اختلف اللحياني (٦) مع تجار فرنسيين حيث أقرضوه مبلغ ثلاثمائة دينار ، وعندما احتكموا

---

(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٤ ؛ الزركشي ، محمد : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، الدار التونسية، ط١ ، ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م ، ص١٤٩ .

(٢) المستنصر الحفصي : هو سلطان تونس محمد بن أبي زكريا يُكنى أبا عبد الله ، بويع سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، اهتم بالعمران والأدب والشعر، وساد عهده البذخ والترف ، توفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . الصفدي ، خليل : الوافي بالوفيات ، تح : محمد محمود وإبراهيم سليمان ، دار فرانز شتاينر ، ط٢، فيسبا دن، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ج٥ ، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، تح: قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م ، ج٧ ، ص٧٩ ؛ عبد الوهاب حسين، حسن : خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص١٢٩-١٣٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٥ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٤٧ .

(٤) بجاية : مدينةٌ عظيمةٌ تقع شرق الجزائر حيث تمتد على ضفة البحر ، وتتكون من جرفٍ صخريٍ شاهق ، ويعمل أهلها بالتجارة والملاحة . الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٠٣ ؛ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، دار عالم الكتب ، ط٢، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٠١ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص١٢٣ ؛ ؛ ابن الشماع، محمد : الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح: الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس الغرب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص٦٠-٦٨ ؛ الغنيمي ، عبد الفتاح : موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص وبني زيان وبني مرين) ، مكتبة مدبولي ، ط١،القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ج٥ ، ص٤٢ .

(٦) اللحياني : هو محمد الحفصي عم المستنصر ، وقد أخذ للمستنصر البيعة من الناس إثر وفاة يحيى والد المستنصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، ولكن اللحياني تغير فيما بعد على ابن أخيه . مقديش ، محمود: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح : علي زواوي ومحمود محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط١،بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، مج١ ، ص٥٥١-٥٥٢ .

إلى السلطان التونسي المستنصر ، حَكَمَ لصالح عمه اللحياني ، فانطلق التجار الفرنسيون وشكوا المستنصر للملك الفرنسي (١) .

في الحقيقة لا يعد هذا سبباً وجيهاً في إرسال حملة صليبية إلى تونس من أجل مبلغٍ بسيطٍ كهذا ، والصليبيـــون في عكا أصبحوا بين المطرقة والسندان ، وقد انتظروا وصول الحملة الصليبيـــية إليهم بفارغ الصبر .

ب- كان المستنصر جالساً مع رجاله ذات مرة ، فجرى ذكر لويس التاسع ، فأشار المستنصر لرجاله أن لويس التاسع هو طاغية قد هاجم مصر ، ولكنه هُزم ووقع أسيراً بأيدي المصريين ، ثم أطلقوا سراحه ، فعلم لويس التاسع أن المستنصر يتهمه بأنه طاغية (٢) .

جـــ- وصول شائعات لمسامع لويس التاسع إلى أن المستنصر راغب بالتنصر ، ربما عن طريق الراهب الفرنسي ريموند مارتن (Raymond Martin) (٣) الذي كان على علاقة حسنة مع لويس التاسع والمستنصر ، ومن المُحتمل أن ريموند بَيَّنَ للويس التاسع أن تنصر المستنصر لا يعني تنصر أبناء تونس ، وإلا لما انطلق لويس التاسع على رأس قوة عسكرية كبرى إلى تونس ، كما أن لويس التاسع اصطحب ذلك الجيش لأنه وضع في مخيلته أنه سيتابع المسير من تونس إلى مصر وبلاد الشام ليثأر من المماليك (٤) .

د- شجع شارل آنجو ملك الصقليتين أخاه لويس التاسع على غزو تونس والاستيلاء عليها ، ثم متابعة المسير شرقاً للسيطرة على مصر وبلاد الشام (٥) ، ويلاحظ أن شارل كان طامعاً

---

(١) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٦ ؛ ابن الشماع : ص٦٩-٧٠ .

(٢) ابن الشماع : ص٧٠ ؛ السراج ، محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تح : محمد الحيلة ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، مج٢ ، ص١٥٢ .

(٣) ريموند مارتن : أحد الرهبان الفرنسيين الناشطين في نشر الديانة المسيحية في تونس ، كما أنه تولى تدريس الرهبان فيها ، وقد ارتبط مع المستنصر بعلاقة صداقه ، وبالوقت نفسه كان على علاقة وثيقة مع لويس التاسع . حسين ، ممدوح: الحروب الصليبيـــية في شمال أفريقيا ٦٦٨-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٢٩٠م ، دار عمار ، ط١، عمان ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ص٢٧٣ ، (كتاب إلكتروني) .

(٤) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٣ ؛ الكناني : ص١٠١ ؛ حسين : الحروب الصليبيـــة ، ص٢٧٣ ؛
Villeneuve : op . cit , p265-266 ; Kedar : op . cit , p166-167 .

(٥) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ المهندس : ج٤ ، ص٢٥٦ ؛
Brentano : les croisades : op . cit , p111 .

في مد نفوذه على أفريقيا من خلال تونس حيث الأراضي الزراعية الخصبة وبخاصة زراعة القمح ، فضلاً عن امتلاكها أعداداً كبيرةً من قطعان الأبقار والأغنام (١) ، وبذلك أظهر شارل وأخوه لويس التاسع طموحاً في الاستفادة من قوات الحملة الصليبية في السيطرة على أفريقيا ، ثم متابعة المسير نحو بيت المقدس ، وفي هذا دليل واضح على أن لويس التاسع أولَى مشروع السيطرة على أفريقيا جهداً أكبر من الاستيلاء على بيت المقدس ، وإلا لما اتجه إلى تونس ليبدد قواته فيها .

ثانياً : الأسباب المباشرة .

أ- تمرد أبناء الأسرة الحاكمة :

- **تمرد عَمَّي المستنصر** : ما إن اعتلى المستنصر عرش تونس حتى تآمر عليه عمه إسحاق أبو إبراهيم المعروف بالمجدور بسبب إصابته بمرض الجدري ، وأخوه محمد اللحياني ، وذلك لطول لحيته ، ودَبرَ إبراهيم المجدور مؤامرة أدت لمبايعة محمد اللحياني بالسلطنة بدلاً من المستنصر ، سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وأكد العيني أن إبراهيم المجدور " بايع محمد اللحياني على كُرهٍ منه لذلك " (٢) ، ونستشف مما قاله العيني أن اللحياني لم يكن راغباً بالسيادة ، وإنما إبراهيم المجدور ألح عليه ورَغبَّه بالسلطنة بل وورطه في ذلك ، وعندما علم المستنصر بما جرى ، تظاهر بالتقرب من عميه ، وأظهر لهما الرغبة في الصلح ، وبالفعل استدرج المجدور واللحياني وقتلهما (٣) .

- **حركة أبو إسحاق إبراهيم** : انتهى المستنصر من اللحياني والمجدور فظهر أخوه إبراهيم أبو إسحاق على ساحة المعارضة السياسية سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م حيث أثار الاضطرابات والقلاقل في البلاد بحجة سوء أخلاق أخيه المستنصر ، وكانت أخبار إبراهيم تصل إلى المستنصر ، فأمر بمراقبة تحركاته ،

---

(١) القرماني : مج٢ ، ص٤٣٥ ؛ الفاسي ، الحسن : وصف أفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص٦٢ .

(٢) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٨ .

(٣) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٢-٤٠٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٩٥ ؛ ابن شداد ، عز الدين محمد : تاريخ الملك الظاهر ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٨٨-١٩١ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٥ ؛ ابن أبي الضياف ، أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تح: وزارة الشؤون الثقافية ، تونس ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ص١٦٠ .

وما إن شعر إبراهيم أنه تحت المراقبة حتى هرب إلى قابس (١) ، ولقي تأييداً كبيراً " واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب " (٢) ، فألقى المستنصر القبض على أبناء إبراهيم ، وألقى بهم في السجن ، فاضطر إبراهيم لتهدئة أوضاع الأعراب خوفاً على أبنائه من المستنصر ، ثم التجأ إلى الأندلس وأقام في غرناطة (٣) ، حيث أخذ يتحين الفرصة المناسبة للعودة إلى تونس (٤) .

ب– ثورات القبائل : لم تهدأ حالة التوتر بين المستنصر والقبائل التونسية حتى تثور من جديد (٥) ، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها المستنصر على الاقطاعات التي كانت بيد شيوخ القبائل ، مما أدى لإثارة الاضطرابات من قِبَل البدو (٦) ، وقد خرج المستنصر سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م على رأس جيش ،وهاجم قبيلة الدواودة ، فهربوا إلى جنوب تونس ، و لم يطمئن المستنصر لها ، فكلف عامل بجاية عَبادْ أبا هلال باستلطاف كبار رجال قبيلة الدواودة لتوثيق الصلح معهم ، وذلك سنة٦٦٦هـ/١٢٦٧م، ولكن المستنصر غدر بهم " وضُربت أعناقهم ، ونُصبت أشلاؤهم " (٧) ، ثم أرسل الجيش التونسي لمهاجمة أحياء قبيلة الدواودة في جنوب تونس حيث نهبوها (٨) ، أما قبيلة

---

(١) قابس : أتت تسميتها من الاقتباس ، وقابس مدينة بحرية حصينة تقع شرقي تونس ، يجري فيها وادي يسقي بساتينها ، فتمتاز بجمال طبيعتها ، كما تشتهر بتربية دودة القز للحصول على الحرير . الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٢٨-٣٢٩ ؛ الحميري : ص٤٥٠ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٥ .

(٣) ابن خلدون : ج٦، ص٤٠٥-٤٠٦ ؛ ابن الشماع : ص٦٤ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص١٧٩-١٨٠ ؛ مؤنس ، حسين : تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين) دار العصر الحديث ، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ج٢ ، ص٢٢٥ .

(٤) أقام إبراهيم أبو إسحاق لدى ملك غرناطة محمد بن الأحمر ، وقد أرسل المستنصر لملك غرناطة طالباً منه تسليمه إبراهيم ، لكن الثاني لم يستجيب لمطالبه ، وبقي إبراهيم في غرناطة حتى توفي أخيه المستنصر سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م حيث استلم من بعده ابنه يحيى الذي امتاز بسوء الخلق ، فقدم عمه إبراهيم إلى تونس ، وسانده أبناؤها ، واستلم السلطنة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م . ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٦٠ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٥ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥٤ ؛ الزركشي : ص١٥٠.

(٥) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٢-٤٢٣ .

(٦) أبو دياك ، صالح : النظام المالي عند الحفصيين ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١-٢٢ ،دمشق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص٩٤-٩٧ .

(٧) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٣ .

(٨) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٣-٤٢٤ ؛ ابن الشماع : ص٩٨ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٤٧ ؛ برنشفيك ، روبار: تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، تر : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ج١ ، ص٧٩-٨٠ .

زناته التونسية المعارضة للمستنصر فقد حرَّض القبائل الموالية له ضدها ، فكسرت شوكتها ، وبذلك انتهج المستنصر سياسة تأليب القبائل ، واستأصل شأفة القبائل المعارضة له (١) .

إن الناظر للأوضاع السياسية عشية قدوم الحملة الصليبية يلاحظ أن المستنصر كان في حالة نزاع مع أقاربه على السلطة فضلاً عن الصراع مع القبائل ، وهذا كافٍ لتشجيع لويس التاسع لمهاجمة تونس ، ربما أن لويس التاسع توقع أنه سيحدث معه في تونس كما حدث في بلاد الشام إثر وصوله إليها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث راح كلٌ من الأيوبيين والمماليك يعمل على استمالته إلى جانبهم (٢) ، ويُحتمل توقع أنه فيما إذا قَدِمَ إلى تونس فإنه سيلقى ترحيباً من القبائل التونسية المعارضة التي تمثلت بتمرد أبناء الأسرة الحاكمة وثورات القبائل ، مما يُسهل عليه الاستيلاء على تونس .

جـ- الرخاء الاقتصادي : امتلكت تونس موقعاً استراتيجياً على البحر المتوسط ، مما أدى لازدهارها اقتصادياً حيث نشطت فيها الزراعة وبخاصة في عهد المستنصر الذي " اغترس فيها من كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب " (٣) ، وغيرها من الأشجار والحبوب (٤) ، كما ازدهرت الصناعة فيها كصناعة الحرير والعطور والأخشاب والأواني المنزلية (٥) ، وأسهم المستنصر بتشجيع الصناعة ، " فبنى المصانع والهياكل العظيمة " (٦) ، ونشطت الحركة التجارية ، وازدهرت الأسواق ، وتوافد التجار إلى تونس من كل حدب وصوب (٧) ، ورافق ذلك التطور الاقتصادي ازدهار عمراني وثقافي ، وعاش أبناء تونس في حالة من الرخاء ورغد العيش (٨) ، وهذا الازدهار الاقتصادي لتونس جعل منها محط أنظار الطامعين أمثال لويس التاسع الذي قرر توجيه حملته إلى تونس بدلاً من بيت المقدس .

---

(١) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٤ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص١٨٤-١٨٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص١٧٢-١٩٠ ؛ باريس : الموسوعة ، ج٤٩ ، ص١٢٨٣-١٣٤٨ .

(٣) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٤ .

(٤) ابن أبي الضياف : ص١٦١ ؛ القرماني : مج٢ ، ص٤٣٥ ؛ Villeneune : op . cit , p271 .

(٥) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٣-٤٠٥ ؛ الفاسي : ص٧٤-٧٥ .

(٦) ابن أبي الضياف : ص١٦١ .

(٧) الفاسي : ص٧٤-٧٥ ؛ عامر : ص٦٥ .

(٨) ابن شداد : الملك الظاهر ، ص١٨٨-١٨٩ ؛ ابن أبي الضياف : ص١٦١ ؛ السراج : ص١٤٦-١٥٠ .

د – توتر علاقة المستنصر مع جنوه وصقليه : اقتصرت العلاقة التونسية مع أوربا على إقامة العلاقات التجارية حيث نشط التبادل التجاري بين تونس والجمهوريات الايطالية مثل جنوه وبيزا والبُندُقِية ، وأقامت تلك الجاليات فنادق ومراكز تجارية لها في ضواحي مدينة تونس (١) ، وانفرد اليونيني بذكر خبر مفاده أن أبناء جنوه قد سَكُّوا نُقوداً تونسية مزورة على غرار النقود التونسية (٢) ،وقد اكتشف تجار تونس خداع الجنويين بعد أن انتشرت عملتهم المُزورة في أرجاء تونس ، وعندما علم المستنصر أمر بجمع الأموال الجنوية المزورة ، كما سجن أولئك الجنويين الذين كانوا وراء تزوير النقود ، مما أدى لسوء العلاقة التجارية بين جنوه وتونس (٣) ، كما توترت العلاقة بين شارل آنجو ملك الصقليتين والمستنصر بسبب إيواء الثاني لبعض الصقليين المتمردين على شارل (٤) ، ويلاحظ أن العلاقة بين المستنصر وأوربا كان يشوبها التوتر بسبب خلافه مع شارل آنجو والجنوية .

وعلى هذا يمكن القول أن أوضاع تونس عشية قدوم الحملة الصليبية كانت مُشجعة للغزو الفرنسي لتونس حيث ظهرت الكثير من حركات التمرد ضد المستنصر ، ولكن بذكائه قضى على تلك الحركات في مهدها ، ربما أن لويس التاسع توقع قيام حركات تمرد جديدة في تونس تسانده في حملته (٥) ، كما لا يمكن إغفال حالة الغنى التي عاشتها تونس ، وهذا ما أنعش آمال الفرنسيين الطامعين في زيادة ثرواتهم ، وكل ما تقدم قد شجع لويس التاسع على مهاجمة تونس (٦) .

---

(١) الفاسي : ص٧٤ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٨٣-٨٤ .

(٢) استخدمت تونس في عهد المستنصر الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفلوس النحاسية . أبو دياك : ص١٠٠ .

(٣) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٤-٤٥٥ .

(٤) المطوي : السلطنة الحفصية ، ص١٩٩ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٨٥ ؛ Villeneuve : op .cit , p265-266 .

(٥) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٠٠-٤٢٤ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٢٧٥-٢٧٦ ؛ ابن شداد : الملك الظاهر ، ص١٨٨-١٩١؛ السراج : مج٢ ، ص١٤٧ ؛ ابن الشماع : ص٦٤-٦٨ .

(٦) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٣٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦١-١٦٢ ؛ Velleneuve : op . cit , p267-269 .

٣- مسير الحملة الصليبـــية وموقف المستنصر الحفصي منها .

تجمع الصليبـــيون في مينائي إيجْ مُورتزْ (Iage Mortes) ومَرسِيليا (Marsilia) الفرنسيين، وانتظروا ساعة الرحيل ، بينما سارع لويس التاسع للاتفاق مع جنوه لنقل الحملة ، ثم عهد بالحكم في فرنسا إلى رئيس دير القديس دِنيسْ مَتى فاندُومْ (Mathew Vandome) ، والكونت سِيمونْ كونت نيزِلْ (Simon cont Nesle) ، ثم ودع أهله الوداع الأخير ، وحمل الصليب ، وانطلق إلى إيجْ مُورتزْ حيث وصلت السفن الجنوية التي كانت قد تأخرت عن الموعد المحدد لها ، ثم حَمَّلوا أمتعتهم ومستلزماتهم ، واستقلوا السفن ، وأبحرت الحملة نحو جزيرة سردينية (١) ، في يوم الأربعاء ١٠ من ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/٢حزيران عام ١٢٧٠م ، وأشار ابن خلدون إلى أن عدد سفنهم بلغ " ثلاثمائة بين كبار وصغار " (٢) ، بينما ذكر ابن أبي الزرع " نزل الافرنسيس في مراكب لا تحصى " (٣) ، وعلى ما يبدو أنه لم يعرف كم عدد السفن ، وعبَّرَ عنها بقوله : أنها لا تعد ولا تحصى دليلاً على كثرتها ،وأما اليونيني فذكر أن " عدة مراكبهم أربعمائة مركب" (٤) ، وبشكلٍ عام فقد تراوح عدد سفن الحملة مابين ثلاثمائة وأربعمائة مركب ، أما عدد جنود الحملة الصليبـــية فقد بالغ ابن أبي الزرع بعددهم فكانوا على حد زعمه " أربعين ألف فارس ومائة ألف ألف راجل " (٥) ، وهذا عددٌ مبالغٌ فيه، بينما اتفق ابن خلدون والمقريزي على أن عددهم بلغ " ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل" (٦)،وهذا عددٌ مقبول ، وأقرب للحقيقة من العدد الذي أشار له ابن أبي الزرع ، علماً أن عدد مقاتلي حملة لويس التاسع الأولى على مصر كان أكبر بكثير حيث وصلوا إلى "خمسين ألف مقاتل " (٧) ، وهذا ما يؤكد ضعف الروح الصليبـــية لدى الأوربيين بشكلٍ عام والفرنسيين بشكلٍ خاص .

---

(١) حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٢٨٣-٢٨٥ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٨٦-٨٧ ؛
Smith : op . cit , p200-201 ;   Villeneuve : op . cit , p267-268 .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ .

(٣) ابن أبي الزرع ،علي : الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، د.م ، د.ت، ص٣٨ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، مج١ ، ص٤٥٥ .

(٥) ابن أبي الزرع : ص٣٨ .

(٦) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦١ ؛ ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ .

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤ .

أبحرت الحملة الصليبـــية (١) ، ووصلت إلى مرفأ كَاليَاريْ (Caliari) في جزيرة سَردينية ، في صباح يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـــ/٩حزيران عام ١٢٧٠م (٢) ، واستقبلهم أهالي سردينية بفتور حيث كانت الجزيرة تحت سيادة جمهورية بيزا الايطالية التي تعيش حالة من المنافسة التجارية مع جمهورية جنوه صاحبة الأسطول الذي نقل الحملة (٣) .

عقد لويس التاسع في مرفأ كاليَاري اجتماعاً لباروناته ، وقد توقع مصطفى الكناني وميخائيل زابوروف أنه استهدف من ذلك الاجتماع تحديد وُجهة الحملة (٤) ، ولكن إذا ما تم الافتراض جدلاً أن لويس التاسع لم يكن قد حدد اتجاه الحملة بعد ، وأراد في كاليَاري تحديدها ، فلماذا انطلقت الحملة نحو سردينية ؟

إن انطلاق الحملة نحو سردينية دليل على أن لويس التاسع قد قرر مُسبقاً المسير إلى تونس ، وإلا لما اتجه إلى سردينية ، وإذا ما تمت العوده للوراء قليلاً يُلاحظ أن حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م قد سارت من مينائي إيجْ مُورتِزْ ومَرسيليا إلى قبرص ثم إلى مصر (٥) ، ولو أنه لم يحدد هدف الحملة لم يأت إلى سردينية القريبة من تونس ، وإن لم يكن ما تقدم كافياً للتأكيد على أن لويس التاسع منذ انطلاقه من فرنسا قد قصد تونس فهناك دليلٌ آخر ، فالمستنصر الحفصي كان على علم بأن لويس التاسع سيُهاجم تونس قبل مسير الحملة من فرنسا ، فأرسل سفارةً تونسيةً إلى لويس التاسع ، وصلت إلى فرنسا وحملت "ثمانين ألف دينار " (٦) ، حيث سلمت السفارة ذلك المبلغ إلى لويس التاسع لاسترضائه مقابل ألا يهاجم تونس " فأخذ المال من أيديهم ، وأخبرهم أن غزوه لأراضيهم " (٧) .

وبذلك يلاحظ أن لويس التاسع قد جَرَّدَ السفارة التونسية من الأموال ، وأخبرها بأنه سينطلق لغزو

---

(١) يُنظر المصور رقم (١٠) ، ٣٠٩.

(٢) عامر : ص١٠٧-١٠٨ .

(٣) حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٢٨٦ ؛ برنشفيك : ص٨٧ .

(٤) الكناني : ص١٩٣ ؛ زابوروف : ص٣٢١ .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٥٥-٥٨ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ الدويهي : تاريخ الأزمنة ، ج٢ ، ص١٢١ ؛ smith : op . cit , p184-185 .

(٦) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ؛ ص٤٦١ .

(٧) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٦ ؛ والمعنى ذاته لدى المقريزي : السلوك، ج١ ؛ ص٤٦١ .

تونس ، وهنا من المؤكد أن اجتماع كالياري كان الهدف منه وضع خطة حربية لاقتحام تونس .

وفي كَالِيَاريْ اعتذر شارل آنجو من أخيه لويس التاسع عن متابعة المسير معه إلى تونس حيث أراد العودة إلى مملكته ،بسبب حدوث اضطرابات داخلية في مملكته أجبرته على الرجوع إليها ، ووعد لويس التاسع أنه سيتبعه لاحقاً ، كما وعده ادوار بن هنري الثالث أيضاً (١) ، ثم استأنفت الحملة الصليبية سيرها من سَردينية نحو تونس ، ووصلت الشاطئ الأفريقي في يوم الخميس ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٨ حزيران عام ١٢٧٠م (٢) .

توجب على المستنصر الحفصي تحصين المواقع الهامة في تونس وبخاصة الشواطئ ، كما أمر بتقوية الاستحكامات العسكرية للمناطق التي يُخشى مهاجمتها من قبل الحملة الصليبية (٣) ، كما قام بتخزين الحبوب تجنباً لأزمة غذائية قد تحدث في تونس (٤) ، وسعى لتوفير وشراء الأسلحة اللازمة (٥)، ولم يكتفِ المستنصر بإعداد العدة بل أرسل يستنفر المسلمين داخل تونس وخارجها وحَضَّهم على الجهاد مستشهداً بالآية القرآنية الكريمة " انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون " (٦) ، فَقَدِمَتْ إليه الجيوش والمتطوعون من شتى النواحي (٧) ، حيث أتى الكثير من شيوخ قبائل المغرب العربي على رأس المتطوعين من أبناء قبائلهم (٨) ،

---

(١) عامر : ص١٠٩ ؛ برنشفيك : ص٨٩-٩٠ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦١ .

ابن أبي دينار ، محمد : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، الدار التونسية، ط١، ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، ص١٢٨ .

السراج : مج٢ ، ص١٥١ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ .

(٣) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٦ ؛ سرهنك ، إسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الأميرية ، ط١، بولاق ، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م ، ج١ ، ص٤١٤ .

(٤) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٦ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص٢٠٣ .

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٥ ، ص٢٠٣ .

(٦) سورة التوبة : الآية رقم ٤٢ .

(٧) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ .

(٨) من أشهر القبائل التي وقفت إلى جانب المستنصر هي قبيلة هوارة وسدويكش والموحدين وولهاصة وزناتة وزيان وصنهاجة وسرطة وترجة وتوجين ومداسة ورزيقة ،وغيرها من القبائل . ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص١٢٥ ؛ عامر : ص١٤٢ .

ووصلت المساعدات العسكرية والمادية من يعقوب بن عبد الحق سيد بني مرين في مراكش (١) ، كما قدم متطوعون من الأندلس (٢) ، ولم يستنفر المستنصر عرب المغرب فحسب بل أرسل سفارةً إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م ، وقد حملت السفارة هدية كانت عبارة عن عدد من الخيول الأصيلة ، فقام بيبرس بتوزيعها على رجاله ، ثم أرسل بيبرس للمستنصر مُشجعاً إياه على الصمود بوجه الصليبيين (٣) ، وقد وجه بيبرس رسالة إلى أبناء المغرب العربي بأكمله حثهم فيها على التصدي للغزاة الطامعين ، وطلب من برقة في ليبيا مؤازرة المستنصر ، كما أعد جيشاً مملوكياً لإرساله إلى تونس فيما إذا اقتضت الضرورة (٤) .

وبذلك اجتمعت أعداد هائلة من الجيوش والمتطوعين على الرغم من الذكر آنفاً أن المستنصر كان قاسياً في القضاء على القبائل التونسية المتمردة ، ولكن أمام العدو الخارجي تناسوا خلافاتهم ، وتكاتفوا للوقوف في وجه الخطر الصليبي ، واحتاجت تلك القوات لقائدٍ ذكيٍ شجاع يُحسن تنظيمها ، وإغراق الحملة الصليبية قبل اقتحامها لتونس .

عقد المستنصر اجتماعاً حربياً لوضع خطة من أجل مواجهة الحملة الصليبية ، وحضر الاجتماع مستشاروه ، وكبار رجال دولته ، وشيوخ القبائل ، وشخصياتٌ أخرى قَدِمَتْ من الأندلس والمغرب العربي ، وقد بَـيَّنَ المستنصر للحضور ما أخبره به جواسيسه من أن الحملة الصليبية في طريقها إلى تونس ، وطلب المستنصر من الحضور إبداء آرائهم في كيفية التصدي لذلك الخطر ، وقد انقسم الأعضاء المجتمعين إلى قسمين لكلٍ منهما رأي مختلف عن الآخر ، وهما : (٥)

الرأي الأول : مثل هذا الرأي غالبية الحضور عدا رجال الأندلس ، وأشاروا بقتال الصليبيين ، وعدم السماح لهم بالنزول على الشاطئ " حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء ، فيضطرون إلى الإقلاع" (٦) ،

---

(١) الناصري ، أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تح : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ، ص٢٨-٢٩ .

(٢) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٧ ؛ حسين : الحروب الصليبية ، ص٢٩٨ .

(٣) المقريزي : السلوك، ق٢ج١ ، ص٦٠١ ؛ عامر : ص١٣٥ -١٣٦ ؛ Villeneuve : op . cit , p287 ; Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٤) ابن عبد الظاهر : ص٣٧٣ -٣٧٤ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٥) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ .

(٦) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٧ .

لبلادهم ،لكن هناك مأخذ على هذا الرأي ، فبإمكان الصليـــيين الحصول على التموين والمستلزمات المطلوبة بما أن البحر مفتوح من وراء الأسطول أيْ من جهة الشمال (١)،ويُلاحظ إذا ما انتظروا نفاذ المؤونة لدى الصليـــيين حتى يعودوا إلى بلادهم، فهذه مسألة قد تطول ، ويُحتمل أن يباغتوا إحدى المناطق الضعيفة على الشواطئ ، ويتوغلوا من خلالها إلى تونس أو غيرها من مناطق المغرب العربي .

الرأي الثاني : وتبنى هذا الرأي رجال الأندلس (٢) ، وقد اقترحوا السماح للصليبيين بالنــــزول على الشاطئ التونسي في مرسى الحضرة ، ثم محاصرتهم والقضاء عليهم (٣) .

وهناك مأخذ على هذا الرأي ، فإذا دارت رحى المعركة على أرض تونس فإن هذا سيؤدي لتدمير البُنى التحتية للمنطقة التي ستدور عليها المعركة من خلال إحراق المزروعات وتخريب المرسى ، ويُحتمل أن يتم الاستيلاء على السفن التونسية الراسية في الشاطئ التونسي .

أيد المستنصر الرأي الثاني ، وقرر السماح للصليبيين بالهبوط على الشاطئ (٤) .

وهذا دليلٌ واضح على وهن وضعف حماس المستنصر في المواجهة ، ويجب ملاحظة هذا منذ أن أرسل مبلغ ثمانون ألف دينار إلى فرنسا لإرضاء لويس التاسع لعله يمتنع عن مهاجمة تونس (٥) .

لقد كان بإمكانه بهذا المبلغ إعداد أسطول ضخم ، وغزو لويس التاسع في عقر داره ، أو على الأقل مهاجمة الأسطول الفرنسي في عرض البحر ، وتدميره كي يكون لويس التاسع وأمثاله عبرةً لكل من تُسول له نفسه الاعتداء على تونس ، أو غيرها من بلاد العرب المسلمين .

وعلى هذا ما إن وصلت أنباء مسير الحملة الصليبـــية من سردينية نحو تونس (٦) ، حتى أعلن المستنصر الحفصي الجهاد ، فوصلته النجدات من كل فجٍ عميق ، وآزره المشرق والمغرب العربي الإسلامي ، وسارع أبناء تونس خفافاً وثقالاً ، واستعدوا جميعاً للمواجهة المرتقبة (٧) .

---

(١) حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٣٠٠ .

(٢) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ .

(٣) اليونيني : ص٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٧ ؛ عامر : ص١١٥ ؛الكناني : ص٢٠٧ .

(٤) اليونيني : ص٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٧.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ، ص٤٦١ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p518-519 .

(٦) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٨٧-٩٠ ؛ smith : op . cit , p200-201 .

(٧) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ المنصوري : التحفة الملوكية ، ص١٢٥ ؛ ابن عبد الظاهر : ص٣٧٤؛ Michaud : op . cit , volume4 , p159 .

٤- سقوط قرطاجة في قبضة الصليبيين .

وصلت الأساطيل الصليبيــية شواطئ قرطاجة (قُرطاجنة) (١) يوم الخميس ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/ ١٨ تموز عام ١٢٧٠م ، وخُيل للصليبيين أن المستنصر الحفصي بانتظارهم ليسلمهم تونس ،دون أن يضربوا ضربة سيفٍ واحدة ، ثم يتابعوا المسير بجيشهم لضرب المماليك في مصر وبلاد الشام ، ولكنهم فوجئوا عندما رأوا المسلمين قد أشهروا الأسلحة بوجوههم ، وكانوا على أهبة الاستعداد للمواجهة ، فضلاً عن التحصينات القوية التي تميزت بها شواطئهم (٢) ، فأدركوا عدم وجود أية دلائل تشير إلى أن المستنصر راغبٌ بالتنصر واعتناق الديانة المسيحية (٣) .

اتهم مُونرودْ المستنصر بأنه مُحتال وعديم الأمانة لأنه وعد لويس التاسع بالتنصر لكنه نكث بوعده (٤) .

في الحقيقة لا يوجد أي مصدر إسلامي يشير إلى أن المستنصر قدَّم أية وعود للملك الفرنسي بأنه يريد اعتناق المسيحية ، ويُحتمل أن معلومات مضللة وصلت إلى لويس التاسع لتشجيعه على غزو تونس بحجة أن المستنصر راغب باعتناق المسيحية ، ولكن إذا ما تنصر أصبح مُرتداً ، والمُرتد يُقتل شرعاً، فهل يُعقل أن يرتد المستنصر عن دينه ، وقد اتخذ لقب أمير المؤمنين سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وعدَّ نفسه ليس ملك على تونس فحسب إنما خليفة المسلمين ، وهذا ما يؤكد أن المعلومات التي وصلت إلى لويس التاسع بشأن تنصر المستنصر لم تكن موثوقة (٥) ، وقد حَمَّلَ برنشفيك المسؤولية في إيصال تلك

---

(١) قرطاجة : مدينة قديمة ، وميناء على الشاطئ التونسي ، وتعد من أجمل المدن الأفريقية ، وأتقنها بناءً ، وتمتاز بكثرة خيراتها ، وخصوبة تربتها ، وجمال طبيعتها ، فضلاً عن روعة أبنيتها ، ومن أهم عمرانها الأسوار القديمة التي أحاطت بها ، وأعمدتها الرخامية الملونة المزينة بالرسوم ، ودار الطياطر أي المسرح ، كما نُظمت فيها المجاري المائية بدقةٍ بالغةٍ ، وبقيت قرطاجة خراباً منذ دمرها الرومان حتى فتحها موسى بن نصير سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م حيث تم أعمار جزء يسير منها عُرف بالمعلقة ، وقد استقر بها بنو زياد . الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٦٧-٣٦٨ ؛ القرماني : مج٢ ، ص٤٣٥ ؛ مقديش : نزهة الأنظار ، مج١ ، ص١٢٠-١٢١ ؛ السراج ، محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تح : محمد الحيلة ، الدار التونسية ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ق١ج١ ، ص٥٤١-٥٤٦ .

(٢) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧-٤٢٨ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦١-٤٦٢ ؛ ريشتغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٤ .

(٣) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٢-٣٥٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p265-266 .

(٤) مونرود : مج٢، ص٣٥٣ .

(٥) ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٠ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٤٧ .

المعلومات إلى الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان حيث ازداد أولئك الرهبان حماساً لنشر المسيحية في أفريقيا ، وإذا ما استولى لويس التاسع على تونس أصبح بإمكانهم ممارسة أعمال التنصير بحرية في أفريقيا ، وعلى ما يبدو أن تونس هي بوابة أفريقيا ، وبذلك يكون الرهبان هم من خدعوا لويس التاسع وليس المستنصر (١) ، وعلى كل حال فقد اقتربت ساعة المواجهة بين المسلمين والصليـــبين .

أفسح المسلمون المجال للصليبيين للنـــزول على شاطئ قرطاجة حسب الخطة الموضوعة للإحاطة بهم ، والقضاء عليهم ، وسرعان ما توغلوا فيها ، واستولوا عليها في ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٨ تموز عام ١٢٧٠م (٢) ، ويلاحظ أن خطة المستنصر لم تُنفذ ، فأين الأعداد الهائلة من الجنود والمتطوعين؟ ولماذا لم يحاصروا الصليـــبين إثر نزولهم حسب الخطة الموضوعة ؟

سلم المستنصر قيادة الجيش والمتطوعين لعدد من القادة هم : " إسماعيل بن أبي كلداسن ، وعيسى ابن داود ، ويحيى بن أبي بكر ، ويحيى بن صالح ، وأبو هلال عياد صاحب بجاية ، ومحمد بن عبو ، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ، ويحيى بن أبي بكر " (٣) ، باشر أولئك القادة بمحاصرة الصليـــبين (٤) ، وعلى ما يبدو لم يستطيعوا حصارهم ، لأن عدد الصليـــبين كان كبيراً جداً حيث بلغ " ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل " (٥) ، ولم تنجح عملية الحصار ، كما أن المستنصر ذاته كان بعيداً عن ساحة المعركة ، ومن المفروض أن يكون على رأس الجيش لأن غيابه أدى لسوء إدارة عملية الحصار ، حيث " التزم السلطان (المستنصر) القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه " (٦) ، أما المقريزي فاتهم المستنصر بأنه " كان مستخفياً " (٧) .

ويُرجح أن المستنصر لم يكن مُختفياً إنما بقي بعيداً عن الخطر ، ولم يباشر القتال بنفسه ، واكتفى بتوكيل القيادة لمجموعة من الفرسان ، ولكن تواكل المستنصر لا يعني تخاذل المسلمين من أبناء تونس

---

(١) برنشفيك : ج١ ، ص٨٨-٨٩ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦١ ؛ المهندس : ج٣، ص٢٥٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٦٥٦.
Villeneuve : op .cit , p283 ; smith : op . cit , p201 .

(٣) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ ابن فضل الله العمري ،أحمد : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : حمزة عباس ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ج٤ ، ص١٣٨ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، ج٤ ، ص١٣٨ ؛ ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ .

(٥) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦١ .

(٦) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ .

(٧) المقريزي : السلوك، ق١ج١ ، ص٦٠١ .

والمغرب العربي والأندلس حيث هبوا جميعاً لمواجهة العدوان الصليبـــي .

توغل الصليبـــيون في قرطاجة ، ولم تمنعهم الاشتباكات مع المسلمين من التوغل فيها (١) ، واستعصى حصن المُعلقَة عليهم ، لأنه أكثر حصانة من غيره ، كما أنه هو الوحيد المأهول بالسكان من قرطاجة (٢) ، فحاصروه ، وأشار برنشفيك إلى أن الصليبـــيين اقتحموا الحصن ، وطرد لويس التاسع أبناء المعلقة من حصنهم واستولى عليه (٣) ، بينما أكد ممدوح حسين إلى أن أبناء المعلقة اشتبكوا مع طليعة الجيش الصليبـــي ، وكانوا حوالي مائتي مقاتل ، ولكن ما لبثوا أن تراجعوا ، وتحصنوا داخل حصن المعلقة ، فتسلق الصليبـــيون الأسوار ، وتكاثروا على المسلمين في حصن المعلقة ، فاختفوا في الأقباء والسراديب ، فلم يجرؤ الصليبـــيون على الدخول في الأقباء ، فأمرهم لويس التاسع بإضرام النيران فيها ، فاحترق من احترق ، واختنق من اختنق بالدخان ، وأصبحت رائحة الجثث تملأ المكان (٤) .

ويلاحظ أن برنشفيك حاول إظهار لويس التاسع بمظهر الملك الرحيم الذي اكتفى بطرد أبناء المعلقة ، بينما أكد اليونيني ما قاله ممدوح حسين ، فأشار إلى أن الصليبـــيين " قصدوا المعلقة وقتلوا من أهلها سبعين رجلاً ، وأخذوا منبرها ، وبعثوا به إلى بلادهم " (٥) ، وكل هذا يؤكد مدى شراسة ومطامع الصليبـــيين .

غدت قرطاجة برمتها تحت سيادة لويس التاسع ، بسبب جَهلِ المستنصر في شؤون الحرب والسياسة (٦) ، وكما استولى لويس التاسع على دمياط منذ تسعة عشر عاماً سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بسبب عدم ثبات القائد فخر الدين بن حمويه ، وأمراء بني كنانة ، بينما أبعد المرض الصالح نجم الدين أيوب عن ساحة المعركة (٧) ، كذلك هنا فقد ابتعد المستنصر عن ساحة الوغى ، ربما خوفاً على حياته

---

(١) ابن أبي الزرع : ص٣٨ ؛ المنصوري زبدة الفكرة ، ص١٢٥ . اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ ؛ Brentano : le moyen age la croisade , p300-301 .

(٢) مقديش : مج١ ، ص١٢٠-١٢١ .

(٣) برنشفيك : ج١ ، ص٩٠ .

(٤) حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(٥) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ .

(٦) اليونيني : ص٤٥٥ ؛ ابن فضل الله العمري : ج٤ ، ص١٣٨ ؛ Vlleneuve : op . cit , p239 .

(٧) ابن واصل : ج٦ ، ص٧٣-٧٥ ؛ العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٥٧٥-٥٨١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٤-٢٨٥ .

حيث " كان ملازماً لبابه ألف فارس من الشجعان " (١) ،وهذا ما أدى لخسارة قرطاجة ، واستيلاء لويس التاسع عليها (٢) .

أحاط المسلمون بأسوار قرطاجة المتداعية ، ويلاحظ أن المستنصر قد حَصَّن الواجهة البحرية لقرطاجة أما الواجهة الداخلية لها فبقيت تحصيناتها القديمة كما هي ، ومن خلال الأسوار المتهدمة أخذ المسلمون يتصيدون الجنود الصليبـــيين (٣) ، ويُلاحظ أن الهجمات كانت شديدة جداً عليهم من خلال تشبيه مونرود للجنود المسلمين أنهم كانوا يزأرون كالوحوش الضارية (٤) ، فأمر لويس التاسع بإصلاح أسوار قرطاجة تفادياً لهجمات الفدائيين ، فاستحضروا الأخشاب والطوب ورمموا الأسوار المتداعية (٥)، كما حفروا خندقاً أحاط بالمدينة ، وهذا ما زاد في مناعتها وحصانتها (٦) ، ومن خلف أسوار قرطاجة أرسل بعض قادة الصليبـــيين إلى المستنصر يطلبون مبارزته ، فرفض المبارزة لأنهم مجرد قادة صغار وليسوا ملوكاً حيث نظر لهم نظرة استصغار ، وعدَّ نفسه أمير المؤمنين وسلطانهم ، ولا يمكن أن يتنازل لمستوى أولئك القادة الصغار (٧) ، وعندما رأى قرطاجة أصبحت تحت سيطرة الصليبـــيين ، وأخذوا بتهديده من خلف الأسوار " ندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها ، أو دفاعهم عن نزالها " (٨) .

لقد أدرك المستنصر آنذاك أنه لم يأخذ بالأسباب الوقائية كاملة ، وتمنى لو خَرَّب قرطاجة لأن الصليبـــيين تحصنوا بداخلها ، ورموا المسلمين من خلف أسوارها ، كما أيقن المستنصر بأن خطته التي قامت على السماح للصليبيين بالنـــزول إلى البر كانت خطةً هزيلةً لأن الصليبـــيين تغلبوا على المسلمين ، وتحصنوا في المدينة ، وأصبح القضاء عليهم أمراً صعباً ، ومن الأفضل لو أنه فَكَّرَ في خوض معركةٍ حاسمةٍ معهم قبل أن يطؤوا شواطئ تونس .

---

(١) ابن الشماع : ص٧٣ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨ ؛ المقريزي : السلوك، ق١ج١ ، ص٦٠١ .

(٣) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ ؛ Villeneuve : op . cit , p290-291 .

(٤) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٤ .

(٥) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ .

(٦) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٦ ؛ سرهنك : ج١ ، ص٤١٤ .

(٧) اليونيني : ص٤٥٥-٤٥٦ .

(٨) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ .

تحصن الصليبيون داخل قرطاجة وذكر كل من سامية عامر وممدوح حسين إلى أنه وصل إلى الصليبيين ثلاثة نفر من المسلمين ادعوا أنهم راغبون بالتنصر ، فرّحبَ بهم لويس التاسع ، واقتصرت سامية عامر بالإشارة إلى أن أولئك النفر هم جواسيس للمسلمين (١) ، بينما استطرد ممدوح حسين ، وأشار إلى أنهم وعدوا لويس التاسع بجلب عدد كبير من المسلمين الراغبين باعتناق المسيحية ، وبالفعل عادوا على رأس مائة فارس ، ولكن أولئك الفرسان استلوا أسلحتهم من تحت أرديتهم ، وهاجموا المعسكر الصليبي ، وقتلوا عدداً كبيراً من جنوده ثم هربوا ، أما النفر الثلاثة فقد وعدوا لويس التاسع بأنهم هذه المرة سيأتون بألفين من المسلمين الراغبين بالتنصر ، ولكنهم ذهبوا و لم يعودوا (٢) ، أيُعقل أن يكون لويس التاسع ساذجاً لهذه الدرجة ؟

فالصليبيون داخل قرطاجة وصل عددهم إلى ستة وثلاثين ألف مقاتل (٣) ، فكيف سمحوا للمائة فارس بالخروج سالمين من قرطاجة ؟

وإذا ما تم الافتراض جدلاً أنهم استطاعوا الهرب فهل صَدَّقَ لويس التاسع الفرسان الثلاثة الذين غدروا به في المرة الأولى ؟

وتركهم سالمين كي يعودوا له بألفي مسلم راغب بالتنصر !

فيجب أخذ هذه الرواية بحذر شديد ، ويُرجح كما أشارت سامية عامر على أن النفر الثلاث كانوا مجرد جواسيس ، وليسوا مغامرين كما صورهم ممدوح حسين .

انتظر الصليبيون داخل قرطاجة ريثما يصل شارل كونت آنجو من أجل متابعة الزحف على بقية أنحاء تونس (٤) ، ولكن شارل أرسل رسالة إلى لويس التاسع حملها سفيره أولِفَرْ دي تيرمْ (Olivier du terme) ووصل إلى لويس التاسع ٨ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/٢٩ تموز عام ١٢٧٠م ، وتضمنت اعتذار شارل عن التأخر في المسير لتونس ، ووعد لويس التاسع أنه لن يتأخر كثيراً ريثما يقوم بإنهاء بعض المشاكل الداخلية في مملكته ، ولكن الحصار كان قد أضنى الصليبيين ،

---

(١) عامر : ص١٤٢ .

(٢) حسين : الحروب الصليبية ، ص٣٠٤ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ، ص٤٦١ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p519 .

(٤) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٤ ؛ الحريري سيد ، علي : الأخبار السنية في الحروب الصليبية ، المطبعة العمومية بمصر، ط١ ، ١٣١٧هـ/١٨٩٩ ، ص٢٧٠ .

وشارل يتقاعس عن اللحاق بهم (١) ، في الوقت الذي خرج فيه " الصُلحاء والفُقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد " (٢) ، حيث اشتدت هجمات المسلمين على الصليبيين (٣) ، ومن أشدها ذلك الهجوم عبر البحيرة المجاورة لقرطاجة ، من جهة الجنوب حيث توقع الصليبيون أن الأسوار من جهة البحيرة لا داعي لترميمها ، فتركوها دون تحصين ، فتسلل المسلمون عبر تلك البحيرة ليلاً ، وأخذوا الصليبيين على حين غرة ، وكبدوهم خسائر كبيرة ، ثم عادوا بما غنموه منهم (٤) ، وقد نَبهَ ذلك الهجوم الصليبيين لخطورة تلك الناحية ، فقاموا " بحراسة البحيرة ، وبعثوا فيها الشواني بالرماة ، ومنعوا الطريق إليهم " (٥) ، وغدت تلك البحيرة تحت حراسة صليبية مشددة تحسباً لأي هجومٍ مفاجئ .

وهكذا أخفقت خطة المستنصر في حصر الحملة الصليبية على الشاطئ التونسي ، والقضاء عليها ، وكان من الأفضل تدميرها وإغراقها قبل أن تطأ شواطئ تونس (٦) ، لأنها توغلت في قرطاجة وثبتت أقدامها فيها ، وزادت من استحكاماتها العسكرية ، فأصبحت منيعةً أمام هجمات المسلمين ، وأصبح الاستيلاء على تونس أمراً محتملاً (٧) .

---

(١) برنشفيك : ج١ ، ص٩٠ ؛ الكتاني : ص٢١٢ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٢ ؛ ابن أبي الضياف : ج١ ، ص١٦٢ ؛ Villeneuve : op . cit , p290-291 .

(٤) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ حسين : الحروب الصليبية ، ص٣٠٥ .

(٥) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ .

(٦) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥ ؛ ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٧-٤٢٨.

(٧) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : ص١٦٢ ؛ مونرود : مج١ ، ص٣٥٤ .

٥- تفشي الأمراض في صفوف المعسكر الصليبـــي .

أحكم المسلمون حصار قرطاجة ، واستمرت المناوشات بين المسلمين والصليبـــيين ، وخشي المسلمون من وصول شارل آنجو على رأس قوةٍ جديدةٍ ، مما يعرض تونس برمتها للخطر ، لكن انتشار الأمراض والأوبئة بين أفراد الجيش الصليبـــي ، أدت لارتفاع معنويات المسلمين ، وازدادوا ثباتاً في مواجهة أعدائهم (١) .

شدد المسلمون الحصار البري والبحري على قرطاجة ، فانقطعت الإمدادات عن الصليبـــيين داخلها ، فاعتمدوا في غذائهم على اللحوم المجففة المملحة ، وما تبقى لديهم من أغذية ، مما انعكس سلباً على أوضاعهم الصحية نتيجةً لسوء التغذية فضلاً عن نقص المياه لديهم (٢) ، كما نصب المسلمون المجانيق ، ورموا الصليبـــيين بالرمال والغبار ، وبخاصة مع هبوب الرياح الجنوبية ، فكانت ضربات الكثبان الرملية أشبه بالعواصف الرملية التي أثارت مشاكل في الرؤية للصليبيين وقضّت مضاجعهم (٣) ، ولا يخفى علينا المناخ البحري حيث الرطوبة العالية التي سادت المعسكر الصليبـــي فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة وبخاصة في شهر ذي القعدة / شهر تموز حيث حرارة الشمس الملتهبة (٤) ، مما أدى لتغُيّر المناخ على الصليبـــيين الذين اعتادوا على مناخ فرنسا المعتدل واللطيف ، مما زاد في سوء أحوالهم الصحية للصليبيين (٥) .

كل ما تقدم أدى لتفشي الأمراض بين الجنود الصليبـــيين ، وأما عن نوعيتها فقد اكتفت المصادر الإسلامية بالإشارة إلى إصابة الصليبـــيين بالوباء دون تحديد نوعيته ، فذكر ابن واصل عن الجيش

---

(١) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٥-٤٥٦ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ ؛
smith : op . cit , p200-201 .

(٢) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٤ ؛ عامر : ص١٥٤-١٦١ .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : : مج٢، ص٣٥٥ .

(٤) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٧ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١ ؛
Brellier : op . cit , p237-238 .

(٥) مونرود : : مج٢، ص٣٥٤ ؛ عامر : ص١٦٢ .

الصليبـــي " أوقع الله تعالى في عسكره وباءً عظيماً " (١) ، أما ابن الشماع فقال : " وأرسل الله عليهم وباء أمات كثيراً منهم " (٢) ، بينما أضاف ابن أبي الضياف فكرةً جديدةً حيث ذكر أنه " فشى في المملكة الوباء وانتشر بجند الفرنسيين " (٣) ، هذا يعني أن تونس عمها الوباء ثم انتقل ذلك الوباء إلى الصليبـــيين ، وهنا لابد من الوقوف موقف الحذر تجاه هذه المقولة لأن ابن أبي الضياف انفرد عن المصادر الإسلامية والأوربية في الإشارة إلى انتشار الوباء في تونس ؛ بينما لم تذكر بقية المصادر شيئاً من هذا ، ويُحتمل أن إصابات قليلة أصابت أبناء تونس ، فلم تشر إليها المصادر الأخرى ، و لم تأخذها بعين الاعتبار ، أما عن المصادر الأوربية وتحديد ماهية المرض الذي أصاب الصليبـــيين فقد ذكر ريشنغر " كان المرض الذي انتشر في منطقة الساحل ، قد أحدث اضطراباً عظيماً في أوساط الجيش الصليبـــي في تونس " (٤) ، وكان فيلكس فابري أكثر وضوحاً من سابقه حيث بيَّن نوعية المرض بقوله : " حل طاعون كبير بالجيش الصليبـــي " (٥) ، وأضاف جوانفيل إلى أن أكبر أبناء لويس التاسع أُصيب بالمرض حيث " تمدد ابنه الأكبر فيليب بسبب حُمى رباعية " (٦) ، وهناك مصدر حديث وافق جوانفيل الرأي بقوله : " اعترى كثيرين منهم داء الدوسنتاريا والأمراض والحمى الخبيثة " (٧) ، ويُرجح أن كل الأمراض والأوبئة سابقة الذكر قد أصابت الصليبـــيين ، نتيجة لسوء التغذية ، ونقص المياه ، فضلاً عن المناخ الحار الذي لم يَعتَد عليه الصليبـــيون ، هذا إن لم يكن هنالك الكثير من الحشرات التي انتشرت في أرجاء المعسكر الصليبـــي ، مما أدى لتفشي الأمراض بين الصليبـــيين .

عصف الوباء بالجيش الصليبـــي ، فأودى بحياة الكثير منهم (٨) ؛ ومن أهم الضحايا يُوحَنا الحزين (Jean Tristan) ابن لويس التاسع الذي وُلد على ثرى دمياط ، وفارق الحياة على أطلال قرطاجة في ١٤ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/٣آب عام ١٢٧٠م ، وأصيب لويس التاسع بحزنٍ

---

(١) ابن واصل : ج٦ ، ص١٣٥ .

(٢) ابن الشماع : ص٧٢ .

(٣) ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ .

(٥) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢ .

(٧) مونرود : مج٢ ، ص٣٥٤ .

(٨) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١١٢ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ Miquel : op . cit , p52 .

شديد (١) ، ولحق يُوحَنا الحزين النائب البابوي رُودلفْ ألبانُو (Rodolph Albano) في ١٨ ذي الحجة ٦٦٨هـ / ٧ آب ١٢٧٠م ، وهُوغ كونت لامَارشْ (Huge de La marchi) ، وبُوشاردْ كونت فِندوم (Bochard cont Vendome) ، وغيرهم من كبار رجال الحملة الصليبـــية (٢) ، ولم توضح المصادر والمراجع الإسلامية أو الأوربية عدد ضحايا الوباء الذي اجتاح المعسكر الصليبـــي ، إنما اكتفت بالإشارة إلى أن أعداد الموتى كانت كبيرةً جداً (٣) ، وذكر مونرود أنه لكثرة الموتى لم يعد بإمكان الصليبـــيين دفن موتاهم ، فأخذوا برميهم في الخندق الذي حفروه حول قرطاجة حتى امتلأ الخندق بالجثث (٤) .

استغل المسلمون الحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع الصليبـــيين ، فكثفوا غاراتهم البرية والبحرية عليهم ، ولم يكن لويس التاسع آنذاك قد أصيب بالمرض ، فتصدى مع جنوده للمسلمين ، وفي مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ/٥ آب عام ١٢٧٠م زحف المسلمون بقيادة يحيى بن صالح أحد قادة المستنصر الحفصي وباغتوا الصليبـــيين بعد حلول الظلام (٥) ، ودمروا الكثير من التحصينات ، وقتلوا " من النصارى زهاء خمسمائة" (٦) ، ولكن سرعان ما جمع لويس التاسع جنوده، وتصدى للهجوم الذي شنه يحيى بن صالح وأجبر المسلمين على التراجع ، وتكبد الطرفان خسائر بشرية كبيرة (٧) ، وفي تلك الآونة " ابتُلي المسلمون بتونس ، وظنوا الظنون ، واتُّهِمَ السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان (٨) " (٩) ، ولكن هل حقاً أراد المستنصر الهرب إلى القيروان؟

---

(١) دوبوا: الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١١٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٥٥ ؛ برنشفيك : ص٩٠ ؛ Mayer : op . cit , p282 ; smith : op . cit , p201 .

(٢) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦، ص١١٢ ؛ مونرود : : مج٢، ص٣٥٥ ؛ حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٣٠٩ . Villeneuve : op . cit , p298-299 ; Michaud : op . cit , volme4 , p520 .

(٣) دوبوا: الموسوعة ، ج٣٦، ص١١٢ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ ابن السراج : مج٢ ، ص١٥١ ؛ Villeneuve : op . cit , p296-297 .

(٤) مونرود : مج٢، ص٣٥٥ .

(٥) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨ ؛ عامر : ص١٥٤ -١٥٧ .

(٦) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨-٤٢٩ .

(٧) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨-٤٢٩ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ برنشفيك : ج١، ص٩٠-٩٢ .

(٨) القيروان : مدينة قديمة ، بناها عقبة بن نافع شمال غرب مدينة صفاقس ، وتعد القيروان من أعظم مدن المغرب العربي ، وأكثرها بشراً ، وتمتاز بموقعها الاستراتيجي ، وازدهارها التجاري ، ويتصف أهلها بالوفاء ، واجتناب المحارم والفتن ، الحميري: ص٤٨٦ ؛ البغدادي : ج٣، ص١١٣٩.

(٩) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨-٤٢٩ .

إذا ما هرب المستنصر إلى القيروان فتلك جريمةٌ كبرى لأن الصليبـــيين مُحاصَرين داخل قرطاجة ، وإذا ما خرجوا منها اتسعت دائرة العمليات العسكرية ، وأصبح من المستحيل السيطرة عليهم ، وإذا ما غادر المستنصر إلى القيروان فلا بد أن يلحق به الجنود والمتطوعون ، وهذا سيفسح المجال أمام الصليبـــيين في نقل مسرح عملياتهم العسكرية إلى جنوب تونس ، وقد وجهت سامية عامر اتهاماً للمستنصر بالتنصل من المسؤولية والبحث عن مصلحته الشخصية وتأمين حماية نفسه ، لأنه أراد الانتقال إلى القيروان (١) ، ولكن ابن خلدون برَّأ المستنصر ، وأكد أنه مجرد اتهام للمستنصر ، ربما أنه فكر بالانتقال إلى القيروان ، لكنه لم ينتقل إليها ، لأن الصليبـــيين على الرغم من كثرتهم آنذاك كانوا في حالةٍ يُرثى لها بعد أن داهمتهم الأمراض والأوبئة فضلاً عن غارات المسلمين عليهم ، ولا يوجد خطر حقيقي يجعل المستنصر يترك ساحة المعركة ، ويهرب للقيروان .

وعلى هذا وقف الصليبـــيون والمسلمون وجهاً لوجه ، ولم يتغلب أحدهم على الآخر بل لم تحدث معركةً حاسمةً بين الطرفين ، ولا يمكن تجاهل صمود المسلمين بوجه أعدائهم ، ولكن ما إن عصف الوباء بالجيش الصليبـــي حتى غيَّر مجرى الأحداث ، وأودت الأمراض بحياة الكثير من القادة والجنود الصليبـــيين (٢) ،وهذا ما يشبه ماحل بحملة لويس التاسع الأولى على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث أصيبت بالأمراض أيضاً ، ومنها الرُعاف وداء الإسقربوط وهو انتفاخ اللثة وخروجها من الفم بسبب اعتمادهم على الأغذية المجففة ، كما أصيبوا بالدوسنتاريا ، ومنهم لويس التاسع نفسه ، وكذلك بسبب شربهم من مياه النيل الملوثة بالجثث التي رموها في نهر النيل (٣) ، وهذا ما يشبه كثيراً ما حصل مع لويس التاسع في تونس ، فغدت تونس مقبرةً للكثير من الجنود الصليبـــيين ، أما من تبقى منهم فقد أصيب بالإحباط حتى لويس التاسع ذاته غرق في همومه وأحزانه ، وبدَت عليه علامات المرضْ (٤) .

---

(١) عامر : ص١٥٧-١٥٨ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨-٤٢٩ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١ ؛ Villeneuve : op . cit , p290-293 .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ج١١٢-١١٣ .

(٤) دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١١٢ ؛ فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ؛ ص١٨٤٦ ؛ Michaud : op . cit , volume 4 , p519 .

٦- وفاة لويس التاسع سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م .

استبد الوباء بالجيش الصليبي وراح ضحيته الكثير من الجنود الصليبيين ، ومنهم يُوحَنا الحزين فِلذة كبد لويس التاسع ، فحزن على فقدانه ، واعتكف في خيمته ، لكن ما لبث أن وقع لويس التاسع نفسه فريسة المرض ، فلزم فراشه ، وشعر أن منيته قد اقتربت (١) .

وجه لويس التاسع لابنه فِيليب وولي عهده وصيته التي رسم من خلالها النهج الذي توجب على فيليب المسير عليه ، وقد أوصاه بمحبة الله ، والاستقامة ، والابتعاد عن الآثام والمعاصي ، والتحلي بالصبر والثبات ، والعطف على الفقراء والمُنكوبين ، والتواضع ، والابتعاد عن الغرور والكبرياء ، وعدم إعطاء أسراره إلا لمن يثق بهم ، والحزم مع المجرمين والهراطقة ، والعدل في معاملة الرعية ، والتراجع عن الخطأ ، وكسب الشعب ، والسعي لإصلاح الأوضاع الداخلية ، وسد الثغرات خوفاً من ازدياد تلك الثغرات التي قد تكون سبباً في تدخل بارونات فرنسا في شؤون الحكم ، كما أوصاه بالتقرب من رجال الدين وإكرامهم ، وتعيين الشرفاء والمستقيمين في المناصب الدينية والدنيوية ، والمسارعة لحل الأزمات في مهدها قبل أن تكبر ويصبح القضاء عليها أمراً صعباً ، وتعيين نواب مستقيمين ، وألا يتعامل مع المجرمين والمخادعين والكذابين ، والابتعاد عن الإسراف والتبذير بحيث لا يُميز نفسه عن شعبه في مأكلٍ أو ملبسٍ أو مسكنٍ ، وألا يُحَمِل الرعية أكثر من طاقتها ، ويُحسن اختيار الأصدقاء والحاشية ، وأخيراً أوصاه بترتيل القداسات على روح والده بعد موته ، وقد أصغى فيليب لوصايا والده بينما دونها لويس التاسع بخط يده ، ليحتفظ بها فيليب ، ويتذكرها دائماً (٢) .

اشتد المرض على لويس التاسع ، واستبدت به الآلام ، " وأثناء مرضه لم يتوقف عن الثناء على اسم الرب " (٣) ، وقد احتمع حوله رجال الدين يمسحونه بالزيت المقدس (٤)، ويرتلون معاً القداسات (٥)، وبقي قلب لويس التاسع مُعلقاً بجيشه المرابط على ثرى تونس ، فكان يدعو إلى الله أن يشفيه

---

(١) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ ؛ Villeneuve : op . cit , p296-302 .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢-٢٦٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٥٦-٣٥٩ .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦ .

(٤) يُنظر الشكل رقم (٨) ، ص٣١٧.

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٦ ؛ مونرود : مج٢، ص٣٥٩ .

من مرضه ليتابع أعماله العسكرية ضد المسلمين ، حيث كان يتضرع إلى الله عز وجل قائلاً : " أيها الرب كن الحامي لشعبك والوصي عليه " (١) ، تعددت الروايات حول سبب مرض لويس التاسع ، وهي على الشكل التالي :

الرواية الأولى : أشارت هذه الرواية إلى أن لويس التاسع " أصابه سهم غَرب في بعض المواقف فأماته " (٢) ، و لم تحدد هذه الرواية المعركة التي أصيب بها لويس التاسع ، ربما أنه أصيب بسهم أدى لمرضه ، وهذا أمرٌ محتمل .

الرواية الثانية : نوهت هذه الرواية إلى أن المستنصر الحفصي أرسل سيفاً مسموماً هدية إلى لويس التاسع، وقد حمله سليمان الدلاصي ، وقيل حمله سليمان بن حزم أحد رجال المستنصر حيث أوصل ذلك الشخص السيف إلى لويس التاسع، وقَدَمهُ له (٣) ، وعلى ما يبدو أن هذا السيف ينتقل السم منه إلى حامله عن طريق اللمس ، فحمله لويس التاسع ، وسرى السم في جسده ، ومات مسموماً ، وأيضاً هذه الرواية مُحتملة .

الرواية الثالثة : أكدت أن لويس التاسع أصيب بالوباء الذي أودى بحياته (٤) ، وقد حدد جوانفيل نوع المرض الذي أصاب لويس التاسع بقوله : " سقط ضحية حمى تيفية " (٥) وفي الحقيقة منذ قدم لويس التاسع إلى تونس كان ضعيفاً هزيلاً ، يُستنتج هذا من خلال قول جوانفيل : أن لويس التاسع " كان ضعيفاً جداً من الناحية الجسدية إلى حد أنه لم يكن بإمكانه تحمل وضعه في عربة مجرورة أو امتطاء فرس ، وفي الحقيقة كان ضعيفاً إلى حد أنه تركني أحمله بين ذراعيّ من بيت كونت دي أوكِسيرْ (Auxerre) إلى حيث ذهبت إلى وداعه إلى دير الفرنسيسكان " (٦) ، فكم كان لويس التاسع هزيلاً من الناحية الجسدية حتى حمله جوانفيل بين ذراعيه أثناء وداعه له قبل مجيئه إلى تونس ،

---

(١) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ والمعنى ذاته لدى ابن الشماع : ص٧٢ . السراج : مج٢ ، ص١٥١ .

(٣) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ السراج : ص١٥١ .

(٤) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢-٢٦٧ ؛ دوبوا : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١١٢ ؛ فابري : الموسوعة، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ ؛ ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ المقريزي : السلوك، ق٢ج١ ، ص٥٠٢ ؛ Villeneuve : op . cit , p302-303 ; Miquel : op . cit , p52 .

(٥) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢ .

(٦) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢ .

فهذا الضعف الجسدي أدى لضعف مناعته ومقاومته للمرض ، وعندما عصف الوباء بالجيش الصليبـــي أصيب لويس التاسع ، واستسلم للمرض ، وبقي ممدداً على فراشه، وهذه الرواية محتملة أكثر من الروايتين السابقتين ، وقد أكدت عليها المصادر العربية والأوربية ، بينما اقتصرت الروايتين الأولى والثانية على المصادر العربية .

وعندما شعر أنه يحتضر وأزفت ساعة الرحيل عن الدنيا توجه لطلب الشفاعة والعون من القديس دِنيسْ (st dions) الذي اعتاد أن يستغيث به أثناء المحن والشدائد (١) ،ثم أخذ لويس التاسع يرنو بنظره إلى السماء ، وهو ممددٌ على فراشه ، ووضع يديه على صدره على شكل صليب ، و لم يُمهله المرض طويلاً ، فلفظ أنفاسه الأخيرة ، وسلم روحه إلى بارئها في الساعة الثالثة من يوم الاثنين ٦ محرم سنة ٦٦٩هـ/ ٢٥ آب عام ١٢٧٠م (٢) .

سارع الصليبيـــيون في تشيع ملكهم إلى مثواه الأخير (*) ، وأُصيب الجيش الصليبـــي باليأس إثر وفاة ملكه ، وحزنت فرنسا على فقدان ملكها ، " وقد وُضعت عظامه في نعش ،وحُملت إلى فرنسا " (٣) ، والمثير للانتباه أن جوانفيل أشار إلى أن عظام لويس التاسع قد وُضعت في التابوت ، و لم يقل جثته أو جثمانه ، ونوه ممدوح حسين (٤) ، لوضع لويس التاسع في ماء مغلي ممزوج بالخمر حيث فُصل اللحم عن العظم ، ووضعوا عظامه في تابوت ولحمه في تابوت آخر ، وقد تكون هذه الرواية صحيحة ، وإلا لما أشار جوانفيل إلى أن عظام لويس التاسع وُضعت في النعش ، ويُحتمل أن لحمه قد دُفن في قرطاجة ، لأن نقلها إلى فرنسا سيؤدي لتعفنها بينما نقلوا عظامه فقط إلى فرنسا .

شيعت فرنسا ملكها الراحل إلى مثواه الأخير ، ودفنوه في كنيسة القديس دِنسْ بناءً على طلب

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٧ ؛ عامر : ص١٦٥ .

(٢) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٧ ؛ سانوتو : الموسوعة ، ج٣٦ ، ص١٩ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٦٠-٣٦١ .
mayer : op . cit , p282 ;   Stevenson : op . cit , p343 .

(*) أنشد آنذاك الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات متوعداً لويس ، وقد صدق في قوله عندما قال :

يافرنسيـــس هـــذه أخت مصـــــر   فتأهـــــب لما إليه تصـــــير

لك فيها دار ابن لقـــــمان قــــبراً   وطواشـــــيك مُنكر ونكـــــير

المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٤٦٢ ؛ ابن أبي دينار : ص١٢٩ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١ .

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٧ .

(٤) حسين : الحروب الصليبيـــية ، ص٣١٥ .

مُسبق من قبله (١) ، بينما أدى كبار رجال الحملة الصليبـــية الثامنة في تونس يمين الولاء والطاعة لملكهم الجديد فيليب الابن البكر للويس التاسع حيث تم تعينه ملكاً على فرنسا باسم فيليب الثالث (٦٦٩-٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٧٥م) (٢) .

من المؤكد أن الصليبـــيين كتموا خبر وفاة لويس التاسع عن المسلمين خوفاً من استغلال الظروف والقيام بهجوم مُفاجئ ضدهم ، لأنه لم يحصل أي تقدم في الموقف التونسي حيث استمرت المضايقات والمناوشات كما كانت قبل وفاة لويس التاسع ، ولم يطرأ أي جديد في أسلوب القتال الذي اتبعه المسلمون ضد أعدائهم (٣) .

وعلى هذا حفرَ لويس التاسع قبره بيده ، وقادته أطماعه إلى حتفه ، ولم يحقق ما كان يرنو إليه من مدِّ النفوذ الفرنسي على أفريقيا ، واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وقد نظر مؤرخو الشرق للملك الفرنسي على أنه رمز للعدوان الفرنسي ، وتقاذفوه بالشتائم حيث أشار العيني بقوله : " ومات الفرنسيس لعنه الله " (٤) ، وقال ابن فضل الله العمري : " فقصمه الله " (٥) ، وقال آخرون : أصبح طاغيتهم ميتاً حتف أنفه (٦) ، بينما نظر مؤرخو الغرب إلى لويس التاسع على أنه رمز الشجاعة والبطولة والتقى والورع (٧) ، وعدَّ جوانفيل ومونرود أن الحزن على لويس التاسع واجبٌ وطنيٌ لأنه بني فرنسا ، وقاد حملتين صليبيتين ضد المسلمين ، وكان مضرب المثل في الإخلاص لشعبه (٨) ، ولكن لويس التاسع أخطأ الهدف عندما توقع أن تونس هي مفتاح بيت المقدس لأنها كانت مقبرةً له ، وللكثير من جنود حملته الصليبـــية ، أما من تبقى منهم فقد بقوا حائرين بل ومُحاصَرين داخل أسوار قرطاجة .

---

(١) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٧ ؛ Kedar: crusade , p166 .

(٢) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٦١ .

Brellier : op . cit , p238 ; collier's encyclopedia : p280 .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦-١٨٤٧ .

(٤) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ؛ ص٦٣٨ .

(٥) ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ، ص٣٥٥ .

(٦) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١ .

(٧) ريشنغر :الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٦ .

(٨) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٧ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٦١ .

٧- معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبـــيين .

فقد الصليبـــيون ملكهم لويس التاسع ، وانشغلوا بذكر مآثره في الوقت الذي أضناهم فيه الحصار ، وأفناهم الوباء (١) ، وفجأةً سمعوا أصوات أبواق وطبول الحرب تعلو مدويةً على شاطئ قرطاجة ، وإذا بشارل كونت آنجو ملك الصقليتين قد قاد أسطولاً ضخماً وأتى لإنقاذهم (٢) ، ولكنه قدم بعد فوات الأوان حيث كان لويس التاسع قد فارق الحياة ، فانهمرت عيناه بالدموع ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه حفاظاً على الروح المعنوية للجند ، وقرر إعداد الترتيبات اللازمة لمتابعة الحرب (٣) .

وصلت أنباء إلى الصليبـــيين بقدوم نجدات لمؤازرتهم حيث كان ادوار بن هنري الثالث ملك إنكلترا قد وعد لويس التاسع بمساندته في حملته الصليبية ، فسار على رأس ألفي مقاتل (٤) ، وعندما وصل ادوَارْ وجد لويس التاسع قد فارق الحياة منذ بضعة أيام وارتاع ادوَارْ للحالة المأساوية التي وصلت إليها أوضاع الصليبـــيين المُحاصَرين داخل قرطاجة، فأبدى رغبةً كبيرةً في استمرار المواجهة مع المسلمين (٥) .

شَنَّ الصليبـــيون هجوماً برياً وبحرياً على المسلمين في ١٥ محرم سنة ٦٦٩هـ/ ٤ أيلول عام ١٢٧٠م (٦) فتصدى لهم المسلمون وحدث " قتالاً شديداً قُتل فيه من الفريقين عالم عظيم ، وكاد المسلمون أن يُغلبوا " (٧) ،

لم يتغلب أي طرف على الآخر لأن الصليبـــيين تحصنوا داخل قرطاجة بينما فرض المسلمون عليهم حصاراً شديداً ، فظهرت بوادر للصلح بينهما ،

---

(١) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٢ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٢-٢٦٧ ؛
Brentano : le moyen age la croisade , p300 -301 .

(٢) فابري : الموسوعة ، ج٣٨ ، ص١١٧٣ ؛ ريشنغر : الموسوعة،ج٥٠ ، ص١٨٤٦ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٦١ ؛
Villeneuve : op . cit , p296-297.

(٣) مونرود : : مج٢، ص٣٦١-٣٦٢ ؛ حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٣٦١ .

(٤) الأرمني : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٥٠ .

(٥) رنسيمان : ج٣ ، ص٥٧٤ ؛ عامر : ص١٧٦-١٧٧ ؛ Villeneuve : op . cit , p287-288 .

(٦) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : مج٢، ص٣٦٣ .

(٧) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٦٢ ؛ والمعنى ذاته لدى ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٨-٤٢٩ .

واختلفت المصادر حول من بادر أولاً في الصلح ، فأشار ابن أبي الضياف بقوله : " دعاهم المستنصر إلى الصلح فأجابوا " (١) ، وقد وافقه مونرود (٢) ، بينما أشارت غالبية المصادر إلى أن الصليبيين هم من طلب الصلح ، فقال ابن خلدون : " كان أمرهم راجعاً إلى العِلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤونة حركتهم ، وترجع بقومها ، فأسعفها السلطان " (٣) ، والمقصود بالعلجة على ما يبدو إيزابيلا زوجة الملك الفرنسي فيليب (٤) ، حيث راسلت المستنصر وطلبت الصلح ، فَحَبَّذ الثاني الفكرة ، وأيد ابن خلدون كل من اليونيني (٥) ، وابن أبي دينار (٦) ، وابن الشماع (٧) ، وغيرهم ، ويُرجح أن الصليبيين هم من بادر بطلب الصلح لأن أوضاع المسلمين كانت أفضل من أوضاعهم ، وبخاصة إثر الوباء الذي حلَّ بهم ، وبالأحرى فقد رغب الطرفان بالصلح وإنهاء حالة الحرب ، لأن كلاً منهما كانت له ظروفه الخاصة ، فعلى الجانب الصليبي يلاحظ ما يلي :

أ- عانى الصليبيون من شدة الحصار البري وأحياناً البحري ، وهذا ما أدى لسوء أوضاعهم وإصابتهم بسوء التغذية .

ب- انتشار الوباء في صفوف الجيش الصليبي فراح ضحيته الكثير من الجنود والقادة .

جـ- إن وفاة لويس التاسع أدت لإصابة الجيش الصليبي بالإحباط ، وبخاصة أنهم اعتادوا على إخلاصه ، واستقامته ، وكياسته في معاملتهم ، فكان لهم أشبه بالأب الحنون .

د- تعرض الصليبيون لضرباتٍ موجعةٍ من قبل المسلمين ، ولو أنها لم تكن حاسمة ، ولكن بشكلٍ عام استطاعوا قضَّ مضاجعهم ، و لم يتركوهم يعرفوا الراحة والطمأنينة (٨) .

أما ظروف المسلمين التي أجبرتهم على الرغبة في الصلح فهي :

---

(١) ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ .

(٢) مونرود : مج٢ ، ص٣٦٢ .

(٣) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ .

(٤) حسين : الحروب الصليبية ، ص٣٢١ .

(٥) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٦ .

(٦) ابن أبي دينار : ص١٢٨ .

(٧) ابن الشماع : ص٧٢ .

(٨) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٨-٤٢٩ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥ ، ص١٨٤٦-١٨٤٧ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٥٣-٣٦٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p290-297 .

أ- لم يكن المستنصر رجل حرب بمعنى الكلمة، و لم يمتلك ذلك الحماس في شن هجومٍ كاسحٍ لاقتلاع الصليبـــيين من جذورهم ، ولكن هذا لا يعني ضعف عزيمة أبناء تونس والمتطوعين من بلاد العرب المسلمين (١) .

ب- خشي المسلمون من كسر الصليبـــيين للحصار ، ومهاجمة تونس والاستيلاء عليها (٢) ، وبخاصة إثر مجيء نجدات جديدة للصليبيين تمثلت بشارل آنجو وادوَارْ بن هِنريْ الثالث ملك إنكلترا (٣) .

جـ- كان معظم المتطوعين من البدو الذين شاركوا في مواجهة الحملة الصليبـــية ، وقد اضطروا مع اقتراب فصل الشتاء للعودة إلى ديارهم لتأمين الأعلاف اللازمة لمواشيهم (٤) .

وبشكلٍ عام الظروف الصعبة التي عاشها الصليبـــيون والمسلمون أدت إلى رغبة الطرفين بعقد صلحٍ وإنهاء حالة الحرب ، فأرسل المستنصر من طرفه عدداً من الفقهاء (٥) لمفاوضة الصليبـــيين على شروط الصلح ، بينما مَثَّلَ الصليبـــيين شارل كونت آنجو وابن أخيه فيليب ، وادوَارْ بن هِنريْ الثالث ، وتوصل الطرفان لعقد معاهدة في ١٨ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ/٥ تشرين الثاني عام١٢٧٠م وقد تضمنت البنود التالية: (٦)

- يدفع المستنصر غرامةً ماليةً قدرها خمسمائة وخمسة وعشرون ألف ليرة ذهبية فرنسية ، وذلك تعويضاً للصليبيين عن نفقات حملتهم (٧) ، ويشترط أن تدفع أقساطاً (٨) .

- يتوجب على المستنصر دفع مبلغ مالي بشكلٍ سنوي لشارل آنجو ملك الصقليتين (٩) ،

---

(١) المقريزي : السلوك، ج١ ، ص٦٠٢ ؛ ابن الشماع : ص٧٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p289 .

(٢) ابن الشماع : ص٧٢ .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٦-١٨٤٨ ؛ Michaud : op . cit , volume4 , p520-527 .

(٤) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ .

(٥) الفقهاء الذين فاوضوا الصليبـــيين هم : " القاضي ابن زيتون ، وحَضر أبو الحسن علي بن عمرو ، وأحمد بن النعمان وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين " . ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ .

(٦) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٩٣ ؛ حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٣٢٢ .

(٧) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر : ص٣٧٤ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٧ ؛ حسين : الحروب الصليبـــية ، ص٣٤١ ؛ Michaud : op . cit , volume 4 , p523 .

(٨) ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ ؛ المطوي : السلطنة الحفصية ، ص٢١٠ .

(٩) اليونيني : مج١ ، ص٤٥٦ ؛ ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٧ ؛ Villeneuve : op . cit , p309 .

مقابل تعهد الثاني بحماية شواطئ تونس من القراصنة الأوربيين (١) .

- السماح للمبشرين المسيحيين بنشر الديانة المسيحية في تونس ، والاعتراف بحقهم في بناء كنائسهم وأديرتهم على أرض تونس (٢) .

- يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين والصليبيين (٣) .

- يتعهد الصليبيون بالانسحاب من قرطاجة (٤) ، " من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين " (٥)، أي ألا يقصدوا بلاد العرب المسلمين مرةً ثانية .

- مدة المعاهدة خمسة عشر عاماً (٦) .

إن من يتأمل هذه المعاهدة يلاحظ أن معظم بنودها جاءت لصالح الصليبيين بل كانت مُجحفة جداً بحق المسلمين ، ولكن الكتاني عَذرَ المستنصر بحجة أن الظروف المالية الصعبة والنفقات الباهظة للمستنصر في مواجهة الصليبيين قد أجبرته على الصلح ، وعقد معاهدة كهذه (٧) ، ولكن في الحقيقة إن المستنصر بدلاً من أن يسعى لحل أزمته المالية رَتبَ على تونس غرامةً ماليةً كبيرةً تمثلت بتعويض الصليبيين عن نفقات حملتهم ، كما أنه ألزم أبناء مملكته بدفع مبلغ مالي سنوياً لشارل آنجو ، وبذلك حمَّل أبناء تونس ضرائب جديدة إرضاءً للصليبيين ، وبالفعل كما قال المقريزي للمستنصر " مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين " (٨) ، وذلك بسبب جَهله بأمور السياسة ، وتخاذله لأنه بدلاً من مواجهة المعتدين فقد كافأهم على عدوانهم ، ودفع لهم الأموال ، فجاءت بنود المعاهدة لصالح الصليبيين بالرغم من أن أوضاع أبناء تونس كانت أفضل بكثير من أوضاع الصليبيين بعد أن فقدوا ملكهم ، واستبدت بهم الأمراض والمحن .

---

(١) عامر : ص١٨٧ .

(٢) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٧ ؛ مونرود : مج٢ ، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ برنشفيك : ج١ ، ص٩٣ ؛ Villeneuve : op . cit , p39 .

(٣) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٧ ؛ عامر : ص١٨٦ .

(٤) ابن أبي الضياف : ص١٦٢ ؛ ابن الشماع : ص٧٢ ؛ Lewis Archibald : op . cit , p147 .

(٥) ابن أبي دينار : ص١٢٨ ؛ والمعنى ذاته لدى السراج : مج٢ ، ص١٥١ .

(٦) ابن أبي دينار : ص١٢٩ ؛ مونرود : مج٢، ص٣٦٢ .

(٧) الكتاني : ص٢٤٤-٢٤٥ .

(٨) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٦٠١ .

وهكذا فقد عقد المستنصر مع الصليبيين صلحاً جائراً ، لعدم رغبته بمتابعة القتال ، وقد كان بإمكانه المثابرة في التصدي لهم ، وإغراقهم في البحر المتوسط (١) ، كما تصدى المماليك لحملة لويس التاسع الأولى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وأغرقوها في نهر النيل ، وأجبروها على الاستسلام ، وفرضوا عليها غرامةً ماليةً كبيرةً (٢) ، أما هنا فقد كان العكس حيث سعى المستنصر لكسب رضا الصليبيين لإجلائهم عن تونس ، علماً أنه لم يكن بحاجة لعقد صلح جائر كهذا (٣) .

---

(١) ابن أبي الضياف : مج١ ، ص١٦٢ ؛ ابن الشماع : ص٧٢-٧٣ .

(٢) ابن الجزري : ص٢١٧-٢٢١ ؛ جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٧٨-١٤٦ .

(٣) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ ؛ ابن عبد الظاهر :ص٣٧٤ ؛ Villeneuve : op . cit , p309-311 .

٨-نهاية الحملة الصليبيـــة الثامنة .

ما إن عُقدت المعاهدة بين المسلمين والصليبيـــين حتى فكَّ المسلمون الحصار عن قرطاجة ، وسارع التجار في المجيء ببضائعهم إلى قرطاجة حيث باعوا واشتروا مع الصليبيـــين متناسين الحروب التي خاضوها ضد بعضهم البعض ، ولكن هذا لا يتعلق سوى بالتجار الذين كان همهم الأساسي مصالحهم التجارية (١) .

فرض المستنصر الضرائب على أبناء تونس لتأمين الأموال اللازمة من أجل تسديدها للصليبيين ، و لم يجد معارضةً من قبل شعبه بعد أن أقنعهم بضرورة تأمين الأموال لدفع الصليبيـــين عن تونس (٢) ، وقد فرح الصليبيـــون بما حصلوا عليه من أموال ، واستعدوا للرحيل عن تونس وتركوا " في قرطاجة تسعين منجنيقاً " (٣) ، ولكن لماذا تركوا تلك المجانيق و لم يأخذوها ؟

ربما أن تلك المجانيق كانت مُحطمة وغير صالحة للاستعمال ، ويُحتمل أنه لم تكن هناك سفن كافية لحمل الجنود وأمتعتهم ، فاضطروا لترك تلك المجانيق في قرطاجة .

أقلعت الحملة الصليبيـــة من شواطئ قرطاجة في يوم الجمعة ٤ ربيع الثاني سنة ٦٦٩هـ/٢١ تشرين الثاني عام ١٢٧٠م بعد أن أمضت في تونس حوالي أربعة أشهر وعشرة أيام (٤) ، وإثر رحيل الصليبيـــين أمر المستنصر " بتخريب قرطاجة ، وأن يؤتى بنيانها من القواعد " (٥) ، فغدت قرطاجة مجرد أطلال ، وحُجة المستنصر في تدميرها هو خوفه من أن يقصدها الأوربيون مرةً ثانية ، ويتخذوا منها حصناً من أجل مهاجمة تونس ، وهذا يشبه ما حدث في دمياط إثر رحيل حملة لويس التاسع الأولى عن مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حيث قام المماليك بتدميرها خوفاً من استيلاء الصليبيـــين عليها مرة أخرى (٦) .

---

(١) ابن الشماع : ص٧٢ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١ .

(٢) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ .

(٣) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ .

(٤) ابن الشماع : ص٧٢ ؛ السراج : ص١٥١ ؛ الكناني : ص٢٥٩ .

(٥) ابن خلدون : ج٦، ص٤٢٩ .

(٦) الدواداري : ج٨ ، ص١٥ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٣٥٧ ؛ ابن إياس : ق١ج١ ، ص٢٨١-٢٨٢ .

سارت بقايا الحملة الصليبيـــية الثامنة نحو صقلية ، وفي الطريق هبت عاصفةً قويةً أشار لها ابن خلدون بقوله : " أصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب ، وهلك الكثير منهم "(١) ،و لم يحدد عدد الرجال الذين غرقوا في البحر حيث اكتفى بالتنويه إلى كثرهم ، وقد وافق ابن خلدون في رأيه كل من ابن الشماع والسراج في قولهما : " أرسل الله عليهم ريحاً أهلكت كثيراً منهم " (٢) ، بينما حدد مونرود عدد الغرقى بأربعة آلاف شخص (٣) ، وأضاف ريشنغر معلومة جديدة حيث لم تكن هناك خسائر بشرية لدى الصليبـــيين فحسب بل غرقت الأموال التي أخذوها من المستنصر إضافة للكثير من الأسلحة والذخائر (٤) ، ووصلت بقايا الحملة الصليبـــية إلى صقلية في حالةٍ يرثى لها ، فاستقر شارل آنجو في مملكته أما فيليب الثالث فقاد رجال حملته عائداً إلى فرنسا ، وقضى ادوَارْ بن هِنرِيْ الثالث فصل الشتاء في صقلية ، وبقي فيها حتى ٢٦ رمضان سنة ٦٦٩هـ/ ٩ أيار عام ١٢٧١م ، ثم قرر الرحيل إلى مملكة عكا لإنقاذها من هجمات المماليك (٥) .

وصلت حملة ادوَارْ إلى قبرص ، ومنها إلى عكا حيث أقسم ادوَارْ على الوصول إلى عكا قائلاً : " سوف ندخل إلى عكا حتى وإن كانت روحي ستفارق جسدي " (٦) ، ويلاحظ مدى حماس ادوَارْ، ولكنه تناسى العهد الذي قطعه على نفسه للمستنصر أثناء المعاهدة التي عقدها معه سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م حيث تضمن أحد بنودها على عدم " التعَرُض لجهة من جهات المسلمين " (٧)،وبذلك لم يتقيد ادوَارْ بالعهد في العودة إلى بلاده ، وعدم مهاجمة العرب والمسلمين ، وبذلك فقد سار ادوَارْ على خطا حليفه لويس التاسع الذي هُزم في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م " وحلف أن لا يطأ بعدها أرض الإسلام " (٨) ، فلم يتقيد أيضاً بذلك الميثاق .

لأنه أمضى أربع سنوات في مملكة عكا حاك خلالها المؤامرات للنيل من العرب المسلمين ،

---

(١) ابن خلدون : ج٦ ، ص٤٢٩ .

(٢) ابن الشماع : ص٧٢ ؛ السراج : مج٢ ، ص١٥١-١٥٢ .

(٣) مونرود : مج٢ ، ص٣٦٤ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٧ .

(٥) عامر : ص١٨٩ ؛

Michaud : op . cit , volume 4 , p527 ; Villeneuve : op . cit , p309 .

(٦) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٨ ؛ والمعنى ذاته لدى دي كانسي وادوار : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٦١ .

(٧) ابن الشماع : ص٧٢ .

(٨) السراج : ص١٥٢ .

و لم يكتف بهذا بل هاجم تونس سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م ، وهذا يؤكد أن زعماء أوربا أمثال ادوَارْ و لويس التاسع لا عهود لهم ولا مواثيق .

ارتاع ادوَارْ للحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع الصليبـيين في مملكة عكا إثر هجمات المماليك ، وسقوط الكثير من المعاقل الصليبـية ، وقبيل قدوم ادوَارْ كانت قد سقطت قلعة الحصن (حصن الأكراد) التي عُدت من أقوى القلاع الصليبـية وأكثرها مناعةً (١) ، فرأى ادوَارْ ضرورة الاستعانة بالمغول لأنه تلميذ لويس التاسع ، فأرسل سفارةً إلى الخان المغولي أبغَا في بلاد فارس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م حيث طلب منه النجدات ضد المسلمين (٢) ، وقد استجاب أبغَا لطلبه لأنه كان ناقماً على بيبرس الذي دعم بركة خان زعيم القبائل الذهبية المغولية بعد اعتناقها للإسلام ضد أبغا (٣) ، فقد أرسل قوة مغولية " عدة عشرة آلاف فارس " (٤) ، هاجمت شمال بلاد الشام ، وقامت بأعمال السلب والنهب ، فتصدى لها بيبرس بجيشه عند بلدة البيرة ، وأنزل بها هزيمةً نكراء بعد أن تركت آلاتها القتالية غنيمةً للمسلمين ، و لم تستطع تلك القوة المغولية التواصل مع حليفها ادوَارْ ، فعادت من حيث أتت (٥) .

ضاعت أحلام ادوَارْ بمساعدة المغول ، كما ضاعت آمال لويس التاسع من قبله ، فأغار على حصن قاقون المملوكي (٦) ، وألحق به أضراراً بالغةً (٧) ، وأسر مجموعة من رجاله ، فلحق به

---

(١) المنصوري : زبدة الفكر ، ص١٢٧-١٣٤ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٤٣٠-٤٣٢ ؛
Michaud : op . cit , volume4 , p526-527 .

(٢) عاشور : الحركة الصليبـية ، ج٢ ، ص١١٥٨ ؛ رنسيمان : ج٣ ، ص٥٧٦ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p659 .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٣٣٥-٣٤١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٦٣ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ،ص١٤٠ .

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ، ص٣٣٧-٣٣٨ ؛ ابن الوردي : ج٢ ، ص٣١٦ ؛ ابن سباط : ج١ ، ص٤٣٤ ؛
Grousset : op . cit , volume3 , p668 .

(٦) قاقون : أحد حصون فلسطين ، ويقع قرب الرملة ، وهو من أعمال قيسارية . الحموي : معجم البلدان ، ج٤، ص٣٣٩؛ البغدادي : ج ٣ ، ص١٠٥٩ .

(٧) الدواداري : ج٨ ، ص١٦٥-١٦٦ ؛ المنصوري : زبدة الفكر ، ص١٣٤ ؛ كريستوفر : الموسوعة ، ج٨٣، ص٤٣ ؛
Smith : op . cit , p202 .

المسلمون من المناطق المجاورة للحصن ، وفكوا أسرى المسلمين من أيديهم بعد أن لاذ ادوَارْ ورجاله بالفرار إلى عكا (١) ، وإثر هزيمته ، أخذ يطالب بيبرس بالمهادنة ، وبالفعل توصلا لعقد هدنة سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م " مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات " (٢) ، ثم تعرض ادوَارْ لمحاولة اغتيال كادت أن تودي بحياته ، وذكر سمباط إلى أحد عبيد ادوَارْ قد نفذ العملية (٣) ، أما ريشنغر فحدد اسم منفذ العملية وهو عبد العظيم أحد أفراد الحشيشية ، وقد أصيب ادوَارْ بطعنتيّ خنجر، فهاجم أتباع ادوَارْ عبد العظيم ، وقتلوه وعلقوا جثته على أسوار عكا (٤) ،وهنا ويُحتمل الوجهان بالنسبة لمنفذ عملية الاغتيال فربما أن أحد عبيد ادوَارْ أعطاه أحد أمراء المسلمين مبلغاً من المال للتخلص من ادوَارْ خوفاً من عودته إلى أورْبة والمجيء على رأس حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ ، وقد يكون عبد العظيم أحد عناصر الحشيشية هو من أراد اغتيال ادوَارْ حيث اعتادت الحشيشية على تنفيذ الاغتيالات ضد قادة الصليبيين .

ووجد ادوَارْ أن بقاءه في عكا دون فائدة أمام قوة المسلمين وتهاوي المعاقل الصليبية ، وما إن شعر بتحَسُّن حالته الصحية حتى قاد رجال حملته الصليبية ، وأبحروا عائدين إلى إنكلترا سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م (٥) .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثامنة ، ولكن هل انتهت الحروب الصليبية بانتهائها ؟

لا ولن تنتهي الحروب الصليبية ، ولم تكن الحملة الصليبية الثامنة هي آخرها لأن الغرب الأوربي كان ولازال وسيبقى يحيك المؤامرات بالاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية للنيل من العرب المسلمين فيتوجب الحذر من تلك المخططات ، والوقوف سداً منيعا وصفاً واحداً بوجه التحديات والمخططات الصهيُونية – الأمريكية – الأوربية .

---

(١) الدواداري : ج٨ ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٢) المنصوري : مختار الأخبار ، ص٤٨ . ابن سباط : ج١ ، ص٤٣٣ .

(٣) سمباط : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٥١ .

(٤) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠ ، ص١٨٤٩-١٨٥٠ ؛ والمعنى ذاته لدى دي كانسي وادوار : الموسوعة ، ج٣٥ ، ص٣٦١ .

(٥) ريشنغر : الموسوعة ، ج٥٠، ص١٨٤٩-١٨٥٣ ؛ دي كانسي وادوار : الموسوعة ، ج٣٥، ص٣٦١ ؛ Smith : op . cit , p200-202 .

وعلى هذا فقد أسفرت الحملة الصليبيـــية الثامنة عن النتائج التالية :

- هزيمة لويس التاسع في تونس ، واندحاره في بلاد الشام ، وانتصار المسلمين .

- أثبت أبناء تونس جدارتهم في مواجهة الصليبيـــين بعد أن اتحد معهم العرب المسلمين من بلاد الشام حتى الأندلس ، وذلك على الرغم من تقاعس سلطانهم المستنصر الحفصي .

- لم يحقق لويس التاسع حلمه في الاستيلاء على بيت المقدس بل كانت نهايته على روابي تونس ، وقد عدهُ المسلمون رمزاً للعدوان والإحتلال ، بينما أشار جوانفيل (١) ، إلى أنه بعد مرور سبع سنوات على وفاة لويس التاسع أقر البابا يُوحَنا الحادي والعشرين رفع لويس التاسع لمرتبة القديسين ، فبقي للفرنسيين مثلاً يُحتذى به .

- ساندت عوامل الطبيعة المسلمين بشكل كبير حيث أدت الحرارة المرتفعة والمناخ البحري الرطب لانتشار الأمراض في صفوف الصليبـــين ، كما أن العاصفة البحرية التي ضربت الحملة إثر رحيلها عن تونس أغرقت الكثير من رجالها .

- لم يفرح الصليبـــيون بالأموال التي دفعها إليهم المستنصر لأنها غرقت في قعر البحر المتوسط ، وذهبت هباءً منثوراً ، وهذه النهاية الحتمية لكل قوى الشر والعدوان .

---

(٣) جوانفيل : الموسوعة ، ج٣٥، ص٢٦٨ .

الخاتمة .

أعلن لويس التاسع الحرب على المسلمين ، وبذل كل ما وسعه للقضاء عليهم ، والاستيلاء على أرضهم ، متخذاً من الدين ستاراً لتحقيق أهدافٍ دينيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ واستعمارية ، فجَّر فرنسا إلى حروبٍ طاحنةٍ لم تجنِ منها سوى اليأس والمرارة ، بينما حقق مكاسب كبيرة للصليبيين خلال مدةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ لم يحقق مثلها من سبقه من الملوك الصليبيين على مدار عشرات السنين ، ومن خلال إسقاط الضوء على تلك الحقبة الزمنية تم التوصل إلى نتائج كثيرة يمكن الإشارة إلى أهمها ، وهي على الشكل الآتي :

- لم يُفلح لويس التاسع في هجومه على مصر على الرغم من القوة العسكرية الكبرى التي أتى على رأسها ، ولكنه أخطأ الطريق عندما اقتحمها عبر دلتا النيل حيث الفروع النهرية وقنوات الري فضلاً عن السبخات ، مما أعاق تقدمهم ، كما أن رُوبرتْ كونت أرتوا لم يتقيد بأوامر أخيه لويس التاسع ، في الوقت الذي تكاتف فيه أبناء بلاد الشام ومصر ، وأثبتوا جدارتهم في التصدي لقوات الحملة الصليبية السابعة ، فدمروها ، وابتلعتهم أرض مصر ونيلها ، و لم ينجُ منهم سوى الأسرى ، وأصبحوا عبرةً للمُعتبرين .

- قرر لويس التاسع البقاء في مملكة عكا لعله يثأر للهزائم التي حلت بجيشه ، فسعى لتقوية الكيان الصليبي حيث وقفت إمارة أنطاكية على شفا جرفٍ بسبب هجمات التركمان عليها، وكادوا يجعلوها أثرا بعد عين ، ولكن عناية لويس التاسع ودعمه ساعداها على تجاوز المحن ، وهذا ما أطال في عمر الصليبيين بأنطاكية ، كما فاق لويس التاسع معاصريه بما امتاز به من رغبةٍ في إصلاح أوضاع الصليبيين ، فحول الهزيمة إلى نصر عندما أزال الجفاء بين عرشَّي أنطاكية وأرمينية الصغرى ، مما مهد الطريق أمام هَيْثومْ الأول ملك أرمينية في كسب المغول ، فأخذ منهم ميثاقاً لتدمير الخلافة العباسية ، و لم يستطع لويس التاسع إنهاء النزاع المذهبي في قبرص بين العنصرين اليوناني الأرثوذكسي واللاتيني الكاثوليكي ، لأنه هيهات أن يتفق المواطن الأصلي مع المحتل ، وبخاصة بعد أن شكل اللاتين طبقة السادة، وتحول المواطنون الأصليون إلى مزارعين وصغار كسبه.

- تعامل لويس التاسع بذكاء مع رُسل الحشيشية ، فغض النظر عن تهديدهم له ، وتبادل الهدايا مع شيخ الجبل ، فكسب صداقته ، وبذلك أمَّن الحماية لقادة الصليبيين من اغتيالات الحشيشية طيلة

بقائه في مملكة عكا ، وعندما خشي من القوة المغولية الغاشمة ، أراد كسبها ، وإدخالها دائرة الحروب الصليبية، وقد أذل نفسه من أجل تلك الغاية على الرغم من نظرة المغول الفوقية والمتعالية ، مستهدفاً جعل العرب المسلمين بين فكي كماشة وهما المغول والصليبيين ، ويتحمل لويس التاسع وملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول مسؤولية الهجوم المغولي على بلاد العرب المسلمين .

- أظهر لويس التاسع ذكاءً خارقاً في إدارة الكيان الصليبي فقامت المنظمات الرهبانية الصليبية بدورٍ بارز تحت قيادته ، وتميزت بالطاعة العمياء لأوامره ، وكان لها دور متميز في مملكة عكا بل كانت بمثابة العمود الفقري للكيان الصليبي ، وهذا بفضل لويس التاسع الذي أحسن توجيهها ، كما أنه لم يكن راضياً عن علاقة الجمهوريات الإيطالية التجارية مع المسلمين ، ولكنه لم يحاول الاصطدام معها لأنها كانت صلة الوصل بين أوربة والصليبيين ، كما وفرّت للكيان الصليبي معظم مستلزماته الاقتصادية .

- أخذ لويس التاسع بأسباب القوة فجهز الجيش الصليبي بترسانة عسكرية لا يستهان بها ، كما شغل معظم وقته في أعمال التحصين ، فأنتج نماذجاً من الاستحكامات العسكرية التي تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، وقد توهم لويس التاسع أن حصونه وأسواره مانعتهم من المسلمين ، كما يتوهم الآن الكيان الصهيُوني بتحصيناته ، ولكن كما زال الكيان الصليبي سيزول الكيان الصهيُوني إن شاء الله ، وسيُهزم الغزاة ، ويندحر الظلم والعدوان .

- استطاع لويس التاسع التغلب على بعض الصعاب التي اعترضت سبيله ، فتعامل بحنكة مع نقص العنصر البشري ، وأغدق الأموال على من ينضم تحت لوائه ، فقصده الكثير من المرتزقة ، كما كان بإمكانه إعلان النفير العام إذا ما اقتضت الضرورة ، وعند ذلك كانت تهب المملكة اللاتينية بأكملها للمواجهة ، وقد تطلبت مشاريع لويس التاسع في مملكة عكا مبالغ مالية طائلة ، وهذا ما أدى لاهتمامه بتطوير الجانب الاقتصادي ، فطور الزراعة ، وشجع الصناعة والتجارة فضلاً عن الدعم البابوي والفرنسي مما أدى لتقوية الاقتصاد الصليبي .

- توصل المماليك و لويس التاسع لعقد اتفاقية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، فتقيد المماليك

بنود الاتفاقية ، وأطلقوا سراح لويس التاسع وكبار رجال مملكته ، بينما تهرب لويس التاسع من دفـــع الفدية ،وأعلن تحلله من الاتفاقية ، وهذا ما أكد أن لويس التاسع أشبه بالصهيونية اليوم فهما لا عهـــود لهما ولا مواثيق ، و لم يكتف لويس التاسع بذلك بل أصبح سيد الموقف في ظل الحرب بـين الأيـــوبيين والمماليك ، وقد نجح في تأجيج نار العداء بينهما ، ثم أخذ يتوعد المماليك بـــالمجيء علـــى رأس جـــيش صليبـــي – أيوبي لتدمير مصر إن لم يرضخوا لمطالبه ،فسارعوا للتواطؤ معه ، بل اشتبكوا مع الأيوبيين في معركة العباسة سنة ٦٤٨ هـــ /١٢٥١ م وقد ثبتت تلك المعركة أقدام المماليـــك في مصـــر ، ثم ظهرت منافسة حادة بين المعز أيبك والناصر يوسف الثاني ، وحاول كلٌ منهما جذب لويس التاسع إلى جانبه ، وحظي المعز أيبك بصداقة لويس التاسع فتراءى له أنه سيعيد أمجاد مملكة بيت المقدس الأولى ، ولكن كان ذلك مجرد حلم لا أكثر.

- راح لويس التاسع يعمل على زيادة حدة التوتر بين الناصر يوسف الثاني و المعز أيبك لضرب القوتين مع بعضهما البعض أملاً في الحفاظ على الكيان الصليبـــي ، بينما استهدف الناصر يوسف الثاني زيادة أملاكه ، أما المعز أيبك فأراد إثبات وجوده علماً أن ذلك الصراع بين حاكمين ، ولـــيس بـــين شعبين لأن أبنـــاء بـــلاد الشـــام ومصـــر لا ناقـــة لهـــم ولا جمـــل في تلـــك الصـــراعات ،وقـــد نجحت مساعي الخليفة العباسي المستعصم بالله في إطفاء جذوة الخلاف بين الأيوبيين والمماليك ، ســـنة ٦٥١هـــ / ١٢٥٣ م ، فتلاشت أحلام لويس التاسع بتفرقة المسلمين بعد اعتراف الأيوبيين بشـــرعية المماليك ، وعندها أعلن الناصر يوسف الثاني الحرب على الصليـــبين ، فصمدت يافا وعكا بســـبب الأسوار القوية التي أحاطها بها لويس التاسع بينما حلت هزيمةٌ ساحقةٌ بالصليـــبين في صيدا ، وذلك لأن لويس التاسع لم يكن قد أكمل تحصينها بعد .

- القائد بمثابة القلب من الجسد فقد أخطأ لويس التاسع خطأً فادحاً عندما ترك قواتـــه تهـــاجم بانياس والصبيبة دون أن يقودها بنفسه لأن الخطة الموضوعة لم تُنفذ بحذافيرها حيث سمحوا للمســـلمين الفارين من بانياس بالهروب إلى الصبيبة ، وفي الصبيبة أعاد المسلمون تنظيم أنفسهم فلاذ الصليبـــيون بالفرار إلى صيدا حيث لحقوا بملكهم لويس التاسع ، وإثر وفاة بلانشيه والدة لويس التاسع ، غادر عكا

عائداً إلى فرنسا سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م بعد أن أخفق في السيطرة على بيت المقدس ، ولكن للملك الفرنسي فضل كبير في تقوية الكيان الصليبي بل وكان سبباً في إطالة عمر ذلك الكيان أمام ازدياد قوة المسلمين .

- عاد لويس التاسع إلى فرنسا ،وكان أمله كبير بمحافظة الصليبيين على المكاسب التي حققها خلال مدة إقامته في الشرق ، ولكن رحيله ترك فراغاً كبيراً ، وقد جرَّت المصالح الاقتصادية الصليبيين إلى حروبٍ مدمرةٍ عُرفت بـ (حرب القديس سابا) أدت لتخريب أسوار عكا ، وراح الكثير من الصليبيين ضحية تلك الحرب التي سببت للصليبيين جرحاً عميقاً من الصعب اندماله ، و لم يستغل المسلمون ما أصاب أعدائهم حيث تجدد النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، فتدخلت الخلافة العباسية من جديد سنة ٦٥٣هـ /١٢٥٥م وأنهت ذلك النزاع ، وقد أدرك الأيوبيون أن المماليك أصبحوا قوة لا يستهان بها ولا يمكن تجاهلها ، فتوجب عليهم الاعتراف بها شاؤوا أم أبوا ، وأيقنوا مؤخراً بأن مصر من المستحيل أن تعود لدائرة السيادة الأيوبية .

- اهتم لويس التاسع بالأوضاع الداخلية لفرنسا ، فنشر فيها العدل و سادها الأمان و الاطمئنان كما امتد النفوذ الفرنسي على الصقليتين بتشجيع من البابا الكسندر الرابع الذي كان ناقما على أسرة هوهنشتاوفن الألمانية ، وقد أعدَّ شارل آنجو جيشاً ، واخترق إيطاليا ، واستولى على الصقليتين سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م و قتل مانفريد هوهنشتاوفن بن فردريكْ الثاني ، وأعدم كونرادين حفيد فردريك الثاني ، و أضحى شارل سيدا للصقليتين بلا منازع .

- بقي العمل الصليبي يراود خيال لويس التاسع وقد شجعه أخوه شارل آنجو على غزو تونس متذرعاً بأنها هي المفتاح لبيت المقدس ، و لكن هذا الطريق طويلٌ جداً لا يؤكد سوى أن لويس التاسع و أخاه استهدفا السيطرة على ثروات أفريقيا ، وتونس هي المفتاح لثروات أفريقيا بأكملها ، وقد استغل لويس التاسع الاضطرابات الداخلية التي عاشتها تونس آنذاك ، و الأهم من ذلك حالة الرفاهية و الغنى التي عاشتها تونس آنذاك .

- ما إن أعلن المستنصر الجهاد حتى قدمت إليه المساعدات و النجدات من بلاد العرب المسلمين

كافة ، وذلك من مصر حتى الأندلس ، فتجمعت لديه أعداد هائلة من المتطوعين ، و لم ينقصها سوى قائداً ذكياً يُحسن توجيهها الوجهة الصحيحة ، وقد قرر المستنصر السماح للصليبيين النزول على الشاطئ ، ثم محاصرتهم والقضاء عليهم لأنهم استولوا على قرطاجة وتحصنوا بداخلها ، وكان من الأفضل لو هاجم الفرنسيين في عقر دارهم ، وجعلهم عبرة لكل قوى الظلم و العدوان التي تفكر في الاعتداء على المسلمين ، وعندما وقف المسلمون والصليبيون وجها لوجه ، و لم يستطع أحدهما التغلب على الآخر أتت عوامل الطبيعة مساعدة للمسلمين كالحرارة الشديدة التي لم يعتد عليها الجنود الفرنسيون فضلا عن الرطوبة ، ووجود الحشرات ، مما أدى إلى إصابة الجيش الصليبي بالوباء في قرطاجة .

- لقد ظنَّ لويس التاسع أن تونس هي مفتاح بيت المقدس ، و لكنه أخطأ الهدف لأنها غدت مقبرةً للويس التاسع وجنود حملته الصليبية ، ووقع في شر أعماله حيث قادته أطماعه إلى حتفه ، فلم يُحول تونس إلى مستعمرة فرنسية كما أنه لم يسيطر على بيت المقدس ، ومات على روابي تونس ، وبقي قبره رمزاً للظلم والعدوان ، وإثر ذلك توصل المستنصر مع الصليبيين لعقد صلح جائر فكافأ الصليبيين على عدوانهم على تونس ودفع لهم تكاليف حملتهم ، وضرائب سنوية مدى حياته ، وبذلك حمَّل أبناء مملكته غرامة مالية باهظة وكل هذا يؤكد أنه ليس رجلاً للحرب ولا حتى للسلم .

- غادرت الحملة الصليبية تونس وعادت إلى فرنسا ولكن ادوَارْ بن هِنريْ الثالث ملك إنكلترا (إنجلترا) قد أقسم على السيطرة على بيت المقدس ، فنقل مسرح العمليات العسكرية من تونس إلى بلاد الشام ، وسار على خطا حليفه لويس التاسع في إيجاد تحالف صليبي – مغولي ، ولكن إثر اتحاد بلاد الشام ومصر تحت سيادة بيبرس أصيب ادوَارْ بخيبة أمل بل عاد إلى إنكلترا يداوي جراحه إثر تعرضه لمحاولة اغتيال .

ما أكثر العبر وما أحوج الأمة العربية والإسلامية إلى الاعتبار ، فتاريخها مليءٌ بالدروس والعبر ، نعم لقد هُزِّم لويس التاسع وكانت مصر وبلادالشام وتونس مقبرةً له ولجنوده ، وبالرغم من ذلك لم تنته الأطماع الفرنسية وما كان يحلم به لويس التاسع حققه أحفاده ، فاستولى نابليون بونابرت على مصر ، كما سيطر الجنرال غورو على بلاد الشام ، وغدا المغرب العربي تحت السيادة الفرنسية ،

ولكن أبناء العروبة والإسلام لم يهنوا و لم يحزنوا فهبوا بوجه الغزاة ، ودحروا أعـــداءهم ، واســـتعادوا حريتهم واستقلالهم ، وفي الحقيقة لم تعد هناك أطماع فرنسية فحسب بل أصبحت مـــؤامرة أوربيـــة – أمريكية – صهيونية ، وقد أعلنوا الحرب جميعاً على العرب والمسلمين واستهدفوا وطننا العربي برمتـــه ، ففي الأمس اتخذ لويس التاسع من الدين ستاراً لتحقيق أطماعه أما اليوم فقد هاجم الاستعمار الحـــديث وطننا العربي تحت ستار الإرهاب حيناً ، ونشر الديمقراطية أحياناً ، وبذلك افترسوا بلداننا العربية واحدةً تلو الأخرى، فهم استفادوا من دروس التاريخ وتجارب لويس التاسع في إحاكـــة المـــؤامرات وتفرقـــة الصفوف ، وهنا يتوجب علينا أن ننهل من دروس التاريخ وعبره ، وننفض عنا غبار الســـنين ، ونعـــي المؤامرات التي تُحاك ضد أمتنا ، لأنه لن يبنـــي وطننا سوى سواعد أبنائه ، فقد تغيب شمـــس العروبـــة خلف الغيوم ، ولكن ستبقى هذه الأمة شامخةً عزيزةً أبيةً بإذن الله رغم كل المؤامرات والتحديات .

– الملاحق .

١– المراسلات والأشعار

٢– الخرائط

٣– الصور

٤– قائمة المصادر

- المصادر الخطية
- المصادر المطبوعة

٥– قائمة المراجع

- المراجع العربية والمعربة
- المراجع باللغة الأجنبية
  - المراجع الإنكليزية .
  - المراجع الفرنسية .
- قائمة المواقع الالكترونية

رسالة تهديد من لويس التاسع إلى الصالح نجم الدين أيوب :

" أما بعد : فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية ، وأنك غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الإيمان ، ودخلت على القسس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ ، فيدك العليا ممتدة إليّ ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا " .

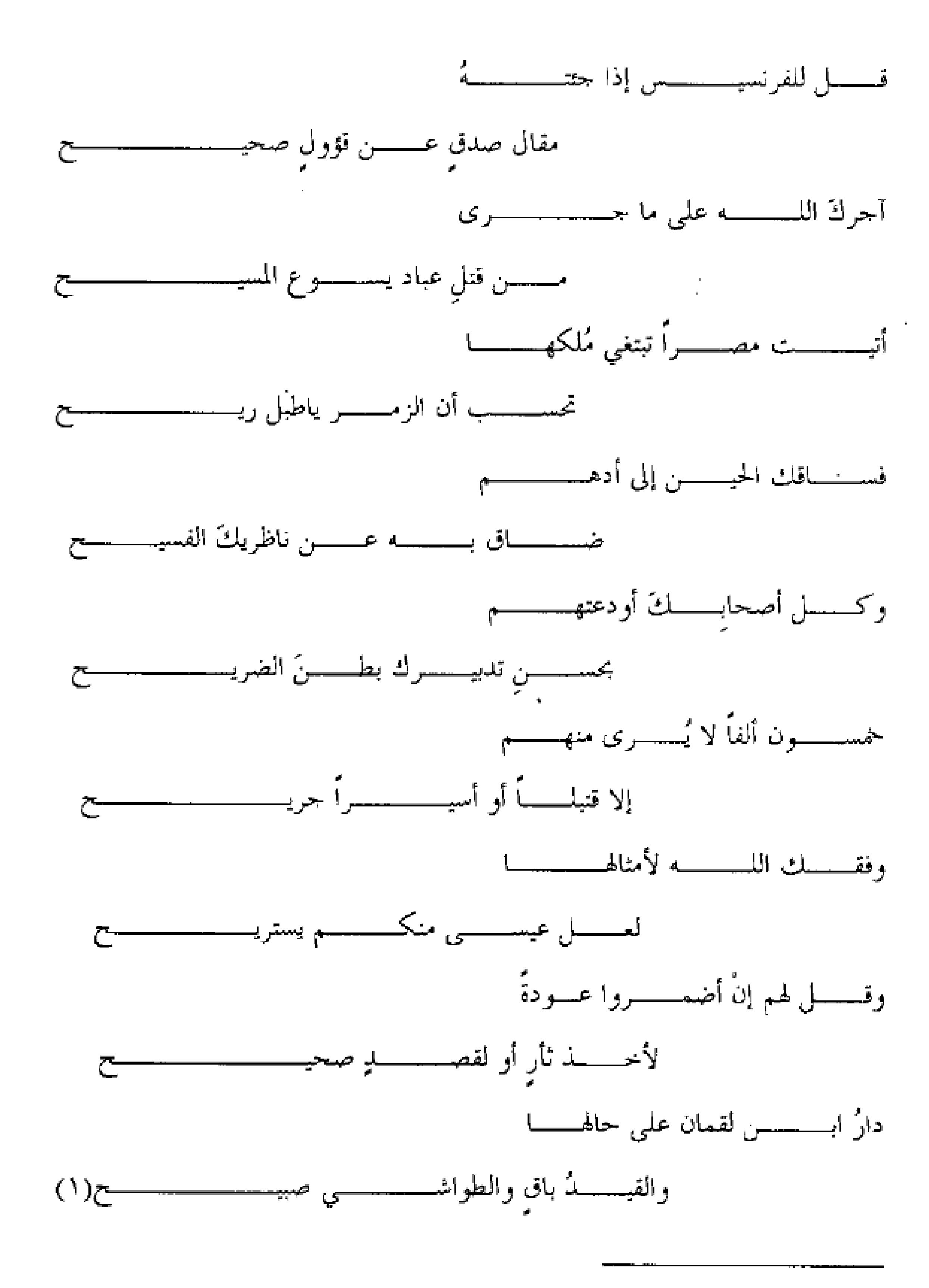
رد الصالح نجم الدين أيوب على رسالة لويس التاسع :

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه وسلم أجمعين أما بعد : فإنه قد وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عيناك – أيها المغرور ! – حد السيوف وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابي هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، وكن على آخر سورة (ص) : ولتعلمن نبأه بعد حين ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةٍ كثيرةٍ بإذن الله والله مع الصابرين ، وإلى قول الحكماء : إن الباغي له مصرع ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام " (١) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص ٣٣٤- ٣٣٥

إثر هزيمة لويس التاسع في مصر قال القاضي جمال الدين بن مطروح مفتخراً بذلك النصر :



قل للفرنسيس إذا جئتهُ
مقال صدقٍ عن قؤولٍ صحيح

آجركَ الله على ما جرى
من قتلِ عباد يسوع المسيح

أتيت مصراً تبتغي مُلكها
تحسب أن الزمر ياطبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم
ضاق به عن ناظريكَ الفسيح

وكل أصحابِكَ أودعتهم
بحسنِ تدبيرك بطنَ الضريح

خمسون ألفاً لا يُرى منهم
إلا قتيلاً أو أسيراً جريح

وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكم يستريح

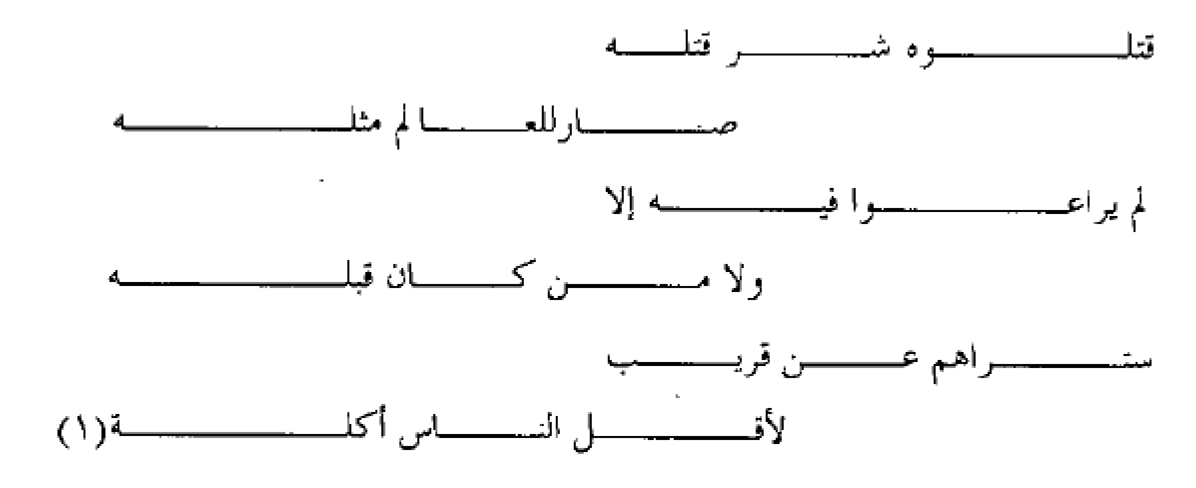
وقل لهم إنْ أضمروا عودةً
لأخذ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح

دارُ ابن لقمان على حالها
والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح(١)

---

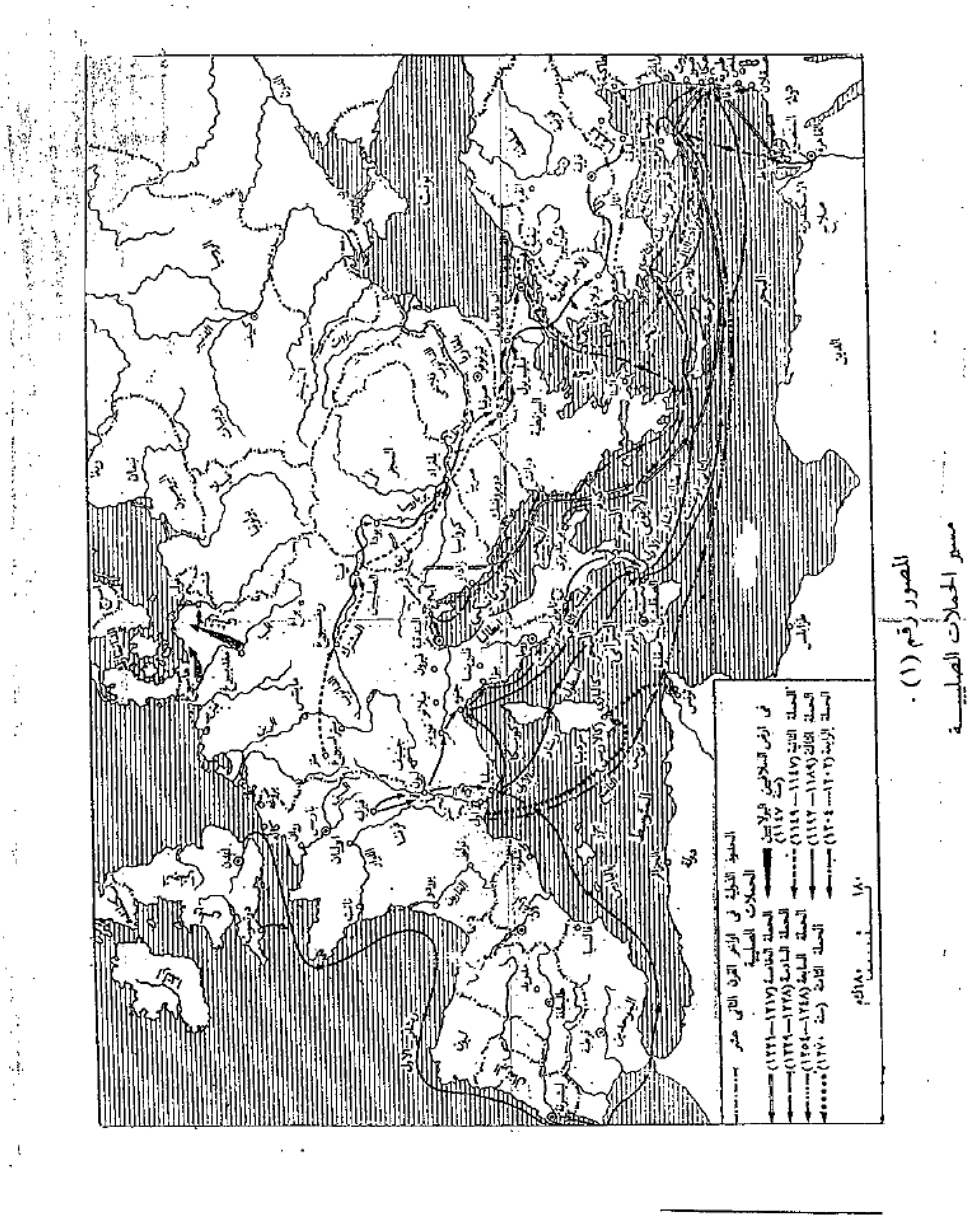
(١) ابن واصل : ج٦،ص١٢٥-١٢٦؛ ابن فضل الله العمري : ج٢٧ ،ص٣٤٣.

أنشد أحدمماليك الصالح نجم الدين أيوب على ذمة الراوي العماد ابن درباس يرثي توران شاه بقوله:



قتلـــوه شـــر قتلـــه
صـــارللعـــالم مثلـــه
لم يراعـــوا فيـــه إلا
ولا مـــن كـــان قبلـــه
ستـــراهم عـــن قريـــب
لأقـــل النـــاس أكلـــة(١)

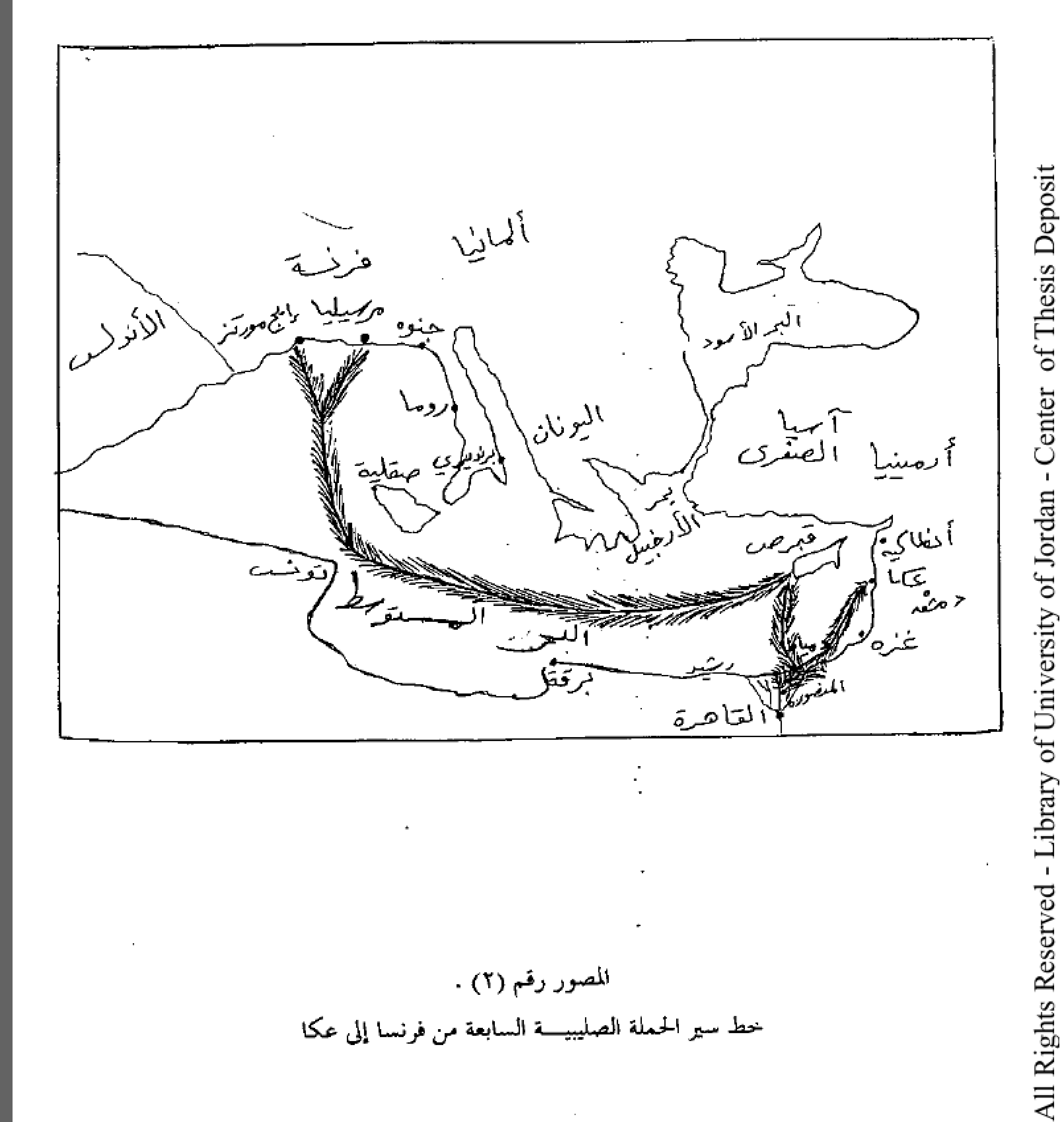
(١) العيني : الموسوعة ، ج٦٠ ، ص٦٩٩ .



الصور رقم (١).

مسير الحملات الصليبية

(١) زابوروف : ص٣٥٤.



المصور رقم (٢) .

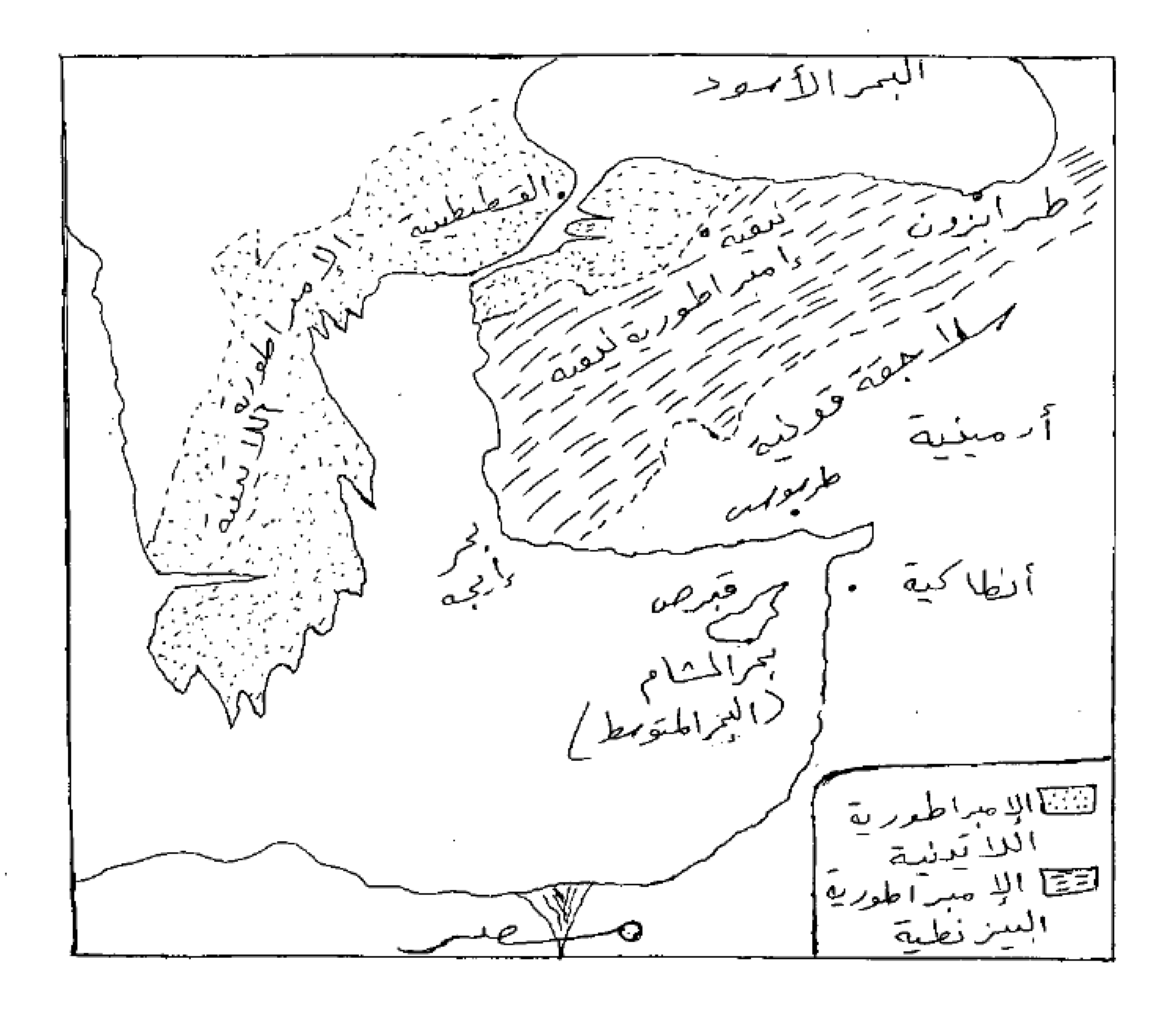
خط سير الحملة الصليبيـــة السابعة من فرنسا إلى عكا

(١) يوسف : العدوان الصليبـــي على مصر ، ص٩٧ .

المصور رقم (٣) .

خط سير الصليبيـــن من دمياط إلى المنصورة

(١) عاشور : الحركة الصليبيـــة ،ج٢ ، ص١٠٦٧ .



المصور رقم (٤)

امتداد الإمبراطورية اللاتينية

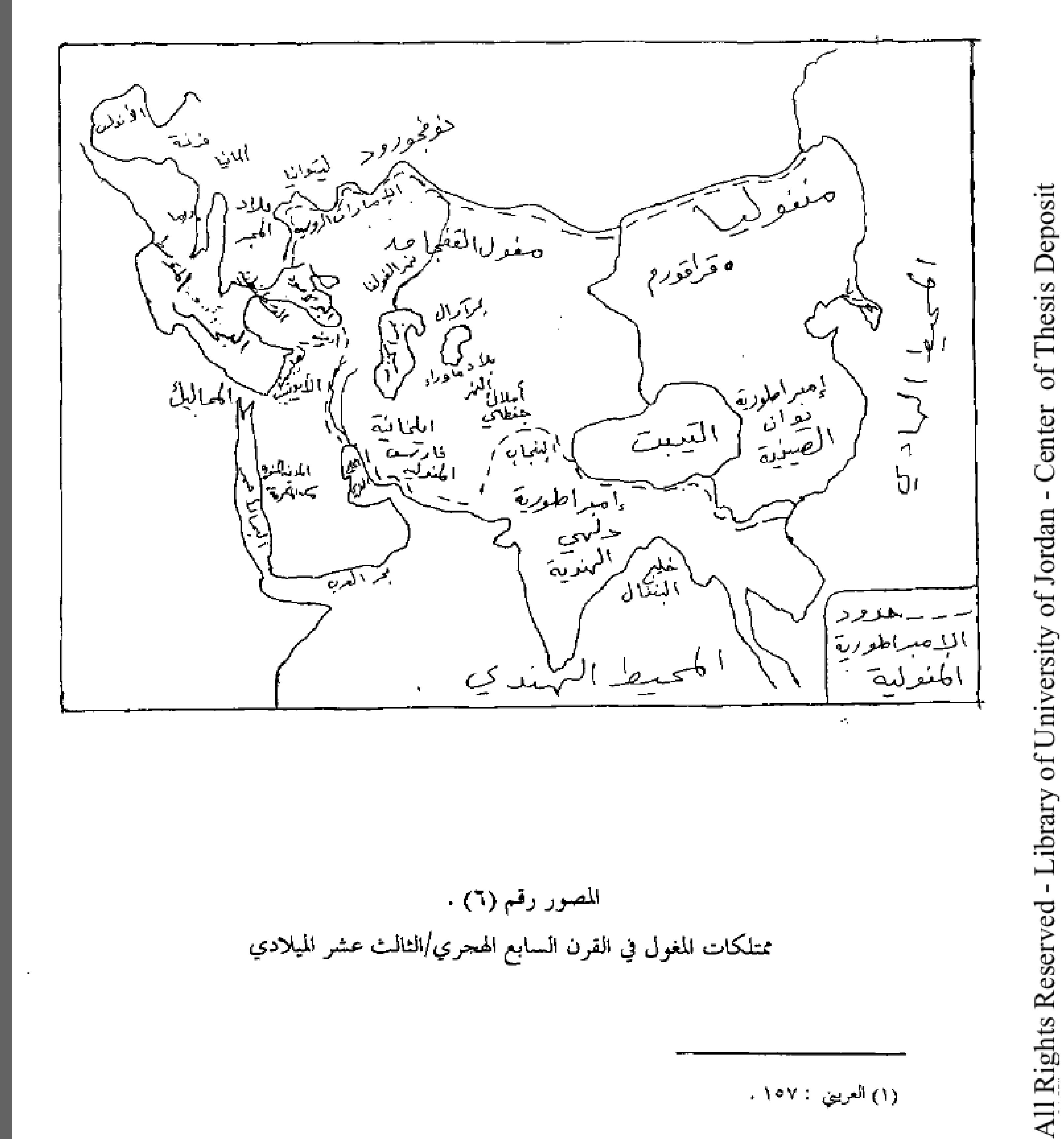
---

(١) يوسف : العدوان الصليبـــي على بلاد الشام ، ص٣١٨ .

المصور رقم (٥) .

قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام أواسط القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

(١) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٣٤ .



المصور رقم (٦) .

ممتلكات المغول في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

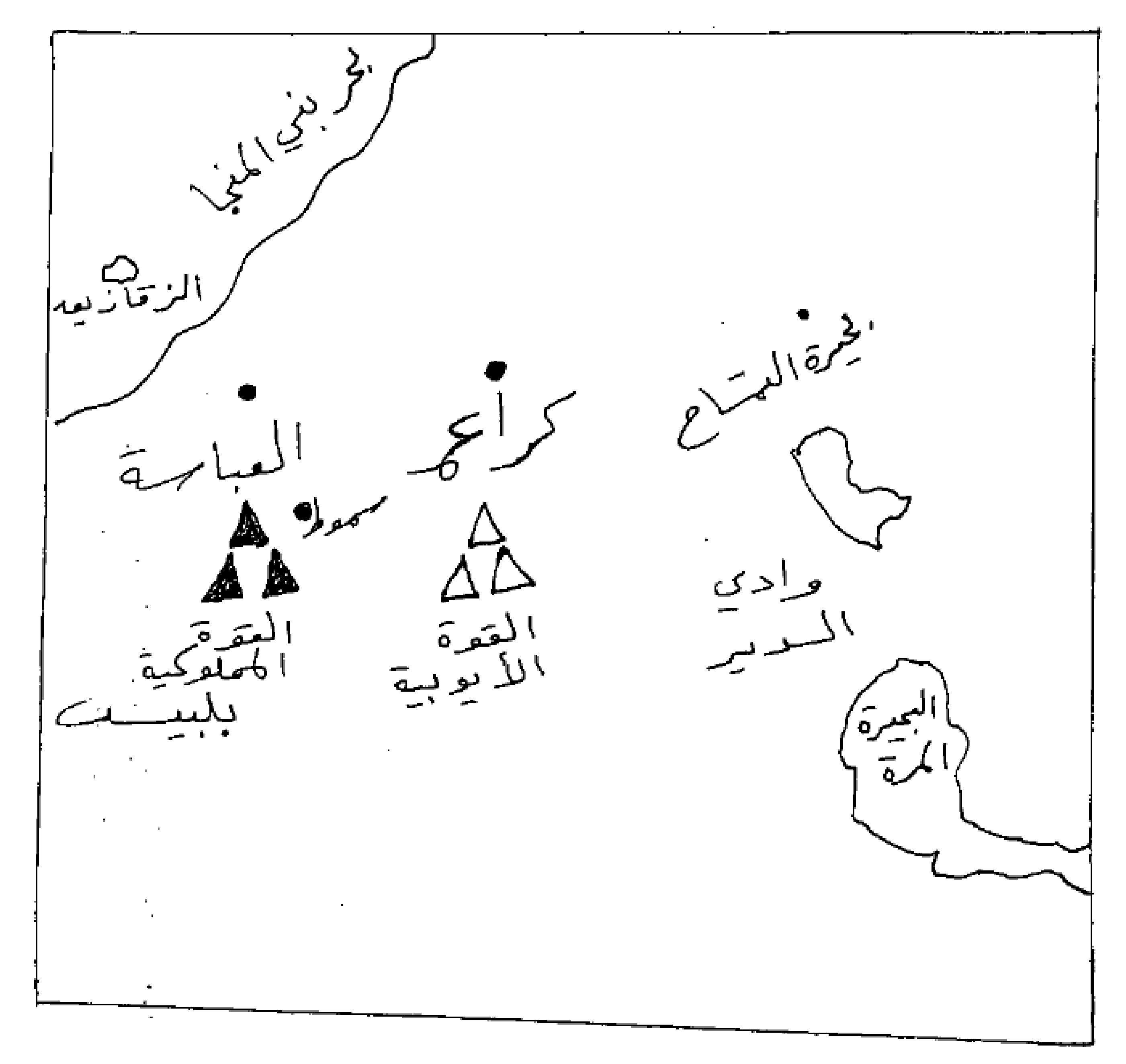
---

(١) العريني : ١٥٧ .

المصور رقم (٧) .

خط سير لويس التاسع في الأراضي المقدسة

(١) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٢٩٧ .

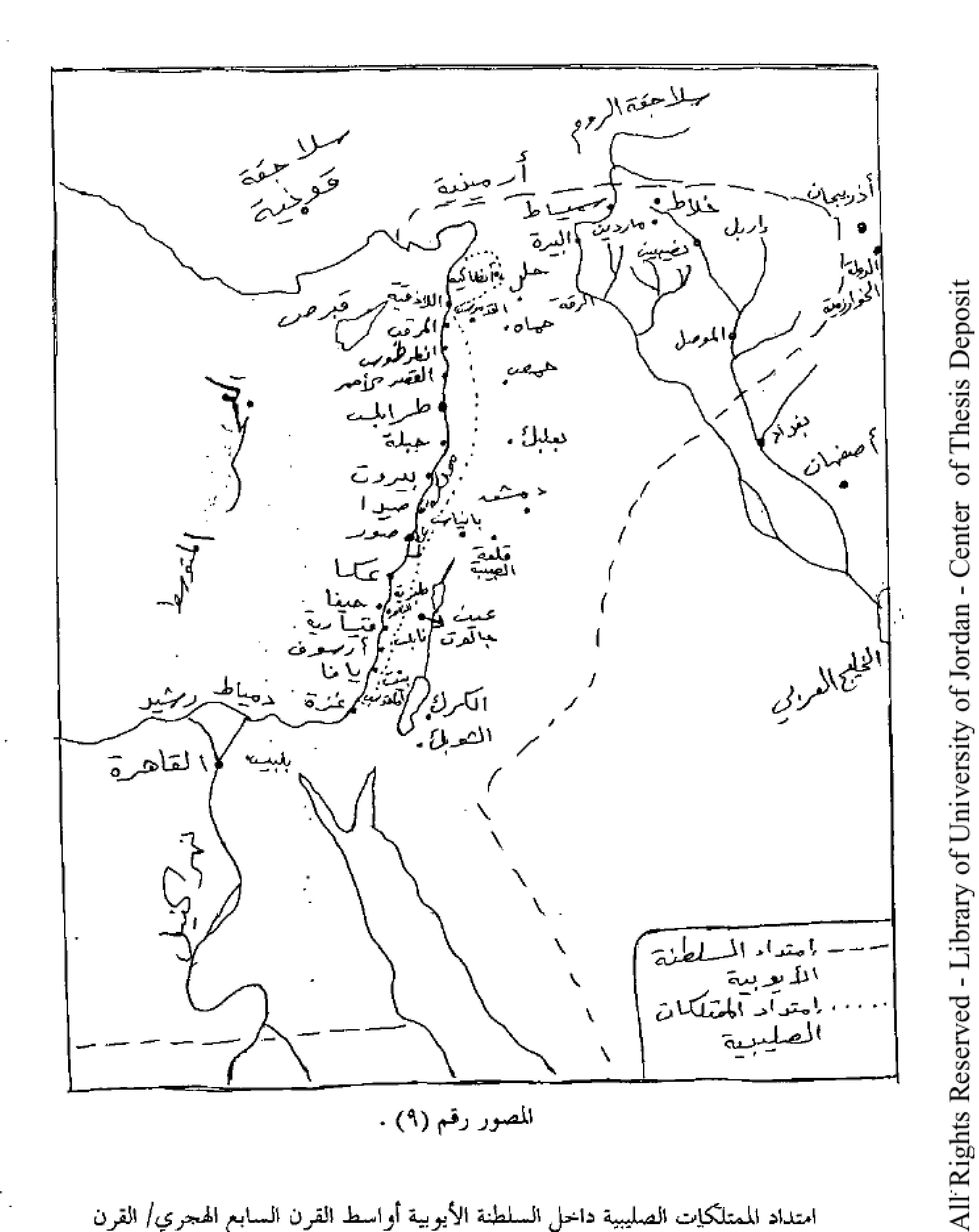


المصور رقم (٨) .

رسم تخطيطي لمعركة العباسة

---

(١) يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٧١ .

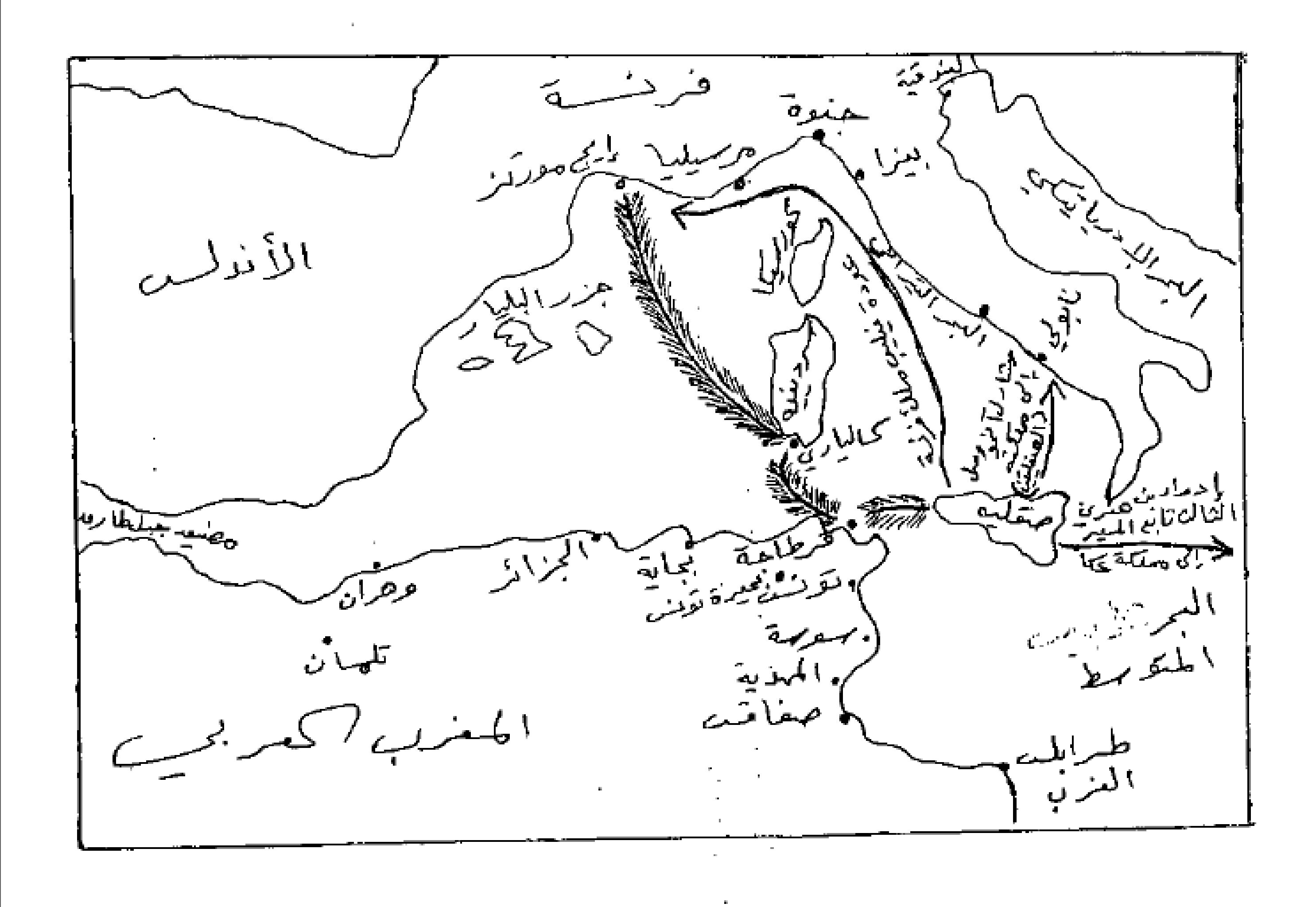


المصور رقم (٩) .

امتداد الممتلكات الصليبية داخل السلطنة الأيوبية أواسط القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي

---

(١) يوسف : لويس التاسع في الشرق ، ص٣٥٩ .



المصور رقم (١٠) .

خط سير الحملة الصليبيـــة الثامنة

---

(١) الكناني : ص٣٠٩ .



الشكل رقم (١) .

لويس التاسع ممتطياً صهوة جواده

---

(1) Aziz : op . cit , volume 3 , p21300 .



الشكل رقم (٢) .
المسلمون والصليبيـــون وجهاً لوجه على شاطئ دمياط

(١) زيادة : ص١١٣ .

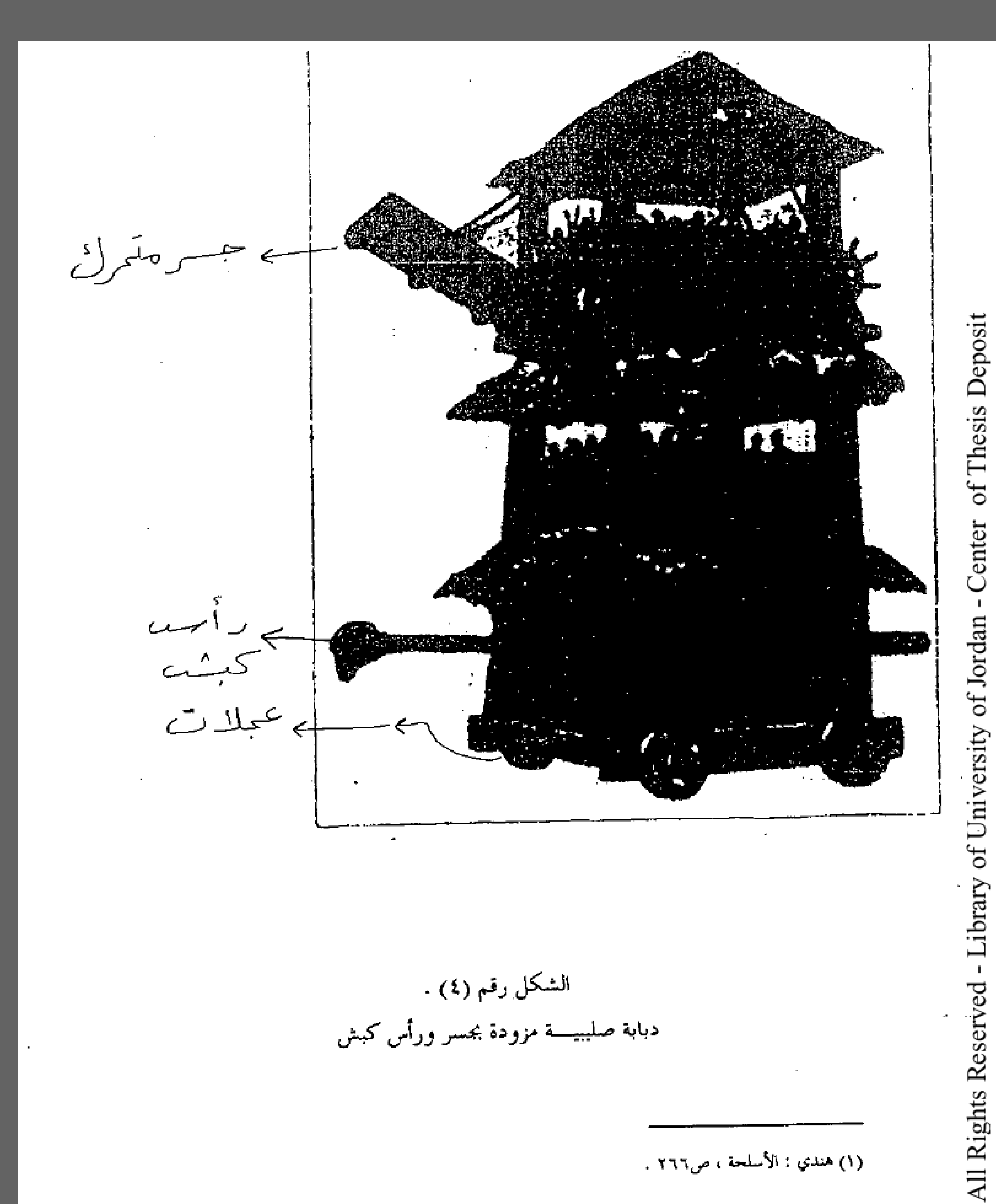


الشكل رقم (٣) .

لويس التاسع مقيداً بالأغلال وإلى جانبه أحد إخوته

---

(١) زيادة : ص٢٤١ .



الشكل رقم (٤) .
دبابة صليبيـــة مزودة بجسر ورأس كبش

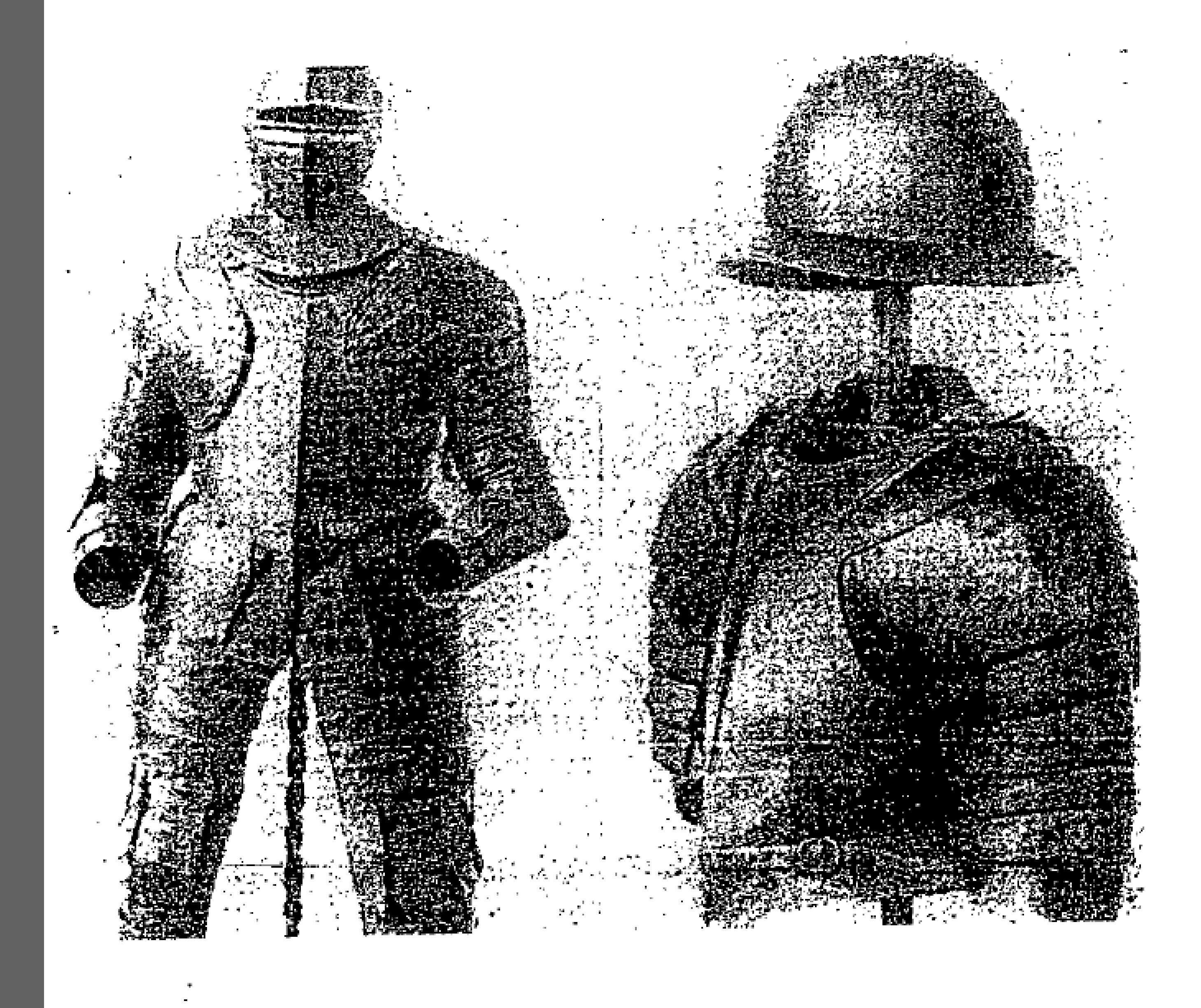
(١) هندي : الأسلحة ، ص٢٦٦ .



الشكل رقم (٥) .

دبابة إسلامية برأس كبش وجسر متحرك

(١) هندي: الأسلحة، ص٢٣٠.



الشكل رقم (٦) .

الدروع الصليبيـــة

---

(١) هندي : الأسلحة ، ص٦٦ .



الشكل رقم (٧) .

لويس التاسع تحت شجرة سنديان في إحدى الغابات يقضي بين المتخاصمين من رعيته

---

(1) Miquel : op . cit , p50 .



الشكل رقم (٨)
لويس التاسع مريضاً على روابي تونس

(1) Aziz: op. cit, volume 3, p 2363 .

قائمة المصادر الخطية

١- **الفيومي ،عبد البـــر** : نثر الجمان ، رقم المخطوط ٦١٩ ، مكتبة الأسد ، دمشق .

٢- **السكتواري ،علي دده** : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، رقم المخطوط ١٤٥٣٨ ، مكتبة الأسد ، دمشق .

٣- **مجهول** : منظومة نونيه في شرح علم الفروسية ، رقم المخطوط ٣٤٦٥٩ ، مكتبة الأسد ، دمشق .

قائمة المصادر المطبوعة

١- القرآن الكريم .

٢- ابن الأثير ،**علي** : الكامل في التاريخ ، تح : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج١٠ .

٣- **الأرمني** ، **سمباط** : التاريخ المعزو لسمباط الأرمني ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج٣٥ .

٤- **ابن أرنبغا الزردكاش** : الأنيق في المناجيق ، تح : إحسان هندي ، منشورات جامعة حلب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٥- **ابن إياس** ، **محمد** : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تح: محمد زيادة ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ق١ج١ .

٦- **باريس** ، **متى** :التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ،دار الفكر، دمشق ،١٤٢٢ه/٢٠٠١م،ج٤٦،ج٤٧، ج٤٨، ج٤٩، ج٥٠ .

٧- **البشاري** : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧م .

٨- **ابن بطوطة** ، **محمد** : رحلة ابن بطوطة ، دار الرسالة ، ط١، دمشق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٩- **البغدادي** ، **كمال الدين** : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تح: علي البجاوي، دار المعرفة ، ط١، بيروت، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ج١ ،ج٣ .

١٠- **تشارتز** ، **فولتشراوف** : تاريخ الحملة إلى القدس ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٦ .

١١- **ابن تغري بردي**، **يوسف** : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تح : أحمد نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، ج١ .

١٢- ــــــــــــــــــ الدليل الشافي والمنهل الصافي ، تح : فهيم شلتون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .

١٣- ــــــــــــ مورد اللطافة فيمن ولي السلطة والخلافة ،د.م ، د.ت .

١٤- ــــــــــــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١،بيروت ، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م ، ج٦ - ج٧ .

١٥- **ابن جبير ، محمد** :رحلة ابن جبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م ، ج١٤ .

١٦- **ابن الجزري ،محمد** : المختار من تاريخ ابن الجزري ، تح : خضير المنشداوي ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

١٧- **جوانفيل** ، **جين** : حياة لويس ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ،١٤٢٩هـ/١٩٩٩م ،ج٣٥ .

١٨- **سبط ابن الجوزي** ، **يوسف** :مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، دائرة المعارف العثمانية ، ط١،حيدر أباد الدكن – الهند ،١٣٧١هـ/١٩٥٢م،ق٢ج٨ .

١٩- **أبو شامة** ، **عبد الرحمن** : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ج٢٠.

٢٠- **جوش ، نصر** : مناقب المولى سنان راشد الدين شيخ الجبل الثالث ، تح : مصطفى غالب ، دار اليقظة ، بيروت ، د.ت .

٢١- **الجويني** ، **عطا ملك** : تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) ، تر :محمد التونجي ، ط١، دار الملاح، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، مج١- مج٢ .

٢٢- **حاجي خليفة** ، **مصطفى** : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، الدار الفيصلية ، مكة المكرمة ، د.ت ،ج١ .

٢٣- **الحريري** ، **أحمد** : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين عن ديار المسلمين ، تح : سهيل زكار ، دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م .

٢٤- ــــــــــــ منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان ، تح : عبده خليفه ، دار عشتار ، ط١،د.م ، د.ت .

٢٥- **الحموي** ، **ياقوت**: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، دار عالم الكتب ، ط١،بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٢٦- ـــــــــــــ معجم البلدان تح : فريد الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ت، ج١ ، ج٤ .

٢٧- **الحميري** ، **محمد** : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح : إحسان عباس ، دار السراج ، ط١، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢٨- **الحنبلي** ، **أحمد** : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات مكتبة القدسي ، القاهرة، ١٣٥١هـ/١٩٢٣م ، ج٥ ، ج٧ .

٢٩- ـــــــــــــشفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح : ناظم رشيد ، دار الحرية بغداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م .

٣٠- **الحنبلي** ،**مجير الدين** : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجليل ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٣م ، ج٢ .

٣١- **ابن حوقل** : صورة الأرض ، دار الحياة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .

٣٢- **ابن خلدون** ، **عبد الرحمن** : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصـــرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مراجعة : سهيل زكار، ضبط الحواشي:خليل شحادة ، دار الفكر ، ١٤٠٦ه/١٩٨٦م ،ج٥ - ج٦ .

٣٣- **الخياط** ،**علم الدين سنجر** : المختصر الكامل في التاريخ وتكملته ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا وبيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

٣٤- **الدبس** ، **يوسف** : تاريخ سورية الديني والدنيوي ، تح: مارون رعد ، دار نظير عبود ، د.م، د.ت ، ج٦ .

٣٥- **ابن دقماق** ، **إبراهيم** : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، تح : سمير طبارة ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا وبيروت ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ .

٣٦- ـــــــــــــالنفحة المسكية في الدولة التركية ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا وبيروت ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٣٧- ـــــــــــــالجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تح : سعيد عاشور ، دار اقرأ ، السعودية ، د.ت .

٣٨- **ابن أبي الدم** ، **إبراهيم** : التاريخ المظفري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج٢١ .

٣٩- **الدواداري** ،**عبد الله** : كنــز الدرر و جامع الغرر(الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) ، تح: سعيد عاشور، القاهرة ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م ، ج٧ .

٤٠- **دوبوا** ، **بيير** : استرداد الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ج٣٦ .

٤١- **دي نوفارا** ،**فيليب**:حروب فردريك الثاني ضد الإبيلينيين في سورية وقبرص ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار،دمشق ،١٤١٩هـ/١٩٩٨م،ج٣٤ .

٤٢- **دي كانسي** ،**جوزيف وابن هنري الثالث آنجو** ،**ادوار** : رسائل صليبيـــة من الأرض المقدسة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م ، ج٣٥ .

٤٣- **الدياربكري** ، **حسين** : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، دار شعبان ، بيروت، د.ت، ج٢.

٤٤- **الدويهي** ،**اسطفانوس** :تاريخ الأزمنة ١٠٩٥_١٦٩٩م؛تح: فردينان اليسوعي،المطبعة الكاثوليكية ،بيروت ،١٣٧١هـ/١٩٥١م ،ج٢ .

٤٥- ــــــــــــــتاريخ الطائفة المارونية ، تح :رشيد الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية، ١٢٦١هـ/١٨٩٠م .

٤٦- **ابن أبي دينار** ، **محمد** : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، الدار التونسية ،ط١، ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، ص١٢٨ .

٤٧- **الذهبي** ، **محمد** : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١، بيروت،١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، مج ٢٠ .

٤٨- ــــــــــــــالعبر في خبر من غبر ، تح : محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٣ ،د.ت .

٤٩- ــــــــــــــالأمصار ذوات الآثار ، تح: قاسم سعد ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٥٠- **الرشيدي ، محمد** : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، تح : عارف عبد الغني ، دار كنان، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

٥١- **الزبيدي ، مرتضى** : ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب ، تح : صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٣١٩ هـ/١٩٧١م .

٥٢- **ابن أبي الزرع ،علي** : الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، د.م ، د.ت.

٥٣- **الزركشي ، محمد** : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، الدار التونسية ،ط١، ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م .

٥٤- **سانوتو ،مارينو** : كتاب الأسرار ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ج٣٦ .

٥٥- **ابن سباط ،حمزة**:صدق الأخبار ،تح:عمر تدمري ، ط١، دار جروس بروس،طرابلس ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م،ج١.

٥٦- **السخاوي ، محمد** : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار الحياة ، بيروت ، د. ت ، ج١٠ .

٥٧- **السراج ، محمد** : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تح : محمد الحيلة ، الدار التونسية، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، مج١- مج٢ .

٥٨- **سرهنك ،إسماعيل** : حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الأميرية ، ط١، بولاق ، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م ، ج١ - ج٢ .

٥٩- **السوري ، ميخائيل** : روايات ميخائيل السوري الكبير ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج٥ .

٦٠- **السيوطي ،جلال الدين** : تاريخ الخلفاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦١- ــــــــــــــحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، دار إحياء الكتب العربية، ط١ ،د.م ، ١٣٧٨هـ/١٩٦٨م ، ج٢ .

٦٢- ــــــــــــــ بغية الوعاة : تح : علي عمر ، دار الخانجي ، ط١، القاهرة،

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ، ج١ .

٦٣- ابن شاكر ،**محمد** : فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت،ج٢.

٦٤- أبو شامة ،**عبد الرحمن** : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دار الفكر ، دمشق ، ج٢٠ .

٦٥- **ابن الشحنة** ، **محمد** : الدر المنتخب في مملكة حلب ، دار عالم التراث ، دمشق ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٦٦- **ابن شداد** ،**عز الدين محمد** : تاريخ الملك الظاهر ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٦٧- ــــــــــــــــ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تح : سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٣٨١هـ/١٩٦٣م .

٦٨- **الشدياق** ، **طنوس** : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، تح : مارون رعد ، دار نظير عبود ، لبنان ،١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ج١ – ج٢ .

٦٩- **ابن الشماع** ، **محمد** : الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح : الظاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس الغرب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .

٧٠- **الصدفي**، **رزق الله** : تاريخ دول الإسلام ، الدار العالمية ،مصر، ١٣٢٤هـ/١٩٠٧م ، ج٢ .

٧١- **الصفدي** ، **خليل**: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تح : إحسان خلوصي وزهير حميدان ، دار البشائر ، ط١، دمشق، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م .

٧٢- ــــــــــــــــ الوافي بالوفيات ، تح : محمد محمود وإبراهيم سليمان ، دار فرانز شتاينر ، ط٢ ، فيسبادن ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ج٥ ،ج٩ ، ج١٧ ، ج١٨ .

٧٣- ــــــــــــــــ نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك ، تح : عمر تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا وبيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٧٤- ــــــــــــــــ أعيان العصر و أعوان النصر ، تح : عدد من المؤرخين ، دار الفكر ،

ط۱،دمشق ، ۱٤۱۸هـ/ ۱۹۹۸م ، ج۱ - ج۲ .

٧٥- **ابن أبي الضياف ، أحمد** : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تح : وزارة الشؤون الثقافية بتونس ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٧٦- **الطرسوسي ،مرضي**: موسوعة الأسلحة ،دار صادر ، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٧٧- **ابن طولون ،محمد** : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تح : عبد العظيم خطاب، مطبعة عين شمس، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

٧٨- **العاملي ، زينب** : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، المطبعة الأميرية ، ط١، بولاق ، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م .

٧٩- **ابن العبري ، غريغوروس** : تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، ط١،القاهرة ، ١٤٢١ه/٢٠٠١م .

٨٠- ____________ تاريخ الزمان ، تر : إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٤٠٦ه/١٩٨٦م .

٨١- **ابن عبد الظاهر ، محيي الدين** : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تح : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م .

٨٢- **العسقلاني ، أحمد** : إنباء الغمر بأنباء العمر ، دار الكتب ، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ج٨ .

٨٣- ____________الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تح : محمد جاد الحق ، ط٢ ، دار الكتب ، عابدين ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م ، ج٢ .

٨٤- ____________ ذيل الدرر الكامنة ، تح : عدنان درويش ، القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٨٥- **ابن العميد ، جرجس** : ، دار الثقافة الدينية ، بور سعيد ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٨٦- **العيني ، بدر الدين** : الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م ، ج٦٠ .

٨٧- **الغزي ،كامل** : نهر الذهب في تاريخ حلب ، تح: شوقي شعث و محمود فاخوري ، دار

القلم ، حلب ، ١٤١٣/١٩٩٣م ، ج٣ .

٨٨- **فابري ، فيلكس** : جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته ، الموسوعة الشامية، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٣م ، ج٣٨ .

٨٩- **أبو الفداء ،إسماعيل**: المختصر في أخبار البشر ،تح: محمود ديوب ،دار الكتب العلمية ، ط١،بيروت،١٤١٧هـ/١٩٩٧م،ج٢.

٩٠- ـــــــــــــــ تقويم البلدان ، تصحيح : رينود وماك ديسلان ،دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م .

٩١- **ابن الفرات** : تاريخ ابن الفرات ، تح: قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م ، ج٧ .

٩٢- **ابن فضل الله العمري ،أحمد** : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : أحمد الشاذلي ، داز المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٣ ،ج٤، ج٢٧ .

٩٣- **ابن الفوطي ،عبد الرزاق** : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، دار الفكر، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٩٤- **فيلهاردين ، جوفري** : الاستيلاء على القسطنطينية ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٠ .

٩٥- **القدسي،مجد الدين** : دول الإسلام الشريفة البهية ، تح: صبحي لبيب وأولريش هارمان ، دار الريحاني ، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٩٦- **القرماني ،أحمد** : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تح : أحمد حطيط وفهمي سعيد ، دار عالم الكتب ، ط١، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، مج٢ .

٩٧- **القزويني ، زكريا** : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٩٨- **القلقشندي ، أحمد** : صبح الأعشى ، تح : محمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ج٤ ، ج٥.

٩٩- ـــــــــــــــ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ،تح : عبد الستار فراج، الكويت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ج٢.

١٠٠- **القيسراني ،إبراهيم** : النور اللائح والدر الصادح ، تح : عمر تدمري ، دار الإرشاد ،

ط١، طرابلس ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

١٠١- **ابن كثير ، إسماعيل** : البداية والنهاية ، تح : عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، ط٢ ، الرياض،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج١٧ .

١٠٢- **كومنين ، آنا كومينا** : الالكسياد ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٦ .

١٠٣- **ماب ،وولتر** : ما جاء عند وولتر ماب عن الحروب الصليبية ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار، دمشق ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج٣٥ .

١٠٤- **مقديش ، محمود** : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح : علي زواوي ومحمود محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، مج١ .

١٠٥- **المقريزي ،أحمد** :السلوك ، تح : محمد زيادة ،طباعة لجنة التأليف والنشر القاهرة ،ط٢، ١٣٨١هـ/١٩٦١م ،ج١ .

١٠٦- ــــــــــــــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ج١ .

١٠٧- ــــــــــــــالمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أحمد سيد ، دار الفرقان ، لندن ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، مج١ ،مج٣ ، مج٤.

١٠٨- ــــــــــــــ النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود ، تح : محمد بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية،ط٥، النجف ، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م .

١٠٩- ــــــــــــــ درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تح: عدنان درويش و محمد المصري ، دمشق ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م ، ج٢

١١٠- **المكي ،عبد الملك** : سمط النجوم العوالي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، د.ت .

١١١- **الملطي ،عبد الباسط** : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، تح : محمد كمال الدين علي ، دار الثقافة الدينية ، ط١، القاهرة، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م .

١١٢- **المنصوري ، بيبرس** : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تح : دونالد ريتشاردز ، بيروت ،

ط١، دار الشركة المتحدة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١١٣- ــــــــــــ مختار الأخبار المعروف بتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تح : عبد الحميد حميدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

١١٤- ــــــــــــ التحفة الملوكية في الدولة التركية ، تح : عبد الحميد حميدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١،القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

١١٥- **مجهول** : يوميات صاحب أعمال الفرنجة ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٦ .

١١٦- **مجهول** : مجموع هافنسيس : الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٠ .

١١٧- **مجهول** : ذيل روثلين ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٥٨ .

١١٨- **مجهول** : تاريخ هرقل ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دمشق ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٥٨ .

١١٩- **مجهول** : ذيل تاريخ وليم الصوري ، الموسوعة الشامية ، تح وتر: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٨ .

١٢٠- **مونرود ،مكسيموس**: الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب (تاريخ الحروب الصليبية)،تح:مكسيموس مظلوم ، طباعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، أورشليم ،١٢٨٢ه/١٨٦٥م .

١٢١- **الناصري ، أحمد** : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تح : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .

١٢٢- **النسوي ،محمد** : سيرة جلال الدين منكبرتي ، تح: حافظ حمدي، دار الفكر، مصر ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م .

١٢٣- **النويري ، أحمد** :نهاية الأرب في فنون الأدب ،تح:محمد الريس ،دار الهيئة المصرية للكتاب ،١٤١٢ه/١٩٩٢م،ج٢٩،ج٣٠.

١٢٤- **الهمذاني ، رشيد الدين** : جامع التواريخ ، تر : محمد نشأت ومحمد هنداوي وفؤاد

الصياد ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، د.ت ، مج٢ ج١ .

١٢٥- **ابن واصل ،محمد:** مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت ، ج٦.

١٢٦- **ابن الوردي ،عمر)** : تتمة المختصر (تاريخ ابن الوردي) ، تح: أحمد البدراوي، دار المعرفة الجامعية، ط١، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠ م ، ج٢ .

١٢٧- **اليافعي ،عبدالله** :مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،تح:خليل المنصور ،دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ،١٤١٧ه/١٩٩٧م،ج٤ .

١٢٨- **اليماني ، يحيى** : غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تح : محمد العمر ، دار الخير ، دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

١٢٩- **اليونيني ،موسى** : ذيل مرآة الزمان ، دار الكتاب الإسلامي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م ، مج١ .

قائمة المراجع العربية والمعربة

١ – **أبو بكر ، نضال** : أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية وعلاقتها مع الصليبيين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، دمشق ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٢ – **أبو دياك ، صالح** : النظام المالي عند الخفصيين ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١-٢٢، دمشق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص٩٧-١٠٠ .

٣ – **إديوري ، بيترو**: قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى ، ليماسول ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٤ – **الافرنسي ،لومند** : تاريخ الكنيسة ، تر : يوسف البستاني ، مطبعة أبناء اليسوعيين ، بيروت ١٢٩١ هـ/١٨٧٤م .

٥ – **اميليانيدس ،أشيل** : تاريخ قبرص ، تر : يعقوب الطليحي ويني كيس ، مطبعة التجارة ، الإسكندرية ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م .

٦ – **باركر ،ارنست** :الحروب الصليبية ، تر : السيد الباز العريني ،دار النهضة العربية ، ط٢ ، بيروت ،د.ت .

٧ – **بدور ،كمال** : مملكة حلب الأيوبية ٥٨٩-٦٥٨هـ/١١٩٣-١٢٦٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٨ – **براور ،يوشع** : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، تر : عبد الحافظ البنا ، دار عين ، ط١، مصر ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

٩ – ــــــــــــ عالم الصليبيين ، تر:قاسم قاسم ومحمد حسن ،دار عين ، ط١، مصر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

١٠– **بردج ،انتوني**:تاريخ الحروب الصليبية ، تر : أحمد سبانو ونبيل الجيرودي ،دار قتيبة ، دمشق ،١٤٠٦ه/١٩٨٥م .

١١- **برنشفيك** ، **روبار** : تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، تر : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ج١ .

١٢ - **البستاني** ، **بطرس** : دائرة المعارف ، دار المعرفة ، بيروت د.م ، د . ت ، مج١ .

١٣ - **بيشوب** ،**موريس** : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، تر : علي علي ، طباعة المجلس الأعلى للثقافة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

١٤ - **توفيق** ،**عمر** : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، دار شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

١٥ - **جوني** ، **وفاء** : دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين ، أطروحة دكتوراه ، جامعة دمشق ، ١٤١٢هـ/١٩٩٠م.

١٦ - **حاطوم** ، **نور الدين** : تاريخ العصر الوسيط في أوربة ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م ، ج٢ ، ص٧٨-٨٠ ؛

١٧ - **حبشي** ،**حسن** : الشرق العربي بين شقي رحى ، دار الفكر ، د.م ، د.ت .

١٨ - **حتي** ،**فيليب** :تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، تر : كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ج٢ .

١٩ - **حسين عبد الوهاب**،**حسن**: خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

٢٠- ______________ تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٢١ - ______________ تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

٢٢ - **حسين** ،**ممدوح** : الحروب الصليبية في شمال أفريقيا ٦٦٨-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٢٩٠م ، دار عمار ، ط١، عَمان ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، (كتاب إلكتروني) .

٢٣ - **الحايك** ،**منذر** : العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، دار الأوائل ، ط١، دمشق ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م ، ج١.

٢٤- **حلاق ، حسان**: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الدار الجامعية ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م .

٢٥ - **حومد** ، **أسعد** : تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليـبيين ،ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ج٢ .

٢٦ - **الخوري** ،**سليم** : تاريخ فرنسا ، مطبعة العرفان، صيدا ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م .

٢٧ - **داوود، مها** : دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـ/١٢م حتى أواخر القرن ٨هـ/١٤م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .

٢٨ - **ديورانت ،ول** : قصة الحضارة ،تر:محمد بدران ،بيروت وتونس ،ج١٥ .

٢٩ - **سميل ،ر . سي**: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ، تر: محمد الجلاد، دار طلاس، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٣٠ - **رستم** ، **أسد** : الروم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف ، ط١، بيروت، ١٣٧٦/١٩٥٦م ، ج٢ .

٣١ - **رفعت ،محمد وحسونة ،محمد** :معالم تاريخ العصور الوسطى ، مطبعة المساهمة المصرية ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨ م.

٣٢ - **رنسيمان** ، **ستيفن**:تاريخ الحروب الصليـبية ، تر : السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، ط٢ ، بيروت ،١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، ج٣ .

٣٣ - **ريلي سميث،جوناثان**:الاسبتارية فرسان القديس يُوحَنا في بيت المقدس وقبرص١٠٥٠-١٣١٠م، تر : صبحي الجابي ، دار طلاس ، ط١، دمشق ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

٣٤ - **زابوروف ،ميخائيل** : الصليبيون في الشرق ، تر : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

٣٥ - **زكار** ، **سهيل** :مدخل إلى تاريخ الحروب الصليـبية ، الموسوعة الشامية ، دار الفكر ، دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج٣ .

٣٦ - ___________ تاريخ المورة ، الموسوعة الشامية ، دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، ج١٠ .

٣٧ - ___________ المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف ، دار الكتاب العربي ، ط١، دمشق ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ،ج١ .

٣٨ – زكار ،سهيل وجويني ، وفاء ، وإسماعيل ،اكتمال ، : حروب الفرنجة (الصليـــبية) ، منشورات جامعة دمشق ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

٣٩– زيادة ، محمد : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة المنصورة، مطبوعات المجلس الأعلى للرعاية والآداب، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

٤٠ – زيتون ،عادل : أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البُندُقِية ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ،ص١٣٥–١٤٥ .

٤١ – ____________ تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، مطبعة الروضة ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٤٢ – الزين ،سميح : تاريخ طرابلس ، ط١، دار الأندلس، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٤٣ – سالم ،عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٤٤– سبيريذاكيس ،د : موجز تاريخ قبرص ، دار انترسبيس ، قبرص ، د.ت .

٤٥ – سوريال عطية ،عزيز : الحروب الصليـــبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، تر : فيليب سيف ، دار الثقافة ، ط٢ ، القاهرة، د.ت .

٤٦– الصغير ، أجفان : القلاع في فترة الحروب الصليـــبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

٤٧–طقوش ،محمد سهيل:تاريخ الأيوبيين ،دار النفائس ، ط١، بيروت،١٤٢٠ه/١٩٩٩م.

٤٨– ____________ تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص٣٩ .

٤٩ – طلاس ،مصطفى والجلاد ،محمد : قلعة الحصن، دار طلاس ، ط١، دمشق ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ج١ .

٥٠ – عاشور ، سعيد :الحركة الصليـــبية ،مكتبة الأنجلو المصرية ،١٣٨٣ه/١٩٦٣م،ج٢ .

٥١–____________ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة ، بيروت ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

٥٢–____________ قبرص والحروب الصليـــبية ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م ،

٥٣ – **عامر ، سامية** : الصليبيون في شمال أفريقيا (حملة لويس التاسع على تونس) دار عين ، مصر ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

٥٤ – **العبادي ، أحمد** : قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٥٥ – **عدد من المؤلفين** : الموسوعة العربية العالمية ، تر : عشرات المختصين ، مؤسسة أعمال المؤسسة ، الرياض ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ج٢٣ .

٥٦– **العريني ، السيد الباز** : المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

٥٧ – **عطية ،حسين** : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ٥٦٧-٦٦٦هـ/١١٧١-١٢٦٨م ، دار المعرفة الجامعية ، ط١، الأزاريطة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

٥٨ – **الغامدي ،عبد العزيز** : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، دار إقرأ ، مكة المكرمة ، د.ت .

٥٩ – **غروسية ،رينه** : الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، تر : أحمد ايبش ، دار قتيبة ، ط١، دمشق وبيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

٦٠ – **غنيم ،اسمت** : الحملة الصليبية الرابعة ، دار المجمع العلمي ، جدة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٦١ – **الفاسي ،الحسن** : وصف أفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية ، محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

٦٢ – **فشر ، هـ . أ . ل** : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، تر : السيد الباز العريني ومحمد زيادة وإبراهيم العدوي ، دار المعارف ، ط٣ ، مصر ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

٦٣ – **فينر ،فولفغانغ** : القلاع أيام الحروب الصليبية ، تر : محمد الجلاد ، دار الفكر ، ط٢ ، دمشق ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٦٤ – **قاسم ، قاسم** : ماهية الحروب الصليبية ، مجلة عالم المعرفة ، العدد١٤٩ ، مطابع الصفاه ، الكويت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ١٥٨.

٦٥ – **كاهن ، كلود** : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، تر : أحمد الشيخ ، دار سينا ، ط١، القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

٦٦ – **قجة ، محمد** : معركة المنصورة ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .

٦٧- **كحالة ، عمر** :معجم المؤلفين ، دار الترقي ، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ،ج٧ .

٦٨ - **كريستوفر،مارشال** :فن الحرب في الشرق اللاتيني ،الموسوعة الشامية ، تح وتر:سهيل زكار، ١٤٢٦ه/٢٠٠٥م،ج٨٣ .

٦٩ - **الكناني ، مصطفى** : حملة لويس التاسع الصليبيـــية على تونس ، دار المعارف ، الإسكندرية ، د.ت .

٧٠- **كوكتون** ، ج: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تر : جوزيف يوسف ، دار المعارف، ط١، الإسكندرية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ،

٧١ - **لويس ،برنارد** : الحشاشون ، تعريب : محمد موسى ، مكتبة مدبولي، ط٢ ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م .

٧٢ - **مؤنس ، حسين** : تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين) دار العصر الحديث ، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ج٢ .

٧٣ - **المدور ،مروان** : الأرمن عبر التاريخ ، منشورات مكتبة الحياة ، ط١، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .

٧٤ - **مصلح ، حفظ الله** :العلاقات بين المغول والصليـــبيين وأثرها على الأمة العربية الإسلامية ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة دمشق ،١٤٢٧ه/٢٠٠٦م .

٧٥ - **المطوي ، محمد** : السلطنة الحفصية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٧٦- ___________ الحروب الصليـــبية في المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

٧٧-**المهندس ،محمود** : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، المطبعة الأميرية ، ط١، بولاق ، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، ج٣ - ج٤ .

٧٨ - **نجم ، زين الدين** : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية،ط١،د.م ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .

٧٩ - **النقاش ،زكي** : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليـــبية ، دار الكتاب اللبناني، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

٨٠ - **هلال ،عادل** : العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي ، دار عين ، ط١، مصر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٨١ – **هندي ، إحسان** : الحياة العسكرية عند العرب ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ، د.ت .

٨٢– ______ الأسلحة وآلات القتال عند العرب المسلمين في القرون الوسطى ، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

٨٣– **اليوسف ، عبد القادر** : علاقات بين الشرق والغرب ، المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٨٤ – **يوسف ،جوزيف** : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، دار المطبوعات الحديثة ، ط٢،د.م، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

٨٥ – ______ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دار شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٨٦ – ______ العدوان الصليـــبي على بلاد الشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٢١هـ/١٩٨١م .

٨٧ – ______ تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .

٨٨– ______ العدوان الصليبـــي على مصر، دار النهضة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

قائمة المراجع الإنكليزية

1 - **Archibald , Lewis**: nomands and crusaders , Indiana , Bloomington , 1991.

2 – **Davies , Norman** : Euroup a history , new york , 1977.

3 - **Encyclopaedic history of wourld civilization** : New delhi , 1992 , volume16 .

4 – **Fedden , Robin**: crusaders castles , London , 1955.

5 – **Gabrieli , Francesco** : Arab historians of the crusades , London , 1969 .

6 - **Holt , P.M** : the age of the crusade , London ,1986 .

7 – **Irwin , Robert** : the middle east in the middle ages (the early momluk sultanate 1250-1382) ,London , 1986 .

8- **Kedar, Benjamin**: the franc in the levant 11-14 centuries , Britain , 1993 .

9 - ________________ crusade and mission , united states of america , new jersey , 1984 .

10 - **Lawrence , T . E** : crusader castles , London , 1992 .

11- **Maier, Christoph**: preaching the crusades , cambridg , press.

12- **Mayer, Hanas**: the crusades ,new York , 1988 .

13 - **Mont , John** : feudal monarchy in Jerusalem , Amrica , 1932 .

14- **Murray , Alan** : Jerusalem from Clermont to the crusades , Brepols , 1998 .

15 – **Nicolle, David** : arms and armour of the crusading , New yourk , 1988 .

16 - **Setton , Kenth** : a history of croisades , London , volume2 .

17– **Stevenson , W . B** : the crusaders in the east , Beirut , 1958 .

18 - **S mil , R. C**: the crusaders , new yourk , 1972 .

19 - **The Cambridge history of islam** : New yourk and London , 1970 , volume 1 .
20 - **The encyclopaedia of islam :** London, 1997 , volume 9 .
21 - **The new encyclopedia Britannic**: Paris and London and Tokyo, volume 29 .
22 – **Tibble , Steven** : kingdom of Jerusalem , oxford , 1989 .
23 - **Thorau , Peter** : the lion of Egypt sultan baybars,Londn and New york ,1978.
24 – **Wrong , George** : Britain history , London .

قائمة المراجع الفرنسية

1 – **Aziz** , **Philippe** : histoire de la franc , Paris , 1981, volume 3 .
2 - **Brellier , Louis** : L, eglise et L orient au moyen age(les croisade),paris,1921 .
3 - **Brentano , Funck**: les croisades , france , 1934 .
4 - ______________ le moyen age la croisade d , Egypt , Paris .
5 - **Collier encyclopedia** : new York , 1985 , volume 10 .
6 - **Dagen , Nadeije** : les grandes batailles , Paris , 1997 .
7 - **Delort , Robert** : les croisades , seuil , 1988 .
8 – **Didier , Jean**: les homes et leur histoire , larousse ,volume 5.
9 – **Edde , Anne** : la principaute ayyoubide d,alep , Paris , 1955 .
10 - **Encyclopedia alphabetque** : Italie,volume15.
11 - **furon , Raymond**: la perse , Paris , p1938 .
12- **Gabrieli** , **Francesco** : chroniques du craisades , Paris , 1977.
13 - **Grousset** , **Rene** : histoire des croisades et du royaume franc du Jerusalem , Paris , 1936 , volume 3 .
14 – **Hakky, Ihsan**: L,enseignement sous les Ayyubides et les premiers Mamluk en Syrie et Egypt , these de doctorat , volume3.
15 - **Iorga** , **Nicolas** : France de chypre ,Paris ,1931 .
16 – **khader , Bichara** : l,Europe la Palestine des croisades , Genneve ,2004 .
17 - **Labrune , Gerard et Toutain , Philippe** : L,histoire de France , Nathan , 1986 .
18 - **Lamy** , **Etenne** : france du levant ,Paris , 1900 .
19 – **Maurice , Chehab** : Tyr des croisades , Paris , 1979.
20 - **Michaud** , **M** :biblioteque des croisades , Paris , 1829 ,volume4 .
21 –**Michelet , J** : l, histoire de france , paris , 1988.
22 – **Miquel , Pierre** : l , histoire de France , Geneve , 1995.

23 - **Pernoud , Regine** : la femme au temps des croisades , Paris , 1990 .
24 – **Rice , D.S** : le baptistere de sant Louise ,Parise,1951.
25 – **Sarkis , Hassan** : L,histoire de Tripoli de sa saregion des croisades , Paris , 1980 .
26 - **Smith , Jonathan**: les croisades , paris , 1990 .
27 – **Stambouli , Raymond** : les clefs de jeresalem (deux croisades des francaises en Egypt) , Paris , 1991 .
28 - **Tate , Jeorges** : L ,orient des croisades ,1991 .
29 – **Villeneuve , M** : sant Louis en orient , Paris , 1909 .

قائمة المواقع الالكترونية (إنترنت)

1 - http://www.nndb.com/peopel/231/00009292 .

2 - http : // www . newadvent . org / cathem /. 9368a . htm .



Filename: RadPdf
Directory: C:\Users\sss\Desktop
Template: C:\Users\sss\AppData\Roaming\Microsoft\Templates\Normal.dotm
Title: RAD PDF - PDF Viewer / Editor
Subject:
Author: sss
Keywords:
Comments:
Creation Date: ٢٠١٦/٠٧/٢٢ ٠٢:٣١:٠٠ م
Change Number: 1
Last Saved On:
Last Saved By:
Total Editing Time: 0 Minutes
Last Printed On: ٢٠١٦/٠٧/٢٢ ٠٢:٣٢:٠٠ م
As of Last Complete Printing
Number of Pages: 342
Number of Words: 181 (approx.)
Number of Characters: 1,032 (approx.)